الرجوم

رواية

فاهان كيراكوسيان

رواية: الرجوم

لوحة الغلاف: الدكتور الفنان فؤاد روهم

تصميم الغلاف: الدكتور الفنان فؤاد روهم

الكاتب: فاهان كيراكوسيان

Författare och utgivare: Vahan Guiragossian

Roman: Arroujoum

Tryck: Författares Bokmaskin, Stockholm 2019

ISBN 978-91-985687-4-5

– 1–

بعد أربعين سنة من الفراق المرّ بينهما، فجأة استقبلَ سيرو(Sero) رسالة نصية على هاتفه الخليوي بِ اسم كاترين.

– مساء الخير يا سيرو.

– مساء الخير كاترين. ردَّ سيرو

– هل عرفتَ مَن أنا؟

– أنتِ كاترين المحترمة، إلاّ إذا كنتِ غيرها. و إنْ لم تكوني كاترين، أرجو أن تكشفي هويتك كي أتعرّف إليك.

– أنا ندى.

هكذا نزلت الجملة كما الصاعقة. قفزَ من مكانه لا شعوريا. لم يستوعب في بادئ الأمر ما يحدث، أو بِ الأحرى، لم يصدّق ما يقرأ. بعد أربعين عاما من اللوعة و الفراق، تُقَرّر ندى ضَخّ الاوكسجين في الأوردة و الشرايين التي كادت تتكلّس. قرَّرَتْ أن تنفخ نسمة من روحها في فمه.

جَمدَ سيرو، وراح يحملق في هاتين الكلمتين و نبضات قلبه في تسارع، و الحرارة تجتاحه كَ مَن تأخذه الحمّى في نوبة عميقة، أحَسَّ بِ سائل ساخن يتدفق في عموده الفقري.انطلق خياله حول الأمكنة التي اختزنت مفردات عشقهما، بينما عيناه مسمّرتان على الجملة الكونية– أنا ندى–، و لكي يتأكد من أنها هي ندى، طلب منها دليلا من أيام زمان يثبت ادعاءها. ذكَّرَته بِمكان اللقاء الأول بينهما، و بِ اسم صديقتها التي كانت معها في ذلك اللقاء، و الحجة التي تذرّعت بها لِ التعرّف إليه.

كانت المعلومة التي ذكرتها صحيحة، و المعلومة تلك أخذته في رفّة عين إلى اللقاء الرومانسي بينهما في بيته، حيث جلسا جانب بعضهما كَ عاشقين مراهقين بريئين، يتذوّقان طعم الطفولة من بعضهما، و يشمّان عبق الأريج المنطلق من أنفاسهما. سألها ما إذا كان المغني ديميس روسوس يعني لها شيئا، والأغنية التي تركت أثرا في ذاكرتها. كَتَبَتْ تحدّثه عن نفس ذاك اللقاء، و كيف أنهما كانا جالسين جانب بعضهما وصوت ديميس روسوس يخيّم بِ عذوبته فوق أرواحهما الطرية، و ذكرت الأغنية التي بقيت عالقة في ذاكرته (Goodbye my love)، و بِالتأكيد أثّرَتْ في روحها هي الأخرى، كي تذكرها دون غيرها من مجموعة الأغاني التي سمعاها وقتذاك. كانا قد لمسا أيدي بعضهما في ذاك الجو الهادئ المشبع بِ الرقة و الرومانسية، و في قلب هذه الأغنية كانا قد تبادلا همسات أنفاسهما الدافئة. بين ذبذبات الأغنية راحت النجوم تتناثر فوق رأسيهما، و راحا يتبادلان العبير الكوني سويّا من الوردة العالقة بين شفاههما. كلاهما استطعما القبلة الأولى تحت أنظار الله، وحضور روحه المتمثلة في الموسيقا المرافقة لِ صوت ديميس الرائع.

إنه الواحد و العشرين من الشهر الحادي عشر من السنة الأربعين بعد الفراق، و هذا الرقم، كما يقول، رقمٌ مقدّس، رقمٌ نبيل، رقم ناتج من جداء رقمين معتدّين بِ نفسيهما(3×7)، فَ كلاهما لا يشاركان غيرهما في اللت و اللعي و المؤامرات. إنهما لا يقبلان أو لا يعترفان بِكيان أحدٍ أو أيّ رقمٍ سوى الواحد(1) و نفسيهما، فَالرقم(3) لا يشارك أحدا،لا يقسم أحدا،لا ينقسم على أحدٍ، ولا يولد من جداءات أحد سوى الواحد وذاته، والحال ينطبق على الرقم (7) ايضا. الواحد هو بداية كلّ شيء، وهو الإله الواحد، رأس البانثيونات الإلهية لدى معظم شعوب العالم، وبعد هذا الواحد المطلق، يأتي الثالوث المقدّس، أو بِالأحرى الثلاثيات المقدسة في مجمّعات آلهة الثقافات العريقة.(إيزيس،أوزيريس،هوريس)،(آنو– آنليل– آنكي)،

(الآب– الأبن– الروح القدس)، و اليهود النصارى، أيضا، كانت لديهم ثلاثية (الله– الرحمن– الرحيم)، إحياء اليعازر من الموت بعد ثلاثة أيام، قيامة السيد المسيح في اليوم الثالث، و عدد أحرف اسمها ثلاثة حروف(ندى). هذه الثلاثيات هي الأرقام المقدسة بعد الواحد المقدس، و يأتي بعدها الرقم المقدس المتمثّل في سباعيات الحياة. ألوان قوس قزح هي سبعة(ألوان الطيف)، أيام الأسبوع الإلهي سبعة أيام، السلم الموسيقي درجاته سبع، طبقات السماء السبع. من هذه الأرقام المقدسة نحصل على الرقم المقدس(21) الذي بِ حَدّ ذاته مؤلَّف من رقمين نبيلين(1 و 2) واللذين مجموعهما هو الرقم النبيل المقدّس(3). فَ التاريخ المقدّس يؤكّد جلال و قدسية الحُبّ الذي أزهرَ بينهما، إنه التاريخ الذي فيه أطلقت إلهة الحبّ أفروديت سهم العشق إلى قلبيهما. لقد تأكد سيرو من أنها هي، و راح يكتب لها من أعماقه المتعبة، من روحه التي اعتلاها الصدأ، من العذاب الكامن في كيانه.

– أنتِ ندى فعلا. و أنا ذاك العابث الأرعن. وَيْلي من خَجَلي و عاري أمامكِ يا أيتها الطاهرة الصادقة، كم أنا حزين عليكِ من سلوكي الطائش مع ورداتك. إنّ عذابي لم يهدأ يا ندى منذ أربعين سنة وإلى هذا اليوم، والآن زاد حزني وتضاعف عذابي، إنكِ بِاتصالكِ النبيل معي جعلتِني أقف في محرابك المقدّس لِطلب المغفرة من روحك الناعمة. إني أتعذّب يا ندى و أنا أستأهل هذا العذاب، لأني أجرمتُ في حَقِّ الحبّ، أنا كنت سبب عذابكِ و حزنك في ريعان شبابك.
ندى حبيبتي! كم أنا نادم على عَدَم نطقي لِ هذه الكلمة على مسمعك في زخم الحبّ العاصف بيننا، و من يومها لم تغادر كلمة حبيبتي أعماقَ قلبي و شفاهي. حبيبتي ندى! من بعد غيابك عن ناظري، ضَرَبَ زلزال عنيف كلَّ كياني. كنتُ كَ مَنْ ضَيَّعَ نفسه و يدور حول نفسه. كنتُ أطلب مغفرتكِ في الصحو و المنام. أمشي في نفس الشارع المؤدي إلى داركم، و كنت ألمسُ خَشَبَات شبّاك الغرفة

التي جلسنا فيها على الأريكة المُسنَدة إلى الحائط الذي فيه الشبّاك المطلّ على الشارع. تلك الغرفة التي أخَذَتْنا إلى قلب القوس الملوّنة، كما الفراشات المنبثقة من شرانقها الندية. كنتِ حبيبتي و لا زلتِ حبيبتي و ستبقين حبيبتي، لأني لم أعرف معنى الحبّ إلاّ بين أنفاسكِ العطرة، و لم أرَ العالم و البشر إلاّ من خلال عيونك الجميلة الناعسة.

– ماذا يفيد هذا الكلام؟، و الذي تقوله كان زمان، و أصبح من تاريخ حياتنا.

هكذا ردَّت ندى. أمّا سيرو راح يتأمل الكلام متجاوزا ركاكة التعبير؛ كان يخشى أن تكون ندى الآن غير ندى العشق و الحب و الغرام. أن تكون، ندى الجدّة، قد خسرت وردات شبابها، و أضاعت سرّ الحبّ في زحمة الولادات، و تربية الأولاد و إدارة شؤن المنزل و الحياة الزوجية، و ربما تكون قد تأثرت بِ طبائع زوجها و ثقافته. سيرو يكتب لها عن أجمل المواقف الرومانسية التي عاشاها سويا، أمّا هي فَ تردّ في مكان آخر تماما، و كأنها لم تكن هي التي ألهبت حواسه و لوّنت حياته! إنها لم تَغبْ عن عالمه و لم تخرج من حياته و روحه. ظلَّت كما الخيال تلعب في يومياته في كل الظروف و على كل الأصعدة، الشخصية و الوطنية؛ فَ في هذه الحرب المجنونة التي اندلعت في ربيع 2011 . و منذ البدايات كان يراقب التحركات و يقلّب محطات التلفزة، و يتأمّل الأخبار و الاحتجاجات على الساحة، و بِ خاصة التظاهرات التي كانت تخرج من المساجد أيام الجمعة بعد صلاة الظهر و خطبة الجمعة النارية. نقرأ في يومياته ما كتبه عن هذا المخاض في حينه، و كيف أنها(ندى) كانت حاضرة في خياله. يقول سيرو:

أول تظاهرة شهدتها في حياتي، كانت في شوارع حلب، و كان عمري وقتذاك ست سنوات. يجب أن يكون الرقم صحيحا لأنني كنت في الصف الأول الابتدائي. طبعا يمكنني أن "أجاكر" الذين يتظاهرون اليوم، و أقول لهم: بِ أنني كنتُ

مناضلا و متظاهرا مذ كنت طفلا ابن ست سنوات. أتذكر اسمين كان المتظاهرون يهتفون بهما، و أعتقد بِ أنني كنت أسمع اسم ناظم من فريق و اسم ناصر من الفريق الآخر، ولم يحصل أي عنف أو ضرب بين الأفرقاء، وأتذكر أيضا بِ أنني كنت قد رأيت صورتين لِ شخصين يرفعهما المتظاهرون و أيضا أتذكر بِ أنني قد رأيت أعلاما لا تشبه علم بلادي اليوم، وأعتقد، بل أجزم، بأنهم لم يخرجوا إلى تظاهرتهم من الجوامع بعد خطاب الجمعة التحريضي.لأنني أتذكر جيدا بأن ظلال الأبنية كانت تغطي عرض الرصيف بِالكامل.أي أن الوقت لم يكن منتصف النهار. في ذلك التاريخ لم أكن أعلم ما الحكاية، و لماذا يتظاهرون؟ و بعد عمليات حسابية بسيطة من الجمع و الطرح لِ الأرقام و التواريخ عرفتُ بأن التاريخ كان 1961 و طبعا اليوم نعرف بأن ذاك التاريخ هو زمن الانفصال بين سورية ومصر. أي انهيار دولة الوحدة، و اليوم لو كنتُ في تلك المظاهرة لَ أطلقت شعار: "أنا يريد الانفصال"... "أنا يريد سورية".

التظاهرة الثانية في حياتي شهدتها في شوارع القامشلي و لم أزل طفلا في الصف الثالث الابتدائي. هذه المرة لم أكن أتفرَّج على جموع من المتظاهرين يهتفون ويرفعون صورا و أعلاما و هم يسيرون بِ أمان و اطمئنان في الشوارع، إنَّما أتذكر المشهد بِشكل ضبابي. أناس يهربون وآخرون يركضون خلفهم و في أيديهم عصي وخيزرانات طويلة. إنها المرة الأولى في حياتي، التي فيها يجتاحني الخوف، لا على نفسي، بل على أولئك الذين كانوا يهربون من الآخرين. كانت نوبات البكاء تجتاحني حين كنت أتخيل بأن أصحاب العصي سَ يلحقون بهم و يضربونهم على رؤوسهم صدورهم. لم أكن أعلم ما الحكاية، و لم أكن أعلم لماذا هؤلاء يهربون و أولئك يلحقون بهم؟ رغم أن الفريقين لم يخرجوا من الجوامع بعد خطاب الجمعة التهويلي. ولكن وبعد عمليات حسابية بسيطة من الجمع و الطرح لِ الأرقام و التواريخ عرفتُ بأن التاريخ كان 1963، و بِ الطبع نعرف اليوم بأن

ذاك التاريخ هو زمن الانقلاب العسكري الذي أتى بِ الحرس القومي الفصيل المتقدم لِ حزب البعث، و لو كنتُ في التظاهرة في ذلك التاريخ لَ هتفتُ: "أنا يريد إسقاط الانقلاب" ... "أنا يريد البرلمان"

التظاهرة الثالثة في حياتي شهدتها أيضا في شوارع القامشلي، و أنا في الصف الخامس الابتدائي. لم تكن هناك مظاهرات، أو مجموعة تهرب و أخرى تلاحقها. في هذه المرة كنتُ أرى مجموعات مجموعات، ومن أعمار مختلفة تجوب الشوارع وهم ممتلئون حماسة، وقسم كبير منهم كان يحمل العصي الكبيرة، ونحن الأطفال كنا نتجمع في الحارة "تنطنط" ونقفز كَالقرود نتحدى الهواء، وكنا نقول بِ حماس لا نظير له: لو دخل اليهودي إلى هنا ومن هذا الباب سأقفز على رقبته وأخنقه، و آخر كان يقول سَ أفاجئه بِ ضربة بوكس(لكمة) على أنفه. هكذا كنا نقضي الأيام بِ إظهار أقصى درجات القوة والتحدي والعنتريات أمام بعضنا و لِ بعضنا، و لم تكن تلك المجموعات التي كانت تجوب شوارع القامشلي خارجة من الجوامع بعد خطاب الجمعة التحريضي، و في هذه المرة أيضا لم أكن أعلم ما الحكاية، وما حقيقة ما يجري.

كنتُ أسمع قصصاً من تجمعات الكبار عن قتلى و أسرى أشخاص معروفين من القامشلي، و عرفتُ منهم شخصين أحدهما أرمني اسمه"رازميك"، و آخر كلداني أُسِر و اسمه جلول أو جليل، و كان يلَّقب بِ "جلّو" و ما زال على قيد الحياة و يعيش في مدينة القامشلي، أمَّا لماذا عَلِقا في ذهني؟ حصلَ ذلك لأنني كنتُ، كما أغلب تلاميذ المدارس في القامشلي، أعمل أجيرا في السوق الصناعية في إحدى المهن كَميكانيك سيارات، كهرباء سيارات، تصويج، أودهان سيارات...إلخ، و كان الأكبر سنا و المعلمون يتحدثون في أوقات فراغهم عن الحرب، و بِ التأكيد مع إضافات تشويقية من خيالهم. و أذكر أنهم تحدثوا عن الشاب الأرمني الذي استشهد، كانوا يقولون بأنه كان شجاعا، مقداما لا يخاف الموت، حتى أنه لم

يتقيد بِأوامر قائده المباشر في ساحة المعركة، و أنه كان واقفا فوق دبابته حين تمزَّق جسده إلى أشلاء بِضربة صاروخ من طائرة إسرائيلية. أما الشاب الكلداني فَ كانوا يقولون: بأن الأسير يتعرض إلى دمغة "خَتم" على جسده. إنهم يفعلون ذلك "يختمون على جسده" لأنه إذا أُسِر مرة ثانية و رأوا الختم عليه سَ يقتلونه، و لأنني كنتُ أتشوَّق لِ رؤية الختم على جسده حفظتُ اسمه في ذاكرتي إلى هذا اليوم، و عرفتُ بأن الحديث كان يدور حول حرب أل"1967"، و لو كنتُ مشاركا في إحدى التظاهرات الجوالة تلك، لَ قلتُ: "أنا يريد السلام".

المظاهرة الرابعة شهدتها في حياتي وأنا فتىً في الصف الثالث الإعدادي. في هذه التظاهرة تمَّ ترجمة الخوف الذي اجتاحني في تظاهرة 1963 إلى تمثيل حقيقي أمام عيوني، إذْ رأيت و بِكلِّ وضوح مجموعات من الشباب و الرجال في حشد، و أيضا في شوارع القامشلي، و أيضا لم يكونوا خارجين من الجوامع بعد خطاب الجمعة التحريضي. كانوا يهتفون شعارات لم أتبيّنها ولم أدقق فيها. و بعد ساعة أو أقل رأيتُ، وأيضا بِوضوح تام، سيارات عسكرية تحمل جنودا مزوَّدين بِ أسلحة حربية وهراوات غليظة من خشب الخيزران،ورأيتهم هذه المرة يضربون المتظاهرين ويدفعونهم بِعنف و وحشية إلى مؤخرة السيارات و يأخذونهم إلى جهات مجهولة، وأكثر وأوضح صورة علقت في مخيلتي، كانت لِأصحاب القبَّعات الحمراء بِهراواتهم و قسوتهم. في هذه التظاهرة أيضا لم اكن أعلم ما الحكاية، و لماذا يُضْرَبون؟ ولكن، و بعد عمليات حسابية بسيطة من الجمع والطرح لِ الأرقام والتواريخ، عرفتُ بأن التاريخ كان 1970 و عرفتُ بأنَّ انقلاباً أبيض قد حصل على سلطة البعث آنذاك، و الذي دخل التاريخ تحت مسمَّى(الحركة التصحيحية). و اليوم أقول: لو كنتُ في تلك المظاهرة لَ هتفتُ: "أنا يريد البرلمان".

المظاهرة الخامسة شهدتها في حياتي و أنا فتىً في الثالث الثانوي. هذه أيضا كانت عبارة عن مجموعات شبابية تجوب شوارع القامشلي، تطلق هتافات منددة بِالصهيونية وأخرى مُعَظِّمة لِبطولات الجيش السوري. كنا نقفز على براميل الزبالة ونرفس الصناديق الموجودة على الأرصفة، و نضرب الحيطان بِقبضاتنا و نصرخ في وجه السماء، و لم نكن خارجين من الجوامع بعد خطاب الجمعة التحريضي. هنا أيضا، في العمق، لم أكن أعرف ما الحكاية، و كل ما عرفته هو أننا كنا نفرِّغ طاقة المراهقة. و لو شاركتُ في تلك المظاهرة لَ قلتُ: "أنا يريد السلام".

المظاهرة بعد الخامسة و قبل السادسة، أو المظاهرة الناقصة(على غرار السيمفونية الناقصة لِ بيتهوفن)، فَ كما أنَّ السيمفونية الخامسة(الناقصة) كانت أعظم سيمفونيات بيتهوفن، فَالمظاهرة الناقصة أيضا كانت أعظم و أجمل مظاهرة شهدتها في حياتي. فَبكلِّ صدق وأمانة، أنا لم أتذكر شيئا مما قيل أو أي هتاف أو حتى ماذا كنتُ أرفع. أتذكر تماما بأنني كنت أحمل لافتة في يدي، و لأنني كنت قد تعرَّضتُ لِ صعقة العشق باكراً، و لأن المظاهرة كانت تمر في الشارع الذي تسكنه ربَّة العشق و الجمال، تلك التي رمتني بِ سهم من قوس الحبِّ الملوَّن من فوق عرش زيوس، فَ أنا لم أتخيل نفسي بأنني كنت أمشي على الأرض، و لم أحس بِ وجود أحد بِ قربي. لم أسمع أي صراخ أو هتاف من حولي، بل كنت أجدني طائرا في الهواء وقلبي يرقص داخل صدري، و الشارع كنت أراه مزدانا بِ الورود والزنابق الحمراء و البيضاء، و كانت أصداء الموسيقى الناعمة الهادئة التي سمعناها معا لِ المرة الأولى و صوت فيروز الحنون الحاني المقدس يطنُّ في مسامعي. كانت السعادة تشع من عيوني و رائحة البخور تفوح من أنفاسي. لا أدري ما الذي حصل حين اقتربنا من منزلها. لا أدري إنْ كانت قد خَرَجَتْ أمام الباب أم لأ، فَ أنا كنت أراها في روحي و أشمُّ رائحتها التي لا تنتمي

لِ الروائح الحسية في هذا الكون. كنت أراها كما الفراشة تتنقل من فوق كتفي الأيمن إلى الأيسر و ترفرف فوق جبيني أمام عيوني، تملأ الأثير كله بِألوان جناحيها المزركشة. كنت أسمعها توشوش في مسامعي أجمل و أعظم هتاف في الكون الحياة.لا أدري كيف ومتى انتهت تلك المظاهرة الناقصة المقدسة العظيمة؟ وهي لم تكن كَالمظاهرات التي عرفت حكاياتها بعد عمليات حسابية بسيطة. فَهذه المظاهرة فعلا لم أعرف حكايتها، إلاَّ حكايتي مع طيف من ألوان السماء دخل قلبي و لوَّن روحي. و لو كنت اليوم في تلك المظاهرة لَ هتفتُ: "أنا يريد الحب".

المظاهرة السادسة و السابعة و... و كل المظاهرات الآتية بعد المظاهرة الناقصة في حياتي، ركنتها في زاوية النسيان من ذاكرتي، لأنها، و بكلِّ صدق و بساطة، هي من ألاعيب السياسيين و المؤدلجين و العقائديين و البدائيين. فَ هؤلاء لا أطيق التعامل معهم و لا أتقبَّل ثقافتهم. فَ أنا لا أستطيع إلاَّ أن أكون صادقا مع نفسي، و لا أستطيع إلاَّ أن أكون صادقا مع غيري، و لا أستطيع إلاَّ أن أكون مع الحق. أمَّا ثقافة هؤلاء فَ هي النفاق و الدجل و الخديعة و التقيَّة، لذلك، فَ لو شاركتُ اليوم في التظاهرات التي تنطلق في بلدي الحبيب بعد خطاب الجمعة التحريضي، لَ كنتُ هتفت:
"أنا يريد الحب والسلام. أنا يريد إسقاط الظلام".

– 2 –

كان سيرو مصدوما من ردِّها الجامد:"ماذا يفيد الكلام، و الذي تقوله كان زمان و أصبح من تاريخ حياتنا".أراد أن يذكّرها، أو بِالأحرى أن ينشّط ذاكرتها و يشجّعها لِ التغلّب على الزمن، واستقبال النهارات بِروح العشاق ولهفتهم لِ لقاء الحبيب، و كيف أنهم كانوا يرون الحياة بِ ألوانها الخلابة، و أن أرواحهم كانت تقفز في صدورهم كما العصافير، و أنّ الفرح كان يلوّن خدودهم، و السعادة كانت تشعّ من عيونهم. استحضر الزمن الغائب، حين كانوا يدرسون معا في بيت صديقتها، حيث كانوا يقضون أوقاتا جميلة جدا. فيها من براءة المراهقين وأحلامهم الطرية، و فيها أيضا بعضا من المواقف المشبعة بِ التواطؤ العاطفي و دلالات العشق المخدّر. طبعا دون التصريح بِ أنّ أحدهما يحبّ الآخر، لكن لعبة الحبّ كانت تستمر بينهما بِ الوما و ذبذبات النبض حين تخرج عن الطبيعي، و في أحيان أخرى كانت كيمياء القلب تصل عن طريق استخدام الأدوات نفسها و في اللحظة ذاتها. كَ أنْ يُكمِلَ أحدهما شرب الماء المتبقي في الكأس، و أن يَضَعَ شفتيه في نفس المكان الذي وضع الآخر شفتيه عند شربه الماء، أو يشارك الآخر شرب القهوة من فنجانه، و أن يتعمَّد تَرْك قليلا من الرضاب على شَفَة الفنجان. كانوا يسهرون أثناء الدراسة إلى ما بعد منتصف الليل، و في كثير من الأحيان إلى قبيل الفجر المهيب. في واحدة من تلك الليالي، و بعد ساعات من الدراسة، اضطرَّتْ ندى لِ أخْذ استراحة في الحوش على الأريكة المركونة جانبا لِ الراحة و الجلوس لِ الجميع؛ أمّا سيرو فَ استمر في الدراسة وحيدا في غرفة الدرس، لأن صديقتها هي الأخرى كانت قد ذهبت لِ الاستراحة في غرفة أخرى. وبعد أكثر من ساعة من الدرس أراد أن يأخذ قسطا من الراحة. قام من على الكرسي و مطَّ جسده قليلا و حَرَّكَ خصره يمنة و يسرة. خرج إلى الحوش حيث رطوبة الفجر و

النسيم البارد يداعب نبتات الحَبَق والريحان و الياسمين. استنشق الهواء المعطّر بِ عمقٍ و رفع بصره إلى السماء حيث النجوم الساهرة. راح يفتِّش عن العاشقَين اللذين يسهران إلى الشفق في خصر السماء؛ النجمتين المتلازمتين معا دائما. واحدة متوهجة و الأخرى أقلّ توهّجا. كان قدماؤنا قد أسموهما بِ ليلى و مجنون، دلالة على أنهما العاشقان اللذان ينشدان اللقاء و لا يلتقيان. يبقيان هكذا في نجوى أبدية. و كانوا يقولون بِ أنهما يلتقيان في السنة مرّة واحدة دون معرفة لحظة اللقاء، و أنّ مَنْ يشهد لقاءهما يُستجاب له أمنياته. هكذا كان الفتية و الفتيات يسهرون مع أمنياتهم و أحلامهم الوردية، لِ يشهدوا لقاء العاشقين ليلى و مجنونها، و لكن دون جدوى، دون حصول اللقاء الحلم لِ تبقى قصة الحبّ خالدة، و لتبقى حافزا لِ العشاق على التحليق في الفضاءات الملوّنة. تقدّمَ نحو الأريكة التي تضمّ جسدَ ندى الممدَّد. تأمّل وضعيتها الجنينية وهي مستلقية على الأريكة، ربما بِسَبَب برودة الفجر. نظر إلى وضاءة وسمرة وجهها الجميل و دائرة خدّها الذي يعكس ضوء القمر. أخذه لون بشرتها الذي امتزج مع نور القمر إلى عوالم سحرية، حيث حوريات الأنهار و أميرات بساتين الأزهار، و فاتنات المعابد المقدّسة يتمايلن في غَنَج و دَلَع في فراديس الأرض و السماء. نظر مليّا إلى عيونها المطبقة على أحلام يجهل مفرداتها. كان يعشق عيونها السوداء الواسعة التي تشعّ فرحا. العيون التي تعكس الفرح و الجمال تحت مختلف الأوضاع و الظروف، و هنا أضفَتْ رموشها الطويلة تعبيرا عاطفيا يلامس أحلام العاشق المتيّم، و خاصة أنه رأى عيونها في حالة الإطباق، و بانت له أجمل من كونها في حالة اليقظة. أحبَّ ظهر الجفون التي أخذت انحناءة جميلة منسجمة مع تكويرة البؤبؤ النائم تحتها. اندهش لِ جمال رموشها التي اتكأت كما الأهداب على سهل خَدّها الناعم. وقعَ بصره على فمها، و راح يتأمل شفتيها المطبقتين غير المزمومتين و ركَّزَ نظره على نهاية ملتقى الشفتين، حيث لَمْعة شعاع القمر في

نقطة التقاء قوسَيْ الشفتين. تهيأ له بِ أنه يرى قطرة عسل تنسكب منها، و فكَّر لِ لحظات بِ لَعْقِ الشهد من على شفة وكر العسل.

أخذ الشرشف الملقى على طرف الأريكة، وغطّى به جسدها بِهدوء كي لا يوقظها، وقبل مغادرته، رفعت ندى رأسها ونظرت إلى عيونه و عادت إلى غفوتها الكونية. انتفض قلبه و راح يتدحرج داخل قفصه. انتابته قشعريرة غريبة لا هي بِ سبب خوف مفاجئ من أمرٍ مرعب، ولا هي بِسبب برد قارس، ولا بِ سبب نبأ مفاجئ؛ إنما الحالة انتابته فور حصول الصدام الكوني بين الأشعة الميكروية التي انطلقت من عيونها بِ أسرع من سرعة الضوء، والانفجار الفلكي الذي أعقبه، حيث رأى نفسه يسبح بين الأفلاك والنجوم. شَعَرَ بِرهبة المكان و جماله الساحر. لوحة خارقة لِ الطبيعة لا يمكن وصفها لِ أنها في تغيّر لحظيّ و دائم. كانت قبل لحظات خامة بِ لون أسود لامع منثور عليها نجوم براقة، و شعشعات الأضواء في بقعٍ متغيرة من اللوحة، و نفس هذه اللوحة تميل إلى الليلكي مع لمعات النجوم الموشكة على الرحيل، وبِمضي اللحظات تكتسي لون الخمرة من الأعلى، و عند الصدر اللون الفيروزي. هذه هي اللوحة التي ترسمها الطبيعة كلّ لحظة و كل ساعة وكل يوم، والتي سَ تبقى ترسمها حتى لو لم يبقى كائنا واحدا حيّا على كوكبنا الجميل. بعد هذا التأمل الرومانسي،اتجه نحو قيس وراح يسأله عن حاله، وعن موعد لقائه مع ليلى لِ يكون شاهدا على معجزة لقاء العاشقين. إلاّ أنّ قيس أخبره بِ أنهما ما التقيا أبدا و لن يلتقيا، و أفْهَمَه بِأنهما لو كانا التقيا لَما تحوّلا إلى حكاية خالدة تتناقلها الأجيال، و لَ ما تحوّلا إلى أيقونة تزيّن السماء وتلهم العشاق. لكن حذار أن تفشي هذا السر، لأن العشق دون أسرار ودون كلمة سر لم يبقَ عشقا، و العشاق المحلّقين سوف يفقدون اللذة السماوية إنْ جمعتهم الحياة الدنيا وتفاصيلها التافهة. فَ في الوقت الذي يتم الوصال بيني و بين حبيبتي، تلك اللحظة سَ تكون نهاية حبّنا و عشقنا الهادر. لذلك تراني ساهرا

معها نهمس لِ بعضنا فحوى مشاعرنا الناعمة، و نعيد تذكير بعضنا لحظات اللهفة التي كنا نتخبّط خلالها لِ استراق نظرة خاطفة من خلف السديم و قطعان الأغنام و البعير، و كيف أني كنت أتلطّى في محيط النبع الذي كانت تأتي مع صبايا الديرة لِإستقاء الماء. نرسم لِبعضنا أرقى عوالم من الخيال؛ تهديني أسراب النجيمات البرّاقة كل ليلة، و أقدّم لها قطعان الكويكبات بداية الفجر، تهيئة لِ اللقاء التالي. أنا أهيّء لها حديقتنا السماوية، فَ أنا أسبقها في المجيء إلى موعد لقائنا. أنظّف المكان وأرشه بِعطر الأمبروز الذي يعطينه الله كلّما يستعد الشمس لِ الرحيل، وأكون أنا مَن يشيّعه إلى مغيبه، و من ثمّ أتربّع في خَصْرِ السماء منتظرا قدوم حبيبتي بِ بهائها و جمالها فوق الإنسي. نحن نعيش أجمل لذّة و أشهى القُبَل الروحية. نتسامر، نحزن، نفرح، نضحك و نسمع أجمل موسيقا في الكون. تلك المعزوفات الصادرة من تصادم الكواكب في الأجرام القريبة والبعيدة، و تلامس الغبار الكوني مع النجوم و الأثير الكوني. نسمع صدى صوت الله عبْر هذه الأفلاك المتناثرة حولنا و فوقنا. إنه يبارك لنا عشْقَنا هذا مع مغيب الشمس و قدوم الفجر، و هو يعرف ما حلّ بي في الديرة بعد أن فرّقوا بيني و بين معشوقتي ليلى، و كان يرى أولاد الديرة و هم يسخرون مني، و يعرف هؤلاء الذين شطروا القلب الواحد إلى اثنين و غرسوا السهام فيهما. لقد قال لي كل هذا الكلام، و هو بِ نفسه أشعل البخور لحظة صعودنا إلى هنا. قفز سارو فوق موجة من نثار الكواكب، و راح ينزلق بين النجوم و السديم السماوي، يمرّ بِ أزواج النجوم العشاق، كان كل زوج معروفا في جغرافيته على الأرض، و حتى منهم كانت شهرتهم قد ضّرَبَت آفاق الأرض كلها، من الشمال إلى الجنوب و من الشرق إلى الغرب؛ كان صعبا عليه معرفة جميع هؤلاء العشاق، قصصهم و أسماءهم؛ إلاّ أنه قاد الموجة التي يمتطيها إلى حيث العاشقة البائسة التي اكتوت من عذاب الحب و من حرمان لفتة من المعشوق إليها. إنها النجمة

الذاوية المركونة فوق نجم محصور في دائرة مميتة تحيل ساكنها هباءا، ثم تعيد تشكيله لِ إعادة الكَرّة و إلى الأبد.
العاشقة تذرف الدمع و المعشوق يدور في فلك الموت و الحياة؛ إنها الحورية الجميلة إيكو التي عشقت نرسيس الذي رفض حبّها و تسبّبَ في كسر قلبها، و جعلها في حزن عميق. إنهما احتلا مكانا في سماء العشاق. و كان إلى يمينهما عاشقين جميلين يشعشعان في ليالي الربيع و هما أقرب النجوم لِ بعضهما، حتى يخيَّل لِ الناظر بِ أنهما يقبّلان بعضهما قبيل الفجر، إنهما العاشقان الممتلئان شبابا و جمالا، إنهما روميو و جولييت. اقترب منهما، و قال لِ جولييت:
يا جولييت يا فراشة الحبّ! كان عليكِ أن ترسلي خبرا لِ روميو بِ أنكِ سَ تتناولين الدواء المنوّم لِ أجَلٍ محدود، و أنّ أهلك سَ يضعون جسدك في حجرة الأموات لِ تتخلّصي من الزواج القسري. ألا تعلمي يا جولييت بِ أن أحد أصدقاء روميو رأى مشهد جنازتك–الصورية– و أسرع إليه و أخبره بِ موتكِ؟ و لكِ أن تتصوّري رَدّ فعل حبيبكِ، بل عاشقك! إنه امتطى جواده كَ المجنون، و طار إلى المقبرة حيث كنتِ مسجّاة بِكامل روعتك و جمالك الذي اكتسى بياضا. راح روميو يتلمّس وجهك، يديكِ، يحدّثك، يغسل وجهك بِ دموعه الساخنة. يقبّل وجهك، شفتيك، قدميك، يديك، لكنكِ كنتِ باردة و دون حِراك. بكيتُ من أعماقي قبل أن يشرب روميو السمّ و يموت و رأسه على صدركِ. بكيتُ و أنا أكتب هذه الأسطر، و لَكِ أن تتصوَري الحزن و الألم الذي ملك على قلوبنا حين رأيتِ روميو جثة على صدركِ، و غرستِ خنجره في قلبكِ و وقعتِ، هذه المرّة حقيقةً، جثة هامدة على صدره! لو فعلتِ ذلك لَ ما حصل الذي حصَل.

راح يقود مركبته في فضاءات السماء باحثا عن أزواج العشاق الذين تحوَّلوا إلى أيقونات تزيّن الكون. عَرَّجَ على أزواج منهم. أمضى أوقاتا حزينة معهم. بكى لِ حالهم، تعذَّبَ لِ أجلهم، و قدَّم التعازي لِ الفضاء، لِ الأرض، لِ القمر، لِ الإله

الهارب المختبئ من عظمة و جلال حبّهم. انزلق بين النيازك و الأفلاك و النجوم باحثا عن آدم وحواء. كان يقول بينه وبين نفسه: إنهما أول عاشقين في الحياة، لا بدَّ أنهما يشغلان مكانا ما في السماء، لا بل أقرب ما يكون من عرش الله. أ لَم يكونا متواطئين في مؤامرة إلهية؟ أ لَم يكونا أبطال مسرحية كتبها و أخرجها الله بِ ذاته؟ إذن لا بدَّ أن أعثر عليهما، و لي معهما كلام. صار لزاما عليه أن يبحث عن عرش الله لَ طالما يبغي الوصول إلى آدم و امرأته حواء، لذا توجّه نحو الكويكبات الأكثر شهرة من بين أفلاك السماء. يقصد سارو بِ الكويكبات، تلك النجوم التي تشكّلُ معا أبراجا و أشكالا لِ الحيوانات والحكايات القديمة على الأرض، كَالدبّ الأكبر و الأصغر، الميزان، سارق التبن، زواج أميرة الورد...إلخ. مَرَّ سارو بِ الدبّ الأكبر. الكويكبة المؤلفة من سبع نجمات، أربع منها على شكل شبه منحرف، و الثلاث الأُخَر على شكل شريط خلف الضلع الأصغر لِ الشبه المنحرف. فكَّرَ أن يجتاز بين الضلعين، لكنه عدل عن رغبته لِ ألاَّ يثير غضب الدبِّ في السماء. تابع نحو كويكبة سارق التبن. هذه الكويكبة هي مجموعة من النجوم المنضوية في رتلٍ أحاديّ على شكل طريق، يبدأ من كومة نجوم على هيئة اسطبل و مخزن للتبن، و ينتهي إلى سبع نجمات متوضعة على شكل منزل و مَتْبَنْ(مخزن لِ التبن). الحكاية هي أن رجلا قد سرق التبن من بيت قريبه، و لأن العمل الذي قام به كان مشينا وعيبا و خيانة لِ قريبه، و لكي تتعظ الأجيال من بعد الحادثة، انطبع الطريق الذي سلكه من منزل قريبه إلى منزله، و الذي كان قد تساقط التبن عليه. وقف سارو أمام منزل المسكين الذي انفضح أمره. أراد أن يقول له: كان عليك أن تطلب التبن من قريبك، و هو كان سَيلبّي حاجتك. و لو فعلتَ ذلك لَ كنتَ قد تجنَبتَ هذه الفضيحة، و لَ ما فَضَحَكَ الله و جعلك مادة تلوكها الألسن. و أنا أريد أن أنهي هذه المهزلة، لذلك سَ أبقي

اسمك سرّا و لن أذكره مهما حصل، و لتقَيَّد المسألة ضد مجهول، و ليبق جوهر الموضوع ساري المفعول.

تابع سارو بحثه عن جَدّه الأول و امرأته حواء. لا يعرف إلى أيّ اتجاه يذهب. نظر إلى اليمين و اليسار، الشمال و الأسفل. أمعنَ النظر في الأعلى حيث خمس نجمات على شكل نصف قوس دائري، ونجمتان متوهجتان داخل القوس، و نجمة ملولة فوق التكوين. قاد نثار نجومه إلى تلك اللوحة. كانت حكايتها قد تناقلها الناس بِالتواتر، و التي تحكي عن زواج أمير إحدى الإمارات الواقعة على طريق الحرير، من غجرية كانت في قافلة من بلاد الهند إلى بلاد الكُرْج مرورا بِ بلاد الأرمن. أمّا أميرة الورد، فَقد سهرت الليالي عند رأس الأمير حين كان في غيبوبة الموت مدة سبعة أيام بِ لياليها. و في ربع الساعة الأخيرة، حين قدمت القافلة، و أخذت يوم راحة لها في إمارة هايستان. يومها تجولت الغجرية السمراء المفعمة بِالحيوية والإغراء في أزقّة وشوارع المدينة، و صدف أنها مَرَّت بِ جانب المنزل، الذي يضم جسد الأمير الممدَّد على الفراش بِ القرب من النافذة المطلّة على الشارع. وقعَ بصرها على وجه الأمير الشاب، الذي جماله يضاهي جمال أفاتارات (آلهة تأتي إلى الأرض على شكل إنسان) الإله فيشنو، و رأت الفتاة الشابة ذات الستة عشر وردة جالسة قرب رأس الأمير، تمسّد شعره و تمسح جبينه بِ رفق و نعومة متناهية. كانت تبدو مرهقة. كلَّمتها عند الشباك، و بعد دقائق دخلت إلى الدار و جلست بِ قربها. و راحت الأميرة تخبرها عن حال الأمير، و أَكَّدَتْ بِ أن الوقت قد حان لِاستعادة عافيته والاستيقاظ من غفوته. أمّا الغجرية فَقد استغلت تعبها وطلبت منها، بعد أن لعبت بِعقلها وأظهرت الود و الحميمية تجاهها، طلبت منها أن ترتاح بعض الوقت، ريثما يحين موعد رحيل قافلتها إلى بلاد الكُرج.
رفضت الأميرة ذلك، لكنها، بعد دقائق، طلبت منها الاعتناء به ريثما تقضي بعض احتياجاتها و تعود على وجه السرعة. جلست الغجرية عند رأس الأمير و راحت

تفعل كما كانت الأميرة تفعل، و ما كاد الوقت يكتمل ساعة من غياب الأميرة، إلاّ و كان الأمير يتنحنح و يتحرك في السرير، و ما كان من الغجرية إلاّ أنْ أخذت، وعلى وجه السرعة، يد الأمير و وضعتها على خدها و فمها، و حين فتح الأمير عينيه، بدأت الغجرية بِالبكاء و سَكْبِ الدموع الكاذبة على يده و وجهه المشرق، وراحتْ تحدّثه عن الأيام والليالي التي سهرت عند سريره، و عن الحزن الذي كان يعتصر قلبها عليه وأنها لم تقطع الأمل بِ ودته لِ الحياة، و أنها سهرت الليالي وصَلَّتْ و بكت لِ أجله. في هذا الوقت بِ الضبط دخلت أميرة الورد الغرفة، و في اللحظة ذاتها كان الأمير يقبّل الغجرية ويحدثها عن زواجه منها ويحدّد لها موعدا لِعرس أميريّ يدوم سبعة أيام بِ لياليها. صُعِقَت أميرة الورد. و في التوّ و اللحظة تلاشَت إلى مياسم وغبار طلع، وانتثرت في حقول وبساتين الإمارة. و راحت تنبت أجمل زهرات بِ لون الزعفران تزيّن الحقول و البساتين و جنائن المنازل.

طلب الأمير من القائمين على ترتيب ردهات وقاعات البلاط، و جناحه الخاص بِ تزيينها بِ هذه الزهرات الجميلة على مدار الساعة، و إلى أبد الدهر. فَ النجمة الملول الشاهدة على حفلة الزفاف السماوي إنْ هي إلاّ تلك الأميرة البائسة طيبة القلب، أميرة الورد و الحبّ الخالد.انحنى سارو لِ روحها و غادرها منكسر القلب حزينا. كان لا بد من إلقاء نظرة على العاشقين آنوش و سارو، حيث طارت أرواحهما دون اكتمال فرحة عشقهما. تحدّثَ معهما في تفاصيل عشقهما، و النهاية المأساوية لِ حبّهما، و كيف أن القرويين خلّدوهما من خلال تناقل حكاية حبّهما إلى أن تحوَّلت إلى جزء من ثقافة و تراث ذلك الشعب. و فيما بعد، تَمَّت كتابة أوبرا تتناول قدسية و مأساة حبّهما، إنها " أوبرا آنوش ".

تمتمَ سارو بينه و بين نفسه عن هؤلاء العشاق. كيف أنهم تحولوا إلى رموز و حكايات اندمجت في تراث و فولكلور شعوبها، و بعضا منهم تحوّل إلى أيقونات كونية. هذه اللفتة شجَّعته لِ البحث عن جَدّه الأول و إمرأته حوّاء. قاد مركبته

الكونية نحو مشرق النجمة الأم. فعَلَ ذلك لأنه صَنَّفهما في المرتبة الأولى من مجموعة عشاق العالم، لذا تَوقَّع أن يراهما في إحدى الدوائر المحيطة بِالشمس، فَ كانت وجْهَته نحو الشمس. يقطع المسافات الفلكية في المرج السماوي مستمتعا بِ المشاهد الزاخرة بِ الحيوية و الفرح بين كائنات السماء. إنه يراهم في سهراتهم، خلواتهم و عشقهم، رواحهم و مجيئهم. سار مسافة ثلاث دقائق ضوئية بِاتجاه الشمس. لَمَحَ فقاعات ضوئية، أشبه ما تكون بِ انفجارات نجوم، أو رمايات قاذفات لهبٍ تصدر من مكان محصَّن بِ قلاع من الكواكب و كائنات سماوية مرعبة. إنها تقذف اللهب من أشداقها و ترمي السهام من أجنحتها الفولاذية. إنها تشبه الغورغونات و السنتورات تملأ الفضاء بِ الزئير و العواء، تنشر الرعب و الموت. إنه الخط الدفاعي الأول لِ البلاط الإلهي. راح سارو يدور حول ساحة المعارك حائرا لا يعرف ما الذي يحدث هناك.

يقول في مدوّناته: كنتُ مشوّشا أمام هذه الحالة، و لم أكن أعلم ما يجب فعله تجاه هذا الوضع الناشئ. أرى شهبا تلاحق كائنات ذات ثلاثة أيادي و أظافر طويلة كَ مخالب النسور، و آذانا كَ آذان الوطاويط، و أجنحة مدرَّعة بِ حراشف فضية، قطر الواحد منه يقارب المتر و نصف المتر، و تقذفها بِ اتجاه أعدائها في جبهة مملكة الله. و أرى الكثير منها تَسْقُطُ بِ فعل رجمها بِ النجوم. و كان هناك أيضا قنطورات تهاجم عرش السماء، و هي بِ جسم حصان هائج و رأس بشريّ تطلق النضوات الفولاذية المسننة من حوافرها على الأعداء، و في الوقت نفسه تتلقّى إصابات قاتلة من خلال رجمها بِالنجوم. بينما أنا في حيرة من أمري، رأيتُ واحدا من جند السماء قادما نحوي. إنه في متوسط العمر، ليس بِ الشيخ و لا بِ الشاب. عرفتُ منه بعدئذ بأنه أحد خدّام الرب في ركنٍ بعيد من هنا، و أنّ إلههم غير هذا الذي يدخل في حروب ضدّ الذين لا يؤمنون به. اسم الشاب خسرو الفارسي. و قال بِ أنّ الذي أراه إنما هي واحدة من المعارك الشرسة بين

جنود الله، و هؤلاء الشياطين الذين يتجسسون على قصره لِ استراق المعلومات حول ما يجري في اجتماعاته مع قادة جيوشه، والقسم الأكبر منهم يعمل لِصالح المتمرّدين على الله من الملائكة و الشياطين و البشر.

– و مَنْ هم هؤلاء القادة؟ أقصد هل هم بشر مثلنا؟

– إنهم خليط من الأشباح والحيوانات و الملائكة و الأنبياء. إنهم يتلقَّوْنَ الأوامر المتضمّنة بِتدمير بلدة ما، أو إحراق مدينة، أو إغراق بلد بِ الطوفان، أو القضاء على البشر في ركن ما...

– و هل أنتم أيضا تقاتلون ضد هؤلاء سألتُ خسرو؟

– نعم، أجاب خسرو. فَ أعداؤنا قد أبادوا الذين يؤمنون بِ إله الخير و النور (أهورمزدا) هناك على الأرض في بلاد فارس. و لأن الفُرْسَ يحتفظون بِ تعاليم إله الخير و الحب، و يرفضون التعاليم المناقضة التي فُرِضت عليهم، لذلك تجد قسما من هؤلاء الشياطين الجواسيس هنا يسترقون السمع لِ معرفة خطة الله و علاقته مع إله الخير الفارسي.

– لكن قلْ لي من فضلك ما هذا السلاح الذي يستخدمه الله في الدفاع عن عرشه ضد هؤلاء الجان و الشياطين؟

– إنّه عبارة عن نجوم مكدّسة في مستودعات السماء، أجاب خسرو، و لها مقاسات و مفاعيل مختلفة حسب حجمها و مكوّناتها الذرية. فَ منها ما تنطلق مشتعلة من منصّات الإطلاق، و منها ما تنفجر قبيل اصطدامها بِ الهدف، و منها التي تنغمس في الهدف و تحترق.

– قلتُ: ألا خوف على البشر هناك على الأرض من احتمال سقوط هذه الرجوم؟ أنتَ تعلم يا خسرو، إذا سقطت إحدى هذه الصواريخ الإلهية على الأرض، أيّة كارثة سَ تَحلّ بِ البشر جرّاء الانفجار؟

– رَدَّ خسرو قائلا: إن احتمال اختراق إحدى هذه النجوم الصاروخية إلى الأرض وارد، و لكن نسبة هذا الاختراق ضعيف جدا. فَ منذ مليون و ثلاثمائة ألف سنة لم تسقط نجمة صاروخية خطيرة على الأرض. أغلب اختراقاتها تتلاشى قبل وصولها إلى الأرض، و أنتم ربما تلاحظونها، إنها الشهب، حيث تنطفئ على ارتفاع آلاف الأميال من فوق الأرض.
و الآن قلْ لي أيها الإنسان ماذا جئت تفعل هنا؟

– أنا يا خسرو لولا الطاقة الكامنة في الحبّ لَ ما وجدتني هنا، فَ طاقة الحبّ الهائلة هي التي رفعتني إلى هذه السماوات. و حين رأيت هؤلاء العشاق المزروعين كما الأزهار في هذه الرياض، قلتُ في نفسي لا بدَّ لي من أن أزورَ جدّي الأول و إمرأته حوّاء، لأنهما بِ التأكيد يكونان قد احتلاّ مكانا قريبا من عرش الله كَ عاشقين مثل هؤلاء. إنهما آدم و زوجته حوّاء.

– و ما علاقتهما بِ مآسي هؤلاء العشاق الذين انتهت قصص حبّهم إلى آلام و حسرات تدمي القلوب، و انتهوا هم روحا قبل الجسد مع موت حبّهم؟

– قلتُ: إنهما أوّل زوج خلقهما الله في جنّة عدن، و تمرَّدا على الله من فرط حبّهما لِ بعضهما. أَ لَم تسمعوا عنهما في بلادكم؟ أَ لَم تسمعوا عن الشاب آدم و الفتاة حوّاء اللذين مارسا الجنس في الجنة بِ الرغم من الأمر الذي أصدره الله بِ ألّا يفعلا ذلك؟

– سمعتُ هذه الحكاية و قرأتها من الكتاب الذي ألّفَه عدد من مشايخ و نُسّاك و حكماء شرق المتوسط. هؤلاء الذين تلاقحَتْ ثقافتهم و معتقداتهم بِ معتقدات بلاد ما بين النهرين و بلاد الفراعنة. إنهم كتبوا هذه القصة المشوِّقة التي تحكي عن بداية الخلق، و اعتبروا الخالق كائنا شموليا أَسْمَوه الله، و بنوا له عرشا في السموات. نحن لا نؤمن بِ هذه الحكاية و لا بِ العقيدة التي أصبحت دينا، و لا نؤمن بِ الإله الذي خلقوه حسب تصوّراتهم و خيالاتهم و مصالحهم. قال لي بعد برهة من الزمن: أنتَ تتوقّع أن تراهما كَ هؤلاء العشاق، لكنك مخطئ في ذلك و السبب هو أنهما لم يكونا عاشقين أو حبيبين، وإنّما كانا أدوات للإنجاب أوجدهما الله لِ هذه الغاية. طبعا مع حبْكة مسرحية ملغَّزة، و منها أنْ لا جنس و لا زواج في مملكة الله. لذلك لن ترى لهما أثرا في هذه السموات المقدَّسة.

– لا أدري يا خسرو لماذا حَزنتُ لأجلهما. ربما كنتُ أرغب في رؤيتهما كما الآخرين، لكن لا بأس، فَ الحبّ و الهيام شيء و الجنس و الزواج شيء آخر، لذلك سوف أبحثُ في موضوعهما فيما بعد، و الآن سَ أعود إلى موطن العشاق و قصصهم الخالدة.

– لكنكَ لم تقل لي يا أيها الفتى، من أيّ الأقوام أنت و من أيّ الأسماء هو اسمك؟

– أنا من القوم السوري، واسمي هو سوري (سيرو، سارو)، و بلدي هو سورية. سورية يا خسرو هي رحم الكون، هي التي ولَدَت العالم. منها انبثقت الحياة إلى جهات الكون كلها.

– أرى اسمك قريبا من أسمائنا يا سارو(سيرو).

– هذا الاسم عند أهل جبال و سهول آرارات يعني الحبّ، و هو نفسه اسم بلدي الحبيب الأم الأولى سورية التي أرضَعَت العالم الحبّ.

– سَ نلتقي ثانية يا سوري (سارو)، و يمكنك الصعود إليَّ في الروح عندما تجد نفسكَ محتاجا لِ المساعدة.

في طريق عودته عَرَّج على العاشقين سارو و آنوش. تَمَلَّكه الخوف و الرهبة في حضرتهما. اقتربَ من العاشق و همسَ له قائلا: هل سَ يكون مصيري أنا أيضا مثل مصيركَ؟ فَ أنا أيضا اسمي سارو وأُصِبتُ– مثلكَ– بِ سهمٍ من إلهة الحب و الجمال، و لم أعد أشبه الآخرين يا سارو. توهّجَ النجم وألقى نظرة حزينة إلى آنوش. أمَّا هي فَ كانت قد اخضلّت بِ الدمع وجنتاها، وراحت الدموع تتساقط كَحبّات اللؤلؤ من عيونها الندية، وراحت السماء حينها تُمطرُ لألىء من دموع آنوش. و دون أن ينتظر سارو جواب العاشق الأيقونة حول مصيره، تَحَسّسَ ذاته، و أدرك حينذاك بِ أنه كان يتأمل السماء بِ القرب من أنفاسها الزكية. استدار نحو ندى، فَ رآها غارقة في أحلام الفجر. الآن أدرك سارو سرّ شعشعة تلك النجوم. إنهم في نجوى دائمة، يتبادلون الحب. و ما تلك الارتعاشات سوى تجلّ لِ انفعالات أرواحهم النقية.
قطعَ عهدا على نفسه بِ متابعة البحث عن مكان جَدّه الأول و امرأته حواء.

– 3–

راح يتأمل لوحة الفجر هذه؛ سماء تضجُّ بِ حركة الكواكب و النجوم. ثنائيات العشاق يستمتعون بِ الموسيقا التي نحن لا نسمعها. ارتجافات هنا و شعشعات هناك. حَوْشٌ فيه أريكة مركونة بِجانب الجدار الشمالي، على مبعدة عشرة أمتار من الجنينة التي تتوسطها بركة ماء، مزنَّرة بِ الياسمين والورد الجوري و الحبق والريحان، وعريشة دالية حبلى بِ عناقيد الحصرم، وصبية سمراء رموشها مسدلة على بريق عيونها السود ممددة في غفوة عشق تركض خلف فراشات ملونة، دون أن تأبه لِ تراقص تنورتها النيليّة في الهواء الطلق. تلملم بعضا من البراعم الصفراء و البيضاء، و بعضا من شقائق النعمان الخمرية ذات النقاط السوداء اللماعة. إنها بِ حَدِّ ذاتها أضحت تكوينا في لوحة الطبيعة الخالدة. صبية سمراء عيونها سود واوساع، في يديها باقات من البراعم و الأزهار البرية، و من حولها فراشات ملونة تقودها في موكب مهيب نحو الأفق اللازوردي. بينما هو مستغرق في مفردات لوحة الفجر، و إذْ بِالجانب الحركي يضفي جمالية رائعة عليها؛ فَ الديك بدأ بِ الصياح إيذانا بِ قدوم الفجر و رحيل العشاق من صفحة السماء. نقيق الضفادع القادم من النهر القريب من الحارة، و كأنها تغازل بعضها بعضا في هدأة الفجر تحت نور القمر. و صرير الصراصير إمّا أنها تتفقّد مجموعاتها، أو أنها تحذِّر بعضها من خطر داهم، أو أنها هكذا تعبّر عن ذاتها لا أكثر.

دَلَف إلى فراشه محتضنا خيالات ملوّنة قرب قلبه. تنتابه موجات من الفرح المجهول، لكنها بِالتأكيد مرتبطة بِ ندى و بِالتفاعل الروحي الذي حصل بينهما. يشعر بِ سعادة عارمة كلما تذكَّر صورتها، ابتسامتها، لمعة عيونها الضاحكة، خجلها المثير، شفاهها الشهية، مشيتها اللعوب، أنوثتها المغناجة المغرية. أضحت ندى رفيقة قريبة جدا من قلبه. كان يحسّ بِ شعور غريب حين يلمحها

في الطريق بِ محض الصدفة. و في كثير من الأحيان كان يرتبك حين يراها، صدفة، مع صديقاتها في نفس الشارع الذي يسير فيه، و عندما كانت المسافة تتقلص بينه و بينها، كان يتصنّع الانشغال بِ النظر إلى الخلف و كأنّ أحدا يناده عليه، أو أن يفتّش في جيوبه و كأنه يبحث عن غرض ما. لكن في الحقيقة كان يقوم بِ تلك الحركات لِ التخلص من حالة الخجل والارتباك. كان يخشى أن يتعثر بِشيء ما، أو أن تصطدم أقدامه بعضها بِبعضها الآخر. كان يحبس أنفاسه إلى أن يجتاز الموقف المحرج، عند ذاك كان يتنفّس الصعداء. هذه الحالة يمرّ بها حين يكون وحيدا في مواجهة الموقف. أمّا عندما يكون مع بعض الأصدقاء، فَ مثل هذه المواجهة لا تؤثر في حالته النفسية و العاطفية، و لا تسبّب له الحرج و الارتباك، بل بِ العكس، فَ كان يشعر بِ سعادة غامرة، و يسترق النظر إليها من زاوية عينيه، و يحرص على ألاّ يفضح أمره أمام أصدقائه. كانوا يثرثرون أحاديث المراهقين، و خاصة التعليق على الصبايا اللاتي كنّ في المرحلة الثانوية من الدراسة مثلهم، وأغلبهم، كانت تجمعهم علاقات القرابة والزمالة، و غالبا كانوا يجتمعون في منزل إحدى الصديقات، و كانوا يمضون أوقاتا مشبعة بِ المتعة الشبابية، والتعليقات البريئة، و قليلا حول المواد المدرسية. المجموعة كانت تضم الصبايا والشباب (برهوم، دنحو، صابر وهامو). ندى كانت زميلة مشتركة بينهم. وفي معظم الأوقات كانوا يتناولونها بِ التعليقات الشبابية. كانوا يفتشون عن أبلغ صفات الجمال لِيصفوها بها، و في بعض الأحيان كانت تصدر تعبيرات خبيثة من برهوم حين كان يتغزّل بِجمال عيونها و مشيتها المثيرة. كل واحد منهم كان يمنّي نفسه بِ كَسْبِ ودّها، و كل واحد منهم كان يخطط لِ نَصْبِ شِباكه لِ اصطيادها، و كل واحد منهم كان يعيش أحلام يقظة معها، و يذهب في عالم ألف ليلة و ليلة حين يضع رأسه على وسادته و يغط في النوم محتضنا صورتها و ابتسامتها

الأخاذة. أصدقاؤه ما كانوا على علم بِ الوميض السماوي الذي أشعل لهيب العشق بينه و بين ندى.

منزل ندى لم يكن يبعد أكثر من ثلاثمائة متر عن بيت سارو بِ اتجاه مركز السوق شمالا. منزلها كان بداية حارة اليهود، فَ كلما أراد سارو الذهاب إلى السوق، كان لا بدَّ من المرور من عند باب بيتها، و كان، و هو على بُعْدِ خمسين مترا من بيتها، يفكّر بِ ردود أفعاله فيما إذا خرجت فجأة من البيت و وقفت عند الباب كَ عادة أهل الحارة، هل يلقي عليها السلام؟ هل يبتسم لها؟ هل يقف ويسألها عن الدروس؟ أم يغيّر طريقه نحو السوق، كَأن ينعطف من الشارع الفرعي قبل الوصول إلى منزلها؟ أو أن يكمل الطريق لكن ينتقل إلى الرصيف المقابل كي يتخلص من الارتباك، و يكتفي بِ نظرة خاطفة مع ابتسامة خجولة؟ ماذا سَ يفعل لو وقفت هي و أختها أمام الباب، أيضا بِ محضِ الصدفة كَ عادة أهل الحارة؟. كان يتصبّب بِالعرق خلال المسافة الحرجة إلى أن يجتاز باب الدار بِ سلام، أي دون أن يظهر أحدا، لا هي و لا أختها، وفي هذه الحال كان يلتفت لِ الخلف لعلّها تكون قد خرجت لِيكحّل عيونه بِمرآها. في أغلب الأيام كان يخرج مع برهوم بعد مغيب الشمس في مشاوير، ويتعمدون الذهاب من شارع بيتها على أمل أن تكون عند الباب مع أختها أو صديقاتها جالسين على كراس صغيرة، بعد رَش الماء على الرصيف والشارع والحيطان لِ تلطيف الجو، يفصفصون البزر مع شرب القهوة و الشاي. كانت هذه القعدات عند الأبواب في الشارع من طقوس الحارة، لا بل، من طقوس أهل المدينة الطيّبين بكلّ أجناسهم. و أكثر الذين كانوا يلفتون الأنظار في حارتها هم اليهود، بِقَعداتهم هذه أمام الأبواب مع المستلزمات الفولكلورية الكاملة. أنواع البزورات، أبريق الشاي، دلة القهوة مع الكاسات و الفناجين، و خاصة أيام السبت المقدّسة لديهم. كانت دكاكينهم منتشرة في محيط منازلهم على بعد بضعة مئات من الأمتار. دكاكين السمانة، الخردوات، الحلاقة،

صناعة الصوف... كانوا يتفوَّقون على أقرانهم، أصحاب الدكاكين، من الملل الأُخرى. كانوا يبيعون بضاعتهم قبل الآخرين بِيوم أو يومين، كَالخضار و الفواكه و المواد التي تأتي في صناديق من خشب، و سعر الصندوق محسوب و مدفوع سلفا على البضاعة التي يشتريها. كان البائع اليهودي يبيع البضاعة بِرأسمالها، دون أنْ يُضيف هامش الربح عليها، و في هذه الحال هو يبيع ضعف، أو ثلاثة أضعاف الآخرين دون أنْ يخسر في رأسمال البضاعة، لكنه كان يربح من بَيْعِ الصناديق الخشبية الفارغة. فَ هو يبيع الخشب الذي يحصل عليه مجّانا(من ضمن سعر البضاعة) بِكميات مضاعفة عن الآخرين. أمّا أشهرهم، فَ كان عزرا، والذي بقي اسمه إلى هذا التاريخ على دكانه الخيالي. كان يبيع كلّ شيء. الحِبال، السمنة، الزيت، العسل، التوابل و جميع أنواع الأعشاب البرية، البخور، الحنة...إلخ، و حين كان المرء ينوي شراء أيّ مادة من تلك، كان يتجه صوب دكان عزرا اليهودي(هكذا كان معروفا). بعد عقود من الزمن، وحين أعاد سارو تركيب صورهم المتشظية، تلك التي حطّمها أهالينا من خلال الحكايا الملفّقة على هؤلاء، و التي كانت تشوّههم، و خاصة عند الأجيال الصاعدة، تزاحمت صورهم وتجمعاتهم و لقاءاتهم مع أهالينا في مخيلته، و راح يخاطب خيالاتهم، و بدأ من القوس المنصوبة في شارع الكنيس، وقال في بضع ورقات من دفاتره المبعثرة:

قوس النصر نفسها ما زالت منصوبة في رأس شارع الكنيس، و الكلام المكتوب على القوس، هو نفسه لا يزال يُقرأ، و خاصة إذا كان القارئ ابن القامشلي، فَ المكتوب هو:" أبناء الطائفة الموسوية يشاركون الشعب السوري أفراحه و أعياده الوطنية والقومية...إلخ". أمّا الكنيس يا سيّد عزرا، فَقَد تحوَّلَ إلى سوق تجارية، حيث فُتِحَت دكاكين متنوعة، بدءاً من عند الباب الرئيس في الشارع الفرعي، إلى الطرف الشرقي الواقع في شارع الحَمَّام، و تمَّ تثبيت صورة جديدة لِ رئيس البلاد فوق قنطرة الباب الغربي، بدلا من صورة الرئيس الأب، الذي انتقل إلى جِوار رَبِّه.

لقد تحوَّل هذا المكان الذي كان مقدَّساً، في زمنٍ ما، إلى أطلال من الداخل، و أماكن لِبَيْعِ الأحذية والكلاشات من الخارج. بِالتأكيد يا عزرا، أنتَ لن تأخذَ السوط و تفعل كما فعلَ ابن مريم. فَ المكان فَقَدَ رمزيته المقدَّسة بعد أنْ أفرغتموه من الأيقونات والمباخر والبشر، حيث حملتم بعضكم واتجهتم غربا نحو شواطئ عكّا و يافا و بيت إيليا.إنكم اقتلعتم لونا جميلا من لوحة القامشلي. خلَّفتم رقعة عارية كساها الصدأ و الغبار، و راحت اللوحة تتصدَّع بعدَ أن نخرَ فيها العث و العفن الأخضر، الناتج من نسيج الفطر السام الذي تسلَّلَ إلى قلب اللوحة من تحت أنوفنا.إنَّ تَحَلُّلَ ألوانها الذاهبة لِ الاختفاء، كَشَفَ عن أكذوبة عملاقة بِ حجم الديناصورات المنقرضة،أكذوبة قبول الآخر، أكذوبة الانتماءات، أكذوبة المساواة، العدالة، الرحمة، الإخاء، الشراكة...إلخ. إننا في الزمن الأصعب يا عزرا، فَ الألوان في طريقها لِ الزوال، و اللون الواحد الجبّار القويّ المنّان القهّار يجتاح اللوحات الملوّنة، و يسدل الوشاح الأسود على الفاتنات من المدن و البلدان، و تراني أحوم حول حبيبتي قامشلي، أداعب خدَّها الناعم، و ألثم رموشها المُسْبَلة على نبعين صافيين، عينين حوراوين. أحاول إبعادها عن الإعصار القادم من خلف كثبان الربع الخالي. فكَّرتُ أن أستنشقها، أو أشربها، أو أحقنها في وريدي كي تتَّحدَ مع كياني. إنها حلوتنا، يا عزرا، حلوتي، حبيبتي، قامشليَّتي، إنها الآن أسيرة مضطجعة تحت خيام الرعاة من كلّ الأجناس.إنهم فتكوا و ما زالوا يفتكون بها بِ أنيابهم و نِصال سيوفهم. مزَّقوها و ارتشفوا رحيق لسانها وَ وزَّعوا مِزَق ثوبها على جنودهم، جنود رَبّ الرعاة. كم كنتِ جميلة في الزمن الوردي، حيث كنّا نتهامس تحت الخمائل و ظلال أشجار الحور(قبلَ إعدامها) بعيدا عن قطعان الهمج و الرعاع. كان الأكبر منّا سنّاً يتلكّأون في كثير من الأحيان، حين كانوا يقطفون وردات الربيع بِ حركات و إيماءات ملؤها الشهوة و الرعشات الخفيّة، و التي كانت تسبِّبها اهتزازات أمواج الأثير حول الفساتين المهفهفة، و كيف أنَّهنَّ

كنَّ يضبضبنَ أطراف فساتينهنَّ بِ غَنَجٍ مُسْكرٍ لِ أدمغة الشباب المراهقين الذين كانوا يقطعون المسافات بِ جولات فلكية، لِ اختزان صوَرٍ رائعة من الالتواءات اللدنة الشهية، أو تسجيل كلمات طرية في خلايا القلب الراقص، على أنغام الموسيقا الصادرة من مكمن الحبّ و الدفء و الحنان، من مادة الحياة اللطيفة الجميلة الحنونة، أساس الحياة و جوهرها، و طرفها الزاهي الهادئ الدافئ الراقي.
كانت مشاوير العشاق تبدأ من عندكم لِ عندنا، حيث كانت حاراتكم هي بداية السوق. و معروفٌ عن العشاق، أنهم يفتحون لهم دروبا، كما النمل، بعيدا عن الزحمة و الضوضاء، لِ تتحوَّل، فيما بَعد، إلى طريقٍ لِ العشاق(شارع العشاق).
بِ التأكيد كانت هناك شوارع عشاق عديدة في القامشلي، و بِ التأكيد كانت لِ كلٍّ منها أصولها و ثقافتها و جمالياتها. فَ شارعنا نحن يا عزرا، كان يبدأ من حاراتكم(حارة اليهود) مارّاً بِ شارع الحَمَّام و منعطفا يسارا إلى نهر الجغجغ، حيث المياه و الخضرة و أشجار الحور، و زقزقة الأطفال و تغريدة الصبايا، و روائح العطور الفوّاحة من الذكور و الإناث، و تنهيدة قلوب العشّاق و نظراتهم التي تتراوح بين التوسّل و الشبق و الإنكسار، و أصوات المجموعات(من الشباب) التي كانت تتحَلَّق حول مائدة طيّارة على الأرض العشبي، يمزمزون حليب السباع، كما كانوا يُسَمّون عَرَق البطة البيضا، هذا العرق كان يلَوّن الألوان، ألواناً أزهى و أبهى، و يقرّب صدور الفاتنات من أنظارهم أكثر، و يجَسّدُ الهواء المحيط بهنَّ في صورة أنثى بِ شكلٍ أوضح. يَرَوْنها في مخيالهم كما يشتهون.
كان طريق العشاق جميلا، و كانت لِ الحياة في الأيام المقدّسة، المخصَّصَة لِ العشاق، طعما مختلفا عن باقي أيام الأسبوع. فَ السبتُ سبتكم، حيث لا عمل و لا تجارة سوى الراحة الإلهية و العشق الإلهي. كنت أراكم في مشاويركم، شباب و صبايا في أجمل صورهم وأناقتهم، و في كثير من الأحيان، كان كبار السن أيضا يستمتعون بِ هذه المشاوير. و كم كنتُ أفرح حين كان بعضا منهم يلقي التحية

علينا(على أهلنا) دلالة المعرفة و الجيرة، و كانت تنتابني مشاعر الغبطة، حين كانت فتياتكم يقفنَ مع فتياتنا، ويبدأنَ بِالحديث معاً، وحين كنتُ أسمع ضحكاتهنَّ سويّا، كنتُ أرتجفُ فرحاً لهنَّ. مع مرور الزمن و تعرّفي بكم أكثر، أصبحتُ أمتلكُ الجرأة و الشجاعة بِ السير وحيداً في حاراتكم بِ اتجاه السوق، و أكثر من ذلك، تجرَّأتُ بِالدخول إلى بيوتكم ليلة السبت، حيث كان يُطْلَبُ منّا، بِكلّ لطف و أدب، إشعال الضوء أو الفانوس أو البابور...إلخ. كنّا نُكافأ بِكثير من البزر و القضامة و الفستق و الزبيب، و في بعض الأحيان بِ فرنك أو فرنكين. هذه المكافأة كانت تبعث في نفوسنا الأمان والطمأنينة و المودّة لكم، في لا شعورنا و لا وعينا، طبعا هذا السلوك، لم يكن مدروسا و مطبوخا في دوائر الصهيونية العالمية، إنّما كان سلوكا إنسانيا لا أكثر و لا أقلّ، و لم يكن لِ تحسين صورة اليهودي في أذهاننا، تلك الصورة التي انتقلت بِ فعْلِ العطالة إلى حياتنا الاجتماعية؛ فَ مثلا، عندما كانت تجتاح الدوّامات الصيفية والخريفية أحياءنا، والمحمَّلة بِالغبار و الأوساخ، تلك الدوّامات التي كنّا نسمّيها العَجاج، كنّا نتقافز، كَ القرود، أمامها و خلفها مطلقين الأهزوجة المعروفة والمعتادة آنذاك، لِ إبعاد العجاج و مضارّه عَنّا و عن منازلنا إلى جهة أخرى وعلى قومٍ آخرين. كنّا نصرخ ملْ حناجرنا موجّهين كلامنا لِ العجاج"عَلْ يهود، عَلْ يهود، عَلْ يهود..." أي لِيذهب هذا العجاج على اليهود. وأيضا كانت هناك بديهية نردِّدُها، حين كان أحدنا يُصاب بِجرْحٍ بسيط في عضوٍ من أعضاء جسده، و ذلك من باب التهويل و السخرية، إذْ كنا نقول:" آه... واحد يهودي أُصيب بِمثل هذا الجرح ومات"، وإذا أردنا أن نُعيبَ على أحدٍ منّا لِ نهينه ونُحَقِّره ونعزله عن المجموعة، كنّا نَصِفُه بِاليهودي(طبعا دون أنْ نعرفَ طبائعهم و صفاتهم). بِالإضافة إلى هذه الصورة السلبية جدّاً والمكروهة، التي زرعها أهلنا ومجتمعنا في مخيلتنا، كانت هناك أسطورة مرعبة تردِّدها أوساطنا الاجتماعية، بدءاً من العائلة وانتهاءا بِ الحارة. جوهر تلك الأسطورة هي: أنَّ اليهود يسرقون

أو يخطفون الصغار، و يضعونهم في مهدٍ(دركوشة) هَزّاز، أرضيته مزروعة بِ صفوف من المسامير الفولاذية المسنّنة، و يجمعون دمه في دستٍ لِ يصنعوا منه عجينهم و خبز الفطير!!

لِ يرحمكِ الله يا أمي العزيزة، أعرف بِ أنّكِ لم تكوني مقتنعة بِ هذه الخرافات، و أعرف بِ أنَّكِ كنتِ ترمين، من خلالها، إلى إخافتنا كي لا نبقى وحيدين خارج المنزل لِ وقتٍ طويل، وخاصة عند المساء، و أيضا كي لا نبتعد كثيرا عن المنزل منفردين؛ لكن يا أمي، هل تعلمي بِأنّني الآن أخاف المرور من حارة اليهود، بعدَ أنْ فَرغَتْ منهم، وأنَّني أشعر بِ الحزن والأسى، كلما أرى منازلهم، أو بِ الأحرى، ما تَبَقّى من منازلهم، وأنني أتذكّرهم جيدا وخاصة أيام السبت، حيث كانوا ينظّفون أمام بيوتهم ويَرشّون الماء لِ تلطيف الجوّ الحار، و يجلسون مع بزوراتهم أمام أبوابهم. و في أغلب الأحيان، و من خلال هذه الذكريات، كانت تنتابني رعشات البكاء و الحزن العميق عليهم و علينا.
لماذا كنّا نُرَدّدُ تلك الثقافة المقيتة، الهمجية، المقزّزة لِ العقل البشري؟
من أين أتَتْ هذه الثقافة السوداء، الداعية لِ الحقد و الكراهية و رَفْضِ و تحقير اليهود؟! ماذا فعلوا بنا، أَلَمْ نكن جيرانا و أبناء بلد واحد؟ ثمَّ أنَّهم كانوا مؤدَّبين و مسالمين ولطفاء ومُجدّين. لقد وقَفْتُ أكثر من مَرَّة أمام أطلال بيوتهم، و اعتذرتُ من أرواحهم و أسمائهم الهائمة في الأثير المحيط بنا في هذا المكان البائس، و راحَتْ هذه الصورة تحفر نفقا في جمجمتي، فَ اللون الواحد آتٍ بِإصرار. فَ في وقْفة استغفاري وتنظيف روحي، كانت تنتابني لحظات كآبة و حزن، و كنتُ أقول في نفسي، و الآن أيضا أقولها عَلَنَاً: هل سَ يَقِفُ أحدهم امام أطلالنا و يتذكَّر أسماءنا، أم أنهم سَيقتحمونها ويغيّرون معالمها ويبدّلون أسماءنا كَ عادتهم عبْرَ التاريخ؟؟ كم كنتُ أتمنى لو أنَّ أبويَّ الحبيبين اعتذرا منهم وهما على قيد الحياة، طبعا هما لم يرتكبا جرما، أو خطأً تجاههم، إنَّما على هذه الصورة البشعة التي

ساهما في نشرها، من غير قَصْد. لكن لا بأس يا عزيزيَّ! صحيح أنا لا أعرف أين أنتما من ملكوت الله، و لا أعرف إنْ كنتما تلتقيان أم لاْ، المهم في الأمر هو؛ أولاً، إنْ رأيتما الله بَلِّغاه تحياتي و محبتي و عَتَبي له، و ثانيا،أريد منكما أنْ تبحثا عن ابن بلدنا عزرا اليهودي هناك في السماوات،لِتُقَدِّما له الاعتذار عن تلك الخرافات والحكايات المغرضة التي تمَّ ترويجها بيننا، والتي كانت مليئة بِالحقد و الكراهية. أنْ تعتذرا له عن تلك الثقافة التي لا تَمتُّ لِ أخلاقنا بِصِلَة، لا من قريب أو بعيد، و لِ يَسْمَع كلامي من خلالكما:

أنَّهم خيراً فعلوا لِ قومهم، و أنّهم أكثرَ واقعية منّا نحن المشتركين معهم في الإثم و الكفر في ديار الله و كتابه الرهيب. أ لَمْ يكونوا يعلمون بِ أنَّهم قد خلَّفوا ورَقَة بن نوفل هناك لِ يُكَفِّرنا جميعا هنا في هذا الشرق المسحور الجميل، هذا الشرق الذي لم يبق لنا فيه مساحة شَهْقَة من روح المحبّة و التسامح و الإخاء؟ أ لَمْ تلمس بِ نفسك، يا عزرا، استهدافنا نحن المخالفين لِ كتاب الصحراء، مِنْ قِبَلِ جميع الإثنيات و الأعراق و القوميات المنضوية تحت لواء سيوف الرمال؟ أ لَمْ تَتَحَقَّق بِ نفسكَ بِ أنّنا مستباحون لِ جنود رَبِّ الرعاة، أحفاد قائد فيلق الرجوم؟ و مع كلّ ذلك يا عزرا، أتمنى لكم حياة هادئة هانئة حيث أنتم، و لكم منّا سلام البشر و الجيران و الوطن. شالوم يا عزرا السوري... شالوم.

-4-

التحق سارو بِ الدراسة في جامعة حلب. تشتَّت شمل مجموعتهم. بعضا منهم التحق بِ جامعة دمشق، و البعض الآخر حصل على بعثات دراسية في جامعات دول الآتحاد السوفييتي و حلف وارسو(سابقا)، و قسم آخر اختار الأعمال الحرّة. أمّا ندى و هامو و سُهى، فَ قد التحقوا بِ الجامعة بعد عام من التحاق سارو بِ الجامعة. حين تمّ الاتصال ثانية بينهما، كتَبَتْ ندى تقول:

- صباح الخير سارو. كيفك؟ انشاالله تكون بخير؟ ماذا تفعل؟

- صباح الخير ندى. أنا بخير، أقرأ و أكتب.

- ماذا تكتب؟ قالت ندى، و أضافت بعد برهة من الوقت، بِ المناسبة لقد قرأتُ القصيدة التي نشَرْتَها قبل أن يتم الاتصال بيننا. إنها رائعة. كنتُ أنزوي بعيدا عن أفراد أسرتي، و كانت رعشات البكاء تجتاحني. كنتُ أبكي أثناء القراءة. أبكي على نفسي، و أيضا بكيتُ لِ حالك.
نسَخَتْ مقاطع من القصيدة، و ألصقتها في المحادثة، و هذا مقطع منها.
....

كنتِ تختبئين خلف الهواء

في الأمسيات الملوَّنة

و كنتُ أداعب طفولة الهواء

و أمتصّ براعم الأثير من حول خيالكِ-

يا خيال الحبِّ، و عذاب الطفولة

يا أمنيات الدهر، يا جمال الورد و الياسمين

أريد أن أطوي المسافات الفاصلة بيننا

فأنا مشتاق لِ عيونك الجميلة

مشتاق لِ رائحتكِ المميَّزة بين إناث الأرض.

أنتِ هواء الأرض في شكل أنثى

و أنثى رقيقة دون ظلٍّ و خيال

كلُّ هواء الكون هو أنتِ

و كلُّ الأضواء هي منكِ

أنتِ الموسيقى التي تأخذني إلى الخيال

أنتِ اللحن الذي ينتشلني من لزوجة الجسد–

إلى شهد اللسان

أنتِ الحقيقة قبل كلِّ الأديان

أنتِ شرارة الغيوم، و المياه الأبدية

أنتِ المرج و الرحم و البرزخ الإلهي

منكِ الروح و الرِّقَّة

منكِ النعومة و دفْء الحنان

منكِ ارتعاشة الحكمة –

و حكمة اللذة في حرقة الجسد.

كنتِ تبشّرين عند نهاية كلِّ شهر

تقولين لهم من خلال الأضواء المتراقصة–

على تخوم أعضائكِ

بِ أنَّكِ الأنثى، و أنَّكِ أصل الأعشاب

و المياه و المطر.

....

أمعنَ سارو في كلماتها، و مقطع القصيدة التي أرسلتها. شَعَرَ بِ الضباب يتجمّع حوله، و بِ الدموع تتشكّل في مآقيه. كان الحزن يأكله من الداخل. ظلَّ جامدا ساهما في خيالات الأيام الماضية. تذكّرَ ذلك اليوم الذي أضحى علامة فارقة في حياته المنفلتة من العادات والقيود. الممكن وغير الممكن، الصح والخطأ، الحلال و الحرام، ال يجوز و ال ما يجوز ... إلخ. كانا في طريقهما، سيرا على الأقدام، إلى بيت ندى الكائن في حي السريان القديم(في حلب)، وكان الجو غائما و الوقت كان ظهرا و كانا يسيران بِ محاذاة الحديقة العامة، و كانا قد وصلا إلى مؤسسة الكهرباء حين بدأت السماء بِ تنبيه الناس من خلال الرعود و البروق الصادرة منها. الناس أخذت التنبيه على محمل الجد، و راحوا يسرعون إلى منازلهم، و كثيرون، منهم، يأخذون سيارات الأجرة. أمّا سارو و ندى، فَ لم يعيرا انتباها، ولم يبديا خوفا من الطقس وإشارات السماء. كانا يمشيان و كأنهما ليسا

من هذا المكان. بدأت قطرات المطر بِالتساقط رويدا رويدا. لم يكن لديهما مطرية للاحتماء تحتها، وما كادا يصلان إلى مدخل الحيّ، والذي يبدأ بِالطريق صعودا، إلاّ وكانت السماء قد باشرت بِسَكْبِ مياهها، وفي الحال تشكَّلت السيول المنحدرة من طلعة الحيّ إلى الأسفل بِ جانب رديف الرصيف الذي يعلو الشارع بِ مقدار خمسة و ثلاثين سنتيمترا تقريبا، و الذي شكَّلَ مسيلا نموذجيا منحدرا نحو شوارع المدينة. و خلال دقائق من بعد فتْح السماء ينابيعها، تبَلَّلا من شعرهما إلى أحذيتهما، وأدركا بِأنَّ المحظور قد وقع. المطر يغسلهما دون مداراة لِأيّ اعتبار. و بدأ الماء يتساقط من شعرهما وأكمام ثيابهما، وكأنهما خرجا من حمَّام سباحة. حين كانا يمرّان بِجانب البنايات دون اللجوء إلى تحت البلاكين، كان المتجمعون في الدكاكين و أمام مداخل البنايات ينظرون إليهما باستغراب. تذكَّر سارو أيام الطفولة في القامشلي كيف أنهم كانوا يمشون حفاة في مسيلات المياه، و البرك المتشكّلة بسبب غزارة المطر، كما هو حال هذا المطر. وقف في الشارع و خلع فردتي حذائه و جوربيه، و حملهما، و بدأ يمشي متتبعا مسيلات المياه. ضحكت ندى وهي تمسح مياه المطر من فوق عيونها وفمها وقالت: ماذا تفعل يا سارو؟ أَ لم ترى الناس كيف ينظرون إليك؟ انظر إلى السيارات كيف ركابها ينظرون إلينا. وليكن، قال سارو، هل نسيء إلى أحد بِ فعلتنا هذه؟
هيّا أَ لا تريدين تجربة هذه الفانتازيا؟ جرّبي أن تكوني غيرهم. ضَحكَتْ ندى و خلعت، هي الأخرى، أحذيتها و تابعا طريقهما تحت المطر عبْر مسيلات المياه و بُرَكِها. تابعا طريقهما في غمرة سعادة السماء لِفعلتهما وأنظار المارّة والمتجمّعين المندهشين أمام الأبنية و الدكاكين.

كان سارو يكتب يومياته، أو المثيرة و المتميّزة منها، منذ وقتٍ مبكّر. كان يضع دفترا مدرسيا صغيرا و قلما بِجانب رأسه حين كان يذهب للنوم. يكتب خواطر صغيرة، هي بين النثر والشعر، وتأثره في ذاك العمر المبكّر، بِجبران خليل جبران

و فيروز كان واضحا، و معظم شخبطاته آنذاك كانت عاطفية و إنسانية. الطبيعة كان لها دور في تكوينه الروحي. نهر الجغجغ كان على مبعدة مائة و خمسين مترا من منزله. النهر بِ حَدِّ ذاته كان عالَما كاملا بِ النسبة له. على ضفّتيه كان يتشابك الزل وأشجار الكينا والصفصاف، والطرفاء، و الحلفاء، و مستعمرات من النباتات الشوكية(الورود البيضاء و الحمراء و التوت البري الأحمر). بعد هذا السياج الطبيعي، كان المرج الأخضر ينبسط مستضيفا أزهار الربيع. السوسن، الاقحوان و شقائق النعمان، و أشجار مختلفة منها التوت و السنديان و الحور، و الزيزفون. كانت تلك الأشجار موئلا لِ الطيور المتنوعة، حيث كانت تبني أعشاشها بين أفنانها، و كانت محطات آمنة و رومانسية لِ العشاق الذين كانوا يستظلون بِ فيئها، و يسرقون القبل الشهية من شفاه بعضهم كلما سَنَحَت الفرصة لهم. كانوا يفعلونها في أوقات الظهيرة و ما بعدها في الصيف القائظ، حيث الناس في فترة الراحة و القيلولة. و لم يكن هناك مَن يعكّر عليهم خلواتهم من الأهالي، سوى الأولاد العفاريت مثلنا، حيث كنا نتتبّع الشباب و البنات من بعيد، طبعا أولئك الذين كنا نشكّ بِ أنهم عشاق، و كنا نطلق الإتهامات مباشرة عليهم، و خاصة المسكينة الفتاة. حيث كنا نوصفها بِ العاهرة و الشرموطة، و كنا نختلق القصص البذيئة حولها من خيالاتنا. و إذا كانت المسكينة ذات خلفية كبيرة نوعا ما(طبعا بِ النسبة لنا نحن الصغار)، كنا نقول بِ أنها تمارس الجنس مع الشباب من الخلْف، و حتى دون أن نعرفها. كنا نصطاد مثل هذه الحالات، و نسترق النظر إليهم من خلف البيوت القريبة من النهر. على مبعدة كانت غابات الحور تذهب مع النهر، و بِمحاذاتها كانت حدائق وحقول الأهالي تمور بِالحياة. نقل سارو ما كان متداولا من القصص و الحكايات بين الصغار، تلك التي كانوا يسمعونها من أمهاتهم و أجدادهم. كان قد كتبها مثلما سمعها من الكبار، لكنه فيما بعد عاد إليها و أضاف بعضا من الشروحات و الحواشي التي استقاها من

مصادر قديمة جدا. نقرأ ما كتب عن بعض تلك الحكايا ما يلي:
قبل اجتياح هذا الطوفان المعلوماتي الذي جرف روح الإنسان إلى الوديان و المنحدرات الخطيرة، كان الناس يتزاورون(يَزورون بعضهم)، يتسامرون، يسهرون بعضهم عند بعضهم الآخر، و خلالها كانت الأماسي تتحوّل إلى شبه منتديات. فَ كنتَ تسمع القصص و الروايات، و الأغاني، و الأمثال و الحِكَم. أمّا في البيت الواحد، فَ كانت الأم في أغلب الأحيان، هي الراوية و الحكواتية، حيث أنها كانت تقصّ علينا من خيالها وذاكرتها البريئة ما تيسّر لها من قصص وحكايات دينية، خيالية، رمزية، حقيقية. فَ القصص والحكايات التي سمعتها من أمي و أبي، كان فيها الكثير من الرمزية و الحكمة، فَ مثلا قصة آرو والنهر، ملخّصها. أنّ النهر يتحدث من خلال خرير و هدير مياهه، و هو ينادي كل يوم قائلا: انقضى النهار و لم يأتِ آرو، انقضى النهار و آرو لم يأتِ. و تفسيرها حسب أمي الحبيبة، هو أنّ النهر لا يستطيع النوم ما لم يأخذ ضحية. أي أنّه لن ينام دون أن يغرق أحدا في جوفه، ولِتقريب روايتها إلى عقولنا و جعلنا نصدّقها، كانت تأتي بِ حوادث الغرق التي حدثت في تواريخ خيالية لم تكن ذات أهمية بِ النسبة لنا نحن الصغار. الحكمة من ورائها، هي أن نبتعد عن النهر و أن نكون حذرين حين الذهاب إليه، و ألاّ نبقى عند النهر بعد غروب الشمس. و في اجتهادات الأهالي حول هذه الحكاية: كان النهر يأخذ شخصا واحدا– على الأقلّ– كل سنة إلى أحضانه، و أنّ كابو(Kapo) في إحدى الليالي المقمرة، كان قد رأى خيالا على شكل عروس بِ ثوب أبيض اللون مائل إلى الفضي كانت تتمايل في رقصة غريبة فوق مياه النهر. كانت تناديه إلى حضنها، نقول له: تعال إليَّ يا حبيبي كابو! تعال نرقص معا، ثمَّ نذهب إلى غرفتي هناك خلف تلك الأشجار، نسهر وحدنا، نشرب ماء السماء، و نتذوَّقُ طعام سيّدة الأنهار. ندلفُ إلى فِراشِ العذارى، و هناك نرتشف عصارة الحُبِّ، و نستخرج اللذة من أعضائنا السحرية.

سَ أجعلكَ تطير من السعادة و اللذة التي سَ أمنحكَ إيّاها بين أحضاني. اختلط الأمر على كابو، و لم يُمَيّز الخيال من الحقيقة، الواقع من الوهم. صار يمشي كَ الممسوس بِتعاويذ الأشباح. يمشي بِاتجاهها، و فجأة رأى نفسه في مياه النهر، و لِ حُسْنِ حظّه، كان المكان الذي نزل فيه في النهر خالياً من الدوّامات. سَبحَ إلى الضفة التي بِطرف بيوت الحارة. وهناك، راح يجمع جذوع الأشجار والأغصان المبعثرة كي يشعلها لكي يجفِّفَ ثيابه، و في الوقت نفسه يتدفّأُ حول النار. لكنَّ الكبريت الذي كان معه قد تَبَلَّلَ و فسد. في الأثناء كان شلّة من الشباب يتجهون إلى النهر، ربَّما لِ لعبِ القمار أو شرْب العرق. لاحظوا حركة غريبة على بُعْدِ خمسين مترا منهم. ذهبوا إلى حيث كابو المسكين يفتّشُ عن وسيلة لِ إشعال النار في الخشب المكوّم أمامه. عرفوه، سَلَّموا عليه، و استفسروا عن الحالة التي هو فيها. راح كابو يختلق حكاية بعيدة كلّ البعد عن حقيقة ما جرى معه. في الحال أشعلوا النار و جلسوا معه إلى أن جفَّفَ ثيابه و عاد إلى بيته. بقيَ الحدثُ غائبا عن أهل الحارة، و رؤية الشباب له في ذلك الوضع لم يُثِرْ الشكوك لديهم أبدا. إلّا أنَّه، في إحدى سهرات فتيان الحارة في الشارع، على الرصيف أمام بيوتهم، فَلَتَ الكلام من لسانه حول تلك الليلة، و بِ التالي افتضح أمره، و صار أهل الحارة يتناقلون حكايته. أمّا ميرزا فَ كان قد رأى، أيضا في ليلة قمراء، شكلا على هيئة عفريت بِ ثوب رصاصيّ اللون، يتأرجح على سطح الماء. خاف ميرزا ومشى بِ محاذاة المياه شرقا. رأى العفريت يمشي هو أيضا بِنفس الاتجاه. وسَّعَ ميرزا من خطواته، فما كان من العفريت إلاّ أن وسَّعَ هو الآخر من خطواته. وقفَ ميرزا في مكانه. العفريت أيضا وقف في مكانه. أسرع مهرولا و عينه على العفريت، رأه يهرول هو الآخر معه، فما كان من ميرزا إلاّ الركض سريعا مديرا ظهره لِ العفريت. و حين نقل ميرزا هذه الرؤيا لِ فتيان الحارة، أضاف من عنده أفعالا و عنتريات في مواجهة العفريت بِ قَصْدِ إظهار نفسه جسورا غير خائف

من الأشباح. أحيانا كان الأهالي يعثرون على غريق على بعد عدة كيلومترات من المدينة، إمّا يكون عالقا بين الزّلل و جذوع الأشجار، أو يكون عالقا في إحدى الدوامات التي تتشكّل في الخلجان النهرية، و التي نسميها(كولِ،كولِه)(Gole) و على ما يبدو هذه الكلمة دخلت في مفرداتنا عن طريق العثمانيين، ربّما تكون فارسية، أو تركية، و ربما تكون سريانية.

في محيط منازلنا كانت توجد عدة(كولات). أقربها إلينا كانت كولة أبو ديبو، نسبة إلى أبو ديبو الذي كان بيته يقع على تلة مشرفة على النهر، ولديه بستان خلف بيته، وكان يملك بئرا لِ سقاية محصولاته الزراعية. و كان أبو ديبو مشهورا لأنه كان يُخرج (يسحب) الماء من البئر عن طريق الحمار الذي يدور حول العمود المثبّت في مركز البئر، مديرا بِدورانه العمود (المحور) المتصل بِ المكاييل التي تمتلئ بِ الماء، وتصعد إلى السطح لِتنسكب في الساقية المخصصة لِ السقاية. المثير في المشهد بِالنسبة لنا نحن الفتية الصغار، كان في اللجام المصنوع من الجلد الأسود القاسي، يُعْرَف بِلجام العين، و الذي يوضعُ عادة على راس البعير أو الدواب، كي يمنعها من النظر إلى كلّ الجهات، و يجعلها تُرَكِّز حصرا على الطريق أو المسار المطلوب منها السير فيه و حسب. كان لدى أبو ديبو مثل ذلك اللجام، و كان يضعه على رأس الحمار كي لا يرى سوى أمامه عند المشي. و نحن كنا نقول لِ بعضنا حين نريد الذهاب إلى كولة أبو ديبو لِ السباحة: يلاّ يا شباب تعالوا نذهب لَ عند الحمار(أبو النظارات) أللي يحط النظارات. و على مبعدة مائتي متر تقريبا من كولة أبو ديبو، كانت كولة دربي (DRPY) جندو. و سُمّيَت كذلك، لأن جندو حين كان يسبح مع شلّة من الصبية في تلك الكولة، انزلق كلسونه و ضاع في الكولة، (الكلسون بِ اللغة الفارسية أو السريانية هو دربي). و باتجاه البدن(الحدود التركية) كانت توجد كولة فرنسا، أو جب فرنسا، و يقال بِأنّ الفرنسيين كانوا يستجرّون المياه منها لِ الشرب إلى خزان في القشلة

(الثكنة العسكرية)، وكانوا يوزّعون ماء الشرب على أهالي القامشلي. كولة فرنسا هذه كانت قريبة إلى حَدٍ ما من الكرخانة،الكرخانة هي مكان سكن بائعات الهوى، أمّا الشباب والرجال، فَ كانوا يسمّونهنّ بِ الشراميط. فعلا إنها قلّة أدب و نكران الجميل من قِبَل هؤلاء الداعرين الذين كانوا يلهثون خلف فساتينهنّ، و كانت ألسنتهم تتدلّى من أفواههم كما الكلاب في قيظ الصحراء. بِ المناسبة كانت تلك الشابات المحترمات تخضعن لِ الإشراف الطبّي بِ شكل دوري. عرفنا ذلك، نحن الصغار، لأننا كنا، أحيانا، نَراهنّ- بِ الصدفة- و هنّ قادمات إلى ، أو خارجات من، المشفى الوطني للفحص الطبي. و هذا المشهد كان مثيرا لنا، و كنا نتوقع بِ أننا سَ نشاهد سيقانَهنّ و أفخاذَهنّ البيضاء الحليبية. كانت أرواحنا تتراقص لِ مرأهنّ، وفي ذاك العمر الغرير لم نكن نعرف حقيقة مشاعرنا تجاههنّ، لكن في كلّ الأحوال، كان وجودهنّ ومشاهدتهنّ تسرّنا و تنعش أرواحنا. كنّ حالة فوق خيالنا؛ و لكي لا نثير شبهة حولنا و نحن واقفين أمام المشفى الوطني بِ انتظار رؤيتهنّ، كنّا نشير إلى اللقالق التي كانت ترفرف في أعشاشها فوق مداخن المشفى. كنا نصرخ إمّا مندهشين أو مُعجَبين بِ حركات الفراخ عند قدوم أحَد الأبوين و في منقاره أفعى لِ يقدّمها طعاما لِ فراخه.

كنّا نعتقد بِ أننا مكشوفون أمام الآخرين، و أنهم يعلمون سبَبَ وجودنا أمام المشفى، لذلك كنّا نقوم بِ تلك الحركات بِ قَصْد التمويه. نحن لم نكن نعرف عن العملية الجنسية سوى التخيّلات و ما كنا نسمعه من الكبار. كانوا يقولون بِ أنَّ الرجل يركب على المرأة و ينيكها(هكذا كانوا يقولونها بِ العامية). أمّا تفاصيل العملية من البداية إلى النهاية و ماذا يحصل لِ الرجل، و ماذا يحصل لِ المرأة، هل تتعرّض الأنثى لِ العنف والقسوة أثناء العملية الجنسية، وهل العملية مجهدة لِ الذكر...إلخ؟. كل هذه التفاصيل، لم نكن نعرف حلوها من مرّها. وأيضا في هذا الموضوع، تذكَّرت صديقا لنا في الحارة كان قد انتقل مع أسرته إلى مدينة حلب،

و أصبَحَتْ حلب مكان إقامتهم و ذلك بِ حكم عمل والده. كان هذا الصديق يكبرنا بِعدة أعوام. وفي إحدى السنوات جاء إلى القامشلي في زيارة لِ الأهل والأصدقاء. كان هذا الصديق، كما تبيّن، بالغا جنسيا، ويعرف الكثير، مما لا نعرفه نحن، عن العلاقات بين الشباب والصبايا. كان يتحدّث عن حلب و بنات حلب، و كيف أنهم يغازلون البنات في البلاكين المتقابلة و المتجاورة، و أنهم يتمتعون بِ مشاهدة صدورهن في البلاكين السفلية. كانوا يصعدون لِ الطوابق العليا و يخرجون إلى البلكون و يسترقون النظر إلى نهود البنات و النساء اللائي في البلكون الأسفل. كان يتحدث عن حيّ الميدان مكان سكناهم. إنه حيّ أغلبية السكان فيه من الأرمن. كان يَصِف ساحة وسط الأبنية التي تعجُّ بلاكينها بِ الشباب والبنات، والأغاني الأرمنية و العربية و التركية كانت تملأ أجواء الميدان. كانوا يتحرَّشون بِ الصبايا في مشاويرهم قرب الحدائق و الساحات، و تحدَّث عن فساتينهنّ– أل ميني جوب– التي تكشف جزءا من أفخاذهنّ فوق الركبة. كنا نستمع إليه مبهورين و مشوَّشين، كلّ واحد منا كان يخلق عالما خاصا به مستوحا مما يرويه صديقنا البالغ جنسيا، و العارف الأسرار الجنسية. كنا نجتمع في الحارة، كَالعادة،وكنا نحضر واحدا بعد الآخر وكنا نلتقي به. في إحدى المرات حضرنا أنا وهو قبل الآخرين، طبعا بِ الصدفة، وراح يتحدث عن عمله في حلب. أمّا أنا فَ حدَّثته عن المدرسة، لا أدري في أيّ صفّ كنتُ، لكنني أعرف بِ انني كنت في المرحلة الابتدائية. و بينما نتحدث معا، و إذْ بِ ابنة الجيران تمرُّ من جانبنا وتُسَلّم عليه، راحا يتحدّثان معا، و في الحال تنحَّيت جانبا بعيدا عنهما إلى أن أنهيا الحديث. عندها جاء صديقنا إليَّ وأبدى إعجابه بِتصرّفي، وأثنى عليَّ قائلا: أنتَ فهمان وراقي. ترك كلامه أثرا إيجابيا في نفسي، وشعرتُ بِأنني مختلف عن الآخرين. ذهبنا،شلّة فتيان الحارة مع صديقنا الذي يكبرنا سنّا والبالغ جنسيا، و الآتي من حلب، إلى السوق، نتفرج على المحلات و نثرثر أيّ كلام. ذهبنا إلى

منطقة السينمات نتفرّج على الأفيشات المعروضة عند أبواب السينمات لِ الأفلام التي تُعْرَض، و الأفلام التي سَ تُعْرَض لاحقا. كان الوقت قبيل الظهيرة. مشينا بِ اتجاه سوق الجَبَس و البطيخ و الخضار – اسمها سوق الهال، لكن نحن لم نكن نعرف ذلك– أثناء سيرنا في الطريق، تابع صديقنا، البالغ جنسيا، طريقه بِ اتجاه الكرخانة، وتبعناه نحن أيضا إلى هناك. هو تابع طريقه إلى حيث الأثداء البيضاء و الأفخاذ الحليبية. أمّا نحن فَ مكثنا بعيدا عن الباب الخارجي، و كنا نحدّق في الباب عَلَّنا نحظى بِ رؤية اللحم الأبيض. دخل صديقنا البالغ إلى حيث حوريات الجنس، حوريات المتعة و اللذة. أمضينا وقتنا عند جبّ فرنسا(كولة فرنسا) في أحاديث فارغة لا معنى لها إلى أن التحق بنا صديقنا الذي يكبرنا سنّا و البالغ جنسيا، و الذي تَذوَّق طعام الجنة، الذي مارس الجنس حقّا و حقيقة، ليس مثلنا نحن الذين نمارسه في الخيالات والتهويمات، ولا نعرف–حتى– كيف تتم العملية. في طريق العودة، و حين وصلنا عند باب السينمات، دخل صديقنا إلى مطعم نوري. أكل صنويشة طحيلات و صندويشة نخاعات، و شربَ كأسا من عصير الكوكتيل. نحن اعتبرنا، لا بل، تَرَسَّخت لدينا قناعة، بِ أنّ الذي يمارس الجنس يحتاج إلى فيتامينات لِ تعويض الطاقة التي فقدها بين أفخاذ الجنة(كولة اللذة). كنا ننظر إليه بِإعجاب، و كنا نشبّهه بِ أحد الممثلين الأجانب، ربّما واحدا من المصارعين العشرة، الفيلم الذي كان دان فاديس البطل الرئيس فيه. و أمّا في موضوع الكولات، فَ كانت هناك كولة سيتراك(Setrag). هذه كانت قريبة من منازلنا، و أذكر قبل خمسين عاما، عثر الأهالي على جثة رجل غريق في النهر، و كما قلت، قريب من البيوت. كانت الجثة قد استقرَّت على وجهها في الكولة. أهل الحارة تعرَّفوا عليه، لأنه كان قد اختفى قبل يومين. كانوا يعرفونه، و قالوا بِ أنه سيتراك الصايغ. أتذكَّر دكانه، و أتذكره هو شخصيا، لأنني كنتُ أراه في دكانه الكائن في حارة اليهود، حين كنتُ أذهب إلى العمل في العطل الصيفية، و كنتُ

أمرُّ ذهابا و إيابا من أمام دكانه. استطعتُ رؤية جثته من بين زحمة الناس. كان منكبا على وجهه كما الضفدع في حالة استرخاء مادّا يديه و رجليه على رسلها. لم أرَ وجهه، لكنهم كانوا واثقين، بل تأكدوا من أنه هو نفسه سيتراك الصايغ (رحمة الله عليه). قسمٌ من الأهالي أكَّد على أنه انتحر، و قسم آخر اعتبر غرقه قضاء و قدر، و آخرون كانوا يميلون إلى احتمال جريمة قتل. تذكَّرَ سارو، في أحد الأيام، حين كان يسير بِ اتجاه السوق متجاوزا محل الصائغ دون أن يتطلّع إليه، ثمّ وقف بِ تردّد، أو كَمَنْ نودي عليه و التفَتَ، أو أنَّ شيئا ما جعله يلتفت. راح ينظر إلى المعروضات عبر الواجهة، و المعلّم جالس خلف طاولة العمل منهمك بِ عمله الدقيق غير آبه لِ الخارج. يقول سارو(في أوراقه) في وصفه لِ المحل و المصوغات التي أدهشته بِ هذه الكلمات:

لم تكن واجهة محل سيتراك مفرطة في الأبهة و الفخامة. إنما احتوت على بعض الساعات المختارة المشغولة بإتقان سويسري، وتشكيلة من خواتم الزواج المنضدة فوق قطيفة فاتحة الزرقة، و في منتصف الواجهة ثمة ستّ أو على الأرجح سبْع قطع ذهبية منقاة؛ واحدة منها عبارة عن أفعى ملتوية على نفسها ثلاث مرات، مشغولة بِ الذهب المختلف الألوان. رأسها مزخرف منقوش بِ عناية مطعّم بِ فصّي ماس و العينان عبارة عن حَجَرَيّ ياقوت أخضر، مما جعلها غالية الثمن. في الواقع أنا كنتُ أفضِّل اللون البني المحروق للقطيفة بدلا عن اللون الأسود، غير أنّ الخلفية السوداء كانت تناسب أفعى الصائغ سيتراك، و كذلك القطيفة الرمادية التي كانت تشيع هدوءا مدغدغا لِ المشاعر تحت المصوّغات الفضية المتناهية البساطة و المتناسقة الأشكال على نحو ملفت لِ النظر. و ثمة خاتم مطعَّم بِ شذرة منقوشة نقشا رقيقا بارزا، بدا و كأنه سَ يمتص أنامل الصبايا و النساء. كانت هناك قلائد لا يستطيع المرء وضعها في عنقه دون عقاب؛ قلائد تجلب التعب مرتخية على قطيفة منجدة بيضاء مصفرة، لها شكل مقدمة العُنق.

و ثمة عقد مشغول بِ رهافة عالية رائع التنسيق، إطاره جميل التفنّن، نسيج بارع كثير الزخرفة. تُرى أيّ عنكبوت أفرز هذه الشرنقة الذهبية لِ تعلق بها خمسة فصوص صغيرة من الياقوت و فصّ كبير منه؟ هكذا قبَعَ العنكبوت، فَ ماذا كان ينتظر؟ إنه بِ التأكيد لا ينتظر المزيد من الياقوت، بل ينتظر فراشة يبهرها البريق الذهبي لِ تحطَّ على فصّ الياقوت الكبير.

حينئذ تساءل سارو عن سَبَب غرق الصايغ الماهر في النهر.

-5-

تأمّل سارو في مسألة الأنهار و الضحايا التي تأخذها. كان يعتبر الأمر طبيعيا، أي احتمال أن يغرق شخصا ما في النهر، احتمال وارد، لَ طالما هناك بشر يعيشون على ضفافه، و هناك بشر يسبحون في مياهه، و يصطادون الحيوانات النهرية من مياهه. و هناك بشر يستهلكون مياهه لِ الري و الشرب و السقاية. وطالما هناك بشر يستمتعون بِ جماله عند الغروب ولحظات الشروق، أي بكلمة لَ طالما هناك تفاعل متبادل بينه و بينهم، فَ لا بدّ من احتضان النهر لِ أحدهم والمضي به إلى أعماقه في رحلة أبدية. نعم إنه لَ أمر طبيعي جدا. لكن ماذا عن الشعوب التي تعيش مع الأنهار، ألَم يكونوا على حقّ في معتقداتهم عن الأنهار؟ تبيَّن بِ أنهم لا ينقمون على النهر حين يأخذ ضحية منهم؛ فَ أغلب الشعوب المشاطئة لِلأنهار كانت لديها معتقدات تقدِّس النهر، وربما في أيامنا هذه أيضا. غالبا ما تظهر الأنهار في المعتقدات الدينية كرموز لِ النفوذ الإلهي والاتكال الحياتي. والأنهار تستحضر صورة الطاقة الكلية لِ تربطنا بشكل حميمي بالمصدر الروحي الذي يغذينا و يديمنا، و هي تتدفق دوما لِ توصلنا بكل الأشياء. و قد استوعب القدامى، ومنهم المصريون، هذه الهبة الكونية فَسَمّوا مصر هبة النيل، و قدموا له الصبايا الجميلات قرابين بشرية لِ إرضائه. الأنهار المقدسة هي ليست مجرد تذكير أسطوري بِ حقائق منسية، إنما تمثل دفق الوجود البشري "من نحن؟ و ماذا نحن؟" و ليست كينونة ساكنة أو جامدة، و إنما سيلا فاعلا لِ البهاء الإلهي. فقد وصفها الفلاسفة منذ القدم بأنها البذرة أو البيضة التي تحوي الخصب الكوني الذي يحبل به رحم الكون اللامتناهي زمكانيا. و ينظر لهذه البذرة على أنها ثمرة الأسلاف و الأكوان السابقة المليئة بالحياة و الذكاء و الوعي. إذ من الطبيعي تخيل هذه البذرة اللامتناهية تنبثق في لحظة معينة لِ تتدفق نهرا

جارفا من الطاقة غامرة الكون بـ "مياه" البهاء و الألق.
نقل الأهالي عن الخال قرياقس قوله: إن النهر الذي يجعل الحياة في الحقول و البساتين و المراعي و مناهل المواشي مزدهرة، فَ هو بِ حاجة لِ التضحية من أجله، وإنْ لم تُقدَّم له ضحية سوف يضرب القحط والجفاف و الأمراض في المكان الذي يتجاهل نداء النهر. كانوا يأخذون كلام الخال قرياقس على محمل الجد، و كانوا يقيمون وزنا لِ كلامه وآرائه فيما بينهم، لأنه، كما يقول الأهالي، يملك كتابا قديما توارثه من أجداده الذين جلبوه معهم بِ التوارث من الرها، حين هربوا من منازلهم مخلّفين بساتينهم ومزارعهم و حقولهم خلفهم بِ سَبَبِ المجازر التي تعرّضوا لها على أيدي الأتراك و الأكراد. و يقولون بِ أن محتوى الكتاب مكتوب بِ دون تشكيل الحروف و دون نقاط فوقها و تحتها، و لا يمكن لِ أحدٍ أن يقرأ الكتاب سواه. و قالوا بِ أنه قرأ في الكتاب عن منشأ نهر الفرات، و أخبرهم بِ أنه تفجَّر من جبل آرارات حين ارتطمت سفينة نوح بِسفحه، و أن قاعدة السفينة تحتفظ بِ آثار تلك الصدمة، وأن السفينة كادت تنقلب لولا انحسار مياه الطوفان.
كان الخال قرياقس ينقل ما يقرأه من ذاك الكتاب إلى الأهالي،حين كانوا يسهرون في ليالي الشتاء الطويلة، و كانوا بِ دورهم يسردون تلك الحكايا و القصص التي يسمعونها منه، و غيرها التي يتداولونها فيما بينهم في سهراتهم الشتوية. قال الأهالي بِ أنّ الخال قرياقس قد حَدَّثهم على التوالي، و ذلك من خلال ما قرأه من كتاب الرها عن قصة نوح: بِأنّ الله قد طلب من نوح أن يصنع سفينة بِالمقاسات التي أعطاها له، وأن يجمع أزواجا(ذكر وأنثى) من الكائنات الحية وطيور السماء و وحوش البرية، لأنه سَ يرسل طوفانا يهلك كل ذي نفس حيّة.
يتحدّث الكتاب عن أنّ نوحا كان متواطئا مع الله، و كان هو الواشي،الفسّاد، الذي كتَبَ تقارير كاذبة عن أهل محلّته. تعرَّض نوح لِمشاكل كثيرة أثناء جمعه الأزواج لِ إدخالهم الفلك. كان قد أرسل أولاده لِإحضار الحيوانات والنباتات أزواجا أزواجا،

إلاّ أنهم لم يستطيعوا إحضار الفيل الذكر الضخم، ولم يتعرَّفوا على أنثى النمل، و في الوقت نفسه احتاروا في أمر الأفعى، فَ هي كانت سبب الخطيئة الأصلية، و لم يعرفوا إنْ كان الله قد سمح بإحضارها معهم أم لم يسمحْ بِ ذلك. سألوا والدهم عن هذه المعضلة، فَ تبيَّن بِ أنه، هو الآخر، لم يكن متأكدا من جلبها أو عدم جلبها. حاول الاتصال مع الله لِ البَتّ في الموضوع، لكن كما يبدو، بِ أنّ الله لم يكن لديه متسع من الوقت لِلردّ عليه. كان الوقت يمضي وهو في حيرة من أمره. في هذه الأثناء، كانت الرياح تسوق السحب بِاتجاه بعضها، فَ راحت تندمج في كتل ضخمة، و صارت كَ رقعة مرقَّطة في السماء غَطَّت المشرق و المغرب و ما بينهما. تشَبَّعت الغيوم بِ الماء حتى مال لونها إلى السواد البترولي. ظهرَ الرب من فوقها مكفهرّا منذرا كلّ البذور بِالفناء. أمّا الأرض فَ من شدّة الرعب، راحت تُخْرِج ضيوفها من جحورها معلنة بدء المأساة. أدركَت النسوة بِ الغريزة هول القصاص. تشوّش عليهن صورة الله. أطفأنَ المواقد و هَجَرْنَ مخادعهن نصف عراة، و الذكور راحوا يلملمون أعضاءهم في دهشة، تاركين نصف اللذة تحت الوسادات الوردية منسحبين في انكسار من الدفء الحميم إلى ساحة المحلّة، حيث الزواحف تزحف مسرعة والقوارض تتقافز والطيور تُحَوِّم فوق خيمة المنقذ، و الزبد يعلو هناك في الجوار من هجرة الأسماك و غيرها من ساكني المياه.
تشابكت السنابل في حقول القمح، وانحنَت أغصان الأشجار وألقَتْ نظرتها الأخيرة آخذة معها كلّ أنواع النبات، و انضوت تحت إمرة أشجار الغابات لِ الشروع في رحلتها الأخيرة نحو مجاهل الأقدار. بكى الأطفال المتحلّقين حول التنانير، راغبين في التهام الخبز الساخن كَ المعتاد، غير آبهين بِاسوداد الغيوم في السماء و لا بِ ضجيج الدواجن في الحظائر، وما بيَّته لهم الربّ في السرّ من عذاب و مصير أسود. كان اليوم ما قبل الأخير من الإنذار، و كانت واحدة من العذارى قد تخلَّفَت في خيمة عرسها تلثم ثغر بعلها، و تهمس في أذنه رقّة الله وحبّه لِ خَلْقه، دون

أن تعرف ما يجري هناك خارج الخيمة، وما قد صَمّمَ عليه خالقها لِمصير مرعب. انزلقت تحت زوجها في نشوة لِ تحقيق رغبة الله على الأرض. لكنها لم تكن تعلم بِ أنّها الليلة الأخيرة من فرحة زفافها، و أنّ أبواغها سَ تذوي فارغة من بذور بعلها بِ أمر السماء، و أنّ الله قد حَدَّدَ قائمة الأحياء من أحفاد مطرودي الجنة، إلى أصغر حشرات الأرض.

خرج الشيخ الجليل فَجْرَ اليوم العاشر من خيمته، سنة ستمائة من أيام واشي القبيلة. مشى متكئا على عكّازه نحو البيادر، كان يبحث عن تقيّ الله لِ حَسْم الموقف عمّا يُحاك لهم في الخفاء؛ لكن جنود السماء كانوا قد أنهوا المهمة، و الفُلْكُ كان جاهزا في الطرف الآخر من البيدر. عند ذاك أدركَ الشيخ الجليل بِ أنّ كلّ شيء قد انتهى. كان الشعب قد تجَمَّع من حوله، تاركين أولادهم يلهون و يلعبون تحت سحابة الخوف. لا هم فَرحين و لا هم مدركين ما سَ يقوله الشيخ لِ آبائهم و أرواحهم البريئة. حَدّقَ في الجمع باحثا عن نسل جاره. لم يجد أحدا منهم بين الشعب؛ أدركَ وقتذاك بِأنّ النهاية قد دَنَتْ، و أنهم باتوا وقودا لِ جحيم نُصِّبَ لهم غدرا في عجَل. قال لهم والغصّة تعصر حلقه:"أبنائي و بناتي! إخوتي و أخواتي! إنكم صورة الله على الأرض، و لم تخرجوا يوما عن طوعه، و أنكم كما كلّ البشر فيكم الخير و الشرّ، و أنكم لم تخلقوا لكم آلهة من تمر أو حجر، و لم تتغوّطوا في قدسِ أقداسه، ولم تتبوّلوا على اسمه أو كتابه؛ فَ ها هوذا قد قَسَّمنا و أصدر حكمه، بناءا على وشاية كاذبة مغرضة من شريكه الشيطان، لِ تدميرنا و إغراق نسلنا و ضرعنا و كَتْمِ أنفاسنا. له المجد و الدوام يا إخوتي، فَلْ نُصَلّي إناثا و ذكورا لِ عزّه و حكمته، لِ روحه التي نفخها فينا بِ مشيئته". سَجَدَ الجمع مباركا اسمه، مسبّحا بِ عدله و حكمته على الأرض، و انسحبوا مطمئنين نحو مخادعهم الدافئة. طلب نوح من جنود الله إخفاء الذين ادخلوا الأحياء إلى الفلك، بعد إتمام بنائه بِ ذات الأبعاد، و إرسال سلطان النوم على بقية السكان، و كلّ

ذي نفس من النبات و الحيوان. انسلّ مع زوجته و زوجات أبنائه داخل الفلك و أمرَ كبير أبنائه بإغلاق باب الفلك، راح يتفقَّد نظام الكون بين الأحياء و ترتيبهم في الطبقات الثلاث. كان السواد يلفّ المكان، عند إغلاق الباب والطاقات،و الريح كان قد بدأ بالصفير منذ لحظات، وصهيل الرعد راح يتعالى، بات المكان كَ مسرح في سالف الأزمان، حيث ومضات البرق تضيء و تنطفئ بين قرقعات صنوج السماء المرعبة، و صرخات البشر المرعوبين، و الأمتعة التي تترامى هنا و هناك معرقلة دروب الأطفال المذعورين الهاربين من المجهول إلى المجهول، و استغاثاتهم الممزقة لِ نوى الأحجار والصخور، وعويل الأمهات بحثا عن أكبادهنّ الوردية التي ضاعت تحت الأقدام الهاربة نحو الهاوية. صرخَ الشيخ الجليل من خلف الزحام في وجه الربّ: لماذا صدَّقتَ ذاك الواشي و قَرَّرتَ إنهاء الربيع هَهنا؟ هل فكَّرتَ مليًّا بِ ما تفعله الآن؟ مَنْ سَ يكفِّرَ عنكَ غدا، حين يظهر خطأ فعْلَتكَ واضحا جليّا؟ و هل سَ تكون هي الأخيرة من تهوّركَ مع الوشاة؟. تمسَّك نوح بِ الصرامة من الإيعاز الأول. تعثَّرَ سام بِ الأمتعة، نهضَ من كبوته مندهشا غير قادر تفسير ما يراه. عَزَفَ عن التفكير و اختلى في ركن بارد. أرسل روحه إلى فضاءات مزمجرة باحثة عن وريد الحياة تحت غضب السماء، تثَقَّلَت روحه في الخيَم المشرفة على السقوط، مجتازة أوحال المستنقعات الحديثة و آلات العزف المتناثرة في الساحات، و أصداء الأغاني المخنوقة في زحام الرعد. كان سام يبحث بِروحه عن إحداثيات واضحة، لم يكن يعلم بِ أنّ ظلّ الله يتعقَّبه في بؤسه و حرمانه، و هو المُتْعَب في العشق المقدّس. ارتفع عويل روحه شدّة، راح يمزّق أوتار السماء، لأن مخلوقة الله، حبيبته، كانت تحت الأوحال دون نفس، وأسمالها جرفتها المياه العاتية منذ ساعات عند الغسق. بحَثَ عن أخويه–حام و يافث– و الحزن قد ملأ روحه، صرخَ في أرجاء الفلك راغبا بِمعانقة أخويه دون أبيه، و أن يبكي في أحضانهم و يستجدي بكاءهم عليه و على أنفسهم من شَرِّ ما هو آت:

أيْ حام. يا أخي الحبيب، ها أنت ترى كيف أنّ السماء مزَّقَت روحي، و أنبأتني من خلال مراهقيها، بِأنّكَ سَ تكون عبدا لِ أخويك على الأرض، و هذا ما أمقته أكثر من الظلام.

اختار العاشق،سام، فصيلة القوارض. تحوَّلَ جسدا إلى نمسٍ لِ تقطيع السلاسل ولِ تحرير نفسه و أشقائه من عتمة الطلاسم. كانت السماء تزمجر بِحقد على أبنائها مرسلة نارا دون رحمة، فاتحة طاقات الهلاك. كان حام يبكي على صدر أخيه يافث.امتزجت دموعه بِ دموع يافث، حين كان يروي له أحلامه المنكسرة. أسرَّ له لقاءاته الوردية في المروج الخضراء، كيف كان يسرق القبلة المقدّسة من شفاه حبيبته بين قامات الأشجار، وانعكاس بريق الشمس على صفحة المياه في الجدول الهادئ، و كيف كانت الأزهار تتمايل على أنغام الحبّ المنبثقة من أوتار الربيع. كان يافث يبكي بِمرارة على نفسه و أخويه، و على ما فعله مختار الله، والده، لِ العِباد. راحت ذاكرته تدير قرص الصِبا، و خيالاته تعيد تركيب مِزَق الصور. ابتسم في سرّه حين شاهد نفسه بِ جلبابه في الحقول، تَذَكَّرَ بِ أنه كان دون سروال تحت الجلباب، و كذلك أخويه سام و حام. انشرح صدره حين مرَّت صور الصبايا و هنَّ بين الجيئة و الذهاب إلى النبع و أثداءهنّ تترجرج على الصدور. أدرك الآن بِ أنهنَّ كنَّ قد أطلقْنَ حرية أثدائهنَّ تحت القميص الناعم. راح يعانق الصور الحزينة الباعثة لِ السرور العقيم. كان الهواء الفاسد يملأ محيطه. أيقنَ بعد الخدعة الثالثة بِ أنه قابع في زريبة فيها إناث ثلاث، و زوجة الكبير،والده، والتي نسي اسمها في زحمة تلاطم الأمواج و عربدة قابضي الأرواح في أكوام القش و الأوحال. استعاد شريط الحدث لِ البداية، و كيف أنها قبعَت في زاوية من الفلك كَ الدجاجة وكأنّ الذي يجري في الخارج يخصّ الديدان و الجراد. ارتفعَ صوت البكاء والصراخ والعويل، حين ابتعدَ الفُلْكُ عن المكان الأوَّل. انقطَعَت مشيمة الكون هَهنا، وانْسَدَّت حناجر البالغين بِطَمي الربيع، وبَقيَتْ عيون الرجال

مفتوحة في دهشة تُحَدِّقُ في السماء دون رَفَّة جفنٍ. تَدَافَعَ الفلكُ نحو الشمال، و في الداخل بدأت مراسم التواصل، من كلام، و غناء و بكاء، و سَرْد الذكريات. شعروا بِ الجوع و العطش. راحت العجوز تشعل النار في ركن من الطبقة الأولى لِ إعداد الطعام. كانت هي الأُخرى ساهمة في خيالاتها، تسبح في فضاءات فوق العواصف وتحتها. كان صدى حكايات الجلسات الحميمية تطنُّ في أذنيها، وزقزقة الأطفال ما زالت تصدح في مسامعها. تعيد تشكيل ذوات القربى، وفي يديها منديل النواح. بكَتْ بِحرقة على الغوالي. كانت تسمع صخب الأمواج التي تضرب جدران الفلك. توَحَّدَتْ في اللحن الحزين الصادر من نهايات الزبَد الآتي من أطراف الخِيَم، و زعيق الجوارح المهوّمة على أشلاء الجثث المبعثرة التي تتقافذفها الأمواج الصاخبة. كانت تقرأ أسماءهم، وتُسَمّي الذين ماتوا دون أسماء، و الذين لم تتح لِ أوليائهم الفرصة لِاختيار أسماء لهم. ارتمَت على جثث تتقاذفها الأمواج العاتية. تعرَّفَت على أخيها بين الكتل المبعثرة حول جثته. أطلقَتْ صراخا مزَّقَ كبدَ السماء، و رَمَتْ منديل رأسها في الماء. مَزَّقَتْ سترتها، و أطلقَتْ أثداءها المترهّلة لِ مخالب الرياح لَعلَّ الله يخجل من المشهد، و يعود لِ جمال الكون و هدوئه منطَلَقًا، لَ طالما لم يفعل ذلك بعلها الخائن في البداية.

لامَسَتِ النيران، المعدّة لِ الطعام، ثيابها الفضفاضة. ارتفعَت رائحة القماش المحترق إلى أنفها. تحَسَّسَت محيطها، و راحت تطفئ أطراف ثوبها و أركان الفلك المشتعل بِفعْل القار المدهون على سطح الخشب. كانت السماء و الأرض بِ لون واحد، ومعداد الوقت قد امتزج بِ ذات اللون. باتَ الجوع، الطعام، مقياسا لِالزمن. في الوجبة المئة والخمسين من رحلة الطوفان، كان حام قد عرفَ زوجته قبلها بِ سبْعة اغتسالات لِ القمر، و القارض سام كان ينتظر مثيله. أمّا الطوطم نوح، فَ قد استحال إلى غراب أسود اللون ينعق فوق الجثث المتفسّخة، لا أحدَ يدري حزنه من فرحه. كان يافث يراقب الفئران و الجرذان، و جميع أفراد سلالة

أخيه الممسوخ(سام). تَسَرَّبَتِ المياه بطيئا داخل الفلك، وتصاعدت أصوات البهائم من الطبقات السفلى. اختلطَ الزئير والعويل بِ الرعد و حمحمة السماء قبل الفصل الأخير من بؤس الخلق والخلائق.اجتمعت الحيوانات حول امرأة حام لِبَعْثِ الدفء لِ مكان الوليد الآت.ارتفع صراخها مع أمواج الأثير، وراح يهزُّ الهواء المحيط بِ أُذن الربّ. جَفَلَ الله و أفاق من سباته، و أدركَ هَوْلَ فعْلَته و الدمار الذي أحدثه على الأرض بين الناس.

كان الخال قرياقس قد قرأ فيما بعد، في الكتاب نفسه، لكن في فصل آخر، مادة حول الطوفان على شكل قصيدة، لكنه لم يعثر على اسم كاتبها، و حين عَلِمَ الأهالي بِذلك، أصرّوا عليه بِ أن ينسخ ،على الأقل، نسخة واحدة من القصيدة. في البداية أبدى تململا في إمكانية قيامه بذلك، لكنه اضطر بِ سَبَبِ توسلاتهم له على تأمين نسخة من القصيدة. أمضى سبعة أشهُر و هو ينسخ أبياتها، و دون أنْ يغيّر حرفا منها. راح الذين يعرفون القراءة، يتداولونها فيما بينهم، و يروونها لِ غيرهم:

.....

بكى الله في سرّهِ

و قرَّرَ إبعاد الشرِّ عن الإنسان

حدَّدَ عهده عِبْرَ الألوان في الضباب

قوسٌ بِ ألوان الطيف

من عرشه لِ الغور السحيق

******* ***** *******

اندفع الفلك مع الأمواج نحو الشمال

كما كان مقررا له منذ أزمان

اصطدم بتلال مغمورة بالمياه

كَ تَلَّةِ بابل في ديار بَخْتَ نصَّر(نبوخذ نصَّر)

و جبريل القادم من غار حرَّاء –

أصرَّ بأنه تحطَّم هَهنا

و أن نوحاً، و خَلْقُ الله–

قد انطلقوا من هنا

أمَّا النوتي قائد الفلك

فقد أطلق صرخة الحياة–

من فوق جبل آرارات

حيث انحدر، و الجمْعُ الغفير من خلفه

يتقافز عبْر الأوحال و سَبْخات المياه–

راح البشر منهم يتدثَّر بِ الأسمال

و سواهم يتخطى المستنقعات

في كل الجهات.

....

كان الجبل قد استشعر بِ حدوث أمرٍ مريب على صدره، حين ارتطم الفُلْكُ بِ سَفْحه. عند ذاك أطَلَّت روحه من قمّته، و ألقَتْ نظرة على قطيع نوح وعشيرته البائسة. رَحَّبَ به قائلا:

أهلاً بكَ يا نوح، لقد أنقذكَ الله من الموت. لا أدري لِ أيّ سَبَبٍ اختاركَ من بين قومكَ. أنا صديق الله يا نوح، لكنني أحبّكم و أحبُ ذباب الأرض و ضفادع المستقعات، و الديدان النائمة تحت رَوْثِ المواشي، و الفراشات البريئة فوق الأزهار. هل أطْلَقْتَ لَغْنةً في السرّ على مُسْتَقَرّكَ؟ أ أَنتَ راضٍ مِن استقبال آرارات لكَ و لِ نَسْلِكَ؟ أخشى أن تفعلَ بِ الجبل كما فَعَلْتَ بِ أهلكَ مِنْ قَبل. هيّا يا نوح، تعال واكمل دورة الحياة هنا، لكن لا تحتسِ الخمر اليوم، دعْه لِ أحفادك و أحفاد أحفادكَ، ودعِ السماء لِ السماء يا نوح يا ابن التراب، و لِ يغفر لك الربّ إنْ شاء ذلك– كما يقول حفيد اسمائيل– " يغفر الله لِ مَن يشاء " .

تابع الخال قرياقس الجزء الأخير من القصيدة حيث جاء فيه.

بارِكْ نسلك بِ التساوي يا نوح–

هذا ما يقوله لك الرب من خلال فمي

و إنْ فعلتَ خلاف ذلك–

فَ لَعْنَتُه تكون عليك دون نسلك، و إلى الأبد

و لا تنس ألوان القوس

من مشرق الشمس إلى مغربه

و سرّ اعتراف الله–

لأجمل خلائقه على الأرض

لأنه الفصل الأخير من مأساة البشر

و الوداع الأخير تحت الشمس

– لِ آرارات –.*

*** أنظر الصفحة – 777 –**

- 6 -

في نهاية القصيدة كانت حاشية تشير إلى الصفحة–777– هذا ما كشفه الخال قرياقس لِ عدد من المهتمين في الحارة، و من ضمنهم سارو الذي راح في رحاب العدد، و بدأ بِ تطبيق خياله الماورائي في البحث و التحليل:

العدد– 777– هو من الأرقام السماوية، إنه مكوَّن من ثلاث سبعات، و الرقم سبعة كما هو معلوم رقم إلهي مقدَّس، و مجموع السبعات الثلاث–21– هو أيضا رقم مقدَّس، فَ هو نتاج جداء رقمين مقدّسين– 3×7– و لأن العدد – 777– هو من الأرقام المقدّسة، فَ هو سَ يكشف حدَثا تاريخيا يتعلق بِ الطوفان، و بِ إله الطوفان الذي لم يسمح لِ نوح بِ دخول نادي الخالدين، و ربّما يكون له علاقة بِ عدد يوحنا الذي تحدّث عنه في رؤياه. فَ يوحنا يتابع مسار إله بني إسرائيل الذي أرسل أسوأ شريعتين لِ البشر، واحدة على طور سيناء و الثانية في غار حَرّاء، أو قُلْ أفضل شريعتين لِ الانحلال الخلقي و اللصوصية، على الإطلاق، واحدة لِ موسى و الثانية لِ ورَقة بن نوفل. فَ هاتين الشريعتين تعبّران خير تعبير عن جوهر هذا الكائن الحيّ الذي صنعه ذاك الإله لِ يعبدوه. كان الخال قرياقس قد عثر في الصفحة– 777– و ما بعدها على نصوص مكتوبة بِ الآرامية، و كان قد حكى لِ أهل الحارة عن طوفان حدث قبل طوفان نوح. و ذكر بِ أنّ إله نوح قد أخذ مقاسات الفلك من الفلك البابلي، أمّا النوتي الذي قاد الفلك في الطوفان البابلي كان اسمه أوتو نابشتايم، و لم يكن مخبرا وفسّادا، لذلك كرَّمه إله بابل ومنحه الخلود و أسكنه في جزيرة خلف البحار لا يصل إليه أحدٌ من البشر. ما استطاع الوصول إليه سوى الملك الذي يجري في عروقه دم الآلهة، ملك أوروك الجبار جلجامش. جاء الملك في مسعاه إلى بوّابة العبور التي تحرسها إلهة الخمر سيدوري، و كان هذا الحوار بينهما:

سلام و محبة يا سيدوري ، يا ايتها الصبية الحلوة، يا صانعة الخمر التي تسكن هَهنا، يا حامية بوابة العبور إلى عالم الأزمنة، جئتكِ و أنا تَعِبٌ حزين. لقد شوَّشني المشهد الذي أراه في هذا المكان الموبوء. دعيني أعبر المحيط يا سيدوري إلى عالم الأزمنة لِ أطرح أسئلتي على العقل الكوني الجالس هناك فوق الأمكنة.

– أ لا تعلم أنْ لا أحد اجتاز المحيط إلى حيث تريد؟ فَ الشمس هو الوحيد الذي يعبر هذا المحيط إلى حضن الأرض. قالت سيدوري و تابعَتْ قائلة: تعال يا ابن الإنسان إلى حضني وارتوِ من هذا السلاف الإلهي. دعكَ من ارتعاشات دماغك فَهي تومض في فضاءات بعيدة حيث الأزمنة تتدحرج أمام العقل الكوني زمنا بعد زمن، فَ هو(العقل الكوني) الذي يسلّط الأضواء على الزمن المريض كي يقضي عليه بِ شعاع كوني تصدرها آلة جبارة متوضعة في المكان حيث الزمن الناضج لِ الموت والزوال. لا تنساق وراء الومضات المنبعثة من قعر الكؤوس الليلكية، فَ هي لا تكشف إلاّ لِ المحلّق في رحاب الكون، لِ السابح مع نجوم السماء، لِ قارئ الأبراج الفلكية من الدبِّ الأصغر إلى الأكبر وأبراج الشمس و القمر و برج الستات الثلاث و برج بابل التعِس. لماذا تريد العبور و مقابلة العقل الكوني؟ فَ الذي يدور في مخيالك قد تقرَّر البدء بِ تنفيذه. وأنا أعطيك قدرة العبور إلى الأزمنة لِ تكون شاهدا على الذي حصل و الذي سَ يحصل في المستقبل القريب،وأنا سيدوري صانعة الخمر حارسة بوابة العبور قلت لكَ هذا. إن العقل الكوني قد أكل جسد الإله و شرب دمه دون الجلوس على طاولة العشاء السري. كان يواجه الخصوم في مركز دائرته معتقدا بِ وحدانية الدائرة، و أنْ لا دائرة سوى دائرة النيل و الرافدين، و لذلك

جعل حدائق بابل و مومياء الملك القبطي الطيب الذكر دريئة في مرمى نيرانه السماوية. إنه لم يدرك وقتذاك بِ أن هناك دوائر أربع في أطراف الكون، و أن الأزمان الرئيسة هي خمسة أزمنة، و كل زمن منها فيه أزمنة موضعية. و بمحض الصدفة راحت دائرته تتوسع و تحتوي الدوائر الأخرى احتواءا كليا و جزئيا، و راح ذاك العقل، و هذه المرة عن دراية، يستحوذ على ميكانيزم الكون، و يعمل بِ بطء و عمق على إقصاء ثقافة الصحراء و العجاج من المسرح الكوني. تلك الثقافة التي هو أوجدها كَ بكتيريا لِ تعمل على تدمير الكيانات المكتملة من حولها وإحالتها إلى أكوام من الفتات والنفايات، فَ هي التي دمَّرت زقورات بابل و مسلات الأقباط و أرزات لبنان. هي التي ألصقت تهمة التجبّر والظلم بِ الملك القبطي زورا و بهتانا، هي التي قسّمت العالم إلى أخيار وأشرار، دار حرب و دار سلام، هي التي صنعت الانتحاريين قَتَلَة الأبرياء دفاعا عن شكلٍ يتراءى من بين الغيوم و السحاب، وجه يتموّج في وهج السراب؛ إنه(العقل الكوني) صنع ثقافة الغزو، ثقافة استباحة الحرمات و المقدسات، استباحة الحدود والحقوق. ثقافة هابيل الذي كان يستبيح حقل أخيه قايين، والذي حَبَاه(هابيل) إله الرعاة المقاتل الماكر الغدّار الجبّار. الإله الذي يخطئ و يتسرّع في عمله و يندم على بعضٍ من أفعاله. هذا الإله هو الذي تقمَّص كثبان الرمال و أفاعي الصحارى القاتلة. إن الأزمنة الفرعية راحت تتساقط في سدرة المنتهى كَ ثمار فاسدة تنتظر التعفن والانحلال. فَ زمن الأزمنة يمتص كل قاذورات الكون، و سَ يمتص ديدان و يرقات و جراثيم و بكتيريا هذا التعفن و التحلل إلى درجة التخمة، و سوف يتدحرج منتفخا ممتلئا بِ جميع الأوبئة

الخارجة عن سيطرة العلوم الكونية، التجريبية منها والنظرية، فَ هو (الزمن الكوني) لا يخضع للمنطق السقراطي ولا الأرسطي،لا يخضع لِ المنطق الجدلي الديالكتيكي ولا المثالي، لا يخضع لِ المعالجة بِ العلم الحديث، من الطب و الفيزياء و نظريات الكوانتم و داروين و فرويد، و لا حتى العلوم الصينية و إبرها و أبراجها و سورها العظيم، لا يخضع لِ روحانيات بوذا و أهورامزدا ولا لِ روحانيات إيل و أنليل، و لا لِ آشور و آدون و لا حتى لِ زيوس و لا لِ إزيس. إنه زمنٌ و لا كل الأزمنة. إنه قاهر لِ كلّ شيء و كلّ علم و ناموس و فلسفة و أخلاق. إنه زمن لا ينتمي إلى منظومتنا الشمسية، لا بل، لا ينتمي إلى مجرّة درب التبانة. كل الأزمنة المريضة عالجها العقل الكوني في كل الأمكنة. إنَّ هذه الأزمنة المتعفنة التي تتساقط الواحدة بعد الأُخرى، لَ هي خط الدفاع قبل الأخير لِ الزمن الكوني الذي راح يتلمّس رأسه بِ شكل جدّي. فَ العقل الكوني أخذ يلملم عدّة الشغل لِ تجميعها و بدء الإقلاع في ساحة الزمن الكوني. و سوف تبدأ اللعبة الكونية، لا بل، الزلزال الكوني الذي بدأت ملامحه في الظهور بعد سقوط أزمان التمييز العرقي و الطبقي، و الهجوم الكوني على مانهاتن، و غزوة(الغراوند زيرو) لِ استنساخ الخلافة في المكان الكوني، ومن ملامح الزلزال الكوني أيضا هذه الارتجاجات والانفجارات التي نشهدها في الدائرة الأصلية لِ العقل الكوني. فَ كما بدأت اللعبة في غار حرّاء و يثرب، فَ سوف تنتهي في بني قريظة و قينقاع، و معابد اللات و العزّى و هُبَل.

– لكن يا سيدوري دعيني أعبر إلى المعلم فَ أنا بحاجة إليه. إنّ نفسي تتألم، و خيال أنكيدو لا يبارح عيوني، و أرواح الذين قتَلْتهم تلاحقني من

شروق الشمس إلى شروقه ثانية. أمام إصراره و سعيه لِ الوصول إلى أوتنابشتم، تقوم سيدوري بِ إرساله إلى الملاّح أورشنابي، محذِّرة إيّاه– في الوقت نفسه– بِ المخاطر الحقيقية التي قد تقضي عليه أثناء عبوره بحر الموت. لم يبال جلجامش بِ التحذيرات، وقفز إلى المركب بناءاً على موافقة إلهة الخمر حارسة بوابة العبور، الفاتنة الحسناء سيدوري، و أمَرَتْ بِ صعود 21 مرافقا من ذوي البأس و القوة الفائقة، المدججين بِ الأسلحة الفتاكة إلى المركب، لأن هذه الرحلة مخالفة لِ قرار الآلهة، الذي يمنع عبور أيّ كائن إلى الجزيرة و مقابلة أوتنابشتم. فَعَلَتْ ذلك تحسّبا لِ هجمات قاتلة من كائنات مجهولة. عدد المجذّفين 50 من الرجال الأقوياء، 25 في كل جانب من الفلك. جميعهم مع المرافقين هم تحت قيادة النوتي أورشنابي. بعد غروب الشمس، انتظر أورشنابي مقدارا من الوقت إلى أن أشرقت ليلى مقابل قيس في الطرف القريب من السماء. في هذه الأثناء وجَّه مقدمة المركب بِ اتجاه ذيل الدبّ الأكبر و أَمَرَ بِ التجذيف. على بعد ثلاثة أميال من حديقة سيدوري، قام بِ اختباره على ظهر المركب لِمعرفة اتجاه الرياح، و ذلك بِ صعود أحد الرجال إلى أعلى الصاري الرئيس المنصوب في وسط المركب و سكب المياه من ذلك الارتفاع لِ يصار إلى تحديد وجهة الريح، و على أساس ذلك سَ يُصدر أوامره بِ نَشْرِ الأشرعة. إن خط سير المركب سَ يكون كما بدأ، و بعد أن تصبح النجمة الثانية من ذيل الدب الأكبر على يسار أورشنابي الواقف في غرفة القيادة على سطح المركب و في مقدمتها، سَ يطوي الشراع الثالث من الخلف و ينعطف إلى القائم الخلفي الأيمن لِ الدبّ، والطلب من سبعة عشر مجذّفا بِالاستراحة إلى أن تصبح نجمة القائم الخلفي تلك خلف غرفة القيادة، عند ذاك يعود المجذّفون السبعة عشر إلى أماكنهم وينشر الشراع الثالث، و يذهب عشرون من المجذّفين لِ الاستراحة.

سَ يمخر المركب عباب البحر بِسرعة خمس نجمات سماوية إلى أن يخترق شعاع نجمة جولييت قمة الشراع الأول من مقدّمة المركب بِزاوية 33 درجة، حينئذ يعود المجذّفون العشرون إلى أماكنهم. أمّا الثلاثة عشر الباقون فَ يكون دورهم في الاستراحة، ويطوى الشراع الجانبي. وعند بلوغ المركب حدود نجمة روميو، يعود المجذّفون الثلاثة عشر إلى أماكنهم ويجعل النوتي سرعة المركب/7/ نجمات سماوية، ويسير بِ تلك السرعة إلى أن يظهر أول شعاع الفجر بِاللون الأحمر الليلكي بِزاوية 77 درجة مع الأفق. وقتها يتبع الملاّح مجموعة نجوم طريق التبن مع طَيّ الأشرعة الأولى و الثالثة و الجانبية، و إبقاء الشراع الأوسط منشورا. و عند اختفاء نجمة الصيح يحلّ الشراع الأوسط أيضا، و يخفّف من سرعة المركب إلى ثلاث نجمات سماوية إلى أن يدخل حدود جزيرة الخلود. هكذا هو المسار الفلكي لِرحلة الذهاب. بعد تحديد اتجاه الرياح، وضبط الأشرعة وتوجيه مقدمة المركب نحو الدبّ الأكبر، طلبَ أورشنابي من جلجامش النزول إلى الطابق السفلي كي يخلد لِ النوم. إلاّ أنّ الأخير رفض تركهم لِ المصير المجهول في بحر الموت، و بخاصة في هذا التوقيت الذي أصبح بحر الموت مظلما تماما. أمّا النوتي فَ راح يشرح له خطّ سير الرحلة، وأنّ الأبراج الفلكية التي تصادف مواقع مرور المركب فيها تدلّل على نجاح الرحلة و الإفلات من هجمات الوحوش، و خاصة أنّ البداية تكون من ذيل الدبّ الأكبر. فَفي هذا الوقت يكون الشمس في برج الجدي، وهذا يعني أنّ المركب الذي برجه هو برج الجدي سَ يُمضي ليلة هادئة على العموم، أقول على العموم، لِ أننا قد نتعرّض لِ هجمات شرسة حين يمرّ الشمس فوق نجمة الغجرية الهندية، التي سَتقع بين الشمس و برج الجدي. لذلك، قال النوتي، لا داعي لِلقلق، وعليك أن تخلد لِ الراحة والنوم، فَ إنك، كما هو واضح، مهدود من التعب. يبدو أنّ النوتي نجح في إقناع جلجامش

لِ الاطمئنان على الرحلة. تابع المركب خط سيره، أمّا المرافقون فَ قد توزَّعوا على سطح المركب كما يلي. سبعة منهم حول قمرة القيادة في المقدِّمة، أربعة في المؤخرة، وخمسة في كل جانب من المركب.أمّا جلجامش فَ قد غَطَّ في نوم عميق في الأسفل.

البحر لم يكن هائجا، ولم يكن هادئا تماما. كانت الأمواج تؤرجح المركب في بعض الأوقات، و كانت النوارس تزعق فوق رؤسهم هاربة من وطاويط البحر الجبّارة التي تمزّقها بِ أنيابها المرعبة، كانت تصطادها لِ مجرّد دخولها في دائرة رؤياها. كانت تتابع فرائسها بِدقّة متناهية من خلال آذانها التي تشفط صدى أبسط و أهدأ حركة. كانت تحدِّد موقع الفريسة، حتى، من خلال تنفّسها. تجوب، هذه الوطاويط، فوق أمواج البحر بِ خفّة و دون إحداث أيّ ضجيج. ترسل أشعة من عيونها الكروية الحمراء المرعبة إلى الأفق لِ تحديد مواقع الأجسام المتحركة فوق الأمواج.

لم يلاحظ البحّارة أيّة حركة مريبة في الجوار سوى زعيق النوارس. و ما كادت تمضي ساعة من الإبحار، حتى تعرّض المركب لِ هجوم صاعق من سرب من الوطاويط البحرية الضخمة. دارتْ معركة شرسة بينهم، إذْ تَمَّ قتل أثنين من السرب المهاجم، و في الوقت نفسه، تَمَّ اختطاف ثلاثة من البحّارة المرافقين، و في السماء استطاع أحدهم طَعْنَ مختطفه، بِ سيفه الفولاذي، طعنة قاتلة، مما أدّى إلى سقوطه من بين مخالبه في البحر قريبا من المركب، و بِ الكاد استطاع رفاقه إنقاذه من بين لجج الأمواج، حيث كان قد تعرّض لِ عَضَّة في كتفه قُرْبَ عنقه أدَّتْ إلى كسر عظم الترقوة. و في الحال صنع البَحّار المختص بِ معالجة المصابين بِ سبب المعارك إنْ مع الأعداء من البشر، أو مع الوحوش الضارية، صنع عجينة من دقيق قشور الرمان مع دقيق الكمون و الزنجبيل و دقيق أوراق الغار. سكبَ على الخليط مقادير

معينة من النبيذ الأبيض و زيت الزيتون. فَرَشَ العجينة على ورق البردي و وضعه فوق عظم الكتف والترقوة، وشدَّه بِ القنّب المصنوع من خيوط الحرير الهندي، وطلبَ منه أن يرتاح و ألاّ يستعمل ساعده المصاب. أمره النوتي بِ النزول إلى الأسفل حيث جلجامش نائم هناك. تابع المركب رحلته بعد انتهاء المعركة و الفوضى التي سادت في مسار الرحلة، و في تلك المعمعة انحرف المركب، في غفلة من أورشنابي، بعد أن أصبحت النجمة الثالثة من ذيل الدبّ الأكبر إلى يساره. أمّا خط السير كان يقتضي أن ينعطف بعد أن تصبح النجمة الثانية(لا الثالثة) من ذيل الدب الأكبر إلى يساره، و بِ سبَبِ هذه المسافة الفلكية التي تم تجاوزها، دخل المركب في منطقة غير آمنة. إلاّ أن النوتي لم يكن على علم بِما حصل، وقاد المركب بِ حسب المسار المخطَّط. لكن الشك بدأ يساوره حين لاحَ له الشعاع الأحمر الليلكي، لكنه لم يشكّل الزاوية المقرَّرة مع الأفق، و هي الزاوية 77 درجة، حينذاك بدأ بِ تصحيح مسار المركب، لكن كما يبدو كان قد فات الأوان. في الأثناء بدأ المركب بِ التأرجح فوق سطح البحر، كَمراجيح الأطفال في أيام الأعياد. لكن مع مرور الوقت صارت حركة الأمواج عنيفة، و زوايا التأرجح بدأت تتوسَّع، و قامات الأمواج بدأت تلوح أمام النوتي. أدرك في الحال بِ أنهم قد دخلوا في قلب الجحيم، و أنّ عاصفة هوجاء تهاجمهم. راح صفير الرياح يصمُّ آذانهم، و الأمواج تلطم المركب بِ عنفٍ. تحوَّل المركب إلى، مجرد، سفينة ورقية تتقاذفها الأمواج المرعبة، وتضرب المركب دون رحمة. لم يعدْ البحَّارة قادرين على التحكم بِالمركب. تكسَّرَتْ أربعة مجاذيف من الجانب الأيمن و ثلاثة من الجانب الأيسر، وقذفت الأمواج هؤلاء المجذِّفين إلى أعماق المياه الهائجة، وراحت الأشرعة تتمزَّق وتحطَّمَ الصاري الرديف، زَبَد الأمواج والرذاذ المتطاير منها لم يترك لِلبحَّارة فرصة الرؤية لِمعرفة ما حصل. أمّا الحيوانات المفترسة

التي لم يحالفها الحظ لِ الابتعاد من دائرة هذا الإعصار المدمّر، فَ هي أيضا كانت تتطاير كَ قَسَلِ الحنطة في زوابع الصيف في بيادر أوروك، و كثير منها تقَّصّفَت أجنحتها و سقطَت كَ السهام في لجج الأمواج لِ تتحوَّل إلى طعام لِ أسماك القرش و حيتان الأوركا، و كانت الفقمات، التي لم تلحق لِلغوص إلى الأعماق، تصطدم بِ جوانب المركب والصاري الرئيس بِ عنف وتتطاير أحشاءها و دماءها في وجوه البحَّارة. كاد المركب ينقلب على خصره الأيسر، لكن لِحُسْنِ حظهم، تعرَّض لِموجة عملاقة من الطرف اليسار لِيستقر بين الأمواج. و في الأثناء أمَرَ النوتي أثنين من المرافقين بِ النزول إلى الأسفل و إيقاظ جلجامش، إنْ لم يكن قد استيقظ بَعْد. حين كانت الأمواج تضرب المركب و مَن و ما عليها، كانت الإلهة نيسون قد نزلت من الأعالي إلى حيث ابنها جلجامش كان نائما في الطابق السفلي. أيقظته من النوم و بَلَّغَته قرار الآلهة المتضمن إنقاذه مع المركب و جميع المرافقين معه، و أنه سَيكون بِمنأى عن التحلّل، وأنه سَيكون خالدا في أطهر مكان على الإطلاق، و لن تأكله الديدان أبدا. في الأثناء كان المرافقان الأثنان في طريقهما إليه، وسمعاه وهو يتحدث مع شخص، و عند وصولهما إليه لم يريا أحدا سواه، و البحّار الجريح الذي يخلد لِلراحة وهو نائم. كانا مبلّلين مرتبكين. طلبا منه الصعود إلى سطح المركب و مقابلة النوتي. صعدوا في الحال إلى السطح حيث الأمواج العاتية تضرب الصواري و الأشرعة المتبقية، راحت المياه تغمر رؤسهم و تلطم وجوههم. كان جلجامش قد وضع أسلحته كلها في الأسفل، و كان يرتدي جلبابه الأبيض و الزنّار القرمزي الذي به يشدّ خصره، و شالا ترابي اللون على كتفه. كانت المياه تتساقط من شعره المسدل على كتفيه.اقترب من النوتي في غرفة القيادة، أدرك في الحال بِأنه لم يعد يسيطر على المركب. طلبَ أورشنابي منه أن يفعل شيئا يساعدهم لِلخروج من دوّامة

هذا الإعصار الهائج. توجَّه جلجامش إلى وسط المركب عند الصاري الرئيس، أمسكَ به بِيده اليسرى، أمّا يده اليمنى فَرفعها إلى مستوى كتفه و مدَّها بِ اتجاه الأمواج العملاقة و أمرها قائلا: بِ اسم والدتي الإلهة نيسون آأمركِ يا أيتها الأمواج ويا أيتها العاصفة بِ أن تهدأنَ حالا، وما هي إلاّ لحظات حتى هدأت العاصفة واختفت الأمواج. أمّا البحّارة و قائدهم فَ قد انعقدت ألسنتهم مما رأوا، تملّكهم الرعب و الذهول أمام هذا الذي تحكّمَ بِ العاصفة والأمواج الهائجة. طلبَ النوتي من بحّارته البدء بِإصلاح ما أفسدته العاصفة، أمّا جلجامش فَ قد حمل السلال و شبكة الصيد تاركا رأس الحبل الثخين عندهم. غطس في أعماق البحر،وراح يصطاد مختلف أنواع الأسماك و يجمع جراد البحر و الروبيان و الكركند و القنافذ و السلعطانات و القواقع والقريدس. وجمع من أعشاب البحر الطحالب والسرخسيات والكزبرة الصفراء والجرجير البحري والغوتوكولا والتي تُعرف بِ(ينبوع الشباب). جمعَ صيده في الشبكة الضخمة و طلب منهم أن يسحبوها إلى ظهر المركب. مَدّوا له الوريس لِيصعد إلى السطح. طلب منهم أن يحضروا ذاك البحّار الذي تعرَّض لِهجوم الوطواط المتوحّش. سأله عن حاله و عن جرحه، و طَلبَ من البحّار المختص بِمعالجة الجرحى والإصابات المختلفة، أن يبدأ بِتحضير لَزْقة جديدة بِ حيث تشمل مكوّنات عجينتها على: مسحوق من أشواك القنفذ البحري و قشرة الكركند وجراد الأعماق مع دقيق الشاي الأسود والغار وسرخس البحر. يُسكَب فوق الخليط زيت كبد الحوت والنبيذ الأبيض وكمشة بِمقدار كفّ اليد من بيض السمك المهاجر. يُعْجَن الخليط مع الحنّاء الهندي و من ثم يُفْرَش على الورق الفرعوني. توضع هذه اللزقة مكان اللزقة القديمة بعد غسل الجرح بِ ماء البحر و زيت النخيل. أمّا البحارة، فَ قد اقتسموا الأعمال فيما بينهم. في الأثناء دعاه النوتي إلى غرفة القيادة، ريثما ينتهون من

الإصلاحات و تجهيز الطعام. و راح يشرح له ما حصل أثناء مهاجمة الوطاويط، و كيف أن خللا بسيطا حصل في خَطّ السير، وأطْلَعه على الزمن المتبقي لِلوصول إلى الجزيرة. انتهى البحّارة من تحضير الأطعمة، و معالجة جرح البحآر المصاب. كانت الطاولة المستطيلة المليئة بِالأطعمة المتنوّعة جاهزة، وعلى طول طرفيها كانت المقاعد الخشبية جاهزة، و تَمَّ الطلب من النوتي بِ التفضّل إلى الطاولة. حينها كانت السماء قد اكتسَت بِ وشاح متدرّج في الألوان، بدءا من الليلكي، ثم الأحمر المائل قليلا إلى البنفسجي الفاتح وثم الأحمر والبرتقالي، وكانت النجوم تغادر تباعا الحديقة السماوية. وقف الجميع حول طاولة الطعام وفي أيدهم كؤسهم الخشبية المترعة بِالنبيذ الأحمر، في هذه الأثناء رفع النوتي كأسه و توجَّه إلى السماء شاكرا إياها على حمايتها لهم، و شاكرا إلهة الحب، أُمّ العذارى، القمر الحبيب الجميل رفيقة العشاق، التي تشعُّ بِ نورها المقدس. و قَدَّم الشكر أيضا لِ أيقونات الحب والوفاء، ثم توجّه إلى أرواح هؤلاء الذين قضوا وهم يقومون بِ عملهم و يدافعون عن المركب و مَن عليه، و ذكَّر بِ خصالهم الحميدة و أخلاقهم الرفيعة و شجاعتهم الفائقة. طلبَ من الجميع أن يسكبوا نبيذ كؤسهم في البحر إكراما لِ أرواحهم الحزينة. خلال تقديم النبيذ الأحمر لِ أرواحهم، هتفوا بِصوت مجلجلٍ بِ حياتهم و أقسموا بِ أنهم(الأموات) سَ يبقون أحياءا في ذاكرتهم ما دامت القمر الأم تطلّ عليهم كلّ ليلة من عليائها المقدّس. تابع المركب رحلته إلى حديقة الشمس التي يسكنها أبو البشرية، و عند شروق نجمة قيس كان المركب قد وصل إلى الجزيرة حيث يسكنها أبو البشرية – أوتنابشتم–. و في هذه الأثناء تقدّمَ النوتي من جلجامش قائلا: ها قد وصلنا، سوف ننتظرك هنا ريثما تنتهي من زيارتك، لِنعيدك إلى حيث أتيت منه. أمّا نحن فَ سَ نقوم بِ تجهيز المركب على أكمل ما يمكن تجهيزه، و

الآن يمكنك النزول والذهاب إلـه. نزل جلجامش و سار إلى حيث أوتنابشتم ينتظره. ألقى جلجامش تحية الملوك عليه، وحدّثه عن مغامراته و مآثره التي اجترحها مع رفيقه و صنوه أنكيدو، و بَيَّنَ له الحزن العميق الذي سَبَّبه له موت رفيقه، وكيف أنه أُصيب بِصدمة حين رأى صديقه جثة هامدة و الدود يأكل عيونه و أعضاءه. راح يطلب منه إنقاذه من ذاك المصير، و مساعدته لِ الحصول على الخلود. حين لاحظ أوتنابشتم إصراره في السعي نحو الخلود قام بِ عَرْض فرصة عليه لِ يصبح خالدا. إذا تمكَّن من البقاء متيقظا دون أن يغلبه النوم لِ مدة 6 أيام و 7 ليالي، فَإنه سَ يصل إلى الحياة الأبدية. و لكن جلجامش يفشل في هذا الاختبار، إلاّ أنه ظلَّ يلحّ على أوتنابشتم و زوجته في إيجاد طريقة أُخرى له كي يحصل على الخلود. تشعر زوجة أوتنابشتم بِالشفقة عليه، فَ تدلّه على عشب سحري تحت البحر بِ إمكانه إرجاع الشباب. أمّا أوتنابشتم فَأطْلَعه على مصيره الآخروي بِطريقة غامضة، فَهو يعرف بِأنَّ نهايته سَتكون كَنهاية أيّ إنسان فانٍ على هذه البسيطة.لكنه جعله يعتقد بِأنَّه سَيكون بِمنأى عن الموت؛ إذْ قال له:"إنّك يا جلجامش سَ تَفْلَت من التعفّن من التحلُّل، ولن تطالك الحشرات واليرقات التي ملأت عيون صنوك أنكيدو. لن تدخلَ تحت الأرض ولن تأكلك الجوارح والديدان. سَتعيش في مكان طاهر إلى الأبد. و الآن عليك أنْ ترتاح و تنام هنا، و حين تجد نفسك جاهزا لِ العودة فَ الملاّح أورشنابي سَ يعيدك إلى حيث أتيت. كُنْ يقظا! راقب السماء جَيّدا! فَ كثير من أسرار الكون و الحياة تُكْتَبُ على صفحتها البهيّة. سَيُحَلّقُ نسرٌ ذهبيّ بِ اتجاه ولادة الشمس. يجب أنْ تراقبه و ترافقه في مسيرته الكونية و تسجّل الأحداث التي سَ تقع، لأنَّ مصيرك الأبديّ ومصير نسلك من بعدك متعلّقٌ بِمسار هذا النسر الذي يتبع الشمس ابدا. سَتجد هنا، في هذه الحقيبة الجلدية، معلومات سريّة و تفاصيل دقيقة

مع الشروحات اللازمة لِ الرموز المثبتة على الخرائط المرفقة. إنَّها سَ تكشف لك ما سَ يحدث في أزمان قادمة من كوارث و حرائق عظيمة و حروب مدمّرة. إيّاك أنْ تَعْبثَ بها أو تَضيع منك".

في طريق عودته تعرَّض جلجامش لِأحداث ومخاطر مميتة، وذلك لأن القدوم إلى هذه الجزيرة هو من المحرَّمات، و الذي يتجرَّأ و يطأ أرض هذه الجزيرة، سَيذوق الموت لا محالة. نزل جلجامش إلى الأسفل، تفقَّدَ أسلحته و قام بِ ترتيبها و تجهيزها كي لا يتأخر في ارتدائها عند الضرورة. كان جلجامش قد حصل على هذه الأسلحة كَ هدية من الملك السوري أجينور، والد الأميرة أوروب، حين كان في رحلته مع صديقه أنكيدو لِ قَطْعِ الأشجار من أرزات لبنان، و الملك كان قد عثر عليها في حديقة قصره. حصل ذلك حين قرَّرَ كبير آلهة اليونان زيوس بِ اختطاف ابنة الملك أجينور، الأميرة أوروب شقيقة قدموس. حينها أوعز(زيوس) لِ ابنه هيبايستوس،إله النار، بِ صنْعِ أسلحة حربية بِنفسه. و قام زيوس بِ حملها في صناديق ذهبية إلى حديقة قصر الملك، معتبرا إيّاها(من طرف واحد) مهرا لِ العروس، و من ثمّ اختطف أوروب و تزوّجها في جبل الأولمب. صعدَ جلجامش إلى السطح و توجَّه إلى المقدمة، واستند إلى العارضة الجانبية مطلقا العنان لِنظره. كانت السماء قد خلعت ثوبها المزركش حين تحرَّكَ المركب، وراح النوتي يستدل مسار الرحلة بِالشمس و الظلال. كان طريقهما(المركب و الشمس) هو نفسه، يسيران إلى الغروب، وهكذا أبحر المركب. أمّا أورشنابي، فَبعد حسابات ورسومات أجراها على صحائف القيادة، توصَّل إلى وجوب إبقاء ظلّ الصاري الرئيس في منتصف وأمام المركب. وهذا المسار يستدعي عملا حثيثا و دقيقا من القائد والطاقم، لِ التحكّم بِ السرعة والإتجاه من خلال المجذّفين و الأشرعة، ما يجعل بقاءهم في المسار الصحيح. كان جلجامش يتابع مواكب الدلافين

المرافقة لِالمركب على الطرفين، و كأنها تقوم بِ دور دليل البحر و التسلية. و في بعض الأحيان كان بعضا منها يُخْرِج نصف جسده من المياه وقوفا و يقوم بِ حركات لولبية لِ الإثارة، و كأنها ترسل إشارات الصداقة لهم. و في البعيد لاحظ النوافير التي تشكّلها الحيتان أثناء تنفّسها، و خلفها النوارس تصطاد الأسماك المتطايرة من حولها، كما أنها ترافق المركب أيضا و تقتات من مخلّفات الأطعمة والأسماك التي قد تظهر على السطح. أمضى جلجامش فترة الظهيرة في الطابق الأسفل، وحين صعد ثانية إلى السطح، كان خيال (ظلّ) الصاري الرئيس قد انقلب إلى خلف المركب، و كان ممددا على طول المركب و في منتصفها، حتى امتدّ قليلا منه على سطح المياه. نادى النوتي على جلجامش إلى غرفة القيادة، و راحا يتحدثان عن المغامرات التي قام كلّ واحد منهما، و الأحداث و المخاطر التي تعرّضا لها في حياتهما المثيرة. بعد تمدُّد الظلّ مسافة متر واحد على مياه البحر،لاحظَ النوتيّ غياب النوارس من الجوار، و أيضا غياب الدلافين من حوله، و جلجامش أيضا لاحظَ ذلك. لذا سأله عن سبب هجرة النوارس والدلافين عن منطقتهم، و تساءل ما إذا كان ذلك دليلا على حدوث زلزال في مكان قريب. قال جلجامش لِ النوتي: هل يُعْقَل أنّ زلزالا قد حدثَ في مكان ما، أو على وشك الحدوث؟ فَ الحيوانات هي أوّل الكائنات التي تستشعر بِحدوث الزلازل. أ يكونُ اختفاؤها أو هروبها من المكان استشعارا لِ خطرٍ داهم؟. بدأ الشك يساور النوتي لِ اختفاء رفاق الدرب، فَهو كَ بَحّار متمرّس و خبير في البحر و سلوك الحيوانات المرافقة لِالمراكب، توقَّع بِ وجود خطر، غير الزلزال، جعل النوارس و الدلافين تهرب من محيط المركب. في الأثناء نزل جلجامش إلى الأسفل و أخرَجَ أسلحته استعدادا لِأخطار طارئة. وبينما هو يرتدي درعه الذي يحمل أربعة و خمسين ألف زَرَد على طبقتين سميكتين، يفصل بينهما كتّان غليظ من الصوف

اليوناني، مزَوَّد بِ بطانة داخلية لَيّنة. هذا الدرع يغطي رأسه و ذراعيه إلى المعصمين، و ينحدر إلى الركبتين، و الخوذة المصنوعة من أخَفِّ المعادن المقسّاة في كير هيبايستوس بِ النار المقدّسة. و بينما هو يلبس أسلحته و يتنكّبها، تعرَّضَ المركب لِهجوم مباغت من الأخطبوت العملاق، ذاك الحيوان الذي كان دائما مادة لِ القصص المرعبة التي كانت الأجيال تتناقلها، كيف أنه كان يحطِّم السفن و يقضي على البحّارة بِ وحشية مرعبة. هذا الوحش العملاق ذو الأذرع السبعة راح يضرب بِعنف بِأذرعه الرهيبة، و التي يتجاوز طول كلّ ذراع منها التسعة أمتار، و قطر الذراع يقارب الثلاث يردات، و هو مزوّد بِ 99 دائرة ماصّة متوضّعة في الجهة الباطنية من الذراع، بِالإضافة إلى مخالب سيفية تحيط بِ الدوائر، وهي مخفية كَمخالب الأسُود لا تُستخدَم إلاّ أثناء الافتراس. هذه الدوائر الماصّة تجعل الفريسة و كأنها جزء من الذراع، و بذلك يكون من المستحيل الإفلات من المصير المحتوم، و حينها تقوم المخالب بِ تمزيقها لِ تذهب في رحلتها الأخيرة بين عصارات معدة و أمعاء المفترس. عند دخول جلجامش ساحة القتال، كان الأخطبوط قد التهم ثلاثة بحّارة، وفي الحال راح يدافع عن البحّارة بِشجاعة فائقة، و طلب منهم أن يبتعدوا عن الساحة و يتركوه وحيدا مع هذا الوحش الغادر. راح البطل يقاتل بِكلّ قوته و لم يدعه ينال من البحّارة و لا منه هو بِ الذات. لقد دارت معركة شرسة بينه و بين الأخطبوط العملاق. كان جسد جلجامش و رأسه محميا بِ الزرد و الخوذة المصنوعة من قِبَل إله النار، الحدّاد الماهر الذي يصنع عروش الآلهة في جبل الأولمب و أسلحتهم الجبّارة. لذلك كان الأخطبوط في هيجان مريع، لِ أنّ ضربات أذرعه لم تنل من جسد جلجامش و لم تجرحه حتّى، إلاّ أنه استطاع أن يلفَّ إحدى أذرعه على خصره و يرفعه في الهواء من على ظهر المركب. كان يَهمُّ بِدفعه إلى فمه، إلاّ أنّ جلجامش

استطاع، بعد صراع عنيف، تحرير يديه من كمّاشتها، و راح يعمل سيفه الجبّار، القاطع حتّى لِ الحديد، ضاربا ذراع الأخطبوط، و استطاع أن يشلّها بِ طعناته المحكمة. و في الأثناء، و حين شُلَّت الذراع سقطَ جلجامش على حافة المركب حيث فم الوحش بِ انتظاره، لكنه استطاع القفز إلى سطح المركب، و راح يقطع الذراع التي تقترب منه، إلاّ أنها كانت تنبت من جديد. تملّكه الخوف من هذا الوحش العملاق الذي يجدّدُ أذرعه كلّما تعرَّضت للبتر، فَأدرك بِ أنَّ التخلّص منه لا يمكن إلاّ بِ قتل الرأس. لذا اختبأ خلف الصاري الرئيس بِحيث لا تصله الأذرع، و لم تتمكن من إدراكه أو لمسه. لذا اضطر الوحش العملاق إلى إخراج رأسه لِتحديد الأشياء فوق سطح المركب، فَ في الحال، و بِلَمْحِ البصر قفَزَ جلجامش غارسا سيفه الجبّار في عين الوحش، ظلّ يضغط إلى أن أخرجه من الطرف الآخر من رأسه، و لم يهدا إلاّ بعد أن تهادت الأذرع العملاقة وسقطت في مياه البحر، و باتت طعاما لِ البحّارة بدل أن يكونوا هم طعامه. كانت المعركة الأخيرة بينهم و بين الوحوش الخرافية. باتت المسافة المتبقّية بين المركب و البَرّ آمنا، خاليا من المخاطر القاتلة. تابع النوتي مساره نحو الميناء الآمن، نحو بوّابة العبور، إلى كوخ سيدوري الجميلة صانعة الخمر المقدَّس.

– 7 –

جلجامش يحصل على الخلود من خلال الطقس الايروتيكي

كانت سيدوري بِ انتظار جلجامش عند الشطّ. و لمّا رأته متسخا بِ سوائل و دماء الأخطبوط، طلَبَت منه مرافقتها إلى قصرها كي يستحمّ و يرتاح، و من ثمّ يتابع رحلته في البحث عن الخلود. في بادئ الأمر امتنع عن مرافقتها ولكن، و بعد إلحاح سيدوري و تقديم حجج منطقية، اقتنع جلجامش و أطاع رغبتها. أخذتْ بِ يده و قادته إلى الحديقة، حيث الورود و النباتات الأرضية و السماوية بِ مختلف فصائلها و أنواعها، تُسرُّ النظر و تخلب الألباب و تضوّع المكان بِ الروائح الأخّاذة. بدأ من قسم النباتات العطرية، و أوّل وردة وقع نظره عليها، كانت الوردة الدمشقية(الجوري) التي تضحك لِ الناظر إليها وتُنْعِمُ عليه بِالرائحة الإلهية، و بِ جانبها إكليل الجبل و القرنفل و شجيرة الحنّاء، تلك التي تحاكي الزنبق المعتد بِ قامته المهيوب و الذي يتطلّع لِ نبات كَفّ مريم، حامي الياسمين الأحمر والجارديني المجاور لِ خفّ الجمل و الياسمين الهندي و جلد النمر المتوضّع تحت النارنج الذي يظلّل السوسن و البنفسج و النرجس أمام الريحان و أوركيد الفراشة. تجاوزا هذه الجنينة الأرضية إلى الشجيرات و أشجار الزينة. فَ كان فيها البستاشيا البيضاء و الزرقاء و الدفلة و الياسمين الهندي الأبيض، و شجرة الفلفل بِ الورق الرفيع و العريض و شجرة كوريزيا و السرو. كانت سيدوري تفكّر بِ اقتطاف مجموعة ذات عطر فوّاح لِ وضعها في المياه التي سَ تجهزها لِ حمّام جلجامش، لكنها آثرَت بِ المرور معه في الحدائق التي تحوي النباتات العصارية و الشوكية، كَ الصبّار العادي و صبّار أصابع الكافر.
أخذته إلى قسم أبصال الزينة و نباتات الزينة العشبية و الحوليات و منها

النرجس، الليليم، الغلاديوس و شقائق النعمان و جازانيا و استر و سيلين و الأقحوان و المنثور و شَبّ الليل و عرف الديك. دخلا إلى حديقة المتسلّقات و المدّادات، فَ كان الياسمين الدمشقي يبتسم لِ القادمين إليه، و بِ جواره ستّ الحسن و الانتيجون تداعب طربوش الملك. تجاوزا نخيل الزينة و منها نخيل ذيل السمكة، النخيل الكناري، نخيل ذيل الطاووس و نخيل ذيل الجمل. في الأثناء، كانت قد أَسَرَّت لِ الوصيفات وخَدَم السماء بِ تجهيز كلّ شيء. بدءا من المياه المعطّرة لِ الاستحمام، إلى الوليمة الملوكية نصف الإلهية، المكوّنة من أطايب الأطعمة والمشروبات الأرضية و الروحية. قُبَيل دخولهما لِ الفناء، راح جلجامش يعيد الصورة الخيالية في دماغه، حيث الورود و الأزهار بِ مختلف أنواعها تُضَوِّع الفضاء بِ روائحها الزكية. و في أحد الأركان كانت العَسَليّة تتشابك مع الياسمين الأبيض و أزرار الاقحوان، و بِ جوارها تتمايل الزنابق على القرنفل الأحمر، والغارديني تعانق الفلّ، و الحَبَق يهمس لِ الريحان وكأنها تتحدّث عن الزهرة الخجول التي تملأ المحيط بِعطر أنثوي مدوّخ. و بِ مواجهتها تتراقص عيون البنفسج على إيقاع اهتزازات شقائق النعمان الدموية حيث الفراشات تلثم شفاهها بِ أجنحتها الطرية.
دخَلَت عليه في صالة الحَمّام. كان قد تَعرّى من ثيابه تماما، و كان قد سَكَبَ على رأسه مزيجا من معاجين مستخرجة من عصارة الورد الدمشقي و الغارديني والفلّ مع معجون أوراق الغار والقرنفل. كان يدعك شعره ولحيته بِ الرغوة الفوّاحة. حينذاك أَخَذَت سيدوري الوعاء وراحت تسكب الماء المعطّر على رأسه وتفرك جسده بِ الاسفنجة البحرية الناعمة، وكانت تتبعها بِ لمساتها البالغة الرقّة و النعومة. أُثير جلجامش من لمساتها الرقيقة. كانت سيدوري ترتدي جلبابا ذهبيّ اللون مقصّبا بِ خيوط سوداء برَّاقة، مفتوح من عند نحرها إلى أسفل صدرها حيث نهديها المندلقين خارجا. التفَتَ إليها. كان

رأسه بِمستوى صدرها. أمّا هي، فَ دفعت صدرها إلى الأمام إلى أن لامَسَت حلمتاها خدوده. كانت الملامسة تلك كفيلة بِ أن تسكره. دَفَنَ وجهه بين نهديها، و راح يداعبهما بِ يديه و يضغطهما على وجهه. راحت سيدوري تَشدُّ شعره مبعدة رأسه من بين نهديها، و تلقم حلمتها في فمه مرضعة إياه إكسير الحياة. فتح فمه كَما الرضيع و التقمها تلقائيا كَ حبّات كرز خمرية مدلاّة من عناقيد متضابّة في كتلة سمراء مشعّة. كل عنقود، بِ حجم كفِّ اليد، مشدود قائم متوفّز في تحدّ لِ الجاذبية و شهوة الذكور. سَحَبَ حلمتها، بِ فمه، إلى ربع النهد، ظلَّ يمصُّ النهد إلى أن آلمها، حينها توقّفَ عن السحب، و راح يرضع، حلمتها و يلعق محيطها، مداعبا النهد الآخر بِ كفّه. أَنزلَ جلبابها من على كتفيها. انزلق إلى بين ساقيها، حينذاك راح يلمس جسدها من الكتفين مرورا بِ الخصر و مؤخرتها. نزلَ بِ فمه إلى سرَّتها، الكأس الإلهية، و راح يبحث فيها بِ لسانه عن البذور السماوية. تمدَّدَت بِ جانبه عارية تماما. أمّا هو، فَ بدأ بِ رسمها بِأطراف أنامله و باطن كَفّه مسبّبا قشعريرة و رجفانا في أعضائها الناعمة، الطرية، الدافئة.. لم يكن يعرف السرّ المخبَّأ في الكهف المقدَّس بين ساقيها. كان كما العشّ دافئا ينبض على وَقْعِ دقّات القلب. تنحنحتْ تحته لِ يأخذ كل عضوٍ مكانه بِ شكلٍ جيّد و صحيح، و راحت تضغطه من خَصْرِهِ و تحرّك حوضها في الجهات كلها. كلاهما يبحثان عن حافة الهاوية. يعملان لِاجتياز البرزخ الضائع في الكهف المظلم. يسعيان لِ إطفاء الحريق المشتعل في الأسفل. انزلقت جراثيم الجنس من دماغهما، عبر الدم، إلى أعضائهما حاملة معها الحواس الخمسة، بل و السادسة أيضا، إلى المسرح الإلهي، حيث الرضوخ لِ العمل المقدّس من حَرْث و زَرْع و غيبوبة. تكاثف كلّ منهما و تمثّل في عضوه الجنسي الناطق بِ اسم الأرواح الحية. تقول له:" هيّا إزرع بذورك

هَهنا في حقلي! فَ الحرث جاهز لِ استقبال الزرع". حالما انتهت العملية بِ الرعشات المتوائمة بين عنصري الحياة، أطلق الله أهزوجة الفرحة من عليائه، وراحت السماء تقرقع بِالصنوج والطبول، الألعاب النارية السماوية، حيث البرق و الوميض الحادّ يرسل الأضواء المتراقصة إلى حيث الجنس المقدّس. أخذ كلّ منهما وقتا وافرا لِ الراحة. بعدها جلسا حول مائدة الطعام. كانت تحوي أصناف عديدة، و تشكيلة واسعة من المأكولات. طبق فيه فرشة من بروتين الحبّار وسبعة أذرع بيضاء من بروتين الأخطبوت، و كمية كبيرة من القريدس الوردي، والكركند الزهري، كلها مشوية إلى درجة الاحمرار. فوق هذه الفرشة توضّعت كمشة من الثوم المشوي، وثلاث عشرة حبّة من الكمأة البرية المشوية، و أحد عشر من الفطر البرّي(طربوش الراعي)، و تسعة قرون من الفليفلة الحمراء الحارّة المشوية التي امتلأت بِالبخار، وعدد وافر من البصل المسلوق والجزر الكحلي بِلون الحبر الصيني، ونصف وعاء من بيض سمك السلمون. و في وسط الطاولة كانت سمكة الشبوط المحشوة بِ الثوم والكزبرة والهيل والجزر الأصفر وفطر غابات القنديل الكروي و القرنبيط الأخضر.هذه السمكة تمّ وضعها بِحشوتها على صحيفة من الألمنيوم، و تم سكب النبيذ الأحمر و زيت التوليب الأصفر عليها مع ليتر من خلّ السفرجل. و تمّ وضعها في حفرة على قضبان معدنية تعلو فوق كومة كبيرة من جمر السنديان، طبعا بعد تغطيتها بِورق البلح التدمري وتَرْكها لِ مدة ساعتين في الحفرة/ الفرن/. و هكذا استوت السمكة بِ بخار السوائل المحيطة بها من جميع الجهات. أمّا من المأكولات البرية، فَ كان هناك طبقا فيه رقبة مشويّة لِخنزير برّيّ، و كتف شاة مسلوقة بِ خَلّ التفاح و النبيذ الأبيض، و أضلاع غزال برّيّ، مشوية على جمر خشب الصندل، و سبع فردات من بيض العجل المشوية بِ سفافيد من أغصان شجر الغار. كلها مفروشة على بساط من

النعناع و البقدونس و السعتر البري و الهندباء المميّزة بِ المرارة اللذيذة، و سرخس الجبل و توزكة المياه العذبة الضاربة نحو القليل من الحدودية و الترخون المائل لِ الحموضة الخفيفة. أمّا المشروبات الإلهية، فَ كانت قد جهَّزت أصناف نادرة، وكانت قد جمعَت دموع العشّاق المزروعين في حديقة السماء . مزجتها مع لعابها وعرق أبطيها وسكَبَت المزيج في نبيذ باخوس و كونياك شيراز وعرق ديك الجن مع كمية من اليانسون. رَفَعَت كأس النبيذ، أمّا هو، فَرفع كأس العرق. قالت له:

"لِ نشرب نخب خلودك يا صغيري جلجامش!"

ابتسم جلجامش واعتبر كلامها دعابة لطيفة، و قرَع كأسه بِ كأسها و غَبَّها دفعة واحدة، وهي أيضا فعَلَت مثله. راحا يستمتعان بِ المأكولات اللذيذة على مَهَل ويشربان،أيضا، على مَهَل، و حين اكتفيا من الطعام، اغتسلا بِ المياه المعطّرة. تابعا شرب النبيذ والكونياك والعرق، وفي لحظات التحليق الروحي، راح الضباب يتكاثف فوق رأسيهما، والأشياء تتلوّن بِألوان الطيف، والأجساد تتراءى وردية من خلف الثياب. لم تعد الأسمال تخبّئ أيّ شيء، و راحت العيون تخترق الحواجز كلها.طلبَ منها أن تسقيه جرعة من النبيذ منفمها. فَعَلَت ذلك، لكنها استغرقَت وقتا طويلا لأنها كانت تمتص بقايا القطرات من لسانه. في الأثناء كان كلّ واحدٍ يعرّي الآخر، يجرّده من ثيابه. في غمرة عملية التشليح تلك انزلقت يديه من على نهديها إلى بطنها الذي اخذ شكل قرص خبز التنور مع الخفسة التي توسّطته. راح يمسّد تكويرة بطنها ب يده، ويحشر إصبعه الوسطى في سرّتها. لم تستفزه السرة و لذلك راح ينزل بِ يده إلى حوضها و ما بين ساقيها. ضَبَّ كفَّه على نبع الحياة الباعث لِ دفء الروح. أسْنَدَ وجهه على فخذيها، وراح يتمرّغ بِخَدّه و شفتيه و أنفه و حنَكه و لسانه في بوّابة العبور يبحث عن البذور السماوية. شَرَعَ بِ الغوص في

الكهف المقدَّس. استهوته الرائحة البدئية وشجَّعَتْه لِ شَقِّ الطريق إلى ملكة الحياة القابعة في عمق الكهف. كان السير إليها ضَرْبا من الخيال و اللذة الفردوسية. و لذلك راح يفتح ساقيها إلى أقصاها و يدفع ذاته فيها. تَوَسَّعَ الرحم السماوي و بدأ بِ سحبه، بدءا من رأسه، إلى الداخل، و راحت تدفعه من ظهره إلى أحشائها. دخلَ نصفه العلوي فيها، أمّا النصف السفلي فَ تحوَّلَ مع الحوض و عضوه الذكري إلى شرغوف. و ما هي إلّا لحظات حتى انفصل ذيله الصغير. أمّا ما تبقَّى منه فَ انزلقَ إلى الجوف المقدّس و راح يسبح في السائل السماوي داخلَ الرحم الذي أُقْفِل عليه. تحوَّل إلى سمكة تسبح في الرحم الكوني. و هكذا نال الخلود دون العشبة التي أكلتها الحية عند النهر، و دون أن يتعرّض لِ التفسُّخ و التحلّل(مثل أنكيدو) في سهول و وديان أوروك.

– 8–

أوراق من دفاتر الخيال

في أواسط الصيف، كنّا نبدأ بِ حَفْرِ مغاور على ضفاف النهر، حين كانت المياه تنحسر ويتحول النهر إلى شبه ساقية. وأيضا بعضا من الرجال كانوا يستخرجون الرمل النهري الناعم لِ البناء، كانت ورشاتهم تلك تتحوّل إلى شبه مغاور. كنّا نبدأ الحفر بِ إزالة التراب و الأوحال أولا حتى نصل إلى الطبقات الرملية، و كنا نمضي أفقيا في الحفر يمينا و يسارا و ارتفاعا، حتى تنتهي إلى مغارة حقيقية تتّسع لِ أربعة إلى خمسة فتيان مثلنا جلوسا في جَوٍّ بارد رطب. و كثيرا ما كنا نقضي ساعات ذروة القيظ داخل مثل هذه المغارات، نحكي قصص و حكايات و روايات من تلك التي كنا قد سمعناها، و أحيانا من خيالاتنا، طبعا لم تخلو الجلسات من المبالغات و استعراض العنتريات لِ بعض الفتية. و كنا نقوم بِ أداء تمثيليات من خيالاتنا الفضفاضة، كَ أنْ نُنَصّبَ واحدا منّا ملكا أو سلطانا، أو أن يقوم أحدنا بِ تمثيل دور الشيطان أو دور العزرائيل أو الجبرائيل. كنا نفعل ذلك دون أن نحسّ بِ لهفة أوليائنا علينا. لم يكونوا يتبعوننا في لهونا و حدود ملاعبنا، فَ المدى كان مفتوحا أمامنا، و لم تكن هناك ساعة محددة أو وقتا محددا لِ العودة إلى أعشاشنا. أذكر في يوم صيفيّ ملتهب، هرَعَ الناس بِ اتجاه النهر الخالي من المياه(كَ العادة في فصل الصيف)، و كان الوقت عند تحوّل الشمس قليلا نحو يمين محوره في رحلة المغيب. سادَ هرج و مرج و لغط شديد، و خَيَّمَ جوٌّ من القلق و الخوف و الاندهاش في البلدة. أُصبتُ بِ صعقة عندما رأيت الجمع يحومون حول المغارة التي كنا نقضي أوقاتنا داخلها، و يزيلون الرمل بِ أيديهم لِ إخراج فتية موجودين داخلها. فَ المغارة كانت قد انهدمَت و هَبَطت فوق الفتيان الذين كانوا يمضون وقتهم هناك في رواية الحكايا و تمثيل أدوار

عزرائيل و جبرائيل، و كما يبدو، أو باتَ مؤكدا أنّ ال- عزرائيل- قد هَجَمَ على أولئك الأبرياء البائسين و اختطف فتىً في ذروة ربيعه، إذْ قَبَض على روحه الطرية و أفرغها من يخضورها محوّلا جسده البض إلى كتلة لحمٍ هامدة باردة، و لوَّنَ وجهه الورديّ بِ الأصفر الباهت. رأيته محمولا على أكتاف الشباب الأكبر سنّا. كان لدنا طريّا يتأرجح على أكتافهم على وقْعِ اندفاعاتهم الفزِعة، لكنه كان قد فارق الحياة، و لم يكن يعلم ما الذي كان يجري حوله، و حول مملكته التي انهدمت فوق رأسه و أخذت روحه إلى مملكة افتراضية أُخرى غير تلك التي كان قد مثّلها مع أقرانه الفتيان في تلك المقبرة القَدَرية. لم يكن يعلم بِ الأثر الذي أحدثه في تلك اللحظة في المكان الذي كان يلعب فيه بِ خلاف المرّات التي كان يبعث الفرح والسرور لِ أهله، حين كان يعود إليهم بعد فراغه من اللعب و العبث مع أصدقائه. لم يكن يعلم- و هو محمول على أكتاف الشباب- بِ أنه قد أظلم على المكان، و أرسل سحابة سوداء فوق رؤوس أهل الحارة، وأوعز إلى العازفين لِ يبدأوا بِ عزف لحن الجنازة على روحه الطريّة التي غادرت المكان. في الوقت الذي كانوا يحاولون إنقاذ الأولاد من تلك المغارة، سَرَتْ انباء عن هروب واختفاء الكبران ساكو، لأنه كان الشخص الذي يستثمر تلك المغارة(صاحبها).

كان يستخرج الرمل الناعم منها و يبيعه لِ البنّائين و المعمرجية، و على ما يبدو كان قد تلقّى نصائح من كبار أهل الحارة بِ ضرورة الاختفاء ريثما تهدأ النفوس و تنجلي الأمور. كبران ساكو هو جارنا في الحارة و أولاده أصدقاؤنا. أمّا لقب أل كبران(KAPRAN) فَهو رتبة عسكرية في الجيش الفرنسي، ربما يوازي العريف في الجيش السوري، وبالرغم من أنه رجل أمّي، إلاّ أنه كان قد اكتسب هذا اللقب، أو الرتبة العسكرية، ولا أدري هل كانت حقيقة أم تهكّم وسخرية منه، ولا أدري إنْ كان خَدَم في الجيش الفرنسي أم لأ؟ المهم أنه كان يُعْرَف بِ هذا اللقب، و الذي كان يبعث الاستغراب، هو أنه، هو، و أولاده كانوا يبدون انزعاجهم و امتعاضهم

من مناداته أو الإشارة إليه بِهذا اللقب، وكانوا يشعرون بِالإهانة من هذا اللقب.
كبران ساكو كان يملك عَرَبانة ذات أربعة دواليب بِ قوّة حصانين(يجرّها حصانان). مصنوعة من مورينات وألواح خشب الجوز مشبوكة بِبعضها بِ أطواق الحديد و الفولاذ. كان يستثمرها حسب المواسم. نقل الرمل النهري، الحجارة، محاصيل البساتين من الخضروات و الفواكه من المزارع و البساتين إلى سوق المدينة. كانوا يأتون بِ حمولات(محصول) الجَبَس و البطيخ إلى سوق الجَبَس الكائنة خلف سينما شهرزاد الصيفي، على طريق البَدَن. في هذه السوق كان يتم البيع والشراء بِ الجملة. فَ حمولة الجبس و البطيخ كانت تُباع مباشرة من على العربانة، أو التراكتور، و بمناسبة ذكر سوق الجبس، اشتُهِرَت حكاية أحد القرويين،الأكراد، الذي جَلَبَ حمولة الجبس من القرية إلى السوق، و كان يرافقه أخوه الأصغر منه. و حين تَمَّ بيع حمولة الجبس، طبعا بعد بعض الوقت من الانتظار، و قبل العودة إلى القرية، الأخ الكبير طَلَبَ من أخيه الصغير أن يختار ما يرغب شراؤه من المدينة. أمّا أخوه فَ ظلَّ صامتا ملويّا عنقه. كرّرَ أخوه الأكبر عليه بِ أن يطلب ما يشاء من المدينة قبل العودة إلى القرية. فَ بدأ يتأتئ دون الإفصاح عن رغبته. صرخ أخوه مكرّرا بِ أن يطلب ما يشاء. راح الأخ الأصغر يتأتئ و يغمغم، و أخيرا قال لِ أخيه:"أريد جَبَسَة". أمّا أخوه الأكبر راح يضرب رأسه(راس نفسه) و يجرّ شعره(شعر نفسه) من دهشته و استغرابه قائلا له:"يا حمار أ لم يكن لدينا هذا الحمل من الجبَس"؟!!!!!!
ذاك الفتى العبقري أصبح، فيما بعد، قياديا بارزا في أحد الأحزاب المملوكة لِ حزب البعث و المخابرات، و بِ الرغم من أنّه كان أمّيا، إلاّ أنَّه كان قد تَبَوَّأَ مركزا قياديا في الحزب، و كان يجتمع مع قادة العالم، من دول حلف وارسو.
(سبحان الله)!!!!

في فصل حصاد القمح و الشعير و العدس، كان الكبران ينقل تلك المحاصيل إلى الأماكن المطلوب إيصالها. كان قد استملك أو استأجر قطعة أرض في البدن قرب الحدود التركية. يقوم بِ دَرْس القَسَل(سيقان سنابل القمح المصفرة المتروكة في الحقل بعد الحصاد) و تحويلها إلى تبن، و ذلك عن طريق الجرجرة. كان يبيع التبن كَ علف و أيضا لِاستخدامه في بناء البيوت الطينية، والفائض كان يقوم بِ تخزينه في بيته. كان قد خصّصَ غرفة كَمستودع لِ التخزين، يستهلك منه كَعَلَف لِ الحيوانات التي كان يملكها و يربّيها في الاسطبل. كان منزله على شكل حرف يو الإنكليزي. خمس غرف على اليسار من مدخل الباب الخارجي (الشرقي) و بِ اتجاه العمق(الغرب)، وثلاث غرف بِ مواجهة الباب الخارجي، واحدة منها مؤجَّرة، والتي بِ لصْقها خُصِّصَت لِ الجرجرة و أمتعة و عدّة متنوّعة، و الثالثة، كانت لِ العفش و الخردة من مختلف الأصناف.أمّا على يمين الباب الخارجي، فَ كان قد خَصّصَ غرفتين بِجانب الباب لِ الحصانين ولوازمهما. أمّا الثلاث الباقية فَ كانت مفتوحة على بعضها. كان ذاك الحيّز هو الحظيرة، حيث تعيش فيها البقرة و عجلها و الدواجن و الخراف و الجرادين. و في هذه الحظيرة المفروشة بِ روث المواشي و أبوالها، كنا نختبئ(و معنا ابنه الذي من جيلنا) في أمسيات الشتاء، وعلى ضوء الشموع كنا نلعب القمار، بِالنرد ووَرَق اللعب(الكوتشينة، الاسكمبيل)، طبعا مستوى القمار كان متواضعا (على قَدِّ حالنا). وفي كثير من الأحيان كان الكبران يكبس علينا متلبّسين، ويبدأ بِ الصراخ والشتائم الشخصية(يا كلاب، يا زعرانين، يا فلتانين...إلخ)، وكان يتقصَّد إفساح المجال لنا لِ الهرب، و في الحال كنا نتقافز كَ القرود هربا منه. كنا نتعثر و نسقط على وجوهنا في الروث و كنا نقوم ونقتحم الباب راكضين إلى الشارع وسط هرج وضحكات بعضنا على بعضنا الآخر، خاصة على الذين تلطّخوا بِ الروث. كان الكبران يضحك من هذا المشهد الكوميدي. في وسط الحوش كان بئر ماء عذب، و شجرة توت أحمر، و دالية

عنب أبيض. معظم منازل المدينة كانت على نفس الشكل و نفس المحتويات / بئر+ أشجار متنوعة+ أزهار و نباتات الزينة+ دالية عنب أحمر و أبيض/، و كانت غرفها كبيرة و ارتفاع سقوفها يقارب الأربعة أمتار. أغلب البيوت كان فيها إيوان خاص لِ الضيوف. في كثير من الأيام، كان الأولاد يلحقون بِ العربة (العربانة) إلى البَدَن، و هناك كانوا يركبون، بِ التناوب،على الجرجرة التي يجرّها الحصان(أو حمار) حول اسفين مدقوق في وسط البيدر كَ مركز لِ الدائرة التي يتحرّك حولها الحصان مع الجرجرة. كانت الجرجرة تفرم القَسَل و تحوّله إلى تبن. كانوا يصعدون إلى تلّة البدن، و هي عبارة عن بقايا أطلال مدمَّرة. يبحثون عن الآثار، من عملات (العملات كانوا يسمّونها بولكة) و غيرها، طبعا لم يكونوا يعرفون الشيء الكثير عنها، إلاّ في حدود العملات(البولكات)، لأنها واضحة و ليست بِ حاجة إلى معرفة التاريخ أو الأدب و غير ذلك.

كان في الحارة فتىً، أو بِ الأحرى، شاباً بالغا أكبر سنا من الفتية. كان داهية حقا. يتحدّث عن أمور لم يكن أحد من الفتية و الشباب سمعَ عنها قبلاً. كلهم كانوا يعطونه ما كانوا يعثرون عليه في تلك الخربة، و كأن كل موجودات الخربة هي ملكه. كان يأخذهم بِالهَيلمة، يضيّعهم في خيالاته و سردياته أل لا متنهاية. كان سليط اللسان، و لديه بديهة حاضرة و لَمّاحة. كانوا يتبعونه كَ المسحورين، و حتى الذين كانوا أكبر منه سنّاً. إنه ماردو الداهية. كان يقرأ كتبا غريبة. لا يدرون من أين كان يحصل عليها، و كان يعرف أكثر من لغة. يروي قصصا عن صراع الجبابرة والأبطال، و حيوانات خرافية. قصصا عن حروب بين امبراطوريات قديمة كَ الفرس و الرومان و العثمانيين.

في أغلب ليالي الربيع والصيف كانوا يجلسون أمام المنازل على الأرض، وكان ماردو يحكي قصصا مما قرأها، وأُخرى من نَسْجِ خيالاته. كان يرويها بِ أسلوبه الساحر وإضافاته الفنية المثيرة لِ الاهتمام و الشوق لِ معرفة التتمات التي كانت

تؤجَّل لِ يوم آخر– كان يقطع السرد متقصِّدا عند ذروة الحدث–، و لم يكن يردّ على طلبات و توسّلات الفتية لِ إكمال الحدث في نفس الليلة. كانت السهرة تطول إلى ما بعد منتصف الليل. و في أغلب الليالي كان الحارس الليلي يطلب من المجموعة الذهاب إلى منازلهم، و كانوا يمتثلون لِ رغبته بِ فرح و سرور مع إطلاق نكات خفيفة. و في بعض المرات كانوا يطلبون منه أن ينفخ في الصافرة، و هذا الطلب كان معروفا بِ اللهجة المحلية بِ– بشتو بكجي اضرب بيبيكيه– كان هو الآخر يمازحهم. معظم هؤلاء الحراس الليليين كانوا معروفين من قِبَل آبائهم. فَ هم من نفس المدينة، و من الحارات المجاورة. أهل المدينة جلّهم يعرف بعضهم بعضا، و كان من بين الحرَّاس أكرادا و عرَبا. كانت الحراسة تبدأ أوّل المساء، أي بعد غروب الشمس تماما و حلول الليل. عند انتشارهم في أماكنهم المحدّدة في الحارات، كانت الصافرات تنطلق من نقاط الحراسة لِ الدلالة على وجودهم في أماكنهم. في هذا الوقت بِ الذات كانت متعة الفتية، إذْ أنّ الحارس القريب منهم كان يطلق صافرته، فَيطلق الآخر صافرته جوابا على الأول لِ التعارف و لِ إثبات وجوده في نقطة حراسته، و هكذا كانت تنطلق سمفونية الصافرات القريبة والبعيدة. بعد طقس التعارف و تسجيل الحضور عبر الصافرات، كانت الصافرات تنطلق كل ساعة أو ساعتين، و في هذه المرة كانت الغاية منها طمأنة المواطنين على أمنهم و سلامتهم، من ناحية، و إنذار الزعران و إعلامهم بِوجودهم ويقظتهم، من ناحية أُخرى، وطبعا كانت هناك حالات استثنائية لِإطلاق الصافرات، كَ أن يشتبه الحارس بِ أحد ما في الليل، و أغلب تلك الحالات، كان أبطالها شباب في قمة عنفوانهم، جسورين، مغامرين، فاشلين، متمرّدين على الروابط الأسرية و على السلطات المحليّة. كانوا يتحدَّون رجال الدرك و الشرطة و المخابرات. كانوا يشكّلون زعامات على مستوى الأحياء و المناطق، و الأقوياء منهم، كانوا ينضمون إلى عصابة عابرة لِ الأحياء و الأديان و القوميات، و كانوا

هم يتحكّمون في سوق الزعرانين، و يشغّلون الآخرين تحت إمرتهم. أمّا الأعمال التي كانوا يقومون بها و يسوّقونها و يشرفون عليها، فَ كانت: أوكار القمار، التحشيش، الدعارة و السرقات. و كانت النشاطات اليومية الاعتيادية التي لا مناص منها، تبدأ من أمام أبواب السينمات، حيث كثافة الناس (الزبائن و الأهداف) من مختلف الأعمار، و حيث ضجيج و صراخ الباعة و القمارجية. بِالرغم من الفلتان و الزحمة و الزعرنة أمام السينمات، إلاّ أنّ المشهد السوقي كان ينقلب رأسا على عقب حين كانت تتقدّم نساء و صبايا لِ الدخول إلى صالة السينما، إذْ حضور الجنس اللطيف لِ مشاهدة الأفلام كان أمرا مألوفا و عاديا. عند معرفة الحشد بِاقترابهنّ كنتَ تراهم يصرخون طالبين إفساح الطريق، و كان الحشد يشقّ طريقا آمنا و مشرّفا لِ مرورهنّ إلى داخل الصالة. كانت الإشارة، أو العبارة الدالة على وجوب إفساح الطريق كانت؛ افتحوا الطريق عائلات، عائلات، افتحوا الطريق! وهكذا كان الجميع يلتزم الأدب، و إعطاء الأولوية لهنّ لِ المرور، و بعدها يعود قاع المدينة إلى طبيعته. كان قسم من صبيانهم يلاعبون الزبائن مختلف أنواع القمار، بدءاً من لعبة الزهر(النرد)، سبعة دلّوعة، و لعبة الكشتبانات الثلاث مع كرة صغيرة بِ حجم خَرَزَة، أو أكبر قليلا، كان يتم نقلها من تحت كشتبانة إلى أخرى، وفي النهاية كان يحتفظ بها بين أصابعه أو تحت ظفره، و كان صاحب اللعبة يضعها تحت الكشتبانة التي يختارها الزبون(كَ طعم) لِ شَدّه و توريطه في اللعبة، و في النهاية كان يتم تشليحه من نقوده. و أغلب هؤلاء الزبائن كانوا من الشوايا. كانت هذه اللعبة تُعْرَف بِ (وين الحَبّة يا حبّاب)؛ وانتهاءا بِالمراهنات عن طريق الكروت المرقَّمة. و قسم آخر كان يندسّ بين الناس أثناء الزحمة و يمارس النشل من جيوب البشر، و إذا ما ضُبِطَ أحد النشّالين بِ الجرم المشهود، كان جزاؤه كم كَف و لكمة و كم رفسة و بصقة، و فوقها كان الصبي يُعاقب من المعلّم أيضا. أمّا في منتصف الليالي، فَ كانت

تجمّعاتهم– الزعماء و الصف الثاني– تتم عند جبّ (أو كولة) فرنسا. كانوا يفضّلون ذلك الموقع لِقُربه من الكرخانة، لِأنهم، و خلال لعب القمار و التحشيش و قربهم من الإناث، و تَسَرّبْ رائحة الجنس إلى أعضائهم التناسلية، تحت تأثير هذه المعطيات، إذا عَنّ على بال أحدهم الجنس، كان بِإمكانه القفز إلى أحضان البغايا لِ إسكات عويل الحيوان القابع في عضوه الذكري. و في بعض الأحيان كانت تنشب شجارات بينهم أثناء اللعب، و في حالات نادرة كانت تلك الشجارات تتطور إلى ذروتها. و إذا ما حصل ذلك كانوا يبيّتون القتل لِ بعضهم، طبعا كان الأسلوب المتّبع هو الغدر والمباغتة. قيل عن حنا(بيج) بِ أَنَّه أوصى على تابوت بِمقاسات فرحان(الزعيم الكردي)، و في نفس الليلة كَمَنَ له. خرج حنا من خلفه و ناداه: يا فرحان أنا حنا دير وجهك إليَّ! استدار فرحان ونظر إليه، في الأثناء أَخْرَجَ حنا مسدسه و طلب منه الدفاع عن نفسه. حاول فرحان أنْ يسحب سلاحه لِ الدفاع عن نفسه، إلّا أنَّ حنا (البيج) باغته بِعدة طلقات و أرداه قتيلا. و يُقال أيضا بِأنَّه شارك في تشييع جنازته مندسا بين الناس متنكّرا. كانت الحكايا عنهم تأخذ صبغة أسطورية من حيث المبالغة في سلوكياتهم مع بعضهم و مع الناس العاديين، أو مع رموز الدولة من شرطة و مخابرات.

في واحدة من تلك الليالي، أَخَذَتْ أحاديثهم تدور حول الخرافات و السحر و الشعوذات، و تأثير النجوم و الغيوم على حياة الناس و مستقبلهم، و كان كلّ واحد منهم يجتهد في سَرْدِ قصَصٍ من خياله. منهم مَن ينجح في رَبْطِ الأحداث بِ الظواهر الطبيعية النادرة الحدوث، كَ الزلزال، أو مقتل راعٍ في البرية بِ سَبَبِ تعرُّضه لِصَعْقَة بَرْقٍ في بدايات الخريف. ما كانوا يعرفون كيف يربطون الحوادث بِالنجوم والفلك. استغلَّ ماردو هذه الناحية فيهم و راح يحدّثهم عن تاريخ ولادته، و عن البرج الذي ينتمي إليه، و هم لا يدرون ما معنى البرج و لا الكوكب و لا شيء البتة من أمور الفَلَك.

بدأ بِالحديث وكأنه يقرأ من ورقة مكتوبة، أمّا في الحقيقة، كان يرتجل، وبفصاحة، أحداث تولّده، إذْ قال: في نهاية شهر تموز من العام الأبيض أبصرتُ، أو صرختُ الصرخة الأولى في برج الأسد، و مواليد هذا البرج يتمتعون بِ الثقة بِ النفس و التحليق في عالم الخيال والكرم والغرور. كان البرج الأول الذي يُدعى برج الحياة، بعد دورة فلكية ترك أثره على برج الحوت. إنَّ تعارض الشمس مع كوكب نيبتون، أي البرج السابع، أو برج المتزوجين، من شأنه أن يجلب الاضطراب، كما أنّ تعارض كوكب الزهرة مع زحل المعروف بِ جَلْبه لِ أمراض الكبد و البنكرياس و المسمى بِالكوكب المرّ و الذي يسيطر، عادة، على برج الجدي و يرحّب و يحتفل بِ أعماله التدميرية في برج الأسد، حيث يقدّم إلى كوكب نيبتون ثعابين الماء و يأخذ بدلا منها حيوان الخلد، الذي يحب الكرز والبصل الشمندر، ويقذف حمما و يفسد النبيذ. هذا الكوكب الذي يسكن مع الزهرة في البرج الثامن المميت. إنّ ذلك التعارض من شانه أنْ يجبرَ الإنسان على التفكير في الحوادث. في هذا التشابك الفلكي بِالذات، سَكَبَ والدي ماء ظهره في رحم أمي، وما فعله كان ينبئ بِسعادة و نجاح باهر تحت حماية عطارد في برج الأقرباء. كانوا يتبعون حركات فمه و يديه كَ المساطيل. لم يفهموا حرفًا واحدا من الذي رواه على مسامعهم سوى"ماء الظهر"، لأن لِ هذه الكلمة مدلول جنسي متعارف عليه بين الجميع، هم يلفظونها مَي(بِ تفخيم حرف الميم) ضَهر، أي السائل المَنَوي.

كان يتحدّث عن ظواهر الطبيعة، عن الجنيات، عن فوائد أكل الجراد مشويا، و أكل سيقانات الضفادع(أفخاذها بعد سلخها من جلدها) مقليا أو مشويا، طبعا بعد إشباعها بِ التوابل الهندية الحارّة، فَ هي تساعد على تنشيط الدورة الدموية و تقوية القلب. و أيضا فوائد لحم الحيّة لِ الحفاظ على سلامة الطحال و الكليتين، بعد قطع مقدار شبر من الرأس والذيل و رَميها بعيدا. و فوائد لحم القنفذ و الجراد اليمني في تقوية الطاقة الجنسية. عن الأعاصير و الدوّامات الرملية و الترابية،

قال: يمكنكم الدخول في وسطها ودون أن تغطّوا أعينكم و أنوفكم و آذانكم، و لن تُصابوا بِ أذى، بِ شَرْط أن يأكل الزَلَمة، قبل الدخول في العجاج و الدوّامة، أنثى العنكبوت البني، ويكون عددها ستة، فَكلّ عنكبوت سَينسج شبكة مضادة لِلعجاج حول الأعضاء المذكورة؛ العينين، الأنف، الفم و الأذنين. وإذا بالَ الإنسان داخل الدوّامة، فَ سَ يتحوّل من جنس إلى آخر، يعني من ذكر إلى أنثى، أو من أنثى إلى ذكر. و يمكن تحويل مسار العجاج عن طريق ترديد الأهزوجة"عَلْ يهود... عَلْ يهود.."، فَ في الحال سَ يغيّر العجاج، الإعصار، مساره و سَ يغمر حارة اليهود بِالعجاج و الغبرة و الرمال. و راح يُذَكّرهم بِ دوّامة العجاج التي وجَّهوها، في السنة الماضية، إلى حارة اليهود عن طريق ترديد الأهزوجة إيّاها، و أنه شخصيا تابع مسارها من بَخجة طَمْبي، التي تجاور بخجة فرحان البنيبلي من الغرب و الجنوب، إلى بيوت اليهود و راح يوصف هلع هؤلاء. كيف أنهم دخلوا في حيرة و ارتباك شديدين، وأنه كان يسمع بكاء الأطفال وصراخ الكبار، وقرقعات الأدوات المنزلية التي تتطاير في أحواشهم ومن على سطوح المنازل، كَ الطناجر والصواني الملأى بِعصير البندورة، وأنه رأى أغصان أشجار التوت و دوالي العنب وهي تتكسّر، وأنّ العجاج تلاشى بعد تجاوزه لِلبيوت الأخيرة من حارتهم.

طبعا لم يكن يرافقه أيّ واحد من الفتية، أو الشباب لِيكون شاهدا على ما يدّعي. و الحادثة التي ذكرها لم تحصل من الأساس. لكن ماردو الداهية جعلها حقيقة، لأنه كان يُشْهِد أحد الفتية بين الحين و الآخر، و إلى أن أنهى الحكاية كان قد أشْهَد ثلاثة صبية على الحادثة، و طبعا لم يكن ينتظر إجاباتهم على صحّة، أو عدم صحّة ما يرويه. أمّا عن الجنّيات، فَ كان يؤكّد وجودها بينهم. و كان يُقدِم لهم نصائح لِ تَجَنُّب إيذاء أحد الجان أو أحد أولادها. فَمثلا، إذا كان واحدنا سَ يسكب ماءا مغليا في المجلى أو على أرضية الحوش، فَ لكي يتجنَّبَ إحراق أحد الجنيات غير المرئيين بِ الماء المغلي، عليه أنْ يذكر اسم المسيح قبل سكبه

الماء، لأنهم سَ يختفون من المكان حين يقول يا هيسوس (يعني يا يسوع بِ الأرمنية)، أو هيسوس كريستوس(يسوع المسيح). إنهم يخافون من المسيح، و يهربون من المكان الذي فيه صورته، أو يتم ذكر اسمه.

هناك بعض الناس يرونهم، و بعضهم الآخر يتواصل معهم، و ضرب أمثلة عليهم قائلا: أَلَم تروا كِفِه(KEVE) و هو يتكلّم معهم بِ صوت عال؟، كم مرّة سمعناه و هو يسبّهم؟ و هل نسيتم كَرْمو، أَ لَم نرَه و هو يتكلّم معهم بِ صوت مسموع، و كم مَرّة رأيناه و هو يتحدث و يضحك معهم و يعيّط و يسبّ الله و الأنبياء؟ و عبلا موراردو(أو عبلا بياظو)، أَ لم نسمعه، حين كنّا نقترب منه و نحن ذاهبون إلى السوق، أَ لم يكن يتحدّث و يوشوش بِ صوت مسموع و هو يحرّك خيزرانته في الهواء؟. هل يستطيع أحدكم أنْ ينكرَ علاقة شوشي بِ الجنيات؟.

على فكرة، شوشي (SHOOSHE) كانت قد أصبحت من تراث و فولكور القامشلي، هي و شكرو. شوشي كانت تُزَيّن لوحة القامشلي حين تدخل قلب المدينة، و هي قادمة من الحيّ الغربي، من طرف الهلالية. كانت إمرأة مسالمة ونظيفة الكفّ. تثرثر و تبربر أثناء سيرها في الشارع. تُدخل البهجة في النفوس، و كان الأهالي يعرفونها و يحبونها. كانت لديها حركات تبعث الفرح و الضحك لِ الناس. كانت، أحيانا، تَمدُّ يدها بين أفخاذ الذكور(إلى أغراض الرجال و الشباب) وهي تضحك، كَدعابة لطيفة منها. أمّا الفتية الصغار، الأشقياء، كانوا يعاكسونها و يزعجونها بِ قولهم لها(شوشي مبخوشة). و كانت تَردُّ عليهم: "أمّك مبخوشة يا ابن الكلب يا ابن ال..." و في كثير من الأحيان، حين كانت تلتقي بِ شكرو، كانت تعاكسه في جَوٍّ من الودِّ و المرح، و شكرو كان يُخبّئ أغراضه بِ وَضْعِ يديه على حوضه خوفا منها، لأنها كانت قد فَعَلَت ذلك مرات عديدة، و كانت تضحك مع الآخرين على خَجَلِ شكرو من فعلتها. لم نكن نعرف عنهما الشيء الكثير. كلّ ما كنّا نعرف هو أنّهما شخصان طيّبان نقيّان، لم يكونا من الصنف

الخبيث والزعران واللصوص. مقطوعان من الشجرة(كما يُقال)، لا ولد و لا تلد، و كنّا نعرف، أو نتصوّر، بِ أنّهما من أكراد الحارة الغربية. لكن بِ التدقيق في اسم شوشي و شكلها و هيئتها و روحها الحزينة الكسيرة، صرتُ مقتنعا، إلى حَدّ كبير، بِأنّها من أحفاد الأرمن الذين نجو من المجزرة بِ طريقة أو بِ أخرى. فَ اسم شوشي، أو شوشيك (SHOOSHIG) هو تصغير أو تحبُّب لِاسم شوشانيك، وهذا الاسم هو اسم البنات لدى الأرمن. وكذلك شكرو، هيئته، شكله واسمه، فَهو الآخر قد يكون من أحفاد الناجين من المجزرة إيّاها وقد يكون أرمنيا أو سريانيا. طبعا كان بِ إمكانه أن يذكر الكثير من الأشخاص. و كان بِ إمكانه أن يأتي بِ نماذج أكثر من النساء أيضا، لكن، ولِدهائه وذكائه، ذكرَ نماذج مُغرَقة في البؤس و الشقاء. فَ كِفِه(KEVE) المسكين كان أحَد الناجين من الإبادة الجماعية التي تعرَّض لها الأرمن على يد الأكراد و الأتراك في وطنهم الأم في الامبراطورية العثمانية. تربَّى في الميتم، لأن أبويه و إخوته قُتلوا في المجزرة في صاصون. كان يعيش على الصدَقات التي كان يحصل عليها، و خاصة أيام الأحاد عند باب الكنيسة. لم يكن متسوّلا، و لم يتسوّل في الشوارع و الأسواق. في أغلب الأحيان كان يدندن لِ نفسه أغنية بِ اللهجة الصاصونية. نحن حفظنا منها فقط الجملة التي تقول: يرتام صاصون بانام فرون. معناها بِ العربية. أروح عَ صاصون أفتح فرون (فرن). أمّا المسكين كَرْمو، فَ كان هو الآخر يتيم الأب، و يعاني من مرض عصبي، و ربّما بِ سبَب طفولته البائسة، وأعصابه التالفة. أمّا عبلا موارادو الذي كان يتجوّل في سوق النجّارين و العَرَصة المجاورة لها. إنه إنسان سَوي لم يكن يعاني من أيّ مشكلة سوى أنّه كان قصير القامة. و لذلك كان الأولاد الأشقياء يعيبون عليه قِصَر قامته، ويعلّقون عليه تعليقات مضحكة و يسخرون منه، مما كان يثير غضبه، ويبدأ بِ كيل الشتائم و الصراخ. و لأنه كان يعاني من تعليقاتهم، فَ كان المسكين يُنَفّس عن غضبه و يشكو همّه لِ

(الجان) بِ صوت مسموع. تكلّمَ عن الجنيات الذين كانوا يسهرون على ضفاف النهر و الوديان المجاورة لِ المدينة. كانوا يرقصون، يغنون و يشربون. كانت أضواء فوانيسهم تُرى من قلب المدينة. و أخبرهم عن البعض منهم، كيف كانوا يتسلّون و يلهون مع البشر من دون علمهم (البشر). فَ ذَكَرَ الطاحونة المائية التي كان يملكها فرمو الكلداني في محيط المدينة، و أنّ الجان كانوا يساعدونه في عمله. كان الأهالي يندهشون من سرعة إنجازه لِ طَحْن الحبوب وحيدا. لم يكن لديه أجير، لذا، كانوا يؤكّدون على مساعدة الجان له، و أكثر من ذلك، كان الأهالي يتهامسون فيما بينهم على أنه متَزَوّج من إحدى فتيات الجنيات، لأنه قَلَّما يغادر المطحنة، حتى أنّه يبقى فيها في أغلب الليالي. و قسم آخر من الأهالي كانوا يقولون بِأنَّهم يلعبون معه(من طرف واحد). كانوا يصعدون على سطح الطاحونة، يقفزون، ينطنطون، يُحْدثون صخبا و ينادونه من على السطح، أمّا فرمو، فَ كان يصرخ من الداخل مهدّدا إيّاهم بِ القضبان الحديدية، فَ في الحال كانوا يهربون. كانت هناك إشاعة، بِ أنّ فرمو و أصدقاءه الشبّان كانوا، في أيام السبت، يسهرون في الطاحونة يأكلون ويشربون العرق، و يُقال بِ أنهم كانوا يأتون بِ العاهرات– خلسة– إلى الطاحونة. و بِ خصوص الجنّ أيضا، نُقِل عن فتى من قرية حلكو القريبة من المدينة، بِأنه في إحدى الليالي، و حين كان مستلقيا في فراشه لِ النوم، رأى فتاة تدخل الدار، و شاهدها تدخل غرفة الأمتعة و الملابس، فَ تبعها دون أن تراه. رأها تفتح صندوق عرس أمه و تأخذ فستان عرسها، و خرجتْ من الدار، و قال الفتى:"تبعتها من بعيد دون أن تَحسَّ بي، سارَتْ نحو الوادي القريب من الضيعة. كانت أضواء الفوانيس تتراقص من بعيد، و راحت أصوات الموسيقى و الأغاني تقترب من مسامعي، فَ كما توَضّح الأمر، كانت لديهم حفلة عرس. دخَلَت الفتاة بين الحشد و أنا خلفها و لم يميّزني أحدا منهم. رأيتها تعطي الفستان لِ العروس. كانت فائقة الجمال. ارتدت العروس

فستان عرس أمي، و لكي أتأكد من أنَّ الذي أراه ليس حلما، قمتُ بِ طَبْعِ علامة خفيّة من الحنّاء على ظهرها بِ خفّة و رشاقة متناهية، حتى أنها لم تشعر بِ وجودي. في اليوم الثاني طلبتُ من أمي أنْ تُخرج فستان عرسها من الصنوق. استغربت أمي لِ هذا الطلب، و بعد أن رأيت دمغة الحنّاء على ظهر الفستان، شرحتُ لها ما حدثَ، و أنّ عروسا من الجان قد لَبِسَتْ هذا الفستان ليلة أمس".

ماردو هذا، كما جاء في أوراق سارو، كان يجمع قطع خردة كتل معدنية لها شكل غريب من مجرى النهر بعد أن يجفّ تماما من الماء في الصيف. وكان قد عَرَّفَ الفتية عليها بِ النظر و طلبَ منهم أن يجمعوا مثلها، طبعا يعطونها له، و أصبح اسم تلك القطعة(متلو، يعني مثله). و فيما بعد عرفوا ماهية تلك الكتل المعدنية التي كانوا يجمعونها من مجرى النهر. كانت عبارة عن قنابل(لم تنفجر في حينها، في ذلك الزمان).أمّا ماردو فَ كان يستخرج الرصاص منها و يبيعها. و بعد سنوات، عرفَ الأولاد بِ ذلك، وعرفوا أيضا بِ الحوادث المتفرّقة التي حصلت مع شابين من الحارات القريبة. إذْ انفجرت تلك القنابل بين أيديهم(طبعا في أوقات مختلفة)، واحدا منهم قُتِل، وآخر قُطِعَت ثلاث أصابع من يده اليمنى وفَقَدَ بَصَرَه.

كان بعضا من الفتية قد رأوا حقيبة تشبه السمسونايت، أو بِالأَصَح، هو عرَضَها عليهم، وفيها كلّ القطع الأثرية(من العملات القديمة، و القطع الأثرية) مرتَّبة في صفوف وأعمدة. و في زمن غير مكتوب، غاب ماردو مدة عشرة أيام، و فيما بعد عرفوا بِ أنه كان في دمشق مع حقيبته. لكنهم لم يكونوا يعرفون عن دمشق أيّ شيء يُذكر، و ربّما لم يكونوا يعرفون حتى بِ أنها تقع في سوريا. أمَّا عن محتوياتها، فَ لا أحد عرف عنها أيّ شيء.

و في إحدى الليالي حدَّثهم عن رحلته السرية، و ربطَها بِ الطلاسم التي حكاها حول ميلاده في وقت سابق. و أنّه نجحَ في سفرته تلك نجاحا كبيرا، ربما كان يقصد الربح المادي، وراح يشرح لهم الإشارات التي شجَّعته على القيام بِمغامرته

قائلاً: "قبل يومين من السفر، كانت الشمس في برج العذراء، فَ تَسَارع قدوم الرعود والأعاصير الصيفية المتأخرة من بعيد، و اهتزت لها الصناديق و الدواليب و المواعين المعلّقة في الدار طول الليل. لقد جعلني عطارد أتمتع بِبصيرة نقدية حادة، و جعلني الكوكب السابع أتمتع بِ سرعة الخاطرة، و وهبني كوكب الزهرة نعمة الاقتناع بِالسعادة الصغيرة، ودفعني المريخ إلى التمسك بِ تفوّقي و الإيمان بِ طموحي. ثم ارتفع برج الميزان في مواجهة الأفق الشرقي فَ صَيَّرني حسّاسا، و حثّني على المبالغة. و حَلَّ نيبتون في مجال الكوكب العاشر، أي برج منتصف العمر، فَ غرزني بين أرض المعجزات و خيبة الأمل. كان زحل الذي وقفَ في مجال الكوكب الثالث قبالة المشتري هو الذي دفعني لِ القيام بِ السفر إلى حيث الأمل و النجاح. فَ في تلك الليلة كنتُ أسمع أصواتا غريبة تصدر من الحقيبة التي شاهدتموها".

-9-

كان ماردو قد قرأ في كتب الآخرين عن مثل هذه التهويمات، فَ كان قد سجَّلها لديه، وقرأها مرَّات عديدة. وراح يحكي لهم عن تلك العلامات الفلكية كيفما اتَّفّقْ، لا هو فاهم ما يقول، و لا هم فاهمون ما كان يقول. كان رَدِ فعلهم من هذه الأحجيات التي يرويها عليهم، نفس الدهشة و الهَبَل، كما في المرّة الأولى. في هذه المرة سأله أحد الفتية عن النجوم والكواكب و الأبراج. كان جواب ماردو على سؤاله كَ الآتي: إنّ الله في زمن بعيد جدا كان قد عَطَسَ، فَمن عطاسه تناثر رذاذ لعابه في الفضاء و تشَكَّلت النجوم و الكواكب البعيدة، أمّا من سُعاله فَ تشكَّلَت النجوم و الكواكب القريبة، و حين بَصَقَ تشكّلَت البحار. مَنْ منكم يعرف مِن أين تأتي هذه الأمطار؟ لم يجاوبه أحد على سؤاله، لأنهم لا يعرفون مصدر الأمطار. أمّا هو، فَ أكَّد لهم أن المطر هو بول الله. عندما يبدأ الله بِ التبوّل، يتحرك من مكانه، و أثناء حركته تَهبُّ الرياح و العواصف و يغيب الشمس من خوفه و يبرد الجو، و إذا ما خرَجَ(الشمس) أثناء تبوّل الله، يكون الشيطان في قمّة نشوته، و في تلك اللحظات يبدأ بِ نكاح زوجته.

– يعني الله كمان(أيضا) يبول مثلنا مِن عضوه التناسلي؟ سأله هايرو.
عندما تناول ماردو هذا الموضوع، تنحنحَ هايرو في قعدته و كأنه عثرَ على صيد ثمين. هايرو هذا من عائلة شيوعية. عمره يقارب الخامسة عشر، أبوه عامل و ليس فلاح، وفي أغلب الأحيان، كان هو الذي يقرأ جريدة الحزب لِ والده. و هناك انطباع لدى الأهالي عن الشيوعيين، بِأنهم ينكرون وجود الله، والفتية منهم و بِ هذه الأعمار كانوا يعتزون ضمنيا بِهذا التحدّي لِلمقدّس، غالبا ما كانوا يسخرون من القساوسة والمطارنة، هكذا، ليس لِسَبَب، ودون أن يعرفوا الشيء الكثير عن

الدين أو اللاهوت. الأنقياء منهم كانوا مخلصين لِ مبادئ الاشتراكية والعدالة والمساواة، وكانوا صادقين في أعمالهم وتعاملهم مع الناس.

– طبعا يبول مثلنا! لكن لا أحد يعرف كيف يفعل ذلك، وهل سَيبول أمام البشر؟ إنه في السماء يا هايرو أفندي، إنشاالله تفكّر هو موجود في حارة البشيرية؟! تقَصَّد ماردو، من خلال إجابته، أن يسخر من هايرو. ساد جوَّ من المرح و السخرية بين الفتية، خاصة حين قال ماردو: انشاالله تفكّر هو موجود في حارة البشيرية. لكن هايرو قال له: يا معلم ماردو أنا قصدتُ بِ سؤالي ما يلي. هل عضوه التناسلي هو مثل أعضائنا أم مثل أعضاء البنات– هو قالها بِالمشرمحي إذْ سَمّى الأعضاء التناسلية كما يعرفونها–.هنا أثبَتَ ابن الشيوعي فعلا أنه لا يخاف من المقدّس. و الحديث انتهى عند هذه القمبلة التي فجّرها هايرو في وجه ماردو و وجوه الفتية الآخرين.

خلال فصل الصيف، كان ماردو، أو بِ الأحرى، كان الفتية قد جمعوا بولكات و أجزاء من الجِرار الفخارية المكسورة، و بعض قطع من حجر البازلت،أو معادن مزنجرة(متأكسدة) عليها حروف محفورة بِ طول جملتين و بضع كلمات مكسورة من نهاية القطعة. طبعا كانت اللقى بِ حوزة ماردو. وعن الكتابة المحفورة قال: إنها مكتوبة بِ الآشورية، أو العبرانية. و في أواسط سبتمبر، غاب ماردو مدة خمسة عشر يوما. و حين أطلّ عليهم بعد مجيئه من سفرته الخريفية، كان قد اكتسبَ معارف جديدة و معلومات ثقافية عالية القيمة و المغزى، حتى هو ذاته لم يستوعبها تماما، لكنه كان راضيا و فخورا بِ ما يحصل عليه من معلومات. أخرَجَ بضعة أوراق من جيبه– كان قد حصل عليها من الجماعة التي يتعامل معهم في الشام– و حدَّثهم عن محتواها بِ اقتضاب، لأنه لم يتمكّن من سرد ما فيها. لكنه استطاع أن يشير إلى جوهرها، و خاصة ما يتعلّق منها بِ دمشق. و قال بِأنها عبارة عن شرْح لِ روح دمشق و الثقافات القريبة منها من حيث القوة

و الرقي. أعطى الأوراق لِ هايرو وطلب منه أن يقرأها ويحفظ مضمونها جيدا ثم يرويها على الفتية في اليوم الذي يكون فيه جاهزا لذلك. أمّا هايرو فَ تلَقَّف الأوراق بِفرح وضبَّها في جيبه. وراح طيلة السهرة يتلمَّس جيبه والسعادة واضحة على وجهه. إنه شغوف بِ القراءة و حبُّ المطالعة، فَ هذه الصفة كانت ملازمة لِ أغلب الفتية المنتسبين لِ الحزب الشيوعي. و كثيرا ما كانوا يقرأون كتبا فوق مستواهم العقلي و الثقافي، كَ أن يقرأ الفتى أو الشاب في عمر المراهقة كتاب فلسفي كَ المادية الديالكتيكية و المادية التاريخية، أو أصل الأنواع لِ داروين، أو الاقتصاد السياسي... إلخ. المهم، أنَّ هايرو قرأ الأوراق مرات عديدة، و نسخها بِ خطِّ يده نسختين، و تحدّث عن محتواها لِ الفتية بِ شكل جيد. أمّا محتواها فَ كان التالي، كما جاء في النص الأصلي الذي استلمه من ماردو :

آهٍ يا دمشق، يا عاصمة الياسمين، يا بنفسج الروح و الخيال، يا عذوبة الفيجة، يا فيحاء الشام، يا خضرة الرياض و حمرة الورود، يا بساتين النارنج و الرمان، يا جمال الروح وروح الجمال، يا جمال الكون وعيون الجمال، يا دمشق يا نبض الروح و اختلاجات الخلايا، يا حُبَّ الكون، يا أم الصبايا الناعمات الرقيقات الجميلات اللماحات الواعيات الدارسات الفنانات الفاتنات!

دمشق يا أمّ سورية حاضرتها المقدَّسة، يا أمَّ عشتار وأوروب زنوبيا و أورنينا. كنتِ كما كانت أثينا مركزا من مراكز العلوم والفلسفة والفنون، كما كانت روما و نينوى والاسكندرية، كما الهند والصين والمايا في الطرف الآخر من المحيط. كنتم حواضر الثقافات الرفيعة و مراكز اشعاع العلوم. كنتم عباقرة الهندسة و الطب و الرياضة والقانون والمسرح، وبكلمة، كنتم عباقرة الحياة. أنتم، وليس سواكم، مَنْ فتح حوارا مع السماء ، لأن الأرض لم تتسع لِ عبقريتكم و خيالاتكم. كتبتم أروع الملاحم و القصائد و المسرحيات. أنهيتم المسح الجيوإنساني الشامل هنا على الأرض. وحين أدركتم الحقيقة الأرضية، أنْ لا جديد تحت الشمس، رحتم تنصبون

السلالم نحو السماء، و راحت أرواحكم تتسلقها، و خيالاتكم تحاكيها. أنتم مَنْ أَبْرَمَ المعاهدات مع ممالك السماء و أتيتم بِ بنود تلك المعاهدات و الاتفاقيات إلى أهلكم هنا على الأرض، بعد أن أهديتموهم نماذج من عبقرياتكم كَ الإنوما إليتش، وجلجامش، أدون، عشتار.... كل حاضرة كانت قد أبرمت معاهدة مع مملكة سماوية، و كانت قد تبادلت معها وثائق الاتفاقية(مبادئها، شروطها و أهدافها)، و لم تحتوِ على برامج و خطط سرية تستهدف الآخر. فَ كلّ حضارة اختارت كيانا سماويا للتفاعل معها دون استهداف الكيانات السماوية الأخرى و حلفائها. و كلّ المنظومات المختلطة التي تشكّلت كانت بين حضارات المياه و الأشجار من ناحية و بين منظومات و قيم أخلاقية و روحية سماوية من ناحية أخرى؛ و في عام الجمرات السماوية الخبيثة، ذاك العام الذي كانت فيه أنثى العقرب الأسود تسير في قبة السماء في الجزء المُخَيِّم على حاضرة الرمال، انشقَّ ظهرها المنتفخ و تحوَّلت إلى كتلة سوداء متوهّجة ظَلَّت عالقة لِ أيام معدودات، و راح الأهالي يقضون أوقاتهم بِ النظر إليها من فوق الكثبان. يمعنون النظر بِ الدبيب الحاصل داخل الكتلة. بعضا من الأهالي أعطاها التشبيه القريب جدّا من حالها، إذْ قالوا بِ أنها تشبه العقرب، والبعض الآخر قال: أنها تشبه نجمة غريبة عن نجوم السماء جميعها، إنها تشعّ من رؤس عديدة، أكثر من خمسة رؤس. قسم منهم قال: لها سبعة رؤس، و قسم آخر أعطاها ستة رؤس. في فجر اليوم السادس من عام العقرب، في شهر الانشقاق الشديد الحرارة، لاحظ الأهالي تشكّل الغيوم فوق تلال الرمال الناعمة. ولاحظوا كُتَلا منها(الغيوم) قادمة من أور شلام، وكتلا أُخرى من أور المجوس، وسحابة ضخمة قادمة من فوق الضريح المجهول لِهوريس، ورأوا فيها سمكة حبلى من سائله المنوي، وراحوا يؤكدون بِأنهم يرون في أحشائها قضيباً ذكريّاً لِ إنسانٍ، أو إلهٍ مقتول في نهر النيل. و رأوا سحابة قادمة من أور الكلدانيين تحمل في جوفها كتابا مفتوحا تتراقص صفحاته في

الغاز المكثّف المائل لِلزرقة الرصاصية. في اليوم السابع رأوا غيمة ملأى بِ شقائق النعمان تخرج من باب توما سابحة فوق معبد جوبيتر، حاملة رأس يوحنا المعمدان، هدية هيروديّا على صحنٍ ذهبيّ، بِ اتجاه سحابة المجوس القادمة من بلاد الفُرْس. و في ظهيرة اليوم السابع من شهر الانشقاق، تصادمت الغيوم، جميعها، في محيط العقرب، أو النجمة السداسية. ارتجَّت الصحراء و اهتز نخيل اليمامة. ضربت الصواعق الأحجار النيزكية، وتهدَّمت مغاور وصوامع النسَّاك. في الأثناء انفجرت الكتلة السوداء، و تبعثرت الكائنات التي كانت تتغذى من جسدها. و في ذات اللحظة بدأ المطر الكوني بِالتساقط، و اندمجت تلك الكائنات السوداء اللامعة بِالمطر المنهمر. و لِكثافة تلك الكائنات، أخذ المطر بريق اللون الأسود. و عُرِف ذلك اليوم بِ يوم المطر الأسود، و تحوَّل إلى علامة فارقة في تاريخ حاضرة الرمال. و راح الأهالي يقيسون الزمن، و ينسبون الأحداث إلى ما قبل و ما بعد المطر الأسود. بعد عام من ظاهرة المطر الأسود، قال حكماء اليمامة عنها ما يلي:

إنّ الذي حصل فوق كثباننا إنْ هو إلاّ تنفيذا لِ ما كان مكتوبا في ألواح محفوظة في الطبقة السابعة عشر من سماوات الأرض. وأكَّدوا على رؤيتهم لِكائنٍ مهيوب خرج من الكتلة التي انبثقت من انشقاق ظهر العقرب الأم، و أنه كان يحمل في يده اليمنى رمحا ذي بريق رصاصيّ، وفي يده اليسرى مجموعة من عظام و جلود الحيوانات، وقطعا من الأخشاب وأوراق البردي. و كانت عيونه تقدح شررا و تشعّ بريقا فوسفوريا، كما عيون الذئاب عند انعكاس الضوء منها. و كان عضوه الذكريّ بارزا، ضخما، متدَلّياً تحت جلاَّبية رماديّة اللون. أمّا من خلفه، فَ كان جنوده الذين انتهوا من أكْلِ لحم أمهم، و كانوا مدجّجين بِ السيوف و الرماح و الهراوات الضخمة. قال حكماء اليمامة عنهم، بِ أنهم كانوا مطاردين من إله السماوات. و أنَّ الحكماء قد رأوا الله من فوقهم بِ لحيته البيضاء الطويلة و هو

يقذفهم بِ الصواعق. إنَّه يطردهم من السماء. و قالوا أيضا بِ أنَّ حامل الرمح و الألواح والصحف هبط فوق المغاور و الكهوف السحرية المقدّسة. إنه الإله الذي تمرَّدَ على ربِّ السماوات. الإله الذي طرده رَبُّ الأفلاك والمجرات من السماء. لقد اجتاح هؤلاء، جنود الإله المطرود، حواضر الأنهار والأشجار والينابيع كما الذئاب و الجراد. أَتَتْ على الأخضر و اليابس. لقد استباحوا الحياة. أفرغوا اليخضور من نسغِ الأشجار و الأزهار. لوّثوا هواء الغوطة بِ زفيرهم الصحراوي. قتلوا عشتار و أوروب وآدون واغتصبوا ملكة الفرات زنوبيا.إنهم جنود إله الرمال والبعير العاقل. إنه البعير السماوي ذي البول الملوّن، و الخشية هي في أن يكون هو الذي يسوق هؤلاء إلى ساحات الوغى، و الخوف الأكبر هو في احتمال مشاركة أسراب الأبابيل و كتائب البراق المزركش في هذه الحرب الإلهية. إنه القدر يا دمشق النور! فَ الإله المطرود من السماء قد أسّسَ معسكراته الإرهابية حول البساتين و الفيافي و الأنهار الرقراقة، وتراه بين زمن وآخر يقوم بغزوة وحشية على الحُبِّ و الجمال. يعيث فسادا في الأرض دون حسيب أو رقيب. و لأن جغرافيته تضيق على مجاله الحيوي، فَهو يستعد لِ اقتحام جنائن ورياض الشمال موئل الشقراوات الحسناوات المغناجات، وستتحول بلدان الفرنجة إلى شاشة عملاقة لِ نَقْلِ الحريق و الدمار الذي سَ تسببه فيالق الإله المطرود من السماء. ثبّتوا الأنظار على الشاشة العملاقة! راقبوا دخول نسر الكوندور إلى سماواتنا، و احسبوا زاوية الشعاع الصادر من عيون أبي الهول مع خَطّ الأفق في نفس اليوم الذي فيه سَ يظهر الكوندور فوق أهرامات خوفو وخفرع. وافتحوا الحقيبة التي تركها جلجامش عند إلهة الخمر سيدوري! فَ فيها خرائط القمر و رموز الزمن الذي فيه سَ يتم تدمير كهوف و مغاور ابن نوفل وابنة خويلد، وفي الزمن نفسه، سَ يُلقى القبض على الإله ،الماكر، المطرود من السماء. هذا ما كان مكتوبا في الأوراق التي بِ حوزة هايرو. إنَّه ظَلَّ لِ أيّامٍ مخطوفا من تأثير النص الذي كان قد قرأه عدّة

مرّات. أمّا ماردو، فَفي إحدى الليالي قال لِ الفتية: لقد حَضَّرتُ لكم أحلى حكايات عن رستمِه ظال والملك داراف. سَرَتْ همهمة بينهم، وعَمَّ جَوّ من السرور، لأنهم سَ يسمعون حكايات جديدة. طبعا هم لا يعرفون أصل و فصل و جنس أبطال القصص والحكايات التي يرويها ماردو عليهم. لكنهم يشعرون بِالرضى و السعادة لِ ما يسمعونه منه. راح كل واحد منهم يتنحنح في مكانه، يُحَسِّن من قعدته استعدادا لِ سماع الحكايات. أمَّا ماردو، و كَعادته، راح يتمتم و يصمت، لِ الإثارة ليس إلاّ. ساد الصمت بينهم. كانوا ينتظرون كلمة البداية من فمه، أخيرا، عَدَّلَ ماردو قَعْدَته وطَلَبَ منهم ألاَّ يُقاطَع أثناء سَرْدِه لِ القصَّة، وإلاّ سَ يُنهي الرواية و لن يُكملها. أَقْسَمَ الجميع و بِ صَوتٍ واحدٍ، تقريبا، بِ أنْ يبقوا صامتين و فقط يستمعون إليه. بدأ ماردو قائلا: كان في مافي، كانت بداية القصَص عندهم تبدأ هكذا، وهذا يعني في مصطَلَح الرواة و الحكواتية في بلاد الشام(كان ياما كان)، إذن هكذا بدأ. كان في مافي، كان في رجال اسمه زال(هو كان يلفظ الاسم ظال)، كان فقيرا يعيش في إحدى قرى بلاد فارس. و في تلك الأزمان كان معظم الفقراء، إمّا عبيداً، أو محسوبين من ضمن أملاك و ممتلكات الأغنياء. تزَوَّج الرجل من فتاة جميلة عمرها لا يتجاوز الخامسة عشر عاما. كانت شهرتها في الجمال قد انتشرت خارج القرية، حتى أنَّ أمير البلاد أصبح على علم بِجمال تلك الفتاة. و ذلك عن طريق حاكم المنطقة، و الذي استقى معلوماته من رئيس مجموعة القرى التي تَضمُّ قرية الفتاة رودمالا. طبعا أمَرَ الأمير بِ إحضارها إلى جناح النساء في بلاطه، قبلَ أنْ يختلي بها الشاب المسكين الذي تزوَّجها.
استمتع الأمير بِ ممارسة الجنس مع رودمالا، و ظَلَّ يُضاجعها لِ مدة سبعة أيام، ومن ثمّ أرسَلَها إلى بيتها وفي صرَّتها ثلاثين من الفضة. أمّا الآخرون(حاكم المنطقة و رئيس القرى)، فَ لم يتجرَّأ أحدا منهم الاقتراب منها، أو حتى الحديث عنها. هكذا تابع الزوج حياته بِانكسار مع زوجته. لم يمارس الجنس معها لِأكثر

مِن خمسة عشر يوما. يعود السبب، أوَّلا إلى الإنكسار النفسي و القهر الروحي، و ثانيا أنَّها، و بعد أسبوع من مجيئها إلى المنزل، كانت في دورتها القمرية الشهرية. على كلٍّ، أضاف ماردو: هذه العادة، و هذا الظلم كان منتشراً في أكثر من مكان. بعد عام من الزواج، وضَعَتْ رودمالا مولودا ذكرا. و لمَّا كان الأهالي يتهامسون فيما بينهم حول بقاء العروس في بلاط الأمير، و يُشَكِّكون في نَسَبِ المولود. لذلك، و لِ غَسْلِ العار و التخَلُّص من تلميحات أهالي الضيعة، قَرَّرَ الزوج و الزوجة إخفاء الطفل عن الأعين. اختارا له اسما في طَقْسٍ مهيب تحت صورة إله النور، و روائح البخور. اشتركَ الزوجان في حَمْلِ ولدهما. رفعاه إلى الأعلى و وَجْهُهُ نحو الشرق. هَمَسَ أبوه في أذنه قائلا: نحن، أنا و أمُّكَ، نحبّكَ يا كبدنا، وأنتَ ابننا حقًّاً وحقيقة، وقد أسْمَيناكَ رستم، وأنا واثق يا بنيّ بِ أنَّكَ سَ تنتقم لِ هذا العار الذي ألصقوه بنا. وأنا واثق بِأننا سَ نلتقي و سيكون لكَ شأن عظيم. لَفَّته أمه في قماطٍ لَيّن و عانقته طويلا وذَرَفَت الدمع السَّخي، و سَلَّمَتْه لِ والده. كان الوقت قُبَيْلَ الفَجر حين أخذه والده إلى النهر، وضَعَه في الماء قريبا من الضفة. حاولَ أنْ يجعَلَه بِ منأًى مِن الدوَّامات، فَ نهر آراكس ليس من الأنهار الصغيرة، فَهو غزير التدَفّق، وأكبر أنهار القفقاس. يَجري من بلاد الأرمن إلى بلاد فارس عبْر سهول ومنحدرات ووديان ومنعطفات جبلية. أَمَّا بِ خصوص أهل الضيعة، و لِ قَطْعِ الطريق عليهم من تأليف و إشاعة الأخبار حول موضوع الحمل و الولادة، قام الوالدان بِ تَسْريب خبر، مفاده بِ أنَّ رودمالا قَدْ وضَعَتْ مولودا ذكرا، إلَّا أنَّه فارَقَ الحياة عند الصيحة الأخيرة لِلديك في فجر نفس اليوم. في ظهيرة هذا اليوم، نُقِلَ عن الأهالي أنَّهم شاهدوا، في الساعات الأولى من الصباح، طائرا يشبه النسر، لكنه أكبر منه، أو لنقلْ، أضخم منه. كان يحمل بين مخالبه صيداً غريبا شَبَه السمك، لكنه لم يكن سَمَكاً. طار به إلى أعالي إحدى قِمَمِ الجبال المطلَّة على النهر. بَعْدَ خروج زال فَجْراً مع الطفل، استَسْلَمَتْ رودمالا

لِ النوم، بِ سَبَبِ آلام المخاض و الولادة و القهر. و راح زال في غفوة هو الآخر فَوْرَ عودته إلى المنزل، لأنه كان منهكا، موجوعا، محطَّما و مجروحا في روحه. استيقظَ الاثنان قبل الظهيرة. كانا حزينين. أجْهَشَتْ رودمالا في البُكاء، كانت تبكي بِ حَرقة على فلذَّة كبدها. ضَمَّها زوجها إلى حضنه. راحَ يُمَسِّد على شعرها، يُهَدِّئ روحها و يُخَفِّفَ من ألَمِها. قالت، كَ مَنْ يُحَدِّثَ نفسه: لقد استَفَقْتُ من النوم عند بزوغ الفجر، كنتُ أريد انْ أروي لكَ حلما رأيته في المنام، لكنكَ كنتَ نائما. رأيتُ كَأنّي كنتُ أنثرُ الحبوبَ على أرض الحَوْشِ، وكان لدينا دجاجات وصيصان وبقرة ومعزة. فجأة رأيتُ نسراً انقَضَّ على طيورنا وخَطَفَ أكبرَ الصيصان و طار به عاليا في السماء، و حين حاولتُ الاستنجاد بكَ، رأيتُ و كَ أنَّ رأسك كان أكبر و أعظم مما كان، طَلَبْتُ منكَ أنْ تنظر إلى حيث يطير النسر كي تَلْحَقَ به، أو تفعلَ شيئاً لِ تُرْجِعَ الصّوصَ، و حين أَشَرْتُ إلى مكانه، شاهدتُ صبيَّاً بين مخالبه، و ليس صوصاً، و رأيتُ و كأنَّ كان لِ الصبيّ رأسين أو ثلاثة رؤس. طَبْطَبَ زال بِ رِفْقٍ على كتفها، و هَدَّاَ من رَوْعِها. اتَّجهَ على وجه السرعة نحو النهر، حيثُ أودعَ ابنه في مياهه. عند وصوله لم يَعْثُرْ على الطفل، لا في المكان ولا في جِوار المكان من كافة الاتجاهات. مشى مسافة، لا بأس بها، على ضفَّة النهر، مُمْعِناً النظرَ بين الشجيرات و الأشجار و الزّلَلِ و الأعشاب النهرية العملاقة، إلاَّ أنَّه لم يَعْثُر عليه، و لا على أيّ أثَرٍ تدلُّ على وجوده في مكان ما في النهر. لم تراوده شكوكاً حول امكانية أنْ تكونَ حيوانات النهر قَدْ فَتَكَتْ به، لأن في هذه الحال، كان سَ يَعْثُر على أثر من بقاياه كَ القماط مثلا. فَ راحَت احتمالية أن يكون الطائر الذي تَحَدَّثَ عنه القريون صَحيحاً، و أن يكون فعلاً قد حَمَلَ الصغير إلى عشِّه. سَمِعَ زال عن عالم يقرأ حركة الأفلاك، و يُفَسِّرَ الأحلام معتمدا على مخزون علومه الدينية و الصوفية. كان قد نَزلَ في أصفهان منذ اسبوع، و سوف يغادر المدينة بعد واحدٍ و عشرين يوما، على بَخْت الراوي

(يعني على ذمَّة الراوي) أضاف ماردو، كان يَتَدَخَّل بين الحين و الآخر في جسم الرواية، لكي يَكْسِرَ الرتابة في السرد، من ناحية، و لِ إعطاء المصداقية لِ القصة التي يرويها، من ناحية أُخرى. استطاع زال الوصول إلى عالم الفلك و قارئ حركة الكواكب و النجوم. استقبله المنَجِّم الحكيم، و قبل أنْ يبدأ زال بِ الحديث، طلبَ منه العالم أنْ يتحَدَّث عن وضْعه بِ شَكلٍ عام. عَرَّفَه زال على اسمه، و بِ ثلاث إلى أربع جُمَلٍ تحدَّثَ عن وضعه الاجتماعي و المعيشي، و تابع قائلا: زوجتي وَلَدَتْ ابنا، و لأننا كنَّا قد نذرْنا بِ أنْ ينال بركَة إله النهر، فَ أخذته إليه فجرا. وحين عدتُ إلى النهر، بَعْدَ صعود الشمس بِ مقدار ربع قوس إلى السماء، لِ أحمله إلى البيت فَ لم أجده(لم يَقُلْ له الحقيقة في موضوع الرضيع و النهر)، وروى له حُلْمَ زوجته. مَتى وَلَدَتْ زوجتكَ؟ سأله شامبازاف (اسم العالم). قُبَيلَ الفجرِ في اليوم الواحد و العشرين من الشهر الأول من الربيع، أجابه زال. اسمع يا بني، قال شامبازاف: أوَّلاً، إنَّ الصوص، أو الصبي الذي رأته زوجتكَ بين مخالب النسر، هو ابنكَ، و ثانيا، إنَّ اليوم الذي ولِدَ فيه ابنكَ هو اليوم الجديد من السَّنة. و في هذا اليوم تكون القمر بِ محاذاة نجمة آناهيد، يرسلان أنوارهما المقدَّسة على مواليد هذا اليوم. و في هذا اليوم أيضا يكون برج الأسد على يمين الشمس، و كويكبة سارق التبن تكون بِ مواجهة برج القوس و يدخلان معاً حَقْلَ جاذبية الكوكب السادس. إنَّ هذه الرموز و الأسرار الفلكية المرافقة لِ يوم مولد ابنك.. لم تَقُلْ لي ما اسمه، رستم، قال زال بِ سرعة البرق. إذن، هذه الرموز و الأسرار تَدلُّ على ما يلي: مَنْ يبدو رأسه، في المنام، أضخم مما هو في الحقيقة، فَ ذلك الشخص يزداد شَرَفَاً. و أمَّا مَنْ يبدو و كأنَّ له رأسين أو ثلاثة، فَ إنَّه ينتصر على الأعداء، إنْ كان فارسا، أو مبارزاً، و ينال غِنىً، إنْ كان فقيرا، و إنْ كان غنيَّاً يكون له أولاد بَرَرَة. تفسيرات العالِم أثْلَجَتْ صدره، و تَوَجَّه من فورهِ إلى الضيعة.

عانق زال زوجته، عند عودته إلى منزله، كان سعيدا جدا. دُهِشَت رودمالا مما تراه. سألته عن سرِّ سعادته. في الأثناء راح يشرح لها كلّ ما سمعه من العالم شامبازاف، وأَخْبَرَها بِ أنَّه لم يَقُلْ له حقيقة ما حصل بِ خصوص رستم و النهر، و أنَّ العالم كان مقتنعا بِ الحجَّة التي قّدَّمها إليه.

تَنَحْنَحَ ماردو في مكانه. استغرَبَ من التزام الفتية بِالصمت. كان يتمنَّى أنْ تكون هناك مقاطعة و استفسار، أو حتى مشاغبة، أثناء سَرْدِ الرواية، لأنه في هذه الحال كان سَ يمارس رياسته، ويظهر تفوّقه في المعرفة، و يُشْبِع غروره و الأنا المنتفخة لديه. ولذلك قَرَّرَ اتباع استراتيجية مختلفة في سَرْدِ الرواية، كَأنْ يطرح، هو، استفسارات، أو أسئلة عن الأحداث أو الشخوص في جزئيات سابقة من القصة، و ذلك لِ تشجيعهم على المشاركة و التفاعل في القعدة و القصة. تابع ماردو روايته بِطرحه تساؤلات عن أحداث سابقة، مثلا السؤال عن مكان و مصير رستم. حين طرَحَ ماردو هذه التساؤلات، بدأت الإجابات و المشاركات تتزاحم في الجلسة. هذا ما كان يريده من القعدة و السهرة. فَ الإجابات على أشئلته كانت تدلُّ على انتباههم و تعَلّقهم بِ أحداث القصة. كان هذا التفاعل كفيلا بِ إشباع غروره، لذا تابع من حيث انتهت الإجابات الصحيحة، وخاصة ما يتعَلَّق بِ رستم و النسر. قال: كما عرفتم، فَ إنَّ النسر، أو كما كانوا يقولون عن هذا الطائر (العنقاء)، و حَذَّرهم– مباشرة– من الاستفسار عن العنقاء، لأنه هو الآخر لا يعرف عن هذا الطائر الشيء الكثير. لذا يذكر النسر، بدلا من العنقاء، في الرواية. إذن كان النسر قد أخذَ رستم و طَرَحَه بين فراخه. كان يأكل ممَّا يُقَدِّمه النسر لهم من الجيَف و الطرائد إلى أن ترعرعَ و كَبُرَ، حينذاك، حَمَلَه إلى إحدى التلال القريبة من عشِّه. كان المكان الذي حمله إليه مكسواً بِ الأشجار المثمرة و النباتات المتنوّعة و ينابيع مياهٍ عذبة. لم يكن، الصبي، يتجاوز السنة الرابعة من عمره. و لكي يبقى على قَيدِ الحياة، كان لا بدَّ من مواجهة ظواهر الطبيعة و

الحيوانات المفترسة و غير المفترسة، و التي يمكن أن تكون، هي، طعاما له. لقد تَعَلَّمَ الاختباء و المناورة و الجري فوق المرتفعات، و سباق الظباء و الغزلان. في إحدى رحلات صيد الملك بهدينان، ملكِ زابلستان و سجستان(غالبا، كان ماردو يأتي بِالأسماء من عنده)، عَثَرَ فرسانه على الصبي، و بِ الكاد استطاعوا الإمساك به. أحضروه إلى الملك. أَخْبَروه عن رشاقته و شجاعته و مهارته في المناورة. ألقى الملك نظرة فاحصة عليه، فَ لمَّا رأه قريبا لِ القلب، صحيح الجسد و البنيان، أمَرَ بِ ضَمِّه إلى أفراد الفرقة. أمضى فريق الصيد ثلاثة أيام بِ لياليه في منطقة أهل الطفل، و هم يصطادون و يشعلون نار الشِّواء، و يشربون تحت أضواء المشاعل التي تُنير معسكر الصيد قُرْبَ نهر آراكس، أو آراس(هكذا يلفظ الفُرْسُ اسم النهر)، قال ماردو. استغرقَ عودة الملك من المرتفعات التي راوا الصبي فيها، ثلاثة عشرَ يوما. أَصْدَر تعليمات ملكية بِ ضَمِّ الصبي إلى العائلة الملكية، و اعتباره واحداً من الأسرة المالكة، طبعا، تَمَّ ذلك بِ رِضى و موافقة الملكة. كانت تحرّكاته، و التجانس في تفاصيل جسده و شكله الظاهري(عيونه، طوله، أكتافه، قامته..)، كانت تُوَلِّدُ طاقة إيجابية و دفءا حميميا في محيطه. و لأنَّ الملك و زوجته لم يرزقا بِ ذرِّية، فَ قَرَّرا تَبَنّي رستم عن حُبّ و قناعة. و من يومها خَضَعَ رستم لِتربية ملوكية، والتي تشمل، الفروسية، المبارزة بِ السيف والمصارعة، وجميع أنواع الرياضات وألعاب القوى، والعنف والقوّة، وأيضا دورات التعليم في مختلف العلوم، من الفلسفة والأدب و الفلك...إلخ. كان معسكر الصيد الذي أقامه الملك، يبعد مسافة يوم واحد من منزل والديه. فَنبأ عثور الملك على صَبيّ الغابة قد انتشر في الجوار، و تناهى الخبر إلى زال و زوجته. بعد عودة الملك بِسَبْعةِ أيام، ركبَ زال و اتجه نحو مقرّ الملك. نَزلَ في أحد الخانات القريبة من مركز المدينة. و بعد محاولات عديدة قام بها لِ مقابلة الملك، و كان، حين يُسأل عن السبب والحاجة، يقول إنها مسألة عائلية. وأخيرا، و في اليوم الثالث،

سُمِحَ له بِ المثول بين يديّ الملك. كان الملك قد سمَحَ، فقط، لِ ذوي القربى و زوجته بِحضور هذه المقابلة العائلية، كما كان، زال، يقول لِلمسؤلين عن الزيارات والمقابلات الملكية. دَخَلَ زال، وأدَّى التحيّة الخاصة بِ الملوك. انحنى أمام الملك بِ خشوع، ثم اعتدلَ في وقفته و ظَلَّ صامتا إلى أنْ طلبَ منه الملك بِ التحدّث، وعَرْضِ ما جاء من أجله. بدأ زال حديثه بِ الديباجة الشاهانية، ومن ثم دخل في صلبِ الموضوع قائلا: جلالة الملك المعظَّم! علمتُ بِأنَّكم كنتم في رحلة صيد في منطقة همدان، هذه المنطقة تضمُّ القرية التي أسكن فيها أنا وزوجتي. قريتي تلك قريبة إلى حَدٍّ ما من نهر آراس، وأخْبَره بِما جَرى له ولِزوجته بِالتفصيل(وأنتم تعرفون ما حصل لهم في بداية القصة، قال ماردو موجّها كلامه لِلفتية)، و ذَكَرَ بِ أنهما، و بعد اختفاء ولدهما رستم بِ عامين، رُزِقا بِ ولَدٍ ذَكَر أَسْمَوْه شفغواد، أهل شرق بلاد فارس يلفظون الاسم"شغواد" أضاف ماردو. و حين سمعتُ، تابع زال كلامه، يا جلالة الملك بِأنَّ رجالكم الأشاوس قد عثروا على صَبيٍّ صغيرٍ في غابات تلك المرتفعات القريبة من النهر، انتفضَ قلبي و تراءت صورة ابني رستم أمام ناظريَّ، ورأيتني، من جديد، أضعه في نهر آراكس قريبا من الضفة، و راحت الدموع تنهمر من عيوني، و حين رأتني زوجتي على هذه الحال، سألتني عن السبب الذي جعلني حزينا هكذا. فَ أخْبَرتها ما وصَلَ إلى مسامعي، و قد تناهتْ همسات خافتة إلى روحي تؤكِّدُ لي بِ أنَّ الذي عثَرْتم عليه هناك، إنما هو ابني رستم. أرجو، يا جلالة الملك، أنْ تعذروني على تجاوزي حدودَ اللياقة، إنْ كنتُ فعلا تجاوزتها عن غير قَصْدٍ، وأرجو أنْ تسامحونني على التجرّؤ بِهذا الإدّعاء. لكن قلبي ينخزني، وروحي تدفعني إلى التصديق بِأنه ابني.

نحن هنا لِ الاستماع إلى ما لديكَ من حَكايا و معلومات، قال الملك، طالما كنتَ تقول لِ رئيس التشريفات بِأنَّكَ تريد التحدّثَ في شؤنٍ عائلية، و ها أنتَ قلْتَ ما كنتَ تريد قوله. ولا بأس في أنْ تَدَّعي بِ ما ادَّعيت، لكنكَ مُطالبٌ بِ تقديم الدليل

القاطع، و الذي لا لبْسَ فيه، لِ إثبات أنَّ الصبيَّ هو ابنك، و إلَّا، فَ عقابكَ سَ يكون قاسيا. و الآن هاتِ ما عندكَ من أدلَّة و براهين تُثْبتُ صحّة دعواك. قال زال لِ الحضور: لقد رأيتُ بقعة مُحْتَقَنة في رقبته من الخلف، لونها كَ لون الدم، يميل إلى اللون القرمزيّ أكثر منه لِ اللون الأحمر الفاقع، و لها شكل دمعة، أو هيئة قلب، و مكان العلامة هذه هو عند نهاية شعر الرأس على الرقبة(من الخلف). و إذا أخذنا خطًّا أفقيا، من تلك العلامة، إلى الطرفين، سوف يتقاطع، تقريبا، مع شحمة الأذنين في الجانبين. و كَ أنّي كنتُ قد رأيتُ، أيضا، خَثرة دَمٍ بِ لونٍ قانٍ(أحمر داكن، غامق)، تحت ظفْرِ إبهام يده اليمنى. هذه هي العلامات الفارقة سيدي الملك، ناهيكم عن اللون الأسود الذي كان يُزَيّنُ عيونه الجميلة. ها أنذا يا سَيّدَ البلاد، تحت أمركم و رهن إشارتكم. هذا جيّد يا زال، قال الملك، و التفتَ إلى الحضور، و قال مخاطبا الجميع: لقد سمعتم ما قاله زال! أعتقد بِ أنَّنا استوعبنا مضمون العلامات التي تحدَّثَ عنها و أماكن وجودها في جسد الصبي. و الآن، ماذا تقترحون لِ التعَرُّف و التأكّد من صحّة المعلومات التي قَدَّمها الرجل لنا؟ مِنْ ضمن الاقتراحات كانت، أنْ يرافق الرجل قاضي قضاة المملكة والملك إلى جناح الصبي، وهناك يتم الكشف وفحص العلامات والتأكد منها. مقترح آخر كان، أن يرافق الرجل الملك و الملكة إلى جناح الصبي، و يتم التأكد من العلامات على جسد الصبي، و كانت مقترحات أُخرى. أمّا الملك، فَ كان رأيه أن يأتوا بِ الصبيّ إلى قاعة الاجتماع، و يتمّ الكشف عليه أمام الجميع، و بوجود الرجل الذي ادّعى بِأنَّه والد الصبي. لاقى اقتراح الملك استحسان الجميع. أمَرَ الملك بِإحضار رستم لِ المثول أمامهم. و ما أن دخل القاعة، حتى سَرَتْ قشعريرة في جسد زال، و كاد يُغمى عليه حين التقَتْ عيونه بِ عيون رستم. تَذَكَّرَ تلك اللحظة التي فيها رفعاه، هو ورودمالا، إلى الأعلى وعيونهما لم تكن تفارق وجهه و عيونه. إنه هو، تمتمَ زال بينه وبين نفسه، ولاحظَ نظرات رستم المرتبكة، وكَ أنَّه أضاع شيئا ما، و كان

يعتقد بِ أنَّ هذا الرجل ليس غريبا عنه، وأنَّه يعرفه منذ زمن بعيد. كان يَحسُّ بِ انجذاب نحوه، و كأنَّ هناك كتلة مغناطيسية هائلة تَسْحَبه إلى جسم الرجل. لم يكن يعلم سَبَبَ وجوده هنا، لكنه كان مغمورا بِ إشراقة روحية(لم يشعرْ بها من قبل) بِسَبَبِ وجوده إلى جانب هذا الرجل. كانت نبضات زال قد بدأت بِ التسارع، و راحَ بخار العرق يتكاثف على جبينه و وجنتيه. كان يريد أنْ يجثو أمام الصغير ويأخذه في حضنه. أنْ يُقَبِّله من عيونه، خَدَّيه، يديه وقَدَمَيه. باتَ الغَبَشُ يحجب المشهد رويدا رويدا. لم يعرف إنْ كان دوارا، أم ضبابا،أم رذاذ عيون. في الأثناء، نزلَ قاضي القضاة إلى جانب الصبي، و طلبَ من الرجل أن يتقدَّم نحوهم، و أنْ يكشفَ لهم عن العلامات التي تَحَدَّثَ عنها. اقترَبَ من رستم. مَدَّ يديه بِ اتجاهه. أَمْسَكَ كتفيه بِ لطْفٍ، و في الحال انتابته رجفة داخلية، أَنْسَتْهُ المكان و الزمان والحضور. لم يَعُدْ يرى أمامه سوى ابنه رستم. رَكَعَ وأمْسَكَ رأسه بِ رقَّةٍ و حنان. راحَ يتأمَّله مَليًّا، عيونه، رموشه، خدَّيه، حَنَكَه و شفَتيه. ضّمَّ رأسه إلى حضْنِه، و بِيديه رأح يُمَسِّدُ على شعره، عنقه ووجهه. انْكَبَّ على حضنه، وراح يَشمُّه بِعُمْقٍ، يَشُمُّ شعره، وجهه،عنْقه، أصابع يديه، يفعَلُ ذلك، و كَ أنَّما يَشُمُّ جَسَدَ رودمالا، خلاياها، نَفَسَها ورحمها. تركَه الملك يفعل ما يفعله، تقديرا منه لِلموقف العاطفي و الحميمي الذي أَخَذَهما في حناياه. انتبه زال لِ ما يجب أنْ يفعل، و في الحال قال لِ رستم: دَعْني يا ولدي أنْ أنظرَ إلى ظهرِ رقبتكَ قليلا. أطاعه الولد، و أدَارَ رأسه لِ أبيه، و راحَ أبوه يلْمسُ شعره، و يهمسُ بعضاً من الأُحْجيات، و ربَّما هي صلوات، و أزاح الشعر من المكان الذي كان قد قال لهم عنه. أَمْعَنَ النظرَ إلى رقبته، و فجأة تراخَت يديه، و مال جسمه إلى الأرض مُغْمَاً عليه. لَحِقَ به المتخصِّصون، عالجوه، ما هي إلَّا دقائق، و كان زال قد عادَ إلى كامل وعْيه. اعتذرَ منهم جميعا، وفي الحال أخذَ يده اليمنى، وتأكَّدَ من وجود الخَثْرة تحت ظفْرِ إبهامه الأيمن. طَلَبَ، وهو بين البكاء و الابتسامة، أنْ ينظروا إلى العلامات التي

كان قد حَدَّثَهم عنها. حين تأكَّدوا منها، قامَ الملك بِ معانقة زال، و أيضا عانق رستم و قَبَّلَه قبلة الأبوَّة، و أَعْلَمَه بِ الموضوع. سادَ الفرحُ و السعادة بينهم، و في البلاط أيضا. بَعْدَ زَمَنٍ غير طويل، كان زال وزوجته وابنه شغواد، قد انتقلوا، و بِ أمْرٍ من الملك، لِ العَيْشِ في البلاط الملكي. هَمْهَمَ الفتية و تَنَفَّسوا الصعداء لِ هذه النهاية السعيدة لِ رستم و أهله. كانت هذه الحركة بِ مثابة استراحة، أو فاصل منشّط لِ الجميع.

أَمَرَ الملك، تابع ماردو، بِ ضَمّ شغواد إلى التدريبات و الدورات الملكية. كان رستم متفوّقا على كلّ الذين يتلقَّون التدريبات في ساحات و معسكرات المملكة. كان نَبَّالا ماهراً، و كان يجيد رَمْيَ الرمح و تسديده بِ دقَّة و قوّة. يفوق أقرانه، و معظم الذين يكبرونه سنًّاً. لاعب بهلوان و جَسور بِ السيف الفولاذي. فارس رشيق على صهوة الخيول المطهمة. مقاتل و مصارع جَبَّار في ساحات الوغى، و عَدَّاء لا يجاريه أيّ مقاتل آخر في ميادين القتال. قادَ رستم معارك شَرِسة ضدَّ أعداء البلاط الملكي و المملكة. كان مُمَيَّزا في ساحات القتال. كان بطلا حقيقيًّا، فَ طوله يقاربُ الثلاث ياردات إلَّا قليلا، وأعضاده كَ أفخاذ الليث، وصدره كَ صدر الثعبان، وَ وسطه كَ وسَطِ النمر. كان يقود الجيوش إلى النصر على الأعداء. لقد دافع بِ ضراوة عن البلاد، و حمى المملكة من الهزائم، و حافظ على حدود البلاد، لا بل، وفي بعض المراحل، استولى على آراضٍ من ممالك الأعداء. أصبحَ رستم حاكم المملكة و هو في العشرين من عمره، بَعدَ وفاة الملك بهدينان. و في الواحد و العشرين من عمره، تَزَوَّجَ مِن تَهْمينة ابنة ملك سَمَنْجان. كانت أحوال المملكة جيدة، و كان الأمان و السلام يسودان المملكة. رُزِقَ رستم بِ ولدٍ أَطْلَقَ عليه اسم سهراب، قبيلة زوجته يلفظون الاسم "زهراب". منذ أنْ تولَّى رستم رياسة البلاد، بدأ الملك كشتاساب، ملك روزستان وكابلستان، بِ طَلَب مثوله بين يديه. و أَمَرَ ابنه اسبنديار بِ تنفيذ المهمَّة(كَ شَرْط لِ تَسْليمه التاج و التخت لِ إبنه

اسبنديار)، أيْ الهجوم على، سجستان، بلاد رستم، و أسْره مع ولده و أخيه.
اسبنديار هذا كان يريد التاج و التختَ، لِ يَحكمَ البلاد، و حين عرفَ الملك بِ ما في نفس ولده، أَرسلَ في طلب خوزامشاد العالم و بعض كهنة المعبد. حَضَروا و معهم الكتب و المباخر.استخبَرَهم كشتاساب عن طالع ابنه. مدَّة عمره، و عن حسْنِ سيرته و أنَّه، هل سَيلبس التاج و يتمتَّع بِ الحكم أم لا؟ و هل يموت على فراشٍ أو يُقْتَل؟ نظَرَ خوزامشاد في سيرة حياة اسبنديار، و في زيجاته السابقة ثمَّ اغرورقَتْ عيناه بِالدموع، و قَطَّبَ ما بين عينيه. قال له الملك: أَخْبِرْني في الحال و عاجلا! لقد أمْرَرْتَ عيشي بِ هذا العلم. فَ أخْبَرَه بِ أنَّ اسبنديار سَ يُقْتَلُ في زابلستان في حربٍ بينه وبين ابن زال، و إنَّ قاتله سَ يموت بعدَ مقتله. إنَّ القدر المحتوم أسْبَلَ على قلبِ كشتاساب حجاب الغفلة، حتَّى أرْسَلَ اسبنديار إلى زابل لِ يأتي بِ رستم أسيراً مع ولده و أخيه.
هل تتوقَّعون أنْ يُقْتَلَ رستم أم لأ، و هل تصدّقون أنَّ هناك مَنْ يستطيع قَتْله؟ طرحَ ماردو هذه الأسئلة لِ يستفزَ الفتية، و لِ يستغلَّ اللغط الذي سَ يحدث بين الصبية بِ سَبَبِ إجاباتهم و حماسهم تعاطفهم مع رستم، كي يرتاح عن الكلام في الفاصل الذي سَ يحصل عليه. بعد سبعِ دقائق من الاستراحة التي ابتدعها، تابع سَرْد القصة.تقابل الخصمان، وأمَرَ كلّ واحد منهما أصحابه بِ ألَّا يتحاربا، و أنْ يثبتَ كلّ فريق في مكانه.لأنَّ النِزال سَ يكون بين البطلين، رستم و اسبنديار. زَحَفَ كلّ واحد إلى خصمه. تطاعنا بِ الرماح زمانا طويلا حتَّى تَقَصَّفَت رماحهما، فَ استلاّ السيوف و تضاربا رَدْحاً من الزمان حتّى تكَسَّرَت، ثمَّ تضاربا بِ العُمُدِ و الدبابيس حتّى تَشَظَّت فوق رؤسهما. و بعد فترة وجيزة، تراميا بِ السهام. فَ رَمى اسبنديار بِ نشَّابة، نصلها من الألماس، فَ أصابته، أمَّا سِهام رستم، فَ لم تصِب اسبنديار. جُرِحَ رستم و جُرِحَ فرسه رَخَش أيضا، بحيث ضَعفَت قواهما، فَ اضطرَ رستم النزول فَ تَرَجَّلَ و هربَ إلى جبلٍ كان هناك. و ولَّى الرخش إلى

إيوان رستم. فَ لمَّا رأى اسبنديار رستم يصعد إلى الجبل و الدم يسيل منه، قال له: اعطني يدكَ حتى أحملكَ مقيَّداً إلى حضرة الملك و استوهبكَ و أشفع فيكَ. فَ أَمْهَلَه اسبنديار و أعطاه الأمان إلى الغد. نزلَ رستم من الجبل، و هو مُثْخَنٌ بِ الجراح، فَ عبَر الماء و مضى إلى منزله، و رجعَ اسبنديار إلى معسكره. فَ لَمّا دخلَ رستم إيوانه، طَرَحَ نفسه متململا مما أصابه. أَحْدَقَ به أبوه زال و أمّه رودمالا، و راح أخوه و ابنه يبكون عليه، و الرخش واقف ناكس الرأس و به جراح عديدة. فَ قال زال: إنّي سَ أُدبّرُ أمركَ و أستَعين بِ العنقاء على معالجتكَ. فَ اصطحبَ ثلاثة أنْفُس مع ثلاثة مجامر، و أَخَذَ معه ريش العنقاء، التي ذكرتها لكم في بداية القصة، فَ صعدَ إلى جبلٍ هناك و أوقدَ النار في تلك المجامر، و أحرَقَ بها بعضاً من تلك الريَش. فَ لمَّا انتصفَ الليل، فَ إذا بِ العنقاء قد نزلَتْ إليه فَ سألته عن حاله. فَ أَخْبَرَها بِ حالِ ولده رستم و ما به من الجراح التي أصابته من اسبنديار، و أخبرها، أيضا، عن السِهام التي تغلغلت و تكَسَّرَتْ في جسد فرسه رخش. أمَرَتْه العنقاء بِ إحضار رستم و رخش. نُفِّذَ الأمر و كان رستم و رخشه عند العنقاء. فَ لَمّا رأته، رفْرَفَتْ عليه تَعَطُّفاً و تحنُّناً، فَ أَدْخَلَت منقارها في جراحاته وأَخْرَجَت منها نصالاً أربعة، ثمَّ مَسَحَتها بِجناحها فَ التأمَت، وأعطته ريشة وأمَرَته أنْ يبلّلَها بِ اللبن ويمسحها بها ويشدّها فَ تَبْرا. و صنعت مثل ذلك بِ الرخش أيضا، و استخرجت منه بِ منقارها ستة نِصال. فَ وجدَ في الحال خفَّة و انتفضَ و حَمْحَمَ. فَ تَهَلَّلَ رستم فرحا بِ سلامة الرخش. ثمَّ قالت لِ رستم: لِ أيّ سَبَبٍ تعرَّضْتَ لِ قتال اسبنديار، وهو رجل شجاع وبطل، و قاتِله لا يرى الخير بعده. فَإنْ رَضَيْتَ بِ هذه الحال، فَ اركبْ و ابصر العجب. فَ ركبَ رستم وسار إلى ساحل البحر. فَ أَسَفَّتْ العنقاء على شجرة من الطرفاء و قالت: اقْطَعْ من هذه الشجرة غصنا مستقيما يكون احد طرفيه أغلظَ من الآخر، ثمَّ قَوِّمه بِالنار، ورَكِّبْ عليه نصلا عتيقا، واجْعَل له قُذَذا، فَإنَّ فيه يكون هلاك اسبنديار.

إذا جاء اسبندیار یطلب قتالك، فَتَضَرَّع إلیه و ابْكِ بین یدیه فَ لعَلَّكَ تصرفه عن قتالك بِالمقال الحلو. فَإذا لم یفعل، فَوَتِّرْ قوسكَ وسَدِّدْ نحو عینه. هذا السهم، بعدَ أنْ تكون قد نَقَّعْتَه في سلاف الخَمْرِ، فَإنَّه یصیبُ عینه، و یكون في ذلك مقتله. و أرشَدَتْه على الطریق حتى عاد إلى إیوانه، ثُمَّ ودَّعَتْه و حَلَّقَتْ في السماء.

و لمَّا رجع رستم، فَعَلَ ما أمَرَته العنقاء. و ركبَ الرخش مصبحا، و تَنَكَّبَ القوس مدججا، و أَقبَلَ نحو اسبندیار. فَ بلغَ اسبندیار بِ أنَّ رستم قد عاد إلى القتال. فَ قال ما حَسِبْتُ أنَّه یقدرُ أن یصلَ إلى إیوانه. و رجوعه الآن لیس إلَّا بِ رُقْي ساحر. فَ استحضرَ جننه و عدته، و ركبَ نحوه. فَ لمَّا تقاربا قال له اسبندیار: أیها السِجزي (كلمة مهینة قال ماردو دون أنْ یشرحها، لأنه هو أیضا لا یعرف معناها)! كَ أنَّكَ قد نسیتَ صنیعي بكَ بِ الأمس، و كان ظنِّي أنَّكَ تكون محمولا إلى القبر. و لم تبرا إلَّا بِ رقیة أبیك الساحر. أمّا الیوم، فَ سَ أسدُّ علیكَ سبیل حیلته و مكره، فَ أجعَلُ بدَنَكَ كَ الغربال بِ غَرْزاتِ سِهامي، و أترُككَ بِ حالة لا ینفعكَ معها رقیات السَّحَرَة و المشعوذین. فَ قال رستم: إنّي ما جئتُ الیوم لِ القتال، و إنَّما جئتُ لِ أتَضَرَّعَ إلیك عساك تجنح إلى السلم و تطفئ من قلبكَ نار الحقد. فَ ما زاده ذلك إلَّا عِنادا و غرورا و استمرارا في غوایته و جهالته. فَ لمَّا علمَ رستم إصراره على القتال، أخذَ القوس و رماه بِ النشَّابة، التي سَبَق ذكْرها، فَ أصابَتْ حَدَقَته، فَ انقلبَ عن ظهر الأدهم مضرَّجا بِ الدم و غَشيَ علیه، ثُمَّ أفاق واستوى قاعدا وأخَذَ بِرأس النشَّابة و انتزعها بِ یده. فَ جاءه أخوه بشوتن و ولده شهروز راجلین. فَ لمّا وجداه على تلك الحالة، شَقَّا الثیاب و انهالا على رأسیهما بِالتراب، و ضَمَّاه إلى صدورهما و راحا یمسحان الدم عن وجهه. و طفقَ بشوتن یندبه وینوح على مآثره ومفاخره، ویتَلَهَّف على محاسنه ومكارمه، و یلعن التاج والتختَ ویدعو على صاحبهما كشتاسب الذي عَرَّضَ ولده لِلهلاك. فَ لَمّا بلغ خبر مقتل اسبندیار إلى والد رستم، قال لِ ولده: إنَّ خوفي علیك الآن أكثر

من خوفي على اسبنديار. وقد بَلَغَني عن عالم الصين و سائر المنجّمين، أنَّ مَنْ يقتل اسبنديار يُقْتَل ولا تطول أيّامه. و بِ الفعل، لم ينقضِ أكثر من شهرين على مقتل اسبنديار، حتّى أَقْدَمَ أخو رستم، شغواد، على قَتْلِه غَدْراً.

و هكذا انتهَت رواية ماردو بِ مَقْتَلِ البطل رستم غَدْراً، و هذه النهاية لمْ تُرْضِ الفتية. انقَسموا فيما بينهم، فَ منهم مَنْ كان ضد أنْ يُقْتَل البطل تحت أيّ ظرف كان. و آخرون كانوا مع نهايته، لآنَّ قَدَرَهُ كان مكتوبا على جبينه. طلَبَ منه الفتية، في سهرتهم الليلية يوم السبت، بعدَ اسبوع من قصَّة رستم، أن يروي لهم قصَّة جديدة من قصصه الرائعة. ماردو كان ينوي رواية قصَّة جديدة، لكن يوم السبت، هو يوم الحمَّام، فَ لا يستطيعون السهر. لآنَّ الأمهات لن يتركنَهم بِ الجلوس طويلا، و مياه الحمَّام تَغْلي بِ انتظارهم. فَ ترى الأمهات بين فترة و فترة ينادين على أولادهنَّ، لِ الاستحمّام. لذلك، لم تكنْ هناك إمكانية الجلوس لِ ساعات. إذن، البدء بِ قصّة جديدة، من قِبَلِ ماردو، غير وارد، و غير ممكن.

كانت الأحاديث التي تدور بينهم، هذه الليلة، أحاديث عامّة. لكن ماردو لَمَّحَ لهم، بِإمكانية تحضير قصَّة جديدة، و هذه المرَّة عن الملك "دار آف". و قبلَ أنْ ينفرط تجَمُّعهم، توجّه ماردو بِ السؤال عن الأوراق التي كانت بِ حوزة هايرو، و عن مضمونها، وعمّا إذا كان هايرو قد شرح لهم بِ شكل جيد، و إذا كان هايرو ذاته قد فهمَ ما قرأه. سادَ لغط بينهم. منهم مَنْ قال لم نفهم شيئا، و خاصة عن هذا أل الإله المطرود من السماء. و منهم مَن قال كيف ينصبون السلالم و يذهبون إلى السماء، واعتقال الإله المطرود، يا أخي ما فهمنا، لكن كان جميلا. رَدّ عليهم ماردو بِ أنَّ الذي سمعوه من هايرو، كما قالوا، هو معقَّد و فيه رموز، و حثَّهم على التحدّث و التفكير في ما سمعوه من تلك الأوراق.

– 10 –

مَشاهد و حكايات من جنائن الذاكرة

في الواحد و العشرين من شهر عشتار، عاودت ندى الاتصال بِ سارو عبْر الرسائل النصّية.

– صباح الخير سارو

– صباح الخير ندى. هكذا رَدَّ عليها دون إضافة أيّ شيء آخر. لأنها كانت قد قَطعت الاتصال به لِ أكثر من ستة أشهر.

– كيف صحتك يا سارو، ماذا تفعل، كيف تقضي أوقاتك؟
احتار في الإجابة. لكنه قرَّر أن يذهب إلى الذاكرة لِ استحضار مفردات الحبّ التي تتعرّض لِ التآكل. استحضار صوَرهما التي ظلَّتْ تتحرّك في الأمكنة إيّاها، داخل سجن الزمن الذي أقفل عليها.

– صحتي جيدة يا ندى، يا ملكة الحبّ.

– أيّ حبّ يا سارو، ألا ترى بِ أننا ختيَرنا؟

– نحن لم نتختيَر يا ندى. نحن شهود على تعاقب الفصول، شهود على عدد مرات اختباء القمر عن صفحة السماء و عن أنظارنا، أو عدد مرات ظهورها في حالة البدر.

– يعني نحن نكبر في العمر.

– نحن أحد عناصر الطبيعة، والزمن بِ النسبة لِ الطبيعة غير مجزّأ وغير مُرَقَّم. يعني الزمن لا يلاحظنا ولا يرانا وهو في جريان مستمر. يمضي دون تَرَدّد و دون تَوَقّف في محطات العشاق. ينساب بين الأفلاك و المجرَّات حاملاً خَيبات الطبيعة و فَشَل التجارب، محتضناً أوجاع و قَلَقَ العشاق. حين تموت الأحلام بِ انزلاقاتها من على ظهر السنين، و نحن نبحث عن صوَرِنا المتدحرجة عبْرَ ظلال السنين المهاجرة، نقول إذْ ذاك لقد كبرنا، أو أننا نكبر.

– آخ منك يا سارو! أنتَ نفسكَ سارو الخيالي الذي كنتَ تحدّثني عن الفلسفة، العلم، الأدب، الأساطير و الآلهة، لم تتغير.
إنها استفزته بِ ردّها هذا، أو بِ الأحرى استفزّت ذاكرته، لا بل القسم العاطفي من ذاكرته. دفَعته إلى مملكة الضباب و الخيال، إلى كلّ حارة و شارع و زقاق ضمهما معا. إلى كلّ بقعة من الأرض وطأتها أقدامهما معا، و تهامسا عليها لِ بعضهما، و تلامست أيديهما، و تطايرت أنفاسهما العطرة في فضاءاتها. راحت ذاكرته إلى تلك الأيام التي كانا يلتقيان في حلب، أو بِالأصح في الأيام التي كانا معا،لأنه لم يُشاهَد أحدهما بِمفرده، طبعا عدا الليل والدوام الجامعي، فَ ظهورهما معا في كلّ الأوقات والمناسبات والأمكنة، كان شيئا مألوفا وعاديا لِكلّ الأصدقاء.

– على ذكر محتوى جلساتنا في الأيام الخوالي، تذكّرتُ واحدة منها في الحديقة العامة، قرب أقفاص الطواويس و الحمام و الغزلان الصغار. أذكر حينها كنتُ أحدّثك عن هوميروس و رائعته "الإلياذة و الأوذيسة". كان الوقت ظهيرة يوم من شهر أيار، و كنا جالسَين تحت ظلال الأشجار. كنتِ ترتدين قميصا ربيعيا مزهّرا بِ ألوان زاهية و أكمام قصيرة. أمّا أنا فَ كنتُ لابسا كنزة ربيعية بيضاء مقلّمة بِ الأزرق السماوي وبِأكمام قصيرة، وأذكر أيضا بِأنني اقتربتُ منكِ كثيرا و تقصّدتُ أن يلامس ذراعي الجزء المكشوف من ذراعكِ، و قد حصلَ ذلك. و أحسستُ في

اللحظة ذاتها بِ ارتباك غريب، و راحت نبضات قلبي تتسارع، و تدحرجت حبات العرق البارد من على جبيني. تلعثمتُ في الكلام بِ شكلٍ واضح. اختلقتُ حجّة و شغَلتُ نفسي بِالكتاب الذي كان على ركبتي. و هكذا ابتعدتُ إلى المسافة الآمنة بيننا. الآن وأنا أتذكر ذلك اليوم، أشعر بِخجَلٍ حقيقي، وأُقَلّب الموقف بيني و بين نفسي، و أحاول سَبْر أغوارِكِ و محاولة استشفاف موقفكِ من تصرّفي ذاك. تُرى هل كنتُ سخيفا في نظركِ، أو تافها، سوقيا، وقحا و قليل الأدب؟ كم خَجِلٌ أنا من ذالك الموقف يا ندى.

– تذكّرتُ تلك الجلسة تماما، لأنّ تلخيصكَ لِ حرب طروادة و مغامرات أوذيس و حكمة بنلوب، جعلني أحتفظ بِ مضمون رائعة هوميروس. صحيح كان لِ جلستنا جانبا عاطفيا، رومانسيا، إلاّ أنني انشددتُ لِأوذيس، ولا أخفيكَ بِانني ارتبكتُ حين تلامست أجسادنا من خلال أذرعنا، أو الأجزاء المكشوفة منها. أنتابتني قشعريرة حينها، و راح قلبي يدقُّ أسرع من المعتاد، و غمرتني سعادة غريبة لم أدرِ وقتها ما طبيعتها. شعَرتُ بِالخوف والخجل. ليس الخوف بِ المعنى المتعارف عليه بين الناس، إنما يمكن القول عنه؛ خوف لذيذ، جميل، مدهش. و بِ صراحة يا سارو توقعتُ أن تقبّلني في تلك اللحظة. أمّا عن موقفي و تقييمي لِ تصرّفكَ، فَ أنتَ حمَّلْتَه أكثر مما يحتمل يا سارو. فَ نحن لم نكن جالسَين معا على نفس المقعد بِالصدفة، ولم نكن غرباء بِالنسبة لِ بعضنا. كانت تربطنا علاقة روحية، عاطفية، و إنْ لم نصرّح عن جوهرها لِ بعضنا، أي كنا عاشقين تائهين يا سارو. استغربَ من كلامها. فَ قبل أكثر من ستة أشهُر أبْدَتْ امتعاضا من كلام كتبه لها، و كان قد قال حينها: "... أحاول لملمة الوردات من حول خصركِ الطري". وبِسبب هذه العبارة قَطَعَت التواصل معه. أما الآن، فَ كلامها جميل و صادق و بريء، و كأنه دعوة إلى التحليق في فضاءات العشاق و خزائن الذكريات الملوّنة. راح يقلّب الصور المختزنة في ذاكرته، تلك التي انتثرت في زواريب حلب وحدائقها و قلعتها

الخالدة. كانت تلك الذكريات بِ صورها تتزاحم في مخيّلته بِ شكل فوضويّ.
أحيانا كانت تقفز الصورة التي اقترنت بِ همسات العشق و الغرام، و أحيانا كانت تتسارع تلك التي احتوت على قبلات في أماكن رسمية، و ربما كانت مراقبة بِ الكاميرات، و تارة يرى تلك التي شهدت خلافات عاشقين على مواضيع مجهولة المضمون والمعنى. لذلك حاول ترتيبها زمنيا، و راح يستجمع وقائع اللقاء الذي جمعهما في منزل أحد معارفها في حارة من حارات حلب القديمة. كانت الشوارع فيها عبارة عن أزقة و زوابيق تنتهي إلى ساحة فرحات، و بيوتها عبارة عن قلاع من الخارج وجنائن من الداخل. كانا بِمفردهما في البيت، طبعا مع صاحبة البيت، والتي لم يعرف درجة القرابة بينها وبينها. شربوا القهوة العربية، سكَّر وسط. أهل حلب معظمهم يشربونها سادة، دون سكَّر. أمّا سارو وندى، ولأنهما حديثي العهد في حلب، فَ هما لم يتعوَّدا بعد على شربها من دون سكَّر.
دارت أحاديث بينهم على جلسة القهوة. لم يتذكر تفاصيلها، ولكن حتما سَ يكون جزءا منها حوله. مَن هو و مِن أين هو. مَن أهله، إخوته، أخواته. ماذا يدرس و بِ ماذا يهتم...إلخ، أمّا ما يتعلق بِ صاحبة الدار، فَ كما رَوَتْ له. أنَّ جَدّ جدّها كان قد هرَب من كيليكية إلى حلب، و أنه كان من سلالة الملك ليفون الأول.
كان والدها قد أخبرها بِأنَّ العفش و الأوراق و الكتب التي في الطابق الثاني، هي من مقتنيات الجد الذي هرب من وطنه كيليكية. وقالت أيضا بِ أنَّ جَدَّها(لِ جهة والدها) تحوَّل إلى المذهب الكاثوليكي قبل أكثر من مئة سنة. و يقول سارو في أوراقه: عند انتهائنا مِن شرْبِ القهوة، قَلَّبَتْ ندى فنجانها، و طلبَت مني أن أقلِّبَ فنجاني أنا أيضا. أنا لم أكن أؤمن بِ قراءة الفناجين و لا بِ قراءة الكفّ. لكن لِ المسايرة قلَّبته، و سألتُ ندى، هل سَ تطالعين الفنجان أنتِ أم خالتي روزا(كان اسم قريبتها روزا)؟ ابتسمَتْ ندى و نظرَتْ إلى الخالة، و لسان حالها تقول: هي سَ تقرأ لنا الفناجين. أخَذَتْ الخالة روزا فنجان ندى و راحت تتأمله. تديره

يمينا، يسارا، تميله لِ الأسفل والأعلى. تبعده قليلا وتقربه، و بين الحين و الآخر تنظر إلى ندى مع صوت مسموع اممممم..، و بعد تلك المقدِّمات المهنية، بدأت بِ الكلام: شوفي يا بنتي ندى! فنجانك كما أراه، أو كما هو يقدِّم نفسه، اسم الله عليه وعلى جماله. أنتِ تتنزهين في حديقة مزدانة بِ أنواع مختلفة من الأشجار. أرى بين الأشجار أزهار و ورود، و هنا فوق هذه الزهرة كأن فراشة تريد أن تحطَّ عليها. تقرِّب الفنجان من ندى وتقول لها انظري هنا... هذه الفراشة رأيتِها أليس كذلك؟ ندى تحرِّك رأسها موافقة على كلامها و تقول إِي... إِي هذه هي رأيتها. تتابع الخالة قراءتها. هناك طيرين قادمين بِاتجاهكِ. سوف تستقبلين ضيوفا من مكان بعيد. أمّا متى، فَ الزمن ليس واضحا تماما. لكن هناك إشارة تدلّ على ثلاثة-أشارَت إلى ثلاث نقاط متتالية أمام الطيرين- طَلَبَتْ منها النظر إليها، فَ ربما بعد ثلاثة أيام، أو ثلاثة أسابيع، أو ثلاثة أشهر. هنا قاطعتها ندى قائلة: إِي والله يا خالة روزا أبوي و أمي سَ يأتون بعد ثلاثة أيام. أمّا الخالة روزا، فَ راحت تقول، بِ نشوة المنتصرين و تواضع المعلمين: يا بنتى أنا ما بعرف، لكن الفنجان هيك بِقول. لديكِ تحذير هنا، فَ خلفك و بين أغصان هذه الشجرة تزحف أفعى، يا إلهي! هذه الأفعى لها أطراف عديدة، لها أيدي وأرجل كثيرة، ولها قرنين واضحين، تحمل فاكهة تشبه التفاحة و هي قادمة نحوكِ. إحذري من صديقاتكِ، و احذري لِ ألاّ تنزلقي في الخطأ. هنا تدخَّل سارو حول موضوع الأفعى قائلا: يا خالة روزا إن الأفعى التي ترينها في الفنجان هي نفس الحيَّة التي أعطت التفاحة لِ حواء في الجنة. إنها كانت كما ترينها في الفنجان، ولم تكن كما أفاعي اليوم. فَ الله هو الذي مسخها إلى هذا الشكل حين قال لها- في العهد القديم-:

" ...و على بطنكِ تزحفين، و تراب الأرض تأكلين...إلخ". و كانت لها أجنحة أيضا و ذيل كَ ذيل النسور مغطاة بِ حراشف عظمية قاسية بِ لون الرصاص. كانت هذه الحيَّة تطير فوق أشجار الجنة، و تمشي على أرضها المعشوشبة و

تتسلَّق أشجارها. تتغذّى على الهواء المليء بِأطعمة مختلفة من طيور و حيوانات غير مجسَّدة و التي لم تُسَمّى بِ أسمائها وقتذاك. هذه الحيّة كانت تتحوَّل إلى أشكال عدّة، و كانت تتجسَّد في النباتات و الأشجار، و كانت موجودة قبل آدم و حواء. كانت الخالة روزا تنظر إليه فاغرة فمها. إنها لِ أوّل مرة تسمع مثل هذا الكلام. سألته في دهشة عن الحيّة التي وصفها، و كيف أنَّها كانت تأكل الهواء، و كثير من الأمور المدهشة التي سمعتها منه. بعد لحظات من الصمت، نظرَ إليها وقال: يا خالتي العزيزة أنا أتخيَّل ذلك، وأتصوَّر، أو بِ الأحرى أعتقد، و هذا رأيي الخاص، بِأنَّ هذه الحيَّة هي الشيطان بِ نفسه، و هو صديق الله و شريكه، قاطعته الخالة روزا بِلطفٍ و حنان وخوف، كَ خوف الأم على ابنها من الخطيئة. لا يا ابني لا تقول هيك على الله، هذا كلام كبير بِحَقّ ربنا. هو صحيح الشيطان هو تلك الحيَّة، لكنه الشيطان يا ابني. هو أصل الشرور والخطايا، فَ كيف يكون هو شريك الله؟ سامحنا يا يسوع واغفر خطايانا. ابتسم سارو واعتذر لها بِلطف، و أضاف، يا خالتي العزيزة هذه تخيلاتي و مع قليل من المبالغة المبهرة. عادت الخالة إلى الفنجان. أمامكِ فسحة مضيئة لكنها مسدودة في نهايتها. سَ تتعبين في طريقك إلى هناك، و كأنّ هناك في نهاية الفسحة شخصان قد أدارا ظهريهما لِ بعضهما، تقرّب الفنجان منها، انظري يا بنتي هذا شخص وجهه إلى اليمين، و هذا الشخص الآخر وجهه إلى اليسار. قريبا سَتسمعين خبرا يفرحكِ. طلبَت الخالة روزا من ندى أن تبصم بِإبهامها الأيسر في قعر الفنجان–هذه هي العادة– ارتسم شكل بيضة مكان بصمتها و ليس شكل خاتم، كما يحدث مع أغلب فناجين الصبايا.أعطت الخالة تفسيرا لها، وهو أنها على موعد لِحضور فرح. طلَبَتْ ندى من الخالة أن تأخذهما إلى الطابق الثاني، حيث الغرف التي تحوي قطعا أثرية و كتب قديمة، و أضافت، سارو يحب القراءة كثيرا و هو مهتم بِ الآثار القديمة. واضح من خياله الغريب وكلامه الجريء. اذهبوا أنتم، فَ أنا يجب أن أنجز بعضا

من الأعمال في المطبخ، و أذهب إلى الفرن لِ أجل الخبز. باب الغرفة الكبيرة مفتوح، أجابت الخالة روزا. صعدا إلى الطابق الثاني حيث المتحف و المكتبة و المخزن.دخلا إلى الغرفة مرتبكين. كان فيها الكثير من الأمتعة والأدوات القديمة. شاهدَ صور عتيقة، صور مدن، أنهار، شوارع، عربات القتال...إلخ. كانت هناك لوحات يعود تاريخها لِ أكثر من خمسمائة عام، إلى جانبها وجَدَ مخطوطات بِ خَطِّ اليد. قسم منها بِ اليونانية، وقسم آخر بِ الآرامية، وبعضا منها بِ الأرمنية والفارسية القديمة، وبِ القرب منها رأى كتبا مغبرَّة، مصفَرَّة. اختار كتابا لِ يأخذها معه، طبعا بعد الاستئذان من صاحبة الدار، وحَدَّدَ كتابين آخرين لِ الاستعارة مُستقبَلا. عَثَرَ على قطعة قماش مطرَّز عليها صورة أسد، بِلبدته الكثيفة، واقف على قائمتيه الخلفيتين، كَ ذاك الذي أضحى شعارا لِ شركة بيجو الفرنسية. كانت الصالة هادئة و الحرارة فيها معتدلة إلى جانب الإضاءة الطبيعية غير الفاقعة. سارو يعشق هذه الأجواء مع رفوف خشبية عليها لوحات وصور ومخطوطات و كتب وخرائط. وفي مكان بين هذه الذخيرة الفكرية والعقلية، كانت محبرة ملأى بِ الحبر الصيني مسنَدة على قاعدتها و بِ جانبها ريشة الكتابة من ذيل الطاووس الهندي.أخذ سارو الكتاب الذي اختاره و ضمَّه إلى صدره. اقتربت ندى منه و سألته عن الكتاب. كانت منزعجة من الموقف، كَأنثى، لِأنها لم تحظَ بِ اهتمامه. لكن الأمر لم يكن كما اعتقدَتْ هي، فَ المسألة وما فيها، هو أنَّ سارو يمكن أن ينسى تاريخ مولده وكل سلالات عشيرته، إذا ما عثرَ على لقيا ثقافية. فَ الكتاب الذي سألته عنه كان جديدا عليه، لذا كان يقلِّب صفحاته و هي واقفة تنتظره إلى أن ينتهي من انشغاله بِ الكتاب. نظر سارو إليها و قال: إنَّ هذا الكتاب، كما لاحظتُ، فيه الكثير من الرموز و كثير من الخرائط و المتاهات. ظلَّتْ ندى ساكتة تنظر إلى الكتاب. أدركَ سارو بِأنها غير سعيدة، أو أنها منكسرة. رفعَ رأسها من أسفل ذقنها بِسبَّابة يده اليمنى. كانت عيونها حزينة. عيونها السود ذات الرموش

الطويلة الجميلة كانت حزينة. نظرَ فيها نظرة مشبعة بِ الحنان والرغبة. أخفَضَتْ نظرها و أنزلتْ رأسها لِ الأسفل. أمَّا سارو فَ وضعَ سلاميات أصابع يده اليمنى تحت ذقنها، و رفع رأسها بِ بطء. في الأثناء ساد صمت عميق في الصالة، و راحت أنفاسهما تختنق و تسود فوضى في إيقاع صدريهما. أخذ الخجل يجتاح كيان سارو، و استطاع أن يسيطر على حالته النفسية، و ألاّ يدع أطرافه ترتجف بِ شكل واضح من الخجل. لم يستطع التحدّث أو نَطْقِ كلمة واحدة؛ فَ هذه هي المرة الأولى في حياته التي يختلي فيها مع أنثى دون رقيب، أو أي أحد يمكن أن يفاجئ خلوتهما– صحيح أنهما التقيا قبل سنتين في بيته في القامشلي، لكن أهله كانوا في البيت وقتذاك–. كاد ينهار من شدة ارتباكه. انزلق الكتاب من بين أصابع يده اليسرى، سقطَ على الأرض في المسافة الصغيرة المتبقية بينهما.

لمَسَ خَدَّها بِيده اليسرى التي، لِ التوّ، تحرَّرَتْ.أمسكَ حنكها بِ أصابع يده اليمنى وسَحَبَ رأسها بِبطء وبِ رقّة نحو وجهه. تقلّصت المسافة بين وجهيهما و راحت أنفاسهما تمتزج بِ بعضها، تلامسَت الشفاه المرتجفة. أخذ كل منهما يمصُّ شفاه الآخر. يعضّها بِ نعومة. يمضغها كَ قطعة حلوى جلاتينية. تحرَّكا كَ جسم واحد، جانبا كي لا يدوسا الكتاب الذي أخذ مكانا له بينهما كَ شاهد وحَكَمْ لِ الفصل عند الضرورة. ضمَّها إلى صدره، و راح يضغط على نهديها و شفاههما في تشابك محكم. حاول أن يلمس صدرها، أن يُخْرِجَ ثدييها لِ يمصَّ حلمتها، يلمسها، يداعبها ويقبّلها. كان يمدُّ يده إلى أزرار قميصها لِ يفكَّها، لكنه لم يوَفّق في ذلك. كان ملتصقا بها ويضغط بِ يده على صدرها، يدفع حوضه لِ يمسَّ حوضها. كانا يرتديان بناطيل الجينز، يدعكان أعضاءهما بِبعضها لِلحصول على اللذة المختبئة في أرواحهما الطريّة. كانا يلتهمان بعضهما، و كانت تتصاعد أنفاسهما و تتخامد حسب تدفّق الموجة الغريزية في أعضائهما الحساسة، وتتماوج التأوهات والأنَّات المموسقة على إيقاع السلّم الجنسيّ. استمرّت أوبيريت العشْق في الصالة الفارغة

من الجمهور، إلى أن تراخَت حركة سارو، و كان قد تبلَّلّ وقتها. بعد دقائق تمّ فكّ الاشتباك الجسدي بينهما، و ساد الصمت لِ لحظات. حاول سارو الخروج من حالة الارتباك التي ألمَّتْ به. كان خجلا من فعلته. لم يستطع النظر إلى عيونها، و راح يقول أيّ كلام كَ: توجد لوحات جميلة هنا و أيضا كتُب قديمة. يبدو أنها ذات قيمة تاريخية و دينية كبيرة. خالة روزا في الأسفل، وربما استفقدتنا أليسَ كذلك؟. ربما تكون في المطبخ، أو قد تكون ذهبت إلى الفرن من أجل الخبز، أجابته ندى، كي تنقذه من حالته المرتبكة. يجب أن أذهب إلى البيت يا ندى. ينبغي أن أراجع بعض المحاضرات المتراكمة عليَّ. سَ أستعير هذا الكتاب من الخالة روزا، و إنْ لم أرَها، فَ ها أنتِ الآن هنا بِ مثابة صاحبة الدار و بِ التأكيد سَ تسمحين لي بِ استعارته.

في طريق عودته إلى البيت، كان يستعيد المشهد الغرامي في مخيّلته، وكان ينظر إلى المارّة، و كأنّه يريد انْ يفشي سرَّ المتعة التي حصل عليها. كان يشعر بِ أنَّ شيئا ما تغيَّر في حياته، و صورة ندى بقيت ملازمة لِ خياله، و صوت أنفاسها لا زال في مسمعه. كان يرى العالم بِ شكلٍ مختلف عمّا كان قبل تناوله القربان المقدّس، هناك في صالة المتحف الكوني، على يدِ كاهنة المعبد المقدّس. حين كان يتحسَّسَ الكتاب، كان يشعر بِ الفخر،و هكذا تابع طريقه في غمرة النشوة والاعتزاز بِ النفس. أخَذَ حمَّاما ساخنا وبعده استلقى على السرير وأطلَقَ العنان لِ خياله. كانت لحظات النشوة والفخار تمرّ في خاطره بين الفينة و الأُخرى. راح يتصفّح الكتاب بانورامّيا، لِ يكوّنَ فكرة أوَّلية حول مضمونه. كَتَبَ لها التفاصيل التي تزاحمت في ذاكرته عن ذلك اللقاء ،وطلَبَ منها أن تسامحه على تصرّفه، لِ أنّه، كما قال لها، كان قليل الأدب، و أنَّه أتى بِ حركات كَ حركات اولاد الشوارع، لذلك ارتبكَ و ارتجفَ صوته عندما كلَّمها بعد ارتعاشته المخجلة.و تساءل ما إذا كانت أَحَسَّت(حينها) بِ شيء غريب يحدث في أسفل سرَّتها،وإذا ما كانت تشعر

بِ اللذة أثناء ذلك العناق والقبلات والاحتكاكات.
حين قرأت ندى مفردات ذلك اللقاء ،انتابتها قشعريرة مقرونة بِ رجفات و برديات. لمَسَت شفاهها بِحركة لا شعورية. مَرَّرَت لسانها على شفاهها لِتتأكَّد من اكتنازها و نضارتها. تفقَّدَت أزرار قميصها، لكنها أدرَكَت في الحال، بِ أنها ترتدي بلوزة و ليس قميصا. مَرَّرَتْ يدها على تكويرة نهديها. لم تكتفِ بِ هذه الحركة، فَ الزمن أقلَقَها، و خافَتْ أن تكون أثداءها قد فَقَدَتْ مرونتها و تكويرتها. مَشَتْ إلى المرآة في غرفة نومها. أخْرَجَت نهديها من تحت كنزتها وراحت تنظر إليهما. لم تقتنع بِ ما تراه في تلك الوضعية، لذا خَلَعَت ثيابها و وقَفَت عارية الصدر أمام المرآة تُمْعِن النظر فيهما، لِ تتأكَّد من أنهما لا زالتا متماسكتين، لم تفقدا مرونتهما، و لم تتهدَّلا. رَفَعَتْهما لِ الأعلى قليلا. كانتا هكذا في ذلك التاريخ و ذلك اليوم. إنهما لم تقويا على مقاومة الجاذبية كما كانتا قبل أربعين سنة. عادَتْ لِ تُكْمِلَ القراءة، لكن الكلمات كانت تبتعد عن ناظريها، تضيع في غمامة شَوَّشَت وضوح القراءة. تدحرَجَت دمعة على خدِّها. سَحَبَت نفَسَا عميقا مع شهقة بكاء مرّ. صرَخَت بلا صوت، لم يسمعها أحد. صَرَخَت مثلما تصرخ القمر أو السمكة في عمق المياه. كان ذلك اليوم غير كلّ الأيام إلى هذا التاريخ. تلك القبلات و الاختلاجات كانت الأجمل، و لا زالت الأجمل، و سَ تبقى الأجمل. كانت تردِّد هذه الكلمات و تمسح دموعها الساخنة من على وجنتيها، و تذهب في مونولوج مع ذاتها: كم هو بريء هذا الإنسان! لو لم أشجِّعه بِ الإيماءات و الحركات، لَ ما أقْدَمَ على معانقتي و تقبيل شفتي التي كانت تستجدي القُبَل من شفتيه. لَ ما حاول فَكَّ أزرار قميصي، و كم حزِنتُ على إخفاقه في فَكِّها. كنتُ أتمنى أن ينجح في إخراج نهديَّ و أن يمصَّ حلمتيهما بِالتناوب، وأن يقَبِّلهما ويدعكهما، وكنتُ أتمنى أن يفعل أكثَرَ من ذلك. إنه فعلا من جنس آخر. أيّ جرم ارتكبه بِ حقّي لكي يعتذر و يستسمحني؟ ما التصرّف الشاذ الذي أقدَمَ عليه لكي يتصوَّر بِأنه تصرَّفَ كَ أولاد الشوارع، أ لَمْ

أكن أنا التي أخذته إلى الخلوة في الأعلى؟. لأ يا سارو إنَّكَ لم تأتِ عملا معيبا، أو فعلا شنيعا! هكذا هتفَت في غرفتها. أرادت أن تكتب له ردّا على لقاء المكتبة، بِأنه كان مؤدبا، خجولا ورومانسيًّا. وأنها هي الأخرى كانت تشعر بِاللذة و كانت خلاياها تختلج جرّاء القبلات و الاحتكاكات بينهما، و كانت عانتها قد تَرَشَّحَت بِ الرطوبة حينها. و أنها كانت تشعر بِ كلّ أعضائه و نبضات مجساته العلوية و السفلية، و أنها عَرفَت ما حدث له حين تراخَت حركته و حركة أطرافه. في غمرة الذكريات التي أثارها سارو، كانت تَرْغَب بِ إعادة الزمن إلى الوراء، كانت تتخَيَّل، أو بِالأحرى، كانت تُخَطِّط في خيالها، ماذا كانت سَتفعَل، وكيف كانت سَتُبادر، و بِأيَّة إيماءات وهمساتٍ وأنفاسٍ متَهَدّجة، مرتجفة، كانت سَ تُشَجّعه لِ التعَمُّقَ في جَني الرحيق من تحتِ لسانها، من حلماتها المرتجفة تحت قميصها الحريريّ.
كيف كانت سَتتعامل معه في تلك اللقاءات الحميمية، المُتْخمة بِالعشق و الرغبة الجنسية. كانت ترى نفسها فتاة مراهقة لم تَحفّ حواجبها بَعْدُ. كانت ترى نفسها فراشة تطير فوق الأزهار و شقائق آدون الخمرية.

- 11-

تلك الذكريات سَلَخَتْها من ذاتها. خطفتها من الواقع إلى عوالم سارو. راحَت تتذكَّر ما كان سارو قد روى لها من خيالاته، كيف أنَّه رأى نفسه يرقة تتلوَّى داخل بيضة النسر الكاريبي. البيضة المركونة في العشِّ المصنوع من أغصان النارنج و الأبنوس و السنديان فوق إحدى قمم الأنديز. كان يتغذى بِ الطرائد المُستَحْلَبة، من الأفاعي و الأسماك و الأرانب. يسبح في السائل الكثيف. يتسلَّق أعصاب و شرايين الحيوانات التي كانت، النسر، الأم قد التهمتها قبل الطقس العشقي قرب العرش السماوي. فَ في كلِّ شروقٍ لِ الشمس، تتكاثف محتويات البيضة، و بِ التالي يزداد حجمها و يضيق به المكان. كان يطفو على زلالها في حالة استرخاء تام. كان يخلد لِ النوم العميق، حين كان النسر(احد الأبوين) يأخذه بين ريشاته الكثيفة قُرْبَ القلب. كان يسمع صفير الرياح من ذلك العلو الشاهق، و يحسُّ بِ خشخشة الأغصان و الأوراق و بقايا عظام الطرائد. في إحدى غفواته، نَشَبَتْ معركة عنيفة فوق عشّه. جفَلَ مذعورا من نومه، على وَقْعِ الضجيج و الزعيق الحادّ الصادر من النسر الأم. في البداية هاجَمَت طيور البحر الضخمة عشَّ النسر، و في ذروة الهجوم و اقتراب المفترسين من العشّ، شَقَّ النسر الأب رياح السماء و انقضَّ، مع الأم، على الطيور المهاجمة، و ما كان منها إلاّ أن لاذَت بِ الفرار نحو البحر إلى غير رجعة. ظلَّ الذكر يحوم، شراعيا، حول العشّ، بينما الأم راحت لِ تُطَمْئنَ البيضة التي كانت تتأرجح أثناء المعركة. في اليوم الواحد والعشرين من عمر اليرقة، تَصَدَّعَت السماء وتَكَسَّرَت طبقاتها و سقطت قطعٌ صلبة كَالمرايا المحطَّمة. خَلَّفَ الصَّدع شقًّا كبيرا فوق قمم الأنديز، وباتت البيضة في مرمى جنود السماء .نظرت اليرقة إلى الشقِّ، كان جدار البيضة كما البللور الشفَّاف بِ النسبة لها، حيث أشعة ملوَّنة تعبر من خلاله إلى العش.

رأت عددا من الكائنات يرتدون جلاليب بيضاء ذوي لحىً طويلة، جالسين على مصاطب من خَشَب التفاح، و عيناً كَ وهج النار تَرَبَّعَتْ وسطهم لِ رَسْمِ الأقدار. كانوا يشربون من كؤسٍ ملَوَّنة. منها بِ لون الأزرق الفيروزي، و منها بِ لَوْنِ الأخضر الاسمنجوني، وأُخَر بِ لَوْن العقيق الخمريّ، و اللون النارنجيّ الساحليّ. كانوا يُدَخِّنون من أراجيل فارسية عليها التمباك الأورفَلّي مخلوطا بِ الحشيش الأفغاني. ينظرون في الاتجاهات كلِّها، و ينفثون الدخان حلقاتٍ حلقات، يصعد فوق رؤسهم إلى أنفاس الله. كانوا مبتهجين محلّقين في غيبوبة الشهوات، وخَدَرِ الحَوَاس. منهم مَنْ كان يداعب أشياءه مِن تحت الجلباب، و ينظر خِلْسة إلى المعلِّم. تلاقَتْ نظراته بِنظرات معَلّمه الذي راحَ يُمَسِّد لحيته الشهباء مع ابتسامة خبيثة، دلالة على معرفته بِ الذي يفعله.

سقطَ مخروط من الطيف كَ البرق على عرين النسور، رفَعَ العشَّ نحو السماء. وفي الحال هَجَمَتِ النسور لِ إعادته. أمسَكَته بِمخالبها القوية، لم تتركه. دخَلَت في صراع عنيف مع العدوّ الذي لا تراه، واستطاعت أن تحَرِّرَه من جَذْبِ المخروط له، وطارَتْ عائدة مع العشّ إلى مكانه. لكنَّ العشَّ كان فارغا، فَالبيضة كانت في طريقها إلى السماء. وحين تَبَيَّنَ ذلك لِ النسور، فَما هي إلاَّ لحظات حتى تَبَخَّرَتْ و اختفَتْ من المكان. حينذاك سُحِبَ العشُّ عبْرَ المخروط، و راح يحتضن البيضة مجدَّدا نحو السماء. بقيَ صدى زعيق النسور يتردَّدُ إلى هذا اليوم، و ظلَّتْ طيور البحر تطير فوق المكان كلَّ عام في مثل اليوم الذي حاولتْ فيه اختطاف العشَّ مع البيضة. لاحَظَ أهالي فيلكا بامبا جسما غريبا فوق قمم الأنديز. رأوا بيضة مُحاطة بِأساور، كَتلك التي تحيط بِكوكب زُحَل. كان العشّ مع البيضة المتوضِّعة في منتصفها، قد تجَلَّى وكأنه زُحَل. قاده المخروطُ، وهو في البيضة، إلى حضرة نور الأنوار. في الأثناء، أومأ إلى الجالسين على المصاطب بِ إشعال الشموع و حَرْقِ البخور. أخرَجَه الله من البيضة، و أرْسَلَ البيضة إلى حاضنة في الجوار.

تَمَّت المعانقة بينهما، و راحا في حوار أبويّ ودّيّ. قال سارو: حين ضمَّني كَ الأب الحنون، أَسَرَّ في مسمعي أسفار الكون، بدءاً من علقة الحياة في أعماق البحار، وحكاية دودة التراب في الأجداث، إلى فاكهة اللذة في سلَّة حوَّاء. حَدَّثني عن الميزان المُعَلَّق على أشجار الغار، وعن خيال الأوّلين في كيفية سَرْدِ الأخبار. سَكَبَ الزيت المقدّس على رأسي، مَسَدَ على شعري و رأسي و كأنه يريد أنْ يصنعَني من جديد كَالعجين.كنتُ أحسُّ بِ أنامله الناعمة تنزلق في شراييني، يملأ قلبي هدوءا، ويغمر روحي الشقيّة بِ الورود. أزالَ زوائدي الرطبة من أعماقي، و رمى أجزائي الفاسدة في الجحيم. حَدَّثْته، كما الطفل، معتمدا على الغريزة، قلتُ له: أَبَتِ! يا أبي في الروح! إنّي تَعِبٌ جدّا و نفسي تتمزَّق يا أبَتِ. خَلَقْتَ الحَمَلَ الوديع ورمَيتَه بين قطعان الوحوش، وكذا العصافير زَرَعْتَ فيها قلوب الأطفال، و جعلتَ الإنسان سيّدَ المفترسين في الكون. تركتَ حَيّزا في خَلْقِكَ شاغرا، و أطلَقْتَ يدَ شريك لك في الخلق هناك بين الناس والكائنات بِ غير حساب. انظر إلى ما يحصل هناك في الأسفل! حيث الدساتير تتزاحم في لَجْمِ الدماغ، و أحزابك تتنافس في جوف الظلام. أنْظُرْ إلى الهرج والمرج هناك على الأرض! وكيف أنَّهم يلطمون النصوص المتناقضة في وجوه بعضهم بعضا. كلّ فريق يُخْرِجُ نَصَّاً، أو مقطعا، أو جملة و يَدَّعي، بل، يُصرُّ على أنَّكَ أنتَ الذي كَتَبَ ما يعرضه على الآخرين. و فريق آخر يَعْرِضُ نصوصا وجملاً ذات مضمون معاكس تماما لِما يَعْرِضه الآخر، وهو أيضا يَدَّعي،بل، يُصِرُّ على أنَّكَ أنتَ الذي كتبَ ما يحمله بين يديه. تأبَّط كلُّ فريقٍ، من هؤلاء، كتابه وأصدرَ البيان.انظر إلى هذا المهرّج! كيفَ أنَّه يحملكَ في تابوت أينما حَطَّ الرحال، ويقول لِ قطيعه– وهو الراعي الأمين– بِأنه شاهدكَ في وَهجِ النار، و كَلَّمَكَ من فوق جبل من رمال. وذاك الأمير ابن ملك بلاد السحر جعلكَ قَرينَ الحيوانات، من القِرَدَة و الأفاعي و الأبقار و الفيَلة، و ربَّما جرذان المجارير أيضا؛ و هناك عدد من الناطقين باسمك أكَّدوا بِ أنَّك أرسلتهم إلى

شعوبهم، وأنَّك منحتهم التفويض المطلق لِ التحدّث نيابة عنكَ. وأنَّك قد أعطيتَ لِ البعض منهم برنامجا مفصَّلا عن كيفية العيش بِ كلِّ تفاصيل حياتهم الخاصة والعامة، وحتى كيف يمارسون الجنس مع إناثهم. هل صحيح أنَّكَ مَكَّنْتَ أحدهم من التحليق في الهواء، كما الطيور، لِ ينطلق من مكان تَعَبُّده إلى مسقط رأسه، لِ حضور جنازة والده؟

يقولون بِ أنَّك كنتَ، في زمنٍ الغفران، بين الناس هناك على الأرض. كنتَ تأكل و تَتَغَوَّط، و أكثر من ذلك، فَ قَدْ أشاعوا بِ أنَّك كنتَ قَدْ اتخَذْتَ عشيقةً لكَ مِنْ بينهم هناك. ويقولون بِأنَّ حبيبك البَدَوي الميهوب، رسولكَ لِ الأرض، قَدْ جَعَلَكَ، في كتابه، عرَّابا، و وسيطا لِ التزاوج. رأيتُ بعضا من الجالسين على المصاطب يتململ، و بعضا منهم يبدي امتعاضه من كلامي. كانوا يريدون إبعادي و طردي من مُجَمّعهم. لكنَّ أبي السماوي كان يبتسم، و كان يعلم بِ ما يفكِّرون، و يعلم خبْثَ نواياهم تجاهي.

حين قَصَصْتُ عليه حكاية خادمه المطيع،كاد ينقلب على ظهره من كثرة الضحك. حكاية ذلك الخادم الذي لم يتأخر في إيصال الرسائل و البرقيات المشفَّرة من و إلى السماء، جبريل المسكين. فَ في إحدى رحلاته من السماء إلى الأرض، صادفَ، في طَبَقَّة الستراتوسفير، كائنا يطير إلى مكان لا يعرفه، و لم يكن على علم مسبَق بِ وجوده في السماء. اختلط عليه الأمر، و أخطأ في العنوان من جديد. راحَ يردِّد ما لُقِّن من حِكَمٍ و أوامر و أمثال و حكايات الأولين، مختصرا و مضيفا كي لا ينسى كلَّ الكلام. كان مثقلا بِ الأحمال. أضاع ألواحا جميلة في طريق المجرّة، و حُمِّلَ بِ أخرى دون السؤال عن المصدر و المضمون، و دون الرجوع إلى معلّمه الذي أرسله في هذه المهمة الفلكية.

اعترضه تنين ضخم ينفث النار من أشداقه. يدير رؤسه الخمسة في كلّ الاتجاهات بحثا عن فرائس تائهة من غابات و أدغال السماء. انعطف جبريل

هاربا من هذا الوحش الرهيب. سقطَ سريعا كَ البرق في لجَّة البحر. تناثرَ حمله في الأعماق. امتزج خمر الهيكل بِالماء و تشَرَّبَت الصحائف ملح البحر و روائح صغار الأسماك. طافَت على السطح مُشَكِّلة فوق الزَبَد معابد الملح و مَخَادِعَ الجواري وعرائس الجان. أطلَقَ خادمك المسكين صرخة مدوّية كَ الرعد من أعماق اليَمّ خوفا من أنياب القرش، و هَوْلِ القَصَاص. كان يخشى أنْ تعاقبه على ما حصلَ معه من ارتباك في مهمته، و على تبعثر النصوص و ضَياع الكثير منها في اللجج، و تشوّه الجمَل و الحروف في كثيرٍ منها.

جَفَلَ الحوت الرمادي، وأسرَعَ نحو بؤرة الضجيج، حيث جبريل الحزين يلعن حَظَّه العاثر، مُبْعِدا عن نفسه جراد البحر و مجسَّات الحَبَّار الفاتن. ضَجَّ المحيط و اختَلَّت الضوابط. أَقْلَقَ الصخب إله البحر في داره. تثاءب مغمضا عينيه ملوّحا شعاب رمحه في وَجْهِ أنداده. عَلِمَ بِ وجود ضيفٍ غريب في الجوار. مَسَدَ لحيته بِ شِعاب صولجانه، دَهَنَ رأسه بِ رحيق الأرز و الصنوبر البريّ، و جسمه بِ مُستَحْلَب الخزامى و النرجس و الليلك البحري. هَرَعَتْ كائنات البحر إليه فَوْرَ انتهاء التطيب. سارَ نحو الضيف في موكب مهيب: أهلا بكَ يا جبريل، يا أيها الصديق! أراكَ مرتبكا، مهموما، و على مُحَيَّاكَ حزن عميق. كم انتظرتكَ في قاع هذا المحيط، كنتُ أنطلقُ كَ البرق نحو السطح، كلَّما رأيتُ الدوائر تتَّسِعُ على العمق. لم أكن أرى سوى النوارس في السماء، و بعضا من الطيور الجارحة تغوص، كما السِهام، في المياه لِ اصطياد الأسماك. هذه حوريَّتكَ تنتظركَ قبل انشطار النجم الأسْوَد و سقوط النيزك فوق كثبان الرمال. هيَّا لِ نُكْمِلَ فرحة الربِّ في البحر والسماء. إزْرَعْ هنا يا جبريل! لِ نَقْطِفَ في الغد ثمارك، و لِ يبقَ اسمكَ خالدا أبدا فوق الزَّبَد المتطاير. كان جبريل يعتذر من إله البحر على مضاجعة الحوريَّة، ويطلب السماح بِجمْعِ ما تَبَقَّى من السّوَر المتناثرة في المياه، متناسيا ما فَتَّتَه فَكَّ القرش الأبيض، حين انقضَّ على لوح الكتف، الذي كان مكتوبا عليه

سبعة أسطر بِ الخطِّ الاسطرنجيلي، و ما مَزَّقَتْه السلحفاة من أوراق البرديّ، التي كانت تضمُّ تسعة جُمَلٍ بِ الخَطِّ الآراميّ غير المنَقَّط. قَرَّبَ، إله المحيطات، شِعابَ رمحه إلى شفتيه، و راح يهمس و يتمتمُ كلاما مبهما. رَسَمَ دائرة حول جبريل و الحورية. صَعَدَ إلى السطح، وقَذَفَ ما عَلِق بِالرمح من مياه البحر نحو السماء. طارَتْ قطرات ثلاث من شعاب الرمح بِ لَمْحِ البصر إلى الجالسين على المصاطب في حضرة رئيسهم. تشاوروا فيما بينهم حول رسالة الأعماق، و ما إذا كان مسموحا لِ ساعي البريد الإلهي بِ نكاح حورية البحر. أجمعوا، بَعْدَ التدقيق و التحليل العميق، على السماح له بِ الركوب على الحورية و الاستمتاع بها كيفما شاء، ومتى شاء. استغرَبَ رأس المَجْمَع من رأيهم قائلا:" أَ يَجوز لِكائنٍ سماويٍّ أن يمارس الجنس، ثمَّ أَلا يجب أن نحافظ على قدسية السماء و تَرَفُّعِها عن الأرضيات؟ ماذا سَ يفعل حين يعود إلى هنا بِ مفرده، بعدَ تَذَوّقه طَعْمَ الجنس هناك؟ أَ لَن نكون مضطَرين لِ استقدام إناث له، إلى هنا، لكي يُفَرِّغَ طاقته الجنسية فيهنَّ؟

بينما هم في الأخذِ و الرَدّ، شَقَّ وَميضُ البرق سطح المياه مضيئا دائرة الأعماق. انكَبَّ جبريل على سَلَّةِ حَوَّاء مبتسما، راح يمتصُّ رحيق الأزهار وترياق الحياة. اقتَلَعَ نبتة الربِّ من جَذرِها، ضَمَّها إلى حضنه وسارَ خَلْفَ إله البحر بِ اتجاه الهيكل، حيث تَمَّتْ مراسم اللذة والتناسل.أدْخَلَ مجَسَّاته في ثقوب الحياة والموت. ظَلَّ يبني فيها ستة قرون لِ الإنجاب، وفي السابع منها ارتدى جلبابه لِ يرتاح.

مُرْ عبيدكَ لِ جَمْعِ ما تيَسَّر من السُوَر! و لِ يسامحني الله على ما ضيَّعْته في ليلة الفرح، وما أَدْراكَ ما ليلة الفرح.اعطني حملي يا حارس البحر، دَعْني أُوصلُ ما تَبَقَّى من الأسفار إلى المغاور الرملية و الكهوف المبعثرة في صحارى نجد و حجاز! كُنْ راعيا جيّدا لِ كرومي، و ما سَ تُنْجِبه لديكم بذوري! أمّا حوريتي، فَ منذ هذه اللحظة أصبحت أمانة لديكم، فَ هي كَ الأمّ ب النسبة إليكم.

حَلَّقَ العريس في السماء تائها. ساقَتْه الرياح نحو بلاد باردة. اضطجَعَ في غفوة على غيمات داكنة. تَوَسَّدَ حمْلَه و لذَّة أحلامه الدافئة. و لَمَّا دخَلَ حدودَ الفاتنات الشقراوات ذوات اللحم الأبيض الورديّ، التَمَعَتْ في رأسه أفكارا شهوانية في لحظة ارتعاشة خاطفة. قَرَّرَ ضَمَّها لِ الصحائف بَدَلا من تلك التي مَزَّقَتْها السلحفاة في القاع. فَتَّشَ عن ورقةٍ، لحاء شجرةٍ، جلدَ ماعزٍ، لكي يكْتُبَ عن نهودهنَّ و أفخاذهنَ، لكنه لم يعثر على أيّ رقاعٍ، أو لحاءٍ، أو جلد ماعزٍ. كان في صرَّته عظماً من حوض ثور ذكرٍ فَحْلٍ، و رأى أنَّ ما خَطَرَتْ له من آيات، تناسب لوح العظم لِحَوضِ قضيب الثور الفحل. وراح يحْفُرُ على عَظْمِ الحوض عُمْقَ الخاطرة، مضيفا مِنْ عنده ما يشبه الذاكرة، و كانت هي سورة السلحفاة الثاقبة، شهادة النجاة من عقاب الآخرة. التقى جبريل في طريقه، بِ الكوندور، وهو، ينزلقُ فوق الغيوم و السُحُبِ الرقيقة، متوجّها نحو شَرْقِ المتوسط. عَرِفَ ذلك من بوصلته و وجْهَته التي رسمها الله له لِتنفيذ مهمَّته العقيدية الأخطر في الخليقة. راوده الشَكّ من رؤيته لِ هذا النسر في نفس المسار الذي يتبعه هو. تواصل مع الله عبْرَ الأمواج الروحية بلا صوتٍ و لا صدى. عَبَّرَ له عن مخاوفه و شكوكه لِ تَوَجّه الكوندور إلى حيث هو ذاهبٌ. كان جواب المُرْسِل، أنْ، تابع مهمَّتك و نَفِّذ ما أرسلْتُكَ من أجله فقط لا غير.

انتبَهَت ندى لِ محيطها، حين وقَعَ نظرها على النَصّ العشقيّ أمامها.

صَنَعَت لِنفسها قهوة(سادة)، وجعَلَتْ صوت فيروز يصدح بِأغنية(كيفَكْ أنتَ...).

أَرْسَلَت العنوان مع الأغنية، دون تعليق. حين وَقَعَ نظر سارو على الجملة السحرية، وجَدَ نفسه أمام كَهْفٍ يُخَبِّئُ في أعماقه كنوزا من الذكريات. انقاد إلى داخل الكهف، و راحَتِ الذكريات تتمثَّل شخوصا و حركات و أماكنَ غريبة. كانت الحقائق القديمة تتراقص على أطراف الخيال. لم يكن يشعر بِ ما حولَه. كان مأخوذا تماما بِ الجملة الكونية(كِيفَكْ أنتَ...). انتَشَلَه سحرها مِنْ ذاته، و راحَ

يخاطبَ مجهولين غيرَ مرئيين، أو بِ الأَصَحّ، راح خياله يخاطب كتلته الأرضية. طيفه يخاطب جسده الماديّ، قائلاً: ها هو الظلام يأتي مِن جديدٍ، و من جديد، راحَ يجتاح ثنايا دماغي. تَنْقَلِبُ الرؤيا سُباتا عميقا يذهبُ في المدى بعيدا. ينشرُ عتمة الكون في فضاءات جمجمتي. يُطْفِئُ وَهج الخلايا. هذا الظلام يُرْسِلُ عليَّ غفوة أَبَديَّة، يُدْخِلُني في حلمٍ أَزَليّ أَخْرَقْ. إنّي أرى مَسْرَحاً بِ وسْعِ الأفلاك و المجَرَّات، دون سِتار لِ يَحْجبَ الجمهور عن الأبطال. و دون الحاجة لِ تَزْيين المسرح لِ التمثيل في مختلف الأدوار. لا يوجد نَصٌّ لِ الإخراج، و لا مُخْرِجٌ لِ المسرح الدوَّار. اختَرِ المشهَدَ الذي يستهويك و امضِ به إلى قَصْرٍ أو سرداب، فَ الحَدَثُ لن يُغَيّره وَميض القصر أو عتمة الأنفاق. فَ الطيف يمتصُّ اللونَ دون تَرَدُّدٍ أو إكراه، كما اللونُ يُصَرّحُ عن نفْسه دون مداراة أو نفاق. ها هو... إنه هو... انظروا إليه!... إنه جَدُّنا الأوَّل. راقِبوه... شاهدوه كيف يَحْمِلُ ذاته و يمضي! لقد رأيته قبْلكم، حين كان يخرج من كهفه عند شروق الشمس صباحَ كلَّ يوم. كان يدعكُ لحيته و شَعْرَ جسمه. يرفعُ هراوته العجيبة في وجه الهواء و أغصان الأشجار و أزهار الأرض. كان يَضْرِبُ مياه المطر، و يقذفُ ثَلْجِ الشتاء في وجه السماء. يدوس براعمَ الربيع غاضبا، باحِثا عن قطعة لَحْمٍ أو جرعة ماء. رأيته يَطْرَحُ مثيلا له على الأرض. يُقَلِبه، يهزُّه، يمتطيه، يدعكه بِ جَسَده حتى الارتخاء. يُزَمْجِرُ كَ غَيره من المفترسين. يطردُ الذباب و الحشرات المتجَمّعة على لحيته. ينظّفُ ثقوب جسده بِ امتعاض شديد. رَمى هراوته في وجهي حين سألتُه. فَعَلَ ذلك لأنه لم يفهمني و لم يفهم السؤال. حينذاك، ما كان خَلَقَ إلهاً لِ الكون بَعْد. تَنَحَّيتُ مبتعدا عنه و عن هراوته المقدَّسة. ذَهَبَ في طريقه نحو الأدغال و مِن خَلْفِه قطيعٌ يتقافزُ في عالمٍ مجهول دون ملامح، و اتَّجَهْتُ نحو زرقةِ السماء وحيدا. أمْضَيْتُ لحظة كونية في الغابات و الجبال. تحتَ أمطار ملوّنة و ثلوجٍ سوداء، بين كائنات تَصْغرني آلاف المرَّات. خَشيتُ أن

أرتَكِبَ مَجازرَ إنْ تَحَرَّكت، أنْ أُزْهِقَ أرواحا إنْ تَنَفَّست. بقَيْتُ هكذا دون حراكٍ و دون شَهْقَة لِ الحياة. في الأثناء هَجَرَتني روحي، رأحت تسبحُ في الخلاء فوق المكنونات كَيْ نحمي الحياة. كنتُ أخشى من اصطدامها بِ ذرَّات الهواء. رَجَوْتُ الربَّ ألَّا يجعلني جَزَّارا، و أنْ يأخذَ روحي عاليا فوق ذرَّات الهواء لِ الحِفاظ على طبيعة الأشياء. ظَلَلْتُ هكذا جامدا في المكان الكونيّ الضَيّق– كَ الماموث– محفورا في صخور الجليد، و جذوع الأشجار العملاقة. تركتُ سروالي هناك في الجليد، و دماغي المتشَقِّقَ جَعَلْتُه في حذائي العتيق. ألقيتُ به بعيدا، لِ يَستَقِرَّ في جرار الملح هناك حيث أرض العقارب و الأفاعي و الرجوم. فَ أنا الآن أنزلِقُ خفيفا رشيقا، أجتازُ جرْنَ الطَّيف كلَّ لحظة. أنسابُ بين النجوم، و النيازكُ تمرُّ بِ جانبي كَالبرق تَسْقطُ سريعا، لِ تُغْلِقَ كتابا في بيادر التّبن، وترسلَ روحا مجهولة الصفات إلى فضاء التراب. وتَستعدُّ النيازك لِ تضربَ هؤلاء الجالسين فوق الرمال تحت الخيام. إنهم يُدَنِّسونَ الأزهار، و يَغدرون بِ الفراشات الملوَّنة. ينصبون الفِخاخَ لِلبلابل، يحجبون ضوء النهار عن الأشجار ويقطعون الهواء عن الأنفاس. إنَّهم أنفسهم الذين يزرعون في الأرحام. منتشرون بين الناس، في الساحات والأزقَّة والحارات. يقفون على منبع النهر و الجسور الضعيفة الضيقة. يَسْتَرِقون السَّمع عِبْرَ الأثير إلى العشَّاق، و يُسَجِّلون عناوينهم في دفتر الخالق لِ يوم الحساب.

أهلا بكَ أيها الليل المقدَّس، فَ أنتَ غير الظلام. إنَّكَ عَينُ الحُبّ الساهر على أنفاسنا. تَرْعى خَطْونا و تُبْعدنا عن العثرات في الظلام الدامس. تَزْرَعُ النجوم لنا في قِبَبِ السماوات و تُسْكِتُ الضجيج مِنْ حَوْلنا لِ الهمسات. تدعو العشَّاق لِ التواصل عِبْرَ موجاتك، و تُوصِلُ شَهْقةَ الأنفاس من قطبٍ إلى قطبٍ. كَمْ كنتُ أحتمي بكَ أيها الليل في ربيع الشباب. كنتَ نَديمي في الكأس و اللحنِ الشَجيّ. كنتَ شاهدا على خيالاتي الأولى عن نهدٍ لَدِنٍ، واختلاجات روحي لِ قبلة خيالية.

بين التماعاتكَ يا ليلُ، كنتُ أُسَطِّرُ عِبارات الحُبِّ الأوَّل. إنه الظلُّ، الخيال،لا بل الحنين إلى الأثير الكوني. لا وقتَ لِ شَدِّ الأوتار بين الرمال و السماء، فَ الإبَلُ تدوسها في وَضح النهار. ما أجملكَ أيها الليل حين تُبارك فعْلَتنا تحت ظلِّكَ المقدَّس. تهمس في مسامعنا: أنَّ الأجساد كلّها واحدة في أركان الكون، و أنا الذي يشاطرك في حكمتكَ، أقول: خذوها بعيدا عنّي. جسَدٌ واحدٌ يُشْعِلني، يَجْعَلُ الشمس يشرق على الطيور، والقمر تُكْملُ لَيْلِيَّتها مع الأجساد النورانيَّة بِسرور. يشدُّني وَتَرُ العزف الحالم إلى القوس المقدَّسة، أنطلقُ لَحنا (بَدَلَ السهم الغادر) في فضاءات العشَّاق الأبرياء. أرسم فوق رؤسهم ألوانا في السماء، فَ أنا أَصْلُ الألوان و الشرائع. منّي الصبغة و منكم الأدوات. فيَّ الكلمة، و فيكم المرآة. في البدء كنتُ أنا. هواؤكم لِ الأبد هو أنا، و الطريق الضيّق في حياتكم هو أنا، و السوطُ المسلَّطُ على ضمائركم هو أنا. أنا زيتُ فوانيسكم في ظلمة لياليكم، و أنا شمسُ حقولكم في صقيع أرواحكم البائسة. أهلا بكم أيها القادمون إليَّ. تعالوا! لا تَغْدروا بِأحلامكم. ادخلوا مع أمنياتكم وبذوركم، فَ عذاب الجحيم لِ الذي يرمي شكوكه تحتَ عمائم و قلنسوات آلهة القتل و الهَبَل، و تحتَ أحذية المهرّجين المعتوهين.ادخلوا بِ قاماتكم المديدة. كلوا جسَدي. ارموا أحمالكم عليَّ، و كلَّ أسئلتكم، فَ أنا محيطكم و معجمكم المخبوء في الصحراء. أنا حزنكم المدفون في قلوبكم، وفَرَحكم المؤجَّل دون رغبتكم. ابكوا على صدري كما تشاؤن، و ادبكوا في بيادري حين ترغبون! كنتُ أرتجف من اعترافات روحي. ألقي تحيَّةَ الفجرِ على وجه الشمس الناعس، وأملأُ مسامعي بِصِياح الديك الحزين، لِ انقضاء دَهر من الليل الرخيم. تهتزُ روحي لِرَقْصِ السّنونوات على أسلاك الربيع، و طقوس الجنس بين اللقالق على مداخن الكنائس و المشافي. لِيَ السماءُ و الروح المختلجة في ضباب الشتاء، فوق المرتفعات والبحار الهادئة. أقتطعُ أغصان الغار، أُلَمْلِمُ رَذاذَ السُّحُبِ وأَسْتَحِمُّ في الينابيع المتمرِّدة في فصل الصَّقيع الأهوَج. أرتَشِفُ آخرَ قطرة

من عُصارة الكروم. أرقص مع ذكور الأفاعي فوق الغيوم و أتَقافَزُ مع إناث الأُسُود في الغابات، و الذكَرُ يَلْعَقُ وجهي دون غَرْسِ الناب في عنُقي. صَرَخْتُ في وجه النهر من خَلْفِ البيوت، حيث لا أحَدَ تحت الشمس و لَهيبه، و قلتُ له حقيقةَ أنْ لا ماء فيه... قَفَزَتْ سمَكَة حُبْلى من سَبْخَةٍ بِ حَجْمِ الكَفِّ، و كانت الأخيرة في ذاكرة النهر. ولذلك، ولكي لا تختنق الحقائق في صدري، رحتُ بعيدا عنّي وهَجَرتُ نفسي كي يموتَ الصدى من صوتي، فَ التهامس مع الأزهار أجمل من التحاور مع الذات.

بعدَ التأمُّل في محيطه الساكن، راح سارو يرَدِّدُ كلمات الأغنية(أنا والله كنت مفكّرتَكْ برَّاة البلاد...). و راح يكتب لها قائلا: ها قد أصبحنا بَرَّاة البلاد، و بَرَّاة بَعْضنا كمان(أيضا) يا ندى. رحنا نُرَدِّدُ أناشيد الطفولة، و نستولد صوَرَنا المبعثرة في الحياة. إنّي أفتقدكِ على الدوام يا ندى. مضى وقت طويل وأنا أبحثُ عنك في الحدائق، في الغابات و البساتين، حول الأنهار و البحيرات و سَبْخات المياه. في متَنَزَّهات مُدْهشة رائعة كما الخيال، بين الأشجار الباسقة التي تُجَدِّدُ ذاتها عِبْرَ الفصول بِ انتظام عجيب. ألقي نظرة خلفَ الأجمات، بين أغصان الأشجار و أوراقها. أصعدُ فوق المرتفعات المطلَّة على أودية خيالية، يَصْعدُ البخارُ منها معانقا القوس الملَوَّنة. و في كلِّ لحظة، كنتُ أتوَقَّع رؤيتكِ إمَّا على غُصْنٍ أو بين وريقات وردة أو على منحدَرِ القوس. لكن و لِ الأسف، كنتُ أرى السراب يُراقص كلَّ الرؤى، و كنتُ أراني مُعَلَّقا بِ علامات الصولفيج المتدلّية على منحنى القوس، وكنتُ أحاول قراءة العلامات بِمنحنياتها المثيرة. أرَدْتُ أن أكون الشاعر، المُلَحِّنَ، العازِفَ والمغنّي، لكنني لم أُوَفَّق إلى ذلك، بِ الرغم مِن أنَّ الطبيعة كلّها ناعمة، رقيقة، جميلة و مدهشة. اكتشفتُ فيما بَعد سَبَبَ عَدَم مقدرتي على كتابة عبارة جميلة، أو بيت شعر، أو حتى ترجمة هذه الطبيعة الرائعة إلى جملة أو صورة تناسبها.السبَبُ هو في غياب الروح يا ندى، فَ الذي يدفع المرءِ لِ مُحاكاة

الصوَر و المَشاهد، لِ المناجاة، الغناء، الرقص، الاستشعار، البكاء و الفرح؛ إنّما هو ذاته، المبعثَرة، المندمجة في المكان نفسه. هو صدى حكاياته و شقاوَة طفولته، و زَمَنَ تَحَوّله و قفزَته الليلكية، و الرائحة الأولى لِ فستان ابنة الحارة؛ فَ لكي تَخْضَرَّ اصابعي وتُحَرِّكَ القلم على صفحة الأثير، يجب أن تنبَعِثَ روائحي و بخاري من دواخلي إلى فضاءات هذه الأمكنة. يجب أن تنطبعَ صورتي في الحدائق، على أغصان الأشجار و أوراقها، كي تتجدَّدَ كلَّ عام، بعد تساقطها، حين بلوغها اللون الذهبيَّ و الأحمرَ البرونزيّ. يجب أن يندمجَ صوتي في ذرَّات الهواء ويتَوزَّع في كلِّ الأمكنة، و يحتفظَ بِ الأزمنة إيّاها. يجب أنْ ينعكسَ جمال العذارى من خلال عيوني على السُّحُبِ والقمر والنجوم. يجب تَلْقين الطبيعة أصوات الكائنات الحيَّة، و معها حَفيف الأشجار، خرير المياه، عويل الرياح، دَقَّات حَبَّات المطر على الشبابيك و نَشيج المزاريب، و لا بُدَّ من تَذْرير حَفْنَة من التراب المقدَّس في الهواء لِ يمتلئ بِ الكنوز المجهولة التي ضاعَت في غَفْلَة من الزمن. إنَّها البذور التي أُفَتِّشُ عنها تَبَعْثَرَتْ في الفضاءات الملوَّنة. سوف أبدأُ بِ لَمْلَمَتها بعدَ دهور من الأزمان الحزينة، حينَ يَجِفُّ دمعُ العين، و يَسودُ الهدوء الحزين على روحي. لقد رميتُ صرَّةَ مقتنياتي النفيسة في وجه الريح. إنَّه موسم الزراعة، لا بل موسم النزوح، و قَدْ فَعَلْتُها في هذه الجغرافيا، و لا أدري في كَمْ من الجغرافيات سَتتبَعْثَر مقتنياتي، وفي كم من الجغرافيات سَأمشي مَحْنيَّ الظهر مطأطئ الرأس حابسا الدموع لِ ذكرى وطن. لا أدري كم من التأشيرات سَ تحتاجها روحي لِ تَصِلَ إلى سماء الوطن و تَتَمَرَّغ في ترابه المقدَّس. و كم من الأسماء سَتكون قد رَحَلَتْ، و كم منها تكون قد تحَوَّلَتْ إلى أرواح تَجوبُ سماوات العالم باحثة عن الضائعين من أحضان أمَّهاتهم. لا زلْتُ أتَعَقَّبُ رائحتكِ، يا ندى، في كلِّ الجغرافيات التي مَرَرَتِ فيها. أجمَعُ أجزاء صورَتَكِ التي انطَبَعَت على وجه القمر، وأراني أدور معها في سماوات القارات والمحيطات، لِ أُرَتِّبَ تَمَوْضع أجزائكِ

على وجهها، فَتكونان توأمَ روحي في الأبدية، و أكون النجمَ التابع لِ مداركِ في الدوران الفلكي، يستنشقُ رائحتكِ الأرضيَّة في جرنِ السماء المزدان بِ أشرطة العشَّاق الملوَّنة. كانَت الأغنية قد انتهَتْ، و كان هو تائها في ضباب الذكريات. لم ينتبه لِ الصمتِ المطبق على صومعته، حيث يمارس طقوس عباداته الخاصة فيها. عباداته المتمرِّدة على المألوف و البائس مِن تلك الخزعبلات التافهة، السخيفة، المُجَرْثَمَة و العفنة. ذلك الركام الموبوء المهيمن على العقل الجمعي البهيمي. بعد حين مِن السكون الكُلّي، راح يُذَكِّرها بِ يومٍ لا ينتمي لِ التقويم الأرضي. ذلك اليوم الذي كان موعد سَفَرِه إلى بلادٍ خلف البحار لِ الدراسة في إحدى جامعات الرفاق. كان الزمنُ خفيفا ملوَّنا، و أعمارهم كانت طريَّة تتراقص على أجنحة الفراشات، تتقافَزُ بين الأزهار و شقائق النعمان. تعانق الموسيقا البدئية، الموسيقا الأزلية. فَ في البدء – كما يقول– كانت النغمة أُولى هَمَسات الحياة، البذرة الأولى في التكوين و التهذيب.

كانوا في الميناء قبل السفر بِ أربعِ ساعات. ينظرون إلى الناس الذين يتعانقون. منهم مَن يستقبل أهله، حبيبته، أو حبيبها، والسعادة تَشعُ من عيونهم، و قلوبهم تتراقص بين أضلعهم. وقسم آخر يودِّع أهله، أو حبيبها، حبيبته، و هؤلاء الحزن واضحٌ في عيونهم، والدموع تغسل أرواحهم المتعَبَة، وغالبا يرتبكون في حركاتهم و ردود أفعالهم. كان سارو و ندى ينظران إليهم، و حين كانت تتقاطع نظراتهما، كانت ابتسامة ملوَّنة تَشعُّ من عيونهما. لا حزنٌ هو، و لا هو فَرَح. إنها السعادة النادرة، سعادة اللغز سعادة العشَّاق في لحظتهما، أو سعادة لحظة العشاق. كانت عيونهما تلمع. كانا يبتسمان، و يلتفتان إلى البحر حيث الأمواج الخفيفة عند الشاطئ، و أصوات النوارس المحَوِّمة فوق المياه، و ربَّما، هي الأُخرى، تنتظر السفر مع الباخرة التي سَ يركبها سارو.

كانوا يتجاذبون أطراف الأحاديث، هما و أصدقاؤهما، بِ جُمَلٍ قصيرة، و حول

مواضيع عامة لا أهميّة لها، هكذا لِتمضية الوقت ليسَ إلاَّ. صار القلق و الارتباك سَيّد الموقف بينهم جميعا، حين طُلِبَ من المسافرين التوجّه نحو مراكز التفتيش والوزن و تدقيق وثائق السفر، مِنْ التذكرة و الفيزا و جواز السفر، و وثائق أخرى تُزيد تعقيد سَفَر الشباب، بِ شَكلٍ خاص، كَ وثيقة التأجيل من الخدمة العسكرية، وثيقة غير محكوم، وثيقة تَبَرُّع بِ الدم، إخراج قيد فردي، دفتر العائلة والهوية الشخصية...إلخ. راح الكلّ يتحرَّك بِ شَكل عشوائي، تَلَّمَسَ سارو حقائبه. كاد يمشي إلى الداخل دون توديعهم، لكنه استدرَكَ الموقف. تَوَجَّه إليهم يُوَدِّعهم مع ابتسامات باهتة، و حين جاء دور ندى، ارتبكَ قليلا، ما كان يعرف كيف يودعها. كانت سيناريوهات التوديع تتزاحم، سريعا، في خياله. ماذا سَيقولون عنهما، فيما إذا قَبَّلها أثناء التوديع؟ ماذا سَ يستنتجون من علاقتهما، إذا ما قَبَّلها أثناء التوديع، وخاصة أختها وأخوه؟ إنهم يعرفون بِأَنَّهما على علاقة حميمية عميقة، ويعرفون في قرارة أنفسهم، بِ أَنَّهما يحبّان بعضهما... أخيرا مَدَّ يده لِ يصافحها، و في الحال احتضنها، و قَبَّلا بعضهما قُبْلَة التوديع، قُبْلَة مسافر، لا أكثرْ.

تَعَرَّضَ لِ مواقف مُحْرجة في الداخل. فَعندَ نقطة تفتيش الحقيبة، كان ينظر بين الفينة و الأُخرى إلى ندى في صالة المودّعين، ما دعا الموظَّف المسؤل لِ توجيه ملاحظة جارحة له، و أيضا عند نقطة تدقيق وثائق السفر و خلافها. و لأنه كان يلتفتُ إليها، فَأَدَّى ذلك إلى ارتباكه في إظهار الوثائق المطلوبة. كان من الممكن أنْ يُمْنَع من السفر بِسَبَبِ ذلك، إلاَّ أَنَّه تداركَ الموقف، و سُمِحَ له بِ المرور إلى قاعة الآنتظار. في طريقه إلى القاعة، التفَتَ لِ المَرَّة الأخيرة و نظَرَ إلى ندى، و بِ الكاد رأها مِن بين المودّعين، و كان يصطدم بِالمسافرين يمينا و يسارا. أثناء صعوده إلى الباخرة التفتَ، و هو على السّلّم، إلى الخلف على أمَل أن يرى ندى لِ المَرَّة الأخيرة. لكنه لم يرَ سوى كُتَل بشرية غائمة. و عند باب الدخول، أوقَفَه الموظَّف المدَقِّق، و ربما هو مخابرات، و قال له: لا يمكنك السفر! هناك نقص

في الوثائق المطلوبة. صُعِقَ سارو، فَ هو على بُعْدِ خطوتين من الحدود، أو بِ الأحرى من الجامعة، وعلى بُعْدِ خمسين مترا من ندى، هذا إذا لم تكن في طريقها إلى البيت، وراحَت السيناريوهات تلعبُ في دماغه بِسرعة الضوء. سَمعَ الموظف يطلب منه وثيقة التبرُّع بِالدَّم. أظهرها له، إلاَّ أنَّ الموظَّف قال له: تاريخها منته. سَكَتَ سارو، و بعد لحظات قال له: والله يا استاذ أنا لم أكن أعرف بِ أنَّ الوثيقة لها تاريخ ينتهي مفعولها، أو صلاحيتها، و الآن لا أعرف ماذا أفعَلْ. بعد لحظة صَمت من الموظف، وقليلا من التأمُّل لِ وجه سارو، و ربَّما لِ الحجّة التي قَدَّمَها و لهجته و اسمه و مدينته. سَمَحَ له بِ الدخول. شَكَره سارو بِ رصانة و احترام و اجتاز حدود الحُبِّ و الوطن.

كان الشمس قد انزلَقَ إلى الطرف الآخر حين أطلَقَتِ الباخرة بوقها، أو صافرتها الغليظة، التي تشبه نهيم الفيل في موجاتها الطولية و العرضية. كانت الصافرة بِ مثابة الوداع الأخير، يطلقها سارو على مسامع ندى، التي قد تكون، مع الآخرين، في طريقها إلى حلب، إلى حَيّ السّريان القديم.
صَعَدَ إلى السطح، و راح ينظر إلى أضواء المدينة التي تبتعد عنه رويدا رويدا. يستحضر النظرات الأخيرة لِ عيون ندى. النظرات التي كانت تشعُّ حزنا عميقا، لا يحسُّ بها أحد غيره، حتى أمّها لا يمكنها أن تقرأ حروفها، أو تَفكَّ شفرتها الشاعرية. لم يُصَدِّقْ بِ أنه ابتعدَ عنها، و أنَّه لن يراها هذه الليلة في الحديقة العامة. كان يَشمُّ راحة يده، يُمَرِّرُها على خَدِّه و عيونه، يُقَبِّلُها بِ هدوء و الحزن يجتاح قلبه. غابَت المدينة بِأضوائها وراحت ندى إلى الطرف الآخر من الحدود. جَلَسَ على مقعد فوق سطح الباخرة التي تمخرُ عُبابَ اليمِّ. كان الظلام يحيط به، وكانت نظراته تسْرَح فوق الأمواج. راح يحاكي اللمعة الصادرة من أعناق الأمواج، وكأنه يرى ندى تقفزُ فوقها متجهة نحوه. يرى بريق عيونها الجميلة و ابتسامتها المغناجة. يَمدُّ يده إليها، وحين اقتربَ منها لِيمسكَ بِ يدها و يشدّها إلى صدره،

كانت قد انتثرت من فوق الموجة رذاذا ملأتْ عيونه و فمه، قبل أنْ يهمسَ في اذنيها ما كان يعتلجُ في روحه من خواطر النجوم المخيّمة فوق رأسه. أسندَ رأسه إلى كفَّيه و شرعَ في استعادة مشاهد الوداع من أوَّلِها، و بِ أدَقّ تفاصيلها. لم يكن يرى أحدا في الميناء في كلّ تلك المَشاهد و الصور المزدحمة سوى حبيبته ندى. كان يهمس لِ نفسه: يا ميناء اللاذقية.. يا ميناء الحُبّ! لماذا سمحتِ لِ البحر بِحَمْلي على أمواجه و إبعادي عن صديقتي، بل حبيبتي، لا بل روحي التي ظَلَّتْ هناك على الرصيف منكسرة حزينة؟ أه يا ندى كم أنا حزين! إنّي أتألَّم من أعماقي. كم تمنَّيتُ أنْ تتعطّل الباخرة عند عنق الميناء كي أعودَ إليكِ. لكنّ البحرَ لم يكن يدري ما يجري على الرصيف.. لم يكن يعلم بِ انَّه يُفَرِّق بين عاشقَين أعطيا اسميهما لِلميناء، فَ صار اسمه ميناء العاشقين.. ميناء" ندى و سارو".

كان شريكه في الغرفة شاب أسمرَ مثله. شعره أسود و أجعد مثل شعره. أكبر منه بِ سنوات ثلاث، و أطول منه بِ سبعة سنتيمترات تقريبا، و جسمه ممتلئ أكثر من جسمه بِ قليل. حصل التعارف بينهما، و استلطفا بعضهما من اللقاء الأول، ربما اكتشفا انتماءاتهما السياسية من خلال الأحاديث التي جَرَت بينهما. يُدْعَى طارق، أردني. يدرس علم الآثار و الأنتروبولوجيا في المعهد العالي لِ العلوم الإنسانية في موسكو، إنه في السنة الثالثة. بعد العشاء، أمضيا أكثر من ساعة بِ قليل على سطح الباخرة. كانت أحاديثهما عامة، تتناول، بِ مجملها، حياة شعوبهما و خاصة الشباب و مستقبل الأجيال القادمة. حاولا أن يكونا رصينين، و ذي مصداقية في معلوماتهما. طارق لم يكن يعرف أنَّ سارو قد وَدَّعَ حبيبته قبل أربع ساعات هذه الليلة. استأذن طارق و نزل إلى الغرفة لِ ينام. كانت غرفتهما في الطابق الثاني، يبدأ العَد من الأعلى، من سطح الباخرة، فَ الطابق الثاني يقعُ في الأسفل. كان مُجْهَدا بِسَبَبِ السفر، فَقد ركبَ المواصلات من فجر هذا اليوم، و سارو أيضا خرَجَ على الطرقات من الصباح الباكر، لكن سلطان

النوم هَرَبَ حين رأى مشهد الوداع بينهما. كان سارو يتَقَصَّد الوقوف عند حافة الباخرة لِتمتلئ عيونه بِرذاذ البحر المُشْبَع بِ الملح. فَ كيف ينام مَنْ في عيونه ملح، كيف ينام مَنْ في أذنيه طنين الفراق، كيف ينام مَنْ ترَكَ قلبه على الرصيف في الطرف الآخر مِن الحدود؟ أعلَنَ القبطان عن التوقّف لِ مدَّة أربع ساعات في ميناء الاسكندرية. نزلا، طارق وسارو، معا إلى الاسكندرية، و راحا يتجوَّلان فيها. إنها من المدن الساحلية الجميلة في العالم. تخطيطها هو كَرقعة شطرنج، شوارع متقاطعة عموديا، لا يمكن لِلمرء أن يصلَ إلى شارع مسدود، أو أنْ يضيع فيها. إنها مدينة اسكندر المقدوني، قال طارق، و أضاف: كان الاسكندر واسع العلم و الثقافة، و قد خَضَعَ لِ التربية الملوكية في جميع المجالات. العلوم العسكرية، الفلسفية، الدينية، الفنية و طبعا مع بناء الجسم الرياضي القوي و فنون القتال و خُطَط الحروب. تتلمذَ على يد الفيلسوف آرسطو حتى بلغَ السادسة عشر من عمره. كان يُعْرَف بأسماء عديدة منها. الإسكندر الأكبر، الإسكندر الكبير، الإسكندر المقدوني، الإسكندر ذو القرنين. كان من القادة العسكريين المشهورين، لا بل ، من أشهر القادة و الفاتحين عبْرَ التاريخ، و بِ بلوغه الثلاثين من عمره، كان قد أسَّسَ إحدى أكبر و أعظم الامبراطوريات التي عرفها العالم القديم. امتدَّتْ امبراطوريته من سواحل البحر الأيوني غربا إلى سلسلة جبال الهيمالايا شرقا، و لم يُهْزَم في أيّ معركة خاضها على الإطلاق. أنا لم أقرأ كثيرا عنه، قال سارو، و لكنني قرأت معلومات عن تتلمذه على يد آرسطو، و أيضا عن مشروعه العالمي. كان يريد أن يُقارب بين الشعوب، على ما أعتقد، لذلك زاوج بينهم. بين الفرس و اليونانيين والأرمن والهنود والمصريين و السوريين...إلخ. على كلّ أنتَ حَرَّضتني لكي أعود و أتوَسَّع في قراءة عصره. تماما يا صديقي، قال طارق، و الذي قلْتَه هو جزء من إرث الاسكندر. فَ الكتب تقول بِ أنَّ الذي فَعَله في هذا المجال، هو التمازج الثقافي الذي خَلَقَته فتوحاته. فَ قَدْ تمكَّنَ من خلطِ الثقافة الإغريقية

الهلّينية بِ الثقافات الشرقية المختلفة لِ الشعوب الخاضعة له، كما أسَّسَ أكثر من عشرين مدينة تحمل اسمه في أنحاء مختلفة من امبراطوريته. أبرزها و أشهرها هي، و لِ حُسْنِ حَظِّنا، هذه التي نحن نتمشَّى في شوارعها. أصبحَ الإسكندر شخصية اسطورية في التاريخ اليوناني و العالمي تقريبا، حتى صار يُقارَن مع أخيل، و أصبحَ هو مقياس نجاح أو فَشَلْ القادة العسكريين في مسيرتهم. إنَّ زَمَنَه و أعماله، أو بِ الأحرى إنجازاته، و شخصيته أيضا، جديرة بِ المطالعة و الدراسة، قال سارو، و أتمنى أن أتَمَكَّن من زيارة بلاد الفراعنة في المستقبل، لِ التَعرُّف على الحضارات التي تعاقبَتْ على هذه البلاد الرائعة. أنا سَ أزور هذه البلاد لِهذه المقاصد في العطلة الصيفية القادمة، قال طارق، وأضاف: هنالك مواضيع أثرية، ثقافية، تاريخية و ميثولوجية كثيرة، أوَدُّ التعرّف عليها عن كَثَب. بِ المناسبة، فَ إنَّ الإسكندر كان قد أوصى بِ بناء ضريح تذكاري عظيم لِ والده فيليب الثاني يضاهي عظمة أهرام مصر. لم يكن يكره إبداعات الفراعنة، بل بِالعكس، كان يقدِّرها و يُجِلَّها، و كانت له مأثرة عظيمة في تاريخ المنتصرين في الحروب والغزوات، فَ كَمنتصر، لم يقمْ بِ تدمير الهياكل و المعابد و تماثيل الآلهة، ولم يحرق كتبهم ومكتباتهم، و لم يلغِ أديانهم أو يزدري قيَمهم و ثقافتهم اللاهوتية. أنَّه حافظ على المعابد الدينية و الآلهة الفرعونية، و يُقال بِ أنَّه زار معبد الإله آمون مع كهنة المعبد، و لُقِّبَ بِ (ابن آمون).

-12-

مخطوطات من وراء البحار

كان الخال ياني يسكن في تلك الغرفة التي كان قد استأجرها من منزل الكبران. لم يَسبقْ أنْ سأل أحدهم عن أصله، فَ كلّ الأهالي كانوا يعتبرونه واحدا من أهل الحارة دون الخوض في التاريخ و الجغرافيا، و ربَّما كانوا يعتبرونه أرمَنيَّاً، لا بل بِ التأكيد اعتبروه أرمَنيًا. فَ هو يسكن مع عائلة أرمنيَّة، و في حارة أرمن، و كان يَتَّبِع طقوس الأرمن. الأعياد، الصيام و الاحتفال بِ ذكرى الإبادة في 24 نسان من كلِّ عام، و عيد الديرنديس(الاحتفال بِ النار المقدَّسة)، حيث يتم إشعال النار في باحة الكنيسة و يطوفون حولها. الصِّبْيَة و الشبَّان و الشابَّات يقفزون فوقها بعدَ أنْ تكون دائرتها قد تقَلَّصَتْ، و عند انتهاء الاحتفال، كان الكلّ يأخذ شعلة منه إلى البيت، و كانوا يُشْعلون الفانوس، و البَبُّور لِ تبقى الشعلة المقدَّسة في بيته، و لِ تَحلَّ البَرَكَة عليهم. هذا العيد هو عيدٌ وَثَنيّ في تاريخ الأمة الأرمنية. و حسناً يفعلون بِ الاحتفال به.

كان الخال ياني وحيدا، غير متزوّج. لم يكن له أهل- إخوة، أخوات، أعمام عَمَّات...إلخ- لكن في الواقع، كان الأهالي يتعاملون معه كَ واحدٍ منهم تماماً. يقول سارو في إحدى أوراقه الحميمية التي تتناول مشاهد و صُوَرَ منسية في أزقَّة الحارة و ساحاتها الصاخبة: كان الخال ياني من مفردات حياة الحارة، كما الشمس من مفردات الحياة في هذا الكون، فَمثلما ظهور الشمس، أو بِ الأصّحّ، وجوده أمر غير قابل لِ الشكّ و النقاش، فَ ظهور الخال ياني في الحارة، أيضا، أمر غير قابل لِ الشَكِّ و النقاش، و كما أنَّ الناس لا يتحدَّثون عن الشمس في سهراتهم وجلساتهم ونقاشاتهم لأنَّه موضوع بديهي مفْرَغ منه، لَصيقٌ بهم كَالماء والهواء، و هكذا هو وجود الخال في حياتنا، لصيقٌ بنا كما الماء و الهواء.

كان الخال ياني ضئيلا في الجسد. بَشَرَته سمراء كَ سَمَارِ بَشَرَتِنا، لون شعره يميل إلى الشَقار، و لون عيونه أزرق كَ لون السماء الصافية. فيها مسحة حزن و عاطفة، تضفي جمالا على وجهه السَمِح. كان يَنْسَلُّ من الحارة متجها نحو النهر، بعدَ أن يضعَ شبكة الصيد في سَلَّته المصنوعة مِن القَصَب المجدول، و أيضا زوَّادته البسيطة و بعض المستلزمات الضرورية يضعها هي الأخرى فيها، و من ثمَّ يُمَرِّر عصاه تحتَ قوسها،التي هي بِ مثابة الحامل، (تُحْمَلُ السَلَّة من خلالها) إلى مسافة ثُلْثِها، و يَمْسكُ بِ الطرف الأخر و يضعها على كَتفه. كان منظره لافتا، إذْ أنَّه يمشي بِ بطء و عيونه تنظر إلى الأمام أفقيًا، و بِ مستوى قامته. لم تُشْغِله حركة الناس و العربيات و الدراجات الهوائية، أو تثير اهتمامه، وإذا صادفه رجال من الحارة، أو أيّ أحَد يعرفه، يلقي السلام عليه، و هو بِ دوره يَردُّ السلام بِ المثل. كان إذا تكَلَّمَ، فَيتكلَّم بِبطء وتخرج الكلمات والجُمَل من فَمِه بِ نبرة موسيقية هادئة. كان يصطاد السمك من نهر الجغجغ، إذْ أنَّه يمشي على ضفافه جنوبا لِ مسافة عدة كيلومترات، من خمسة إلى ستة كم، و كان يرمي شَبَكته في الكولات التي تصادفه في هذه المسافة، و في كثير من الأحيان كان يتَقَصَّد كولاتٍ بِعينها، وذلك عن دراية و خبرة. كان يعود عند الغروب، و عودته صارَتْ طقسا رائعا لنا، نحن الفتية. فَ الغروب كان قد أصبحَ توقيتا فلكيًا يداعبُ اللاوعي من أدمغتنا، فَ مهما كنَّا منغمسين في اللهو و اللعب، فَ موعد مجيء الخال ياني يبقى حاضرا في أذهاننا. و كأنّ مُنَبِّها بيولوجيا يَرِنُّ في خلايانا، أنْ، وَقْتَ قدوم الخال ياني قَدْ حان. كنا نَلْحَظُه و هو يدخل رأس الحارة مِن طَرَفِ النهر، حاملاً سَلَّتَه و بضْع سمكاتٍ لِ عَشائه البسيط. كان يسير بِ بطْء على الرصيف. كنا نستقبله من أوَّل الحارة، و ندور حوله كَ القطَطِ، و نتقافز أمامه، نسأله عن الصيد و الكولات و الشلاّل القريب مِن بيت آنطو القَوَّاق. لم يكن يأبه كثيرا لِمشاغباتنا من حوله. كان يتمتم بِ صوت خافت، و بِ لكنة أجنبية مُحَبَّبة

لِ قلوبنا، كَ أنْ يقول: المَي،(يعني الماء، و كان ينطق الميم مُفَخَّمة) كان سريعا اليوم، و الكولات كانت مليانة بِ الماء، و لذلك، فَ الشبكة كانت تلعب كثيرا قبل الاستقرار في عمق الماء. كان يبتسم لنا، لو كنا عاقلين ولطفاء بِتصرُّفاتنا معه، و كان يطلب منّا بِ لطفٍ و هدوء أنْ نَدَعْه يذهب إلى البيت.

في إحدى الليالي الصيفية، كما يقول سارو في أوراقه: دخَلتُ بيتَ الكبران أسألُ عن ابنه الذي هو مِن جيلي، أي بِ عمْري، كي نذهبَ و نلعبَ مع الفتية الذين ينتظروننا. لم أجِدْه في الحَوْش. مَشَيْتُ إلى الغرفة الثانية التي على يسار الباب الخارجي(الرئيسي) لِ المنزل، و إذْ بِ الخال ياني جالس على كرسيّ دون ظهر، كان يتعتع بِ الكلام، و بِ الكاد يُفْهَم بعض الكلمات ممّا يقول، و كانت الخالة آزنيف تَزجره. طبعا كانت هذه اللقطات، المفْعَمة بِالود والإلفة العائلية، قد أضْحَتْ طقسا عاطفيا لا بُدَّ منه. باب الغرفة مفتوح على مصراعيه. جميع البيوت تترك أبواب الغرف مفتوحة في فصل الصيف. سألتُ عن ابنها، قالت لا أعرف أين هو، أكيد سَ تراه في هذه الشوارع، و تَوَجَّهَتْ إلى الخال ياني قائلة: يكفيكَ شربْ هذا السم، تقصد الخمر، أمّا الخال فَ كان يُدَمْدِم و يتعتع بِ كلام غير مفهوم. فجأة أشار إليَّ بِ الجلوس على الكرسيّ إلى جانبه، فَفعلتُ. أمّا الخال، فَ راح يحكي عن مواضيع لم أفهمها وقتذاك، حتى لم أفهم مفردات الكلمات، ثمَّ أخْرَج آلة موسيقية من جيب سترته، لم أكن أعرف اسمها حيذاك، إنها الهرمونيكا، و بدأ يعزفُ ألحانا جميلة هادئة. كنتُ أشعرُ بِ الفرح و الحزن مع معزوفاته الليلية. في بعض اللحظات كانت الموسيقا تتقَطَّع. كنتُ أحيلُ السبَبَ إلى الخمر الذي شَرِبَه. لكنَّني، و بالصدفة، انتبهتُ إلى دمعتين كَ حَبَّتيّ لؤلؤ تَتَدحرجان من على خَدَّيه الورديتين. تابعتُ مسير الدموع تلك، فَ رأيتها تذهب من خلال شفتيه إلى داخل الهرمونيكا. كان الخال يعزف بِ دموعه، يعزف الحزنَ المكلَّل بِ اللألِئ. كان الخال ياني يحتفظ بِ رُقُمٍ ذات أحجام مختلفة، و مخطوطات فيها كتابات

بِ اليونانية القديمة، أو اللاتينية القديمة، و كان من ضمنها، أيضا، رسومات و أشكال لِحوريات و آلهة و سُفُن حربية و حيوانات خرافية. كان قد تحَدَّثَ لِ عائلة الكبران، في معرض التعريف عن نفسه، عن بلده و تاريخ عائلته و أمور مختلفة لها خصوصية شخصية. أمّا سارو، فَ لَمّا عرف بِ أنَّ الخال ياني يخفي وراءه قصة وتاريخ، وأنَّه من اليونان، بلد الفلسفة والأدب و الثقافة الرفيعة، بلد زيوس و أفروديت و هوميروس، و لأنَّ سارو كان قد قرأ ملحمة هومير في بداية سنته الأولى من الجامعة، فَراح ينظر للخال كَ واحدٍ من أبطال الإغريق، أو الطروادِيين، أو كَ أحَد الآلهة الجالسين في الأكروبولِس فوق جبل الأولمب. و هكذا، اقتربَ سارو من الخال، وكان سارو بِمثابة كنزٍ لِ الخال ياني. أنْ يجلس مع أحد أبناء الحارة و يتحَدَّث معه عن آلهة و أبطال اليونان!. أصبح سارو صديق الخال و حافظ أسراره وروحه الرهيفة. و تبيَّن فيما بعد، و من خلال الجلسات و الأحاديث التي كانت تَتمُّ بينهما، بِ أنَّ الخال ياني، ينحدر من نَسْلِ تليماخ بن أوذيس، حيث أنَّ تليماخ كان قد تزَوَّجَ من بولينيا، أميرة جزيرة اسبيتسس، و أنَّ حَفيدة تليماخ هي جَدَّة ياناكوس، و ياناكوس هو الجَدُّ التاسع عشر لِ الخال ياني.
ياناكوس هذا كان قد تزَوَّجَ من لاوذيسيا ابنة أمير جزيرة سيرفيوس، القريبة من أثينا، حيث أنْجَبَت له سبعة أولاد، أربعة ذكور، و ثلاث إناث. أمّا البنات فَ قد تزوجْنَ من أمراء من رودس و سكياثوس و كورفوس. أمّا الشباب من أولاده، فَ البكر منهم قُتِلَ في الحروب البونيقية، أو الحروب الصقلية، التي كانت عبارة عن سلسلة من الصراعات بين القرطاجيين والإغريق بِرئاسة السيراكوزيين لِ السيطرة على صقلية. و الإبن الأصغر منه مباشرة، قُتِلَ في معركة آرتميسيوم ضدّ الغزو الفارسي. إلَّا أنَّ الفرس الأخمينيين، بِ قيادة خشايارشا الأوَّل، تمكَّنوا من احتلال آرتميسيوم، و ثمَّ اتجهوا نحو أثينا لِ احتلالها. أَمّا الصغير، ميكيس فَ قَد تزَوَّجَ من إيرينا، أميرة كريت، ورُزِقوا بِ خَمْسَة أولاد، وكان جَدُّه الثالث حفيد ميكيس

وإرينا، و أنَّ جَدُّه لِ جهة والده، قُتِلَ في الثورة الثانية ضدَّ الغزاة العثمانيين، أمّا والده أندريانوس فَقد قُتِلَ سنة- 1917- في الحرب الكونية الأولى، وكان عُمْرُ ولده، ياني، حينذاك سَبْعُ سنوات. كان أَبوه قد أعطاه اسم جَدِّه التاسع عشر (ياناكوس)، لِ يُذَكِّره بِ عراقة تاريخ عائلته، و رِفْعَة و سموِّ نَسَبِه. فَ هو يَتَحَدَّرُ من سلالةِ أدهى و أعظم ملوك الإغريق، أوذيسيوس، و كان قد أطْلَعَه على الكنز الذي توارَثه أبا عن جَد من البيت الكبير، بيت تليماخ بن أوذيس. و حين أُبْلِغَ لِ الالتحاق بِ جيش الدفاع الوطني، بَعْدَ عامين من اشتعال نيران الحرب العالمية الثانية، قام بِ تَجْميع تلك الرقم و المخطوطات في محفظة خفيفة و ضَمَّها إلى أغراضه الشخصية في حقيبته الصغيرة. وهكذا احتفظَ بِتلك المخطوطات مشدودةً في وسطه طيلة فترة الحرب. كانت قد أضْحَت جزءا من جسمه. بَعْدَ عام من التحاقه بِ الجيش، وخدمَته في الجبهة الشرقية، فَقَدَ الاتصال بِقطعته العسكرية شرق السواحل القبرصية، و تاه في الأناتوليا. عاش متخَفّيا آخِذاً كلّ الحيطة و الحذر في تنقّلاته، فَ الأتراك يقتلون أيّ إنسان لا يشبههم، ليس من ملَّتهم، و خاصة المسيحي، يقتلون أيّ شخص إذا عَرِفوا بِأنَّه أرمني أو سرياني أو يوناني أو بلغاري. حاولَ بِ كلّ السُبُل ألَّا يَقَعَ بين أيديهم، واستطاع بَعْدَ عامٍ من الضياع هناك، أنْ يَصِلَ إلى الرها. عاش في الرها مع عائلة سريانية مدة سبعة شهور. كان يساعدهم في الأرض وأعمال أُخرى. حافظوا عليه من غَدْر الوشاة والعملاء. استطاعوا، بِ التعاون و التنسيق مع السريان و الأرمن في مدينة القامشلي، أنْ يُسَهِّلوا له الطريق لِ التسَلُّلَ إلى المدينة.

كان ياني مهتما بِالحفريات، ودراسة الرموز والرُّقم. دَرَسَ علم الآثار، و تَخَصَّصَ في فَكِّ الرموز وتحليلها من جامعة سقراط، ومن خلال عمله في المواقع الأثرية، و تعامله مع اللُقى و الرُّقم و الرموز الضاربة في أعماق التاريخ، أدْرَكَ أنْ لا بُدَّ من معرفة إحدى لغات الشرق القديمة، فَ كان متردِّدا بين اثنتين منها، العبرية

والآرامية، ولأنَّ التاريخ، مع الجغرافيا، هو المصدر الرئيس في تحليل المكتشفات الأثرية، و لأنه من صلبِ اختصاصه ودراساته، فَ ما كان منه إلَّا أن يختار تَعَلُّم اللغة الآرامية. كان قد كَشَفَ عن واحدةٍ من تلك المخطوطات، لِ سارو، مخطوط متوسط القياس، فيه رَسْم لِحصانٍ ضخم فوق قلعة طروادة، و تحته شَرْحٌ مُفَصَّل يقول: إنَّ الحصان قد غَلَبَه الشوق و الحنين لِ موطنه الأصلي، إذْ أنَّ نَسْله يمتد إلى سلالة الخيول المكّية. فَ تجَّار قريش كانوا يُحَمِّلونها، إلى جانب البعير و الحمير، بضائعهم، منطلقين من مَكَّة إلى بلاد الشام، و فرسان مكَّة أيضا كانوا يمتطونها في معاركهم وغزواتهم. و يَتَحَدَّث المخطوط الطروادي عن رحلة الصيف لِقافلة قريش، كيف أنَّهم اجتازوا المسافات عِبْرَ الصحراء والطرُق الساحلية، حتى دخلوا بلاد الشام بِأمان. كان أبو دوُشَر الكلَيْبي قائد القافلة وكان من نَسْلِ ابراهيم الذي أرسلَ ابنه اسماإيل إلى جنوب محرقة اسحق، لِبناء معبدٍ لِ إله بني إسرائيل هناك. وكانت مَكَّة المعبد الذي تَمَّ بناءَه بِ طَلَبٍ من ابراهيم، وكان عبداللات من أحفاد اسماإيل، إنه استلم مفاتيح المعبد من أجداده الأوائل، و أبو دوشر هو الآخر من أحفاد عبداللات بن نُمَير. راحَ التجار بعدَ توغّلهم لِ المركز، يستأجرون الخانات ويملأون الأسواق بِبضائع من بلاد فارس وبغداد و الهند، و بِ المقابل، كانوا يندهشون لِ رؤيتهم البضائع القادمة من عكّا و جُبَيل و القدس و البتراء و قبرص. كان التجَّار يعقدون صفقاتهم بِ اللغة اللاتينية و الآرامية، و يُمضون سهراتهم الماجنة في خَمَّارات الخانات. يتناولون أَشْهى الأطباق و المأكولات القادمة من مطابخ الشرق الساحر، و أَشْهى المشروبات الفاخرة المصنوعة من أجْوَد أعْناب الشام و لبنان و الناصرة. كانت سهراتهم تتخَلَّلها رقصات الحوريات اللائي كُنَّ يَخْلبْنَ، بِ جَمالِهنَّ، ألْبابَ الشباب والرجال، ويصرعْنَهم بِ نعومتهنَّ و بَيَاضِ سيقانهنَّ، ونهودهنَّ المشدودة المشرئبة نحو السماء. طبعا، كان بِ إمكان الرجل أنْ يحظى بِ رفْقَة لطيفة حول الطاولة، مع كؤوس السلاف وأنفاس منعشة

ممتعة لِ القلب و الروح. كان من بين الفاتنات الرقيقات مَنْ قَدِمَتْ من تبريز و باطومي ويريفان، و مِنْ رودس و كيليكيا و الشام. في نهاية الاسبوع الأول من دخول القافلة إلى بلاد الشآم، و في إحدى السهرات الليلية الراقصة الغنائية الصاخبة، حَظيَ قائد القافلة، أبو دوُشَرْ الكُلَيْبي، بِ صحْبَة حوريَّة من حوريات البحر، لا بل، من حوريات السماء. إبنة الستة عشرَ ربيعا، كانوا يُلَقِّبونها بِ حواء كيليكيا، ذات جمال و نعومة مُدّوّخة. نقاء البَشَرَة بَيْضاؤها، ذات عيون زرقاء كَ لون السماء في يوم صافٍ. أَخَذها إلى غرفته. أَسْكَرَتْه بِ حركاتها المفعمة بِ الإغراء، و قبلاتها الساحرة. جَعَلَته يمتصُّ رِضابها من تحت لسانها، وحين تَذَوَّقَ الشَّهْدَ، لم يعد يتركُ لسانها إلى أنْ دَفَعَتْه بِ حركةٍ لطيفة ذات تأثير سحريّ. أَخَذَتْ رأسه إلى سرَّتها و ما دونها، و بدأَ بِ تَذَوُّقِ عسيلتها، ثمَّ راحَتْ تُطْبِقُ، بِشَفَتَيْها، على عينيه. تُحْدِثُ ضبابا فوق عيونه و تسكب لعابها بِ بطْءٍ بين جفونه، و كَأنَّها تغسلُ عينيه و تُصْقِلهما من شوائب الأرض. امَّا أبو دوُشَرْ، فَقَد راح في غيبوبة الباه و سَكْرَة الآه فوق أثداء الحوريات القادمات من مكاتب الله، إلى خانات الشام، بناءاً على طلبات تجار الشرق وأسياد قريش. فَ رَعشات الصحراء لا يُهَدِّؤها سوى اللحم الورديّ، و لهيب الشرق لا يُطْفِؤها سوى الأثداء الحليبية و بَياض الأرداف.

كان الفجر قد بدأَ بِ الانتشار حين غابَتْ حواء عن أنظاره. بَحَثَ عنها في كلِّ زاويةٍ من زوايا جناحه في الخان، إلَّا أنَّه لم يَعْثُر لها على أثَر. كانت رائحتها تَسْحبه إلى حيث هي، و لُعابُها يكشِفُ له مكانها خلف الضباب. امتطى حصانه و تَوَجَّهَ نحو البحر متتبّعا أثَرَ رائحتها. تراءى له خيالها في الطرف الآخر من البحر. ومع أوَّل شعاع الفجر لَكَزَ حصانه، فَ ما كان منه إلَّا أنْ قَفَزَ طائرا فوق الأمواج. دَخَلَ بين غيماتٍ رقيقة. وجَدَ نفسَهُ فوق بقعة ملوَّنة بِ الأخضر و البنّي والأحمر. كانت قطعة أرضٍ محدودةٍ بِالمياه من جهاتها الأربع. شاهد في الأسفل

مراكبَ شراعية في سواحلها، و صيَّادين يجوبون في خلْجانها. و رأى ساحات تعكس أشعَّة ذهبية، و كَ أنَّها مكامنَ ذهبٍ أو برونز أو نحاس. لم يكن يعرف اسم الجزيرة، فَ أهل صحراء الربع الخالي لم يسمعوا، إلى تاريخه، بِ اسم جزيرة قبرص. أبْطَأَ الحصان من سرعته، انعطفَ نحو اليسار قليلا متتبّعا رائحة معشوقة فارسه. تابعَ مساره نحو أرضٍ بانَ رأسُ اليابسة منها بَعْدَ تسعين فرسخا من قبرص.هَبَطَ الحصان في فسحةٍ خضراء تَبْعُدُ فرسخين عن الشاطئ. تَرَجَّلَ أبو دوشَر وتركَ حصانه يرعى من خيرات الأرض. راح يتأمَّل المكان بِدَهْشَة، و كان يقول لِ نفسه، دون صوتٍ:"هل هذا الذي أراه حلْمٌ أمْ حقيقة؟!" كانت الفسحة بِ مثابة حقلٍ مُحاط بِ سلسلة من جبال ذات ارتفاعات متباينة، مكْسوّة بِ الأحراج والغابات ومختلف أنواع الأشجار، من السنديان والحور والبلّوط، و من الصنوبر الممشوق و الأرز المشرئبّ نحو السماء، و الكثير من الأشجار المثمرة، حيث تنتشر بين جذوعها أصناف مختلفة من الفطريات. و كان خرير المياه المنسكبة من أكتاف التلال يُسْمَعُ مع أصوات الطبيعة. كانت الينابيع ترسلُ مياهها العذبة لِعناصر الطبيعة و كائناتها الحيّة. كانت الحيوانات تتقافز على أغصان الأشجار مُفْزِعة الطيور المُغَرِّدة. لم يُصَدِّق عيونه. يقرص جلده لِ التأكُّد من أنَّه ليس في حلمٍ أو خيال. كان الحصان يُنَفِّذُ رغباته و أوامره، حين كان يومئ له بِ حركة، أو يُخْرِج صوتا مُلَغَّزاً من حنجرته. في الأثناء، أَخَذَه تفكيره إلى القافلة التي قادها من مكّة و يَثْرِب، مجتازا بها حدودَ البتراء إلى مَذْبَحِ اسحق و بلاد الشآم. تَذَكَّرَ اللحظات التي، فيها، كانت حواء كيليكيا عارية بِجانبه. كان يتأمَّل لحمها الزهريّ الطريّ المثير الذي أطْبَقَ عليه زغب ناعم. كان يشبه لحم السرطان، وشعر رأسها أشقر كَ شقْرَةِ التبن خفيفا ومسبلا. أمّا شعر العانة، فَ قد كان أحمر مجعدا نَبَتَ فوق مثلث صغير، تبدو أضلاعه متساوية. تراءى له المشهد المثير أثناء العملية الجنسية بينهما. كانتْ مُمَدَّدَة، راقدة، وهو بين ساقيها الطويلين الرشيقين

يلمسهما بِ رقَّة، و يهمس لها أجمل العبارات الجنسية المثيرة. أعاد تلك اللحظة التي فيها استوَتْ الكيليكيَّة على صدره عارية، واللحظة التي، فيها، داعَبَ نهديها، إلى أنْ أطْبَقَتْ بِ شَفَتيها على عينيه.
ماذا سَ يَحِلُّ بِ القافلة، ماذا سَ يَحِلُّ بِ تجارتي، مَنْ سَ يأخذُ بضاعتي؟. مَنْ و ماذا وأين...إلخ من هذه الأسئلة والتساؤلات التي كانت تشغلُ تفكيره. حين عاد بِجسده وروحه إلى الأرض التي يقف عليها، والجَمال الذي يراه، والخيرات التي تَعمُّ أرض الآلهة، أدْرَكَ، أو بِالأحرى، راحَ يُقْنِع نفسه بِأنَّ الذي حَصَلَ له، إنْ هو إلّاَ إرادة إلهية، حكمة غيبية خَطَّطَتْ و تُخَطِّطُ له لِ ما سَ تَؤلُ إليه حياته في قادم الأيام.

كان في العشرين من عمره حين قاد قافلة قريش إلى بلاد الشام. و في العُمْرِ نفسه استقَرَّ في جزيرة كيفالونيا، الجزيرة التي نزل عليها. كان بِ إمكان المرء الوصول منها بِ القارب إلى إيثاكا، موطن الجَدّ التاسع عشر لِ الخال ياني. و لأنه كان يعرف اللاتينية و الآرامية، بِ حكمِ مهنته كَ تاجر، فَ قد تَدَبَّرَ أمرَه بين الأهالي لِ ستة أشْهر، و قد تَدَرَّجَ اسمه في الجزيرة من أبو دوشر الكُلَيْبي إلى أبودوكالبيوس. و لأنَّ هذا الاسم كان طويلا و ثقيلا على النطق، فَ قد تحوَّلَ إلى دوكالبيوس. في بداية الشهر السابع، التقى بِ فتاة شقراء برونزية ذات عيون زرقاء. انتفضَ قلبه لِ مرْآها. أمّا الفتاة، فَ قَدْ تَصَرَّفَتْ لِ الاستحواذ على روحه و عقله. انقاد خلف رائحتها. لم يَذقْ طعمَ النوم و الراحة. صار يتبعها من مكان لِ مكان، من زقاق لِ زقاق. في بعض الأحيان كان يتهيَّأ له بِ أنَّ رائحتها ليستْ غريبة، أو جديدة عليه. ومنذ أنْ ظَهَرَت في كيفالونيا، ازدادت حركة الحصان في الاسطبل. كان صهيله يتردَّدُ في فواصل قصيرة، على غير عادته، وكان اضطرابه واضحا منذ أنْ تَذَوَّقَت رائحتها في مناخيره. انتابه القلق من ضوَجأن الحصان، و خاف عليه من مرضٍ أو وباء. قبل كلّ شيء، تفَقَّدَ الاسطبل. مَعْلَفه، منهله،

نوعية العلف المُقَدّم له و مصدر المياه الذي يشربه. بَحَثَ عن حيوانات أو زواحف، كَالعقارب والأفاعي السامة، وأيضا عن إمكانية وجود عناكبَ او وطاويط في شقوق السقف و الجدران. أجْرى مَسْحا شاملا حول محيط الاسطبل، و لمَّا لم يَعْثر على ما يثير الشكوك، قَرَّرَ مراقبة الوضع بِ جدّية. كَمَنَ في مكان قريب من الاسطبل متخَفّيا عن ناظريّ الحصان. وبَعْدَ مضي وقتٍ من المراقبة، سَمِعَ صهيل الحصان و حَمْحَمته، و أصوات حوافره التي تَدُقُّ الأرض. تكَرَّرَ ذلك، كما كان يحصل في المرَّات السابقة. انطلقَ دوكالبيوس، مباشرة، يَتَفَقَّد جوار الاسطبل، و الأزقَّة المحيطة، و إذْ به يلمحُ شال الحواء و شعرها الأشقر المُسْبَل على كتفيها، وهي تنعطف يسارا. كَرَّرَ المراقبة لِأكثر من ثلاثة أيام، وكانت النتيجة هي ذاتها. تزامُن ضَوَجان واضطراب الحصان مع ظهور الحواء في الجِوار. صارَ يخرج على صهوة حصانه إلى الحقول و البيادر القريبة من مركز المدينة، كَ تمرين لِ إعادة اللياقة إلى كليهما، هو و الحصان، أو كَ نوع من العلاج لِ إخراجه من حالته المضطربة. تعرَّض ثلاث مَرَّات، خلال اسبوع واحد، لِ هَيَجان و تَمَرّد، لكن، و لِ الأسَف لم يتمكَّن من ملاحظة إشارات غريبة في الجوار. في االأيام التالية، و في أحد تمارينهما، امتنع الحصان عن متابعة الجري. وقفَ و حمحمَ. رفعَ قائمتيه الأماميتين إلى الأعلى، حتى كاد دوكالبيوس أنْ يَسقطَ من على ظهره، لكنه تماسكَ، نتيجة خبرته، و شَدَّ اللجام آخِذَاً طريق الكروم. و ما هي إلّا مسافة فرسخٍ، و إذْ بهما أمام حورية السماء، ابنة كيليكيا، الفتاة التي دَوَّخته. و ما كان من الحصان إلّا أنْ هدأَ و اقترب منها بِ رِفْقٍ، و رأسه لِ الأسفل، و كأنه يطلب منها أن تلمس خطمه و تدلك على جبهته و تلاعب عرفه الطويل، ثمَّ أخذَ كلٌ طريقه. كانت الفتاة تَقَصَّدَتْ إثارة عواطفه، رغباته و غرائزه، إلى أنْ أوْصَلَتْه لِ درجة الاستسلام التام، والخضوع لِ رغبتها. إنها مَناتاسيا! الفتاة التي اضطجَعَتْ معه في بلاد الشآم، والتي سَحَبَتْه إلى المكان الذي حَدَّدَتْه الآلهة المتصارعة فيما

بينها. لقد اكتمل مخطَّط كبير الألهة الذي كان قد قال لهم فيما سبق:" من هنا سَ يأتي نَسْلُ جنود السماء. و من هذه السلالة سَ يظهر قائد فيالق السماء، و هو الذي سَ يُدَشِّنُ حرب الرجوم". فَ مَنَاتاسيا هي الأداة الإلهية لِ إتمام الإرادة السماوية، هي رسولة الله لِ ترتيب و تنفيذ مشيئة الألهة.

احتفلَ أهالي كيفالونيا بِ زواج دوكالبيوس مع رسولة الله مَناتاسيا. لم يكن في الحفل أحدٌ من قبيلته، أو من أرض الرمال، أو حتى من الطرف الآخر من بحر الإغريق شرقاً. في المساء، بينما كانت عروسه تُجَهِّزُ نفسها لِ السرير الورديّ، جاءه رسول كبير الآلهة على هيئة شيخ وقور ذي شَعْرٍ أبيضَ مرسل على كتفيه، و لحيةٍ بيضاءَ مُهَذَّبةٍ تُغَطّي جيده، و عيون زرقاء صافية تنعكس منها الرقّة و السماحة. لم يأخذ حَيّزا من المكان. كان كَ الطيف، لا جَسَدَ له. يخترقُ الأمكنة كلّها، حتّى الجدران المُصْمَتة. ارتبكَ دوكالبيوس، و تَمَلَّكه خوف شديد. تَوَجَّه إلى ركنٍ بعيد من الطيف، و راح جسده يرتعشُ أمام هذه الصورة المفاجئة والغريبة، و صار يتأتئ و يشير بِ يده اليمنى إلى الحمّام، حيث عروسه تستحم، و يبرطم كلاما غير مفهوم. هَدَّأَ الطيف من رَوْعِه و بَلَّغه رسالة السماء، حيث قالَ له بِ لاتينية واضحة: يا دوكالبيوس إنَّ كبير الآلهة يُبَشِّركَ بِ نبأٍ عظيم. سَ يأتي الباراكليتوس مِنْ نَسلكَ، و سينطلق مِن موطنك الأصلي. و يأمركَ الربُّ بِ ألاّ تُخْبِرَ زوجتكَ مناتاسيا. تَفاجأ دوكالبيوس مِمّا سمعه. كان مشَوَّشا حين بَشَّره الشيخ الوقور بِ رسالة كبير الآلهة. أراد أنْ يستوضحَ منه اسم الذي سَ يأتي من نسله، هل سَمِعَه يقول باراكليتوس، أمْ بيركليتوس؟ و لَمّا هَمَّ بِ طَرْحِ السؤال كان الرسول قد انطفأ في المكان.

انتهت مناتاسيا من تجهيز نفسها، وكانت تبدو كَ حورية من حوريات السماء، لا بل، كَ آلهة الجمال ذاتها. كان ضَوعها يُسْكِرُ الألباب، وأنفاسها كانت كَ أنفاس عشتار و أفروديت. اقتربت من دوكالبيوس، كما الفراشة، دون صوت أو حتّى

رفيف أجنحة. زاغ بصره حين رأها، و تكاثف الضباب أمام ناظريه. إنه كان أمام كتلة من النور تنطلق منها إشعاعات قوس قزح، و تنبعث رائحة المسك و العنبر و الياسمين من أنفاسها. انغمس في النور معانقا إيّاها. مَرَّرَ يده على جيدها المرمري مُزيحا شعرها إلى الخلف. راح يلمس نحرها بِ شفتيه و لسانه و يسحب أنفاسا عميقة لِ يُشْبِعَ روحه من عبقها. كانت مناتاسيا مستسلمة لِ مداعباته الرقيقة، و كانت تَصْدرُ منها تأوّهات ناعمة مثيرة. في الأثناء وشْوَشَت في أذنه بِ صوتٍ مبحوح متسائلة عن الشخص الذي كان يُحَدِّثه أثناء استحمامها. أمّا دوكالبيوس، و تنفيذا لِ أمْرِ السماء، راح يختلقُ حكاية بسيطة و قال لها بِ أنَّه كان يُفَكِّرُ، بِ صوت عالٍ، في معاني كلماتٍ مَرَّت في خاطره، و لِ إقناعها بِ حكايته، قال لها بِ أنَّه تَذَكَّرَ كلماتٍ قرأها منذ فترة و هو غير متأكّد مِنْ معانيها. مثل كلمة باراكليتوس(PARAKLITOS) وكلمة مشابهة لها و هي البيركليتوس (PERIKLETOS)، وكونكِ يا حبيبتي نبتة من أعماق تربة اليونان، فَأعتقد بِ أنَّكِ على علمٍ بِ معانيها. ابتسمَتْ في سرّها و مَشَتْ به إلى السرير الوردي. استلقى هو على ظهره وانبطَحَتْ هي على صدره، و لكي تُعَزِّزَ من صدقِ روايته، وتُثْبتَ له، في الوقت نفسه، جَهْلها بِ ما حصلَ معه، بِ الرغم من أنَّها على علمٍ بِ الرسالة التي جاء بها الشيخ من عند كبير الالهة، كيف لا و هي رسولة الله؟. شَرَعَتْ في شَرْحِ معاني الكلمتين بِبساطة وبأسلوبٍ تعليميّ مَدْرَسي.

اسمع يا حبيبي! كلمة باراكليتوس أو باراكليت هي مشتقة من الفعل باراكليو (PARAKALYO).هناك مدارس مختلفة في إعطاء معنىً لِهذه الكلمة، و أيضا هناك تَنَوّع في المعنى لدى لغويين يونانيين. فَ قسم منهم يقول: إنَّها تفيد معنى الدفاع في المحاكمات القضائية، وقسم آخر يرى بِ أنَّها تفيد معنى الوساطة بين طرفين في قاعات القضاء و المحاكمات القانونية، و أنَّ اسم الفاعل المشتق منه هو براكليسس(PRAKLYSIS) أي الوسيط أو الشفيع أو المحامي أو المُدافع

عن موكّله أو المعزّي أو الواعظ أو المُعين أو المغيث...إلخ.
وإذا قرأنا كلمة بار قليط مِن المنظور الآرامي السرياني، وتحويلها إلى اليونانية، فَيمكن أنْ يحملَ معنَيين أو احتمالين لِ الكلمة: احتمال أنْ تُقْرَأَ الكلمة كَ الآتي (PARAKLYTOS) و نطْقها باراكليتوس. و هذه تعني الشفيع، المحامي، المُعَزّي. و هناك احتمال أنْ تُقْرَأَ الكلمة (PERIKLETOS) و نطْقها بيركليتوس. و هذه تعني ما له تعظيم و حَمْدٌ كثير. شخص ذو جلال يُحْمَدُ على الدوام كَ: أحمد، محمد، محمود...إلخ.
كانت قد ضَغَطَتْ نهديها على صدره و التقطتْ ذَكَرَهُ بين فخذيها. تَقَصَّدَتْ فعْلَ ذلك لِ إشعال نار الشهوة في خلاياه الجنسية. هَمَسَتْ في أذنيه: هيّا ازرعْ بذورك كي تُمَهِّدَ لِ الذي سَيأتي مُعَزَّزَا بِ قدرة العليّ. بَعْدَ ثلاث سنوات من زواجه منها، هَيَّأ له إله الخصب بِ الاتفاق مع إله الحرب، زواجا ثانيا. كان الوسيط لِ هذا الزواج، مناتاسيا نفسها. إذْ كانت قد جَهَّزَت شابة شقراء من جميلات كيفالونيا، و لَقَّنَتْها ما يجب فعله لِ الإيقاع بِ دوكالبيوس في براثنها. في بدايات علاقته معها، كان حريصا لِأقصى الحدود على ألّا يُفْتَضَحَ أمْره أمام زوجته. كان يَتجَنَّبَ الحديث في أمور النساء، وكان يُخفي عواطفه و مشاعره الملتهبة. و من طَرَفِها هي كانت تَتَقَصَّد الإنشغال بِ الأمور البيتية، و تَتَهَرَّب من ممارسة الجنس معه بِ حجَجٍ واهية. و لَمَّا ضاق به السُبُل، و لم يعد يطيق الاستمرار بِ العَيْش في الحالة الراهنة، ضمن هذه المعطيات التي فرَضَتْها زوجته في العلاقة الزوجية، هذا من ناحية، أمّا من الناحية الثانية، فَ لم يعد قادرا على تَحَمُّل الحياة بعيدا عن الشابة التي عَشِقَها. بدأ يتململ. و هنا راحت مناتاسيا تَمُدُّ له حَبْلَ النجاة، لِ إنقاذه من الموقف المحرج الذي رأى نفسه غارقا فيه. فَ كاشَفَته و مَهَّدَت الطريق له، و شَجَّعته على الزواج إنْ قَرَّرَ هو، و في أيّ يومٍ و أيّ ساعة يشاء. و هكذا بدأ مسلسل الزيجات التي أقْدَمَ عليها دوكالبيوس.

-13-

كان عمره واحد وخمسون عاما حين تزوَّجَ إمرأته الحادية عشر، و كانت مناتاسيا قد أَنْجَبَتْ له تسعة أولادٍ، و الزوجة الثانية، كانت قد أنجبت له عشرة أولاد، أمّا مجموع أولاده، هو شخصياً(ذكور و إناث)، فَ قَدْ بَلَغَ عددهم اثنين و ثمانون، و حين بَلَغَ الخامسة و السبعين من عمره، كان عدد ذريته قد وصَلَ إلى /2666/ إنسان. حين استقرَّ في الجزيرة، كان عدد السكان فيها/1334/، و بعد خمسة و خمسين عاما أصبح عدد سكان الجزيرة/5132/. نتيجة مُبْهِرَة بِ كلِّ المقاييس، حتى الآلهة احتفلوا هناك في الأعالي بِهذه النتيجة الخارقة. أنْ تتكاثَرَ من صفر بِ المئة، إلى خمسين بِ المئة، تقريبا خلال خمس و خمسين سنة لا أكثر، فَ هذا هو المطلوب من المُجَمَّع الإلهي لِ جاح الخطة الكونية. بقي علينا أنْ نذكرَ، بِ أنَّ أحد أبناءه من الجيل الثاني، مِن نَسْلِ مناتاسيا، يعني، في هذه الحالة، يكون حفيده، قد اجتاز البحر نحو الجنوب، لا بل، نحو الجنوب الشرقي من البحر، حيث دخل إلى أرض أبرام و قومه. حينها، شعوب البحر كانوا قد غزوا أرض اسحق و يعقوب، و كانت البلاد قد سُمِّيَت بِ اسمهم(الباليستيين). كان ابن دوكالبيوس، أي حفيده، في التاسع عشر من عمره حين قَدِمَ إلى باليستين، و كان يتكلَّم اللاتينية و الآرامية، بِ الإضافة إلى العربية الشرقية، و كان اسمه رخماندیس. كان قد تَعَلَّم الفروسية والتجارة من أبيه و جَدِّه. تَعَرَّفَ على تجَّار من تبريز وكابلستان وهندستان ويَثْرِب والشام. اشتغل في التجارة، وتزوَّجَ من فتاة من نَسْلِ يسرائيل، اسمها آريئيلّا. عرف معنى الاسم، بِ العبرية(لبؤة الله)، من زملائه التجار. بعد أربع سنوات من زواجهما، انجَبَت آريئيلّا ثلاثة أولاد. في بداية الربيع من السنة الخامسة، اشتركَ رخماندیس في قافلة تجارية متوجّهة إلى بلاد الهند، مرورا من مكة و سبأ و صعودا إلى بابل و همدان، و من ثمَّ إلى هندستان.

بعدَ ثلاث سنوات من مغادرة القافلة، استقرَّ حفيد دوكالبيوس في بلاد فارس، حيث تزَوَّج من بناتهم، و كانت زوجته ابنة شاهبندر التجار، و اسمها آنْسون. سألها عن معنى اسمها بِ الفارسية، أجابته في الحال:(معناها سحر، جمال) كانت قد تهيَّأت لِمثل هذا السؤال، وكانت قد أخذت المعلومة من أبيها الشاهبندر. خَلَّفَ سبعة أولاد منها، و كان قد تزوَّج، في السنة الخامسة بعد زواجه من آنسون، بِفتاة ثانية اسمها جلنار(زهرة الرمان)، وجلنار هذه أنجبت خمسة أولاد. ازدهرت تجارته، وتوَسَّعَت دائرة علاقاته. تَعَرَّفَ على آلهة الفرس وكتابهم المقدَّس، واعتنقَ الديانة الزردشتية عن قناعة. أَحَبَّ جوهر العقيدة، وخاصة تَصَدّي إله النور لِ مكائد وحيَلَ إله الظلمة. تَوَقَّفَ عن الزواج، عند الزوجة السابعة. توزَّعَ بعضا من ذريته إلى بلاد الرافدين وهندستان و أرمنستان. استقرَّ قسم منهم في محيط معبد هُبَل و دوشَر، في الضفة الشرقية لِ البحر الأحمر. أمّا زوجته اليهودية آريئيلّا وأولادها، فَقد استقروا في أرض الأنبياء، وانقطعت أخبار زوجها رخماندیس، لا هي عَرِفَتْ أخباره، ولا هو عَرِفَ شيئا عن أخبارها، و أخبار أولاده، بِاستثناء النبأ الذي كان أحد التجَّار قد أَخْبَرَ تجَّارا آخرين، عن عائلته (رخماندیس)، مفاده، أنَّ أَحَدَ أحفاده كان قد تَبَوَّأ منصب قيادة الجيش الباليستيني، وأنَّ أهالي باليستين يتحدَّثون عن زوجته، آريئيلاّ، بِ أنَّها تَتَحَدَّر من نَسْلِ أيهاب، الملك السابع لِ إسرائيل، حيث ملَكَ عليها في القرن التاسع عشر قبل ميلاد المسيح. وكانوا يتحدَّثون عن قبيلة زوجها، و بِ خاصة، عن جَدِّه دوكالبيوس وحصانه الأصيل(زَوْبَعْ). كان اسمه في موطنه الأصلي البرق، أو البُراق، ثم اصبح الزوبعة، ثم زوبعة، وأخيرا زَوْبَعْ. وأنَّ شعب كيفاليوس قَدْ نَحَتوا له تمثالا من البازلت، وثَبَّتوه على قاعدة صخرية، وجعلوا وجههه بِ اتجاه شرق المتوسط، و بِ الضبط، جنوب شرق المتوسط. وكان قد كُتِبَ على لوحة التعريف التي على قاعدته الصخرية"حصان الرمال والسراب زوبّا".

توفّيَ دوكالبيوس عن عمْرٍ ناهز المائة و واحد و عشرين عاما. و كان عدد سكان جزيرة كيفالونيا، يوم وفاته، قد بَلَغَ- 10777- نسمة، و كانت ذرّيّته تُشَكِّل نسبة 89% من مجموع سكان الجزيرة. بَعْدَ عامٍ من وفاته، قام أحفاده بِ النَّقْرِ على صخرة بِجِوار"زوبًّا". صنعوا تمثالاً لِ صورته بِ قامته الحقيقية، و على رأسه العقال الصحراوي، و على جسمه الجلباب المشدود بِ حزامِ عريض أسْوَد اللون، وهو ينظر إلى وجه"زوبًّا". بعد أقَلّ من مائة و ثلاثين عاما، كانت الجزيرة أشْبَه ما تكون إلى مدينة من مدن الجنوب الشرقي لِ الجزيرة العربية، طبعا ليس جغرافيا، وإنما من حيث طبيعة الحياة فيها. فَ العادات والتقاليد و أسلوب العَيْش لا تشبه تلك السائدة في بلاد الإغريق. نشأ هنا فَنٌّ و ثقافة هجينة، يغلب عليها الطابع الجديد الذي دخَلَ، مع دوكالبيوس، هذه الجزيرة؛ حتّى التعامل مع الأنثى، يختلف هنا بِالمقارنة مع باقي المدن والجزر المنتشرة في البلاد. حافَظَت الأقلية الإغريقية في كيفالونيا، على ثقافتها و تراثها و عاداتها و عقائدها الماورائية.
كانت الجزيرة موطن أجداد تليماخ، حيث ولَدَ و تَرَعْرَعَ أبوه أوذيس هنا على أرض هذه الجزيرة. راحت قصّة دوكالبيوس و حصانه الذي حمله إلى هذه الجزيرة، عدد زوجاته والذريّة التي خَلَّفَها هنا خلال مائة عام تقريبا، تُشْغِلُ بال الكبار والحكماء من أهل كيفالونيا. رأوا فيها ظاهرة مخيفة، و اعتبرها بعضا من هؤلاء خطة جهنَّمية، أو خطة إلهية. أنْ تأتي مع حصانك مُتَخَفِّياً، و من ثمَّ تستولي على المكان الذي احتضنكَ!. إنها فكرة فوق أرضية، لا يخطر لِ إنسان على بال. أنْ تحتلَّ مملكة، و حكَّامها و شعبها في غَفْلَةٍ، و هم في أحلامهم الهادئة الوردية بين أحضان فاتناتهم! إنها خطة شيطانية مرعبة!
لِ الأسف، قال الخال ياني: إننا لم نتعلَّم من هذا الدرس التاريخي، و أننا دفعنا الثمن غالياً بِسَبَبِ استهتارنا، و عَدَم الاتّعاظ من نتائج التجارب و الكوارث التي ألَمَّتْ بنا. يا سارو! أنا أخشى أنْ يشتعل حريقاً كونيَّاً بِسَبَبِ انتشار هذه الأحصنة

في العالم الآخر، و خاصة إذا كانت هناك توجيهات من الآلهة بِ خصوص ذلك. قالها بِنَبْرَته المُحَبَّبَة ولَكْنَتِه الرقيقة، وهناك دلائل و مؤشرات في هذه المخطوطات تشير إلى الحريق الكونيّ القادم. كنتُ ألتقي مع صديقي قرياقس، هو أيضا لديه أوراق و مخطوطات و كتب قديمة. يمكنك الاضطلاع عليها إنْ شئت ذلك.

كم حَزِنتُ على مغادرته لِ هذه الحياة، ليس لأنه مات، لأ، بل لأنني لم أحضر تَشييعه إلى مثواه الأخير في هذه الدنيا الفانية. لم أحْضَر صلاة الجنازة على روحه، و لم أمشِ خَلْفَ جثمانه إلى المقبرة. كنتُ أتمنى أنْ أكون بِ جانبكَ أيها الخال العزيز، وكنتُ أتمنى أن ترافقكَ الفرقة النحاسية الأرمنية و السريانية، و أنْ نمشي بِ خشوع مع روحك الناعمة تحت الموسيقا الجنائزية لِ شوبان. لقد فعلتُ ذلك على طريقتي الخاصة يا صديقي الكبير. أحْرَقْتُ البخور، و أدَرْتُ الاسطوانة التي تحمل لحن الجنازة، في البيت وحيدا. بكيتُ، و بكيتُ، و بكيتُ. بكيتُ على رحيلكَ. بكيتُ على حزنكَ المدفون في قلبكَ. بكيتُ على أهل الحارة، على العازفين وعلى شوبان. بكيتُ على نفسي، و لا أدري لماذا يا أيها الخال الحاضر الغائب. كنتُ أتمنى أن ألتقيكَ قبل الرحيل. ربما كنتَ سَ تنصحني بِ حكمةٍ ما، أو كنتَ سَ تتلو وصيَّتكَ الأخيرة، وربما كنتَ سَ تعطيني آلة الهرمونيكا، أو كنتَ سَ تحكي لي عَمَّا لم تَقُلْه عن حياتك الخاصة، وعن الذين تَرَكْتَهم هناك، هذا إذا كان ثمة زوجة وأولاد. أنا أتوقع أيها العزيز بِ أنَّكَ كنتَ زوجاً و أباً. لم أنسَ ذلك المساء في بيت الكبران، حين طَلَبْتَ مني الجلوس قريباً منكَ على الكرسي المصنوع من القَصَب المجدول دون ظهر. لم أفهم ما كنتَ تقول لِ زوجة الكبران. لكنني أذكر تماما بِ أنّكَ أخْرَجْتَ الهرمونيكا من جيب سترتكَ، ورحتَ تعزفُ ألحانا عاطفية حزينة، ورأيتُ دموعك المقدَّسة على وجنتيك. و أذكرُ أيضا، بِ أنَّني، في ذاكَ المساء، لم أشارك الفتية ألعابهم، لأنني كنتُ حزينا، و كانت روحي تنشج و الدموع كانت تنهمرُ من عيوني، حتى أنّي لم أذهب إلى البيت بعد خروجي من

عندكم. كنتُ أبكي بِ حرْقة. و حين عَلِمْتُ بِ رحيلك بَعْد سنة من دفنكَ، أيضا انتابتني موجة من الحزن الشديد. بكيْتُ بِ حرقة و مرارة هذه المرَّة، و أضْحى بيت الكبران مزاراً بِ النسبة لي. كنتُ أدخلُ و أنظر إلى المكان الذي كنتُ قد جلَستُ بِ قُرْبِكَ، و أُطْلِقُ خيالي كي يلملمَ صدى الكلمات التي نطَقْتَها و الألحان التي عزَفْتها. و حين كنتُ أذهب إلى السوق، كنتُ أمشي في شارعين، ليَ في كلٍّ منهما مزاراً مقدَّساً. أنطلقُ بِ اتجاه السوق في الشارع الذي على يمين بيتنا. أمشي مسافة خمسة و أربعين مترا، أكون في هذه المسافة قد مَرَرْتُ من عند بيتكَ(بيت الكبران). طبعاً قبل البلوغ إلى الباب الخارجي، أكون قد انسلختُ من الواقع، و تكون الأحداث و الصور، التي كنتَ أنتَ محورها، قد بدأت بِ التوارد في ذاكرتي. و في الأثناء تنتابني رعشات البكاء، و أبدأ بِ التحدُّث معكَ، أو بِ الأحرى مع روحكَ التي ترفرف فوق المكان، و أراها كلَّما مَرَرْتُ من هناك. في كثير من المرّات كنتُ أنظر إلى السماء معتقدا بِ أنني سوف أرى خيالك فوق رأسي. وكدتُ أتعثّر بِ الأحجار و الحُفَر، أكثر من مرّة، و قد لاحظَ ذلك، الأهالي. و كانوا يتهامسون فيما بينهم، بِ تعليقات ساخرة عليَّ، و ربّما كانوا يعتقدون بِ أنّني قد أُصِبتُ بِلوثة جنونية، أو بِفعلٍ سحريٍّ من أحَدِ العرّافين أو صانعي الرُقى. كانوا يستغربون لِ ما يبدرُ منّي أثناء اجتيازي لِ تلك المسافة الفلكية. بعدَ هذه المسافة أنعطفُ نحو اليسار، و أدخل في الشارع الذي على يسار بيتنا، بِ اتجاه السوق. أمشي مسافة خمسة و عشرين، أو ثلاثين مترا، تقريبا، أكون قد دخلتُ حدود المزار المقدَّس الثاني. على بُعْدِ عشرة أمتار، تقريبا، قبل المزار، تجتاحني حرارة، و تبدأ الصور الملوَّنة بِ الانطلاق من النافذة التي أمشي نحوها. أسمع شدْو البلابل، زقزقة العصافير و صدى صوتها الناعم. إنها بيت ندى. المحراب الذي لا بدَّ لي من الوقوف أمامه و تلاوة اعترافاتي وطلب المغفرة من إله الحُبّ. و لا بُدَّ لي من لَمْسِ خَشَبَاتِ الشبَّاك، كَمَنْ يلمس قطعة من معبدٍ مقدّس مع

آيات المغفرة حيث أقول:"حبيبتي ندى! لقد أخطأتُ، لا بل، أجْرَمْتُ بِ حَقِّكِ، و أنا منذ ذلك التاريخ أتعرَّضُ لِعقاب إله الحُبِّ. إنّي أتعذَّبُ يا ندى، أتعذَّبُ من حرماني من حُبّكِ، و أتعذّبُ من أجلِ دموعكِ المقدَّسة التي كنتُ أنا سَبَبُها. سامحيني يا حُبّي الأوحد، و تأكَّدي من أنَّكِ لم تفارقي روحي و خيالي و لا لحظة. كُتِبَ عليَّ شقاء الحُبِّ و عقوبة العبثِ بِ مشاعر الحبيب يا حبيبتي ندى".

كان الخال ياني كما الفراشة، يدخل و يخرج من الحارة دون أن نشعر به. كان خروجه و دخوله إلى الحارة قد ارتبطَ بِ الشمس و القمر و النجوم، و أطوال أخيلتنا على الحيطان و أرصفة الشوارع. كان من مفردات حياة الحارة. و كان هناك شخص آخر مثله، يدخل و يخرج دون أن نشعر به، لولا تحَرّشاتنا به. و لأن ظهوره كان مرتبطا، كما الخال ياني، بِ الشمس و النجوم ...، لذلك كنا نترقَّب مروره بِ الاعتماد على الطبيعة. إنه آنطو القوَّاق، كان هو الآخر من مفردات الحارة. كان أَوَّل معلّم يصنع الجِرار والأباريق الفخَّارية من الصلصال. يقول بِ أنَّه تَعَلَّمَ المهنة مِن أبيه الذي أَخَذَها، هو الآخر، من أبيه، وهو أيضا أخذها من أبيه، وهكذا، فَ المهنة كانت منذ تسعمائة سنة محصورة في عائلتهم. كان أجداده الأوائل، بِ حَسَبِ كلامه، يسكنون في قرية طَرْطَبْ. تلك القرية التي تَقع في ضاحية المدينة. هذه القرية حديثة العهد، أمَّا منازل أجداده، كما يقول، فَ هي مطمورة تحتَ التلَّة الكبيرة بِ جانب القرية. فَ التَلَّة تَشَكَّلَت قَبْلَ مئات من السنين، و ربَّما قبل ثمانمائة سنة. فَ تحت التلَّة تنام الضيعة، و ربَّما مدينة كاملة مزدهرة. كان أهالي قرية(أو مدينة) طَرْطَب يتقنون مِهَناً مختلفة، و كانت لديهم مهارات و معرفة بِ الفلك و علوم متنوّعة. كان مِنْ بينهم مَنْ يعرف يوم و ساعة الانقلاب الشتوي، وكان يُسَمّي اليوم التاسع والعشرين مِن شباط في السنة الكبيسة التي سَ تأتي بعد ثلاث سنوات. ومِن بين الشباب المَهَرَة، كان هناك مَن حاول اختراع ما يشبه مروحة، و ذلك عن طريق البخار الناتج من غليان الماء،

و إمرار البخار في أنبوبين متعاكسين مما يؤدي، بِ فعْلِ قوّة ضغط البخار، إلى حركة الذراعين في نهاية الأنبوبين بِ اتجاهين متعاكسين. و من جهة أُخرى، كان هناك بعض الشباب يجيدون صنْع الأفخاخ لِ اصطياد الحيوانات و الطيور على السواء. وكان قسم آخر يدير جلسات سَمَر ومَرَح، ورواية حكايات خيالية. وهناك شابٌّ، يعرفه كل أهالي الضيعة ويحبونه، كان يلعبُ بِ الخشبات و الحِبال و الأقمشة. كان الأهالي غالبا ما يشاهدونه يصعد إلى قمّة التلّة و ينزل بِ شكلٍ لولبيّ إلى الأسفل، و في أغلب الأحيان كان يرفع الخشبات التي كان يُلْبِسُها أقْمِشَة ملَوَّنة، ويركض من فوق التلّة نزولا إلى الأسفل. وكثيرا ما رأوه و هو يفقد السيطرة على تسارعه في النزول من القمّة. كانت الأقمشة ترفرفُ في الهواء، و لاحظوا بِ أنه كان يَرْبطَ الخشبات بِ شكلٍ متصالب. كان من شأن هذا التصميم أن ينشر الأقمشة إلى مساحات أكبر، و إذا ما أُضيفَتْ رَفْرَفَة جلبابه لِ المشهد، كان يبدو و كأنَّ جسما طائرا يلقي بِ ظلاله على كَتِفِ التلّة.

كان هامبارسوم(اسم الشاب) يُطْلِقُ أصواتا هادرة حين كان يركض نازلا من القمة. وكان الأهالي، حين يكونون قريبين من التلّة، يسمعونه وهو يصرخ و يقول :"ابتعدوا... ابتعدوا... سَ أطير فوقكم! أنا الباشيق (الباشق) الذي يطير في السماء! سَ أطير.. سَ أطير.. ياااا... هاهاهاها..."

في مَرَّاتٍ كثيرة رأوه و هو يتعثَّر بِ طَرَف جلَّابيته و يتدحرج من سفح التلّة، و يُصابُ بِ جروح و رضوض في جسمه. و حين يُصاب بِ كَسْرٍ في أحَدِ أطرافه، كانوا يأخذونه إلى القرية المجاورة التي تَبْعُدُ مسافة رُبْع النهار سيرا على الأقدام، حيث كان– الخال بَرْصومو(BARSOMO)– الحكيم الشعبي، و المُجَبِّر الماهر لِ الكسور ومختلف الإصابات العظمية. كان هو الطبيب والحكيم الشعبي الشاطر في كلّ المنطقة. كان هامبارسون، هكذا كانوا يلفظون اسمه–النون في الآخر و ليس الميم–، يُغطّي رأسه بِ قماشٍ طحينيّ اللون تجنّبا لِ حرارة الشمس القوية

في النهار. يَلفُّه كَ الكوفية على رأسه. كان يَنْكُشُ الأرض بِ طَرَفِ عصاه. يرسم خطوطا مستقيمة متقاطعة، و أُخْرى منحنية دائرية. في ظهيرة أحد أيام الصيف، نُقِلَ عن أهالي الضيعة، بِ أنَّه كان يبول واقفاً في أماكن متقاربة و متلاصقة. و أحيانا كان يُطَيِّرُ بوله عاليا في الهواء، ثم يقيس المسافة التي وصَلَت، أولى قطراته، إليها. حينذاك كان يهتف عاليا ضاربا الكَفَّ بِ الكَفِّ. و في يومٍ آخر، شُهِدَ يَبْصقُ في الهواء، في أكثر من اتجاه وهو جالس، ثمَّ يبصقُ وهو واقف في نفس الاتجاهات. و كان يقيسُ المسافة التي وصَلَت إليها بصاقه في الحالتين، وقوفا و جلوسا. في كلِّ الحالات التي كان فيها يبول أو يبصق، أو يرمي أحجاراً صغيرة، أيضا وقوفاً و جلوسا، كان يَتَقَصَّد أنْ يُصيبَ الحَيِّزَ الداخلي مِنْ الأشكال التي كان يحصل عليها مِن شخبطاته التي كان يُحدثها بِطَرَفِ عصاه في التراب. كان يحصل على أشكال مِن خطوط مستقيمة مُغْلَقة، و أُخْرى مِن خطوط دائرية مغلقة و نصف مغلقة. كانت تلك مِن ألعابه الممتعة. كان خَدوما، مسالما و محبوبا في القرية. و حين كان القرويون يتسامرون في جلساتهم تحت ظلال الأشجار، و يتناولون مواضيع متنوِّعة في أحاديثهم، كانوا، و لِ مُجَرَّدِ التسلية، يُشْرِكونَ هامبارسون في الحديث. و يروح امبارسون(كان حرف الهاء يضيع أثناء نَطْق الاسم) في كلامٍ غير مترابط، يَخْتَرِقُ الموضوعَ و يبتعد عنه، و كان يتحدَّث على سَجِيَّته، و كأنه يلقي خِطابا، و بِ الكاد يُفْهَمُ جملة أو جملتين مما يقول. كانوا يمتدحونه، من باب الفكاهة و المحبَّة، و يقولون عنه: فيلسوف و شاعر، و مع الأيام، و بِ سَبَبِ تجاربه البولية و البصاقية و الحجرية، و غيرها من التجارب التي كان يُجْريها، أضافوا إليه لقَبَ عالم في الرياضيات و لأنه كان يتحدَّى الجاذبية الأرضية، بِ توجيه بوله و بصاقه إلى الأعلى، اكتسبَ لقَب عالم فيزياء. و لأنه كان يراقب الخفافيش في الليالي الصيفية، و يضربها بِ الحِجارة، فَ كان جديرا بِ لَقَب عالم فَلَك. و هكذا، فَ حين يتمُّ الحديث عن أبارسون

(يتغيَّر اسمه مع الكبار في السن، و يُلْفَظُ بِ أسهلِ ما يمكن بِ النسبة لهم)، يستبدلون اسمه بِ اللقب العام الذي خَلَعوه عليه. و هو"العالِم". طبعا في جلسات أُخرى، و في مناسبات مختلفة، كانوا يَدْعونه بِ الفيلسوف أو الشاعر، و ذلك بِ حَسَبِ الموضوع المطروح في الجَمْعَة. و لكي يستمتعوا، في سهراتهم المستقبلية، كان دافيد(كان الأهالي يلفظون اسمه هكذا طافيت، بِ الحرف ط في بداية الاسم، وهو شاب متعلِّم)، قد رسَمَ على أوراق حمراء مائلة إلى اللون النحاسي، الأشكال التي كان أبارسون يشخبط بِقصبته على الأرض. أمّا طافيت، فَ قد رسمَ مثلثات مختلفة الأشكال، و قد رسمَ نقطتين داخل مثلث، و نقطة قريبة من أحد أضلاعه، و ثلاث نقاط خارج المثلث. و كان قد رسمَ أسْهما تَصِلُ النقاط بِ أضلاع المثلث و بِالنقاط التي داخله، وكان قد حَدَّدَ المسافات بينها جميعا. وبِنفس الطريقة كان قد فعل مع دائرة و نصف دائرة، و أشكال هندسية أُخرى من خياله، و مستقيمات تربط بينها مع أرقام عشوائية فوق وتحت الأشكال، و في داخل الدوائر و الأشكال المنحنية مع أحرف لاتينية.

كان طافيت قد استوحى من تجاربه(أمبارسون) البولية و البصاقية، رسومات عديدة. كان قد رسمَ (تجربة تبوّله واقفا) قوسا تبدأ من نقطة تقع على ارتفاع 90 سم من سطح الأرض، ينطلق القوس من تلك النقطة(جهازه التناسلي حيث يضخُّ البول منه) ويبدأ بِالانحدار إلى الأرض، والمسافة الأفقية بين نقطة تقاطع نهاية القوس مع الأرض، و بين نقطة بداية القوس هي 275 سم، تَقَعُّر القوس كان نحو الأسفل، وأعلى نقطة من حدبة القوس عن الأرض كانت 145 سم. أمّا ارتفاع نفس نقطة الحدبة عن المستوي الأفقي لِنقطة بداية انطلاق القوس، كان 55 سم. فَ الخط البياني، كما هو واضح، يمثِّل معادلة من الدرجة الثانية، لأنه منحني، و له نهاية حدّية عظمى، و له تقعّر بِ اتجاه الأسفل. و طافيت كان قد عَقَّدَ الموضوع، إذْ أنه رسم مماسا لِ المنحني من الطرف اليمين للذروة، و آخر

من الطرف اليسار للذروة، بِ الإضافة إلى مماس في نقطة الذروة موازي لِ الخط الأفقي. و كان قد رسمَ أعمدة على المماسات الثلاثة تتقاطع في نقطة داخل التقعُّر، أي تحت القبَّة. و كان قد كتبَ تحت اللوحة بِ خَطٍّ عريض.

" قانون أمبارسون الثاني– طرد الجاذبية الأرضية–".

وفي أوراق منفصلة، رَسَمَ الأخشاب المتصالبة مع أرقام مثبتة على كلَ جزء من أجزاء الصليب،المقدمة بِ طول محدَّد، الأجنحة بِ أطوال مختلفة،الذيل، أو القسم الخلفي بِ رقم آخر. وكان طافيت قد كتبَ تحت الرسمة اسم أبارسون كَ الآتي.

" العالم الكبير، ابن طرطب البار، أبَّارسون "

وفي رَسْمٍ آخر متَّصل بِ الشكل المتصالب، رَسَمَ إنساناً على شكل صليب، و هو منبطحٌ على بطنه في الهواء. يداه ممدودتان إلى أقصاها على الجانبين، مربوطتان بِ حصائر مجدولة من القصب بِ عرض /45/ سم تقريبا(الأبعاد كلّها هي من خيال طافيت ليس إلّا)، و رَبَطَ أرجله الحافية بِ وَريسٍ مدهون بِ الشمع الأصفر، موصول بِحزمة من ريش الطواويس والدِّيَكَة الرومية والدجاجات الأهلية. كان هذا الجزء ممتداً بِ طول /30/ سم خارج القدمين عل طول عموده الفقري، و بِ بروزٍ على الطرفين بِ مقدار /30/ سم و بِ عرض /25/ سم. كان في الهواء قريباً من قمة التلَّة. كتبَ تحت الرسمة.

"العالم أبَّاسون يطير في السماء".

جاء في وثائق طرطب، موجزاً عن حدثٍ لم يحصل منذ ولادة البلدة و اتساعها و تزايد عدد سكانها و ازدهار ثروتها الزراعية و الحيوانية. في أحد أيام الربيع، و بِالضبط في بدايات شهر أيار، حيث الحقول والمَزارع في أوج اخضرارها وعطائها. كانت المروج تشعشع من فوق رؤس أهداب العشب الأخضر المُحَمّل بِ الندى، والأزهار الملوَّنة مِن الأبيض والأصفر والبنفسجي، وكانت أبقار الأهالي وأغنامهم ترعى بِهدوء وسلام حول المستنقعات العذبة، وقسم منها على المنبسط المحاذي

للنهر، وأحيانا يقتربون من كتف النهر الذي ينساب من الطرف الجنوبي لِ المرج الكبير. في مثل هذه الأوقات من الغروب، يكون الطقس لطيفا و الهواء نقيّا مشبعا بِ رائحة الحقول و الورود، و رائحة أشجار الحور و الزيزفون المدهش. يجلس قسم من كبار السن في ظلِّ الجدار الشرقي لِ كنيسة البلدة، و قسم آخر من الرجال، متوسطي الأعمار، يتمَشّون بِ محاذاة صَفّ أشجار الحور، حيث قناة الري القادمة من أحد فروع نهر الجغجغ، و الذاهب إلى حقول و بساتين الأهالي في محيط البلدة. أمّا الشباب والصبايا كانوا يعقدون حلقات اللعب واللهو، و كانت تتخللها الكلمات و العِبارات الملغَّزة و النظرات الشبقة من عيون و قلوب المراهقين و المراهقات. و كان، قسم من، الأطفال يلعبون بِ القرب من تجمُّعات أمهاتهم، ويخترقون صفوفهنَّ دون مبالاة من الطرفين،الأولاد و الأمهات، لأنَّهم مندمجون في ما هم يفعلون. مجموعة أخرى منهم، يركضون خلف الفراشات، ومنهم مَنْ يجمع البراعم و الأزهار مزقزقين بِ أصواتهم الطفولية التي تختلط بِ أصوات الأبقار و الأغنام و العصافير و البلابل و الإوز الأهلي.

بينما البلدة غارقة في هذا المشهد البهيج، وإذْ بِ طائرٍ ينزلق من أقصى الشرق بِاتجاههم دون أنْ يُحَرِّكَ جناحيه. كان حجمه يكبر كلما اقترب منهم. وحين صارَ فوقهم، رأوه بِ وضوح، حتى أنَّ بعضهم قال، و ربّما بالغوا في الوصف أكثر من اللازم: لقد رأينا عيونه الصفراء الحادة، كانت تَبثُّ الرعبَ من حَدَقاتها الوحشية. اطلَقَ زعيقا مدويّاً، و هو يتجه نحو الشمس بِ طيرانٍ شراعيّ. كان ضخما، حتى أنَّ الأبقار و الأغنام تَمَلَّكها الرعب و بدأوا بِ إطلاق الأصوات و الركض و القفز في مختلف الاتجاهات، و اختبأت القطط و الكلاب في الأوجار و البيوت، و خَلَتِ السماء من الطيور ساعة ظهور هذا النسر العملاق في سماء البلدة. قال أحد الرجال، لِ جَمْعٍ من الأهالي، واصفا النسر: لقد رايته بِ وضوحٍ تام، حين كان يقترب من مكان تجمُّعنا، حتى أنَّ عينيَّ جاءت مباشرة في عينيه، و لِ الأمانة

ارتعبتُ من نظرته الوحشية. كان رأسه كبيرا بِ حجم رأس البقرة، و منقاره يلمع، و خاصة الجزء المعقوف، حيث انعكاس أشعة الغروب البرتقاليّ على قمة حدبته. كان المنقار كَ الخنجر المعقوف كبيرا، كان طوله يتراوح بين (35 – 40) سم، هذا التقدير هو مِن الأسفل، حيث كنتُ واقفاً، أمّا طوله الحقيقي عن قُرْب، فَ بِ التأكيد سَ يكون أكبر ممّا قَدَّرته من الأرض. أمّا جناحاه، فَ كلُّ جناحٍ كان بِ طول ثلاثة أمتار، أيضا هذا التقدير هو مِن الأرض، حيث كنتُ واقفا أنظر إليه، وصدره كان كَصدر الأسد في وضعية الهجوم. و في الأثناء كان أبارسون يركض مع النسر ناشرا ذراعيه على امتدادهما كَ جناحيّ النسر، مصدرا أصواتاً غريبة، كأنه كان يصرخ و يقول"أنا كمان(أيضا) مثله يطير، هو يرجم كتير لمّا يريد، يرجم.. يرجم.. رجوم.. رجوم". كان يتمايل بِ مرونة يمينا و يسارا.

لم يمض أكثر من شتاءين على البلدة، حين كان أمبارسون يمارس لعبته المفضَّلة، إذْ كان يمسك بِ طائرته، أو بِ نسره و يركض من فوق التلَّة نزولا ل قاعدتها حيث الأرض المستوية. رأوه أكثر من مَرَّة يركض من القمة نحو الأسفل مُقَلِّداً النسر فاتحاً جناحيه(ذراعيه) على امتدادهما. كان يصدر أصواتا مختلفة، تارة كَ طنين الدبابير، وتارة كَ زعيق النسر. كان ينزل بِشكلٍ لولبيّ إلى الأسفل؛ وحين كان ينزل بِ شكل مباشر، دون الدوران حول التلّة، من القمة إلى القاعدة، في هذه الحالات كان يفقد السيطرة عل سرعته، و يكتسب تسارعا بِ حيث يعجز خلاله من ضبط إيقاع الركض. و غالبا ما كان يدوس على طرف جلبابه، أو أنَّ جلبابه كان يعيق خطواته التي من شأنها ضَبْط توازنه أثناء النزول ركضاً. في هذه الحالات، كان يتعثَّر و يتدحرج كَحَجَرٍ، أو أيّ جسم يسقط من فوق التلّة.

الشباب البالغين، و الذين يدركون خطورة فقدان السيطرة على التوازن أثناء الركض من أيّ مكان عالٍ، و خاصة من المنحدر المرتفع من قمّة التلّة إلى قاعدتها المنبسطة. هؤلاء الشباب نصحوه و بَيَّنوا له خطورة ما يفعله، و أنَّه سَ

يؤذي نفسه، وربَّما يقضي عل حياته بِهذه الحركات. وكِبار السنّ أيضا نصحوه، أكثر من مرَّة، كي يَكفَّ عن هذه اللعبة الخطرة على حياته، حتى كبير البلدة، بِ ذات نفسه، نَبَّهه وحَذَّره على خطورة ما يفعله، وتحدَّثَ مع والده أيضا بِخصوص ذلك، لكنه لم يكفّ عن ممارسة هوايته و لَهْوِهِ. اعتذرَ والده من مجلس حكماء البلدة عن تصرفاته، وأبْدى تأسّفه على عدم قدرته التأثير في رغباته و ميوله في ممارسة ألعابه ذات الطابع الطفولي، بِالرغم من تجاوزه السَنَة الثانية و العشرين من عمره. وأوْضّحَ لهم بِأنه لم يكبر على المستوى العقلي، فَهو ما زال طفلاً في تفكيره وسلوكه، وأنَّ مداركه ومحاكماته الذهنية لم يطرأ عليها أيّ تطوّر، أو تَغَيُّر عن تلك التي كانت في مرحلة طفولته. اتفقَ الجميع على حمايته من اندفاعه المبالغ أثناء اللعب، و أثناء صعوده إلى قمَّة التلّة، و على أنْ يُقنعوه، بِ شَكْلٍ أو بِ آخر، أنْ يكتفي بِ الصعود إلى منتصف المسافة بين القاعدة و القمة. في معظم سقطاته كان يتدحرجُ بِشَكلٍ جانبيّ عل كتفيه، و قَلَّما كان يسقط، بِ شَكلٍ مباشر، على وَجْهه و صدره. و إذا ما حدثَ مثل هذه الوَقْعات، فَ غالبا، يكون في الشوط الأخير من سقوطه، أيْ قريبا من الأرض المستوية عند قاعدة التَلَّة.

احتفلَتِ البلدة، في الشتاء الثاني بعد ظهور النسر في سماء البلدة، بِ عيد الفصح، عيد قيامة السيد المسيح. كانت المعايدات تبدأ بعد انتهاء القدَّاس الإلهي، صباح يوم العيد، في كنيسة البلدة. كانت زيارات الأهالي و الأقرباء لِ المعايدة، تستمر إلى أسبوع تقريبا، و بعد القيامة بِ أربعين يوما، يبدأ الاحتفال بِ عيد الصعود. قبل حلول عيد الصعود بِ يومين، كان أمبارسون قد أخذَ قماشا زيتيّ اللون، و ربما يكون الجزء الرئيس من برداية الشبّاك(ستائر النوافذ)، و كان قد مَدَّها فوق رأسه، و على امتداد ذراعيه، كَ أجنحة النسر، و كان يركض فوق التلّة بِ شَكْلٍ لولبيّ على القمّة. انحدرَ نحو الأسفَل بِ دوران حول التلّة، وقطعة القماش تتطاير في الهواء فوق رأسه. لَفَتَ المشهد بعضا من الشباب، وراحوا

ينظرون إليه وإلى القماش الذي يرفرف كَ الأجنحة. كانوا يبتسمون و يقولون لِ بعضهم: انظروا إلى أمبارسون، إنه يريد أنْ يطير، إنه يقَلِّدُ ذاك النسر الذي مَرَّ في سماء البلدة قبل سنتين. إنه مسكين وبسيط، الله يحميه ويساعده في حياته. بينما هم في هذه الحالة الإنسانية ل رؤيتهم لِ ما يفعله فوق التلّة، و إذْ به يفقد السيطرة على خطواته المتسارعة نحو الأسفل، و في هذه المرّة، يسقط مباشرة عل وجهه، و يبدأ بالتدحرج رأسا على عقب. رأوه يرتفع عن الأرض ويسقط على رأسه، يتدحرج مسافة و يرتفع ثانية عن الأرض و يسقط على رقبته. في الأثناء انتابهم خوف حقيقيّ على حياته جرّاء السقطات الخطيرة. راحوا يصرخون و يركضون في اتجاهاتٍ لا على التعيين، لم يعرفوا ما كان عليهم فعله في تلك اللحظات المصيرية. كانوا ينتقلون من الساحة الرئيسة إلى ساحة الكنيسة، يصرخون، و يعودون إلى أسفل التلّة دون أن يغيّروا في الأمر شيئاً. أمّا أمبارسون، فَ قَد تدحرج بِ قسوة على رأسه و رقبته، و في الأمتار الأخيرة، كان كما كتلة من اللحم يتَقَلَّب كيفما اتَّفَقْ. رَكضَ الشباب بِاتجاهه لِ مساعدته على النهوض و الوقوف على رجليه و قدميه، و تقديم المساعدة اللازمة، إنْ كان قد تَعَرَّضَ لِ رضوضٍ أو كسورٍ في أيّ عضوٍ من جسده. كان ممدَّداً على ظهره، و رأسه مائل لِ اليمين، وكان يلفظُ أنفاسه الأخيرة، والكلمات الأخيرة التي سمعوها منه هي" طار... أنا... طار".

و بعدها سَكَتَ إلى الأبد.

-14-

لقد مات أمبارسون، أو قُتِلَ بِ سَبَبِ سقوطه على رأسه، ما أدَّى إلى كَسْر رقبته. حَزِنوا عليه كثيرا. كان مسكينا، طيّبا، مسالما، مسلّيا و بسيطا. كان فاكهة البلدة (كما كانوا يقولون عنه) ونجمها المحبوب من الجميع. ولأنه كان محبوبا، و لأنَّ أفراد أسرته أيضا، كانوا محبوبين، و محترمين، فَ لذلك ما أرادوا أنْ يُشاع عليه تعليقات ساخرة، تنتقص من قدراته العقلية، و في الوقت نفسه، تجرح مشاعر أهله. حاولوا رَسْمَ صورة مغايرة لِ الواقع. صورة جديدة له، و بِ صِفات و قدرات واهتمامات أُخرى، غير تلك التي كانت في حقيقة الأمر، فَراحوا يخلقون شخصية جديدة لِ أمبارسون.

قالوا عنه: إنه كان مهتما بِ أمور علمية، كَ الجاذبية الأرضية، و حركة الأجسام على مسارات منحنية و دائرية، و حركتها على خَطٍّ مستقيم، و أيضا كان يدرس الفرق بين سرعة الأجسام في الحركة المستقيمة و الحركة الدائرية. كان مهتما بِ انواع النجوم و أماكنها. كان يحاول وَضْعَ معادلات فلكية لِ حساب الارتيابات و الانزياحات في المسافات بين النجوم. كان يفكِّرُ، بِ عُمْق، في موضوع الطيران كما الطيور. و قد رَسَمَ أشكالاً مختلفة لِ الأجنحة. و كان يفكِّر في شكل الذيل، ثخنه و طوله. و قد حاول الخوض في تصميم بعض أنواع الذيول. كان يقوم بِ تجارب و محاولات الطيران، و كانت المحاولة الأخيرة له في مسألة تقليد الطيور، تلك التي قام بها، قبل عيد الصعود، والتي، و لِ الأسف، كانت الأخيرة، والقاتلة.

لقد ساهم في تطوير الفلسفة و الأدب. و كانت له محاولات في كتابة منهج الاستدلال في استنباط الحقائق الجدلية من المتغيرات التاريخية عند الهنود الحمر. و كانت لديه مخطوطات في علم السيبرنيتيك، و أُخْرى في الإيروتيك السماوي، و هذه المخطوطة، بِ الذات، كانت مُقَسَّمة إلى أبواب. باب نكاح

الجنّيات البوذيّات، باب نكاح الجنيّات الملحدات، باب نكاح الملائكة، و فصل كامل حول نكاح البهائم، و جواز وطئها أثناء الصيام و الأعياد...إلخ.

اجتمع مجلس حكماء البلدة بِ خصوص امبارسون. و بعد المداولات والنقاشات حول موقع ومكانة طرطب بين البلدان الأُخَر، توصَّلوا إلى اتفاق، وتمَّتْ كتابة ما يشبه الميثاق الوطني، وأقسم الجميع على الالتزام و العمل به. كان مضمونه، أن يتم تداول و نَشْر المعلومات و الصفات الجديدة عن أمباسون(عدد كبير منهم كان يلفظ اسمه أبَّاسون، و لأنَّ النون هي في آخر الكلمة، فَ غالبا كانت تُهمَل أثناء النطق، و بالتالي كان الاسم يتحوَّل إلى أبَّاسو).

مع مرور الزمن، تحوَّلَ موضوع أبّاسو إلى مسألة وطنية، و فيما بعد، أصبحت مسألة شخصية، و راحَ الدفاع العُصابي عنه يسيطر على وجدان أبناء و بنات البلدة. إنَّ هذا السلوك في التعامل مع الوثيقة الوطنية و الدفاع الأعمى عن أبَّاسو، جعله طوطما حقيقيا. و راحوا يصدّقون ما كتبه الجيل الأول المعاصر لِ أبّاسو، بِحيث أصبح، مجرَّد السؤال عن حقيقة صفاته الشخصية، خيانة وطنية، لا بل أكثر من ذلك، فَتَمَّ الربط بين حقيقة علومه و مساهماته في تطوّر الحضارة الأنسانية، و بين تراث و ثقافة شعب طرطب، و في النهاية، الربط بِ عقيدتهم و دينهم. و اعتبروا أيّ مَسّ، أو شَكّ بِ صورته الجديدة، أو أيّ استهزاء و سخرية من حقيقته، هو مَسّ و سخرية من المقدسات و استهزاء من جوهر العقيدة.

هكذا تمَّ اختراع خرافة أبَّاسو الطرطبي (نسبة إلى طرطب)، و ربطها بِ العقيدة و المقدّسات. كانت تلك الوثائق و المخطوطات، وخاصة الرسوم و الكروكيات، التي كان طافيت قد رسمها، و أيضا، تلك الوثائق التي كانت تشرح المؤلفات المُنْجَزة، و المخطوطات التي كانت قيد الكتابة، أيْ بِ كلمة، أنَّ معظم مؤلفات و نظريات و مخطوطات أبّاسو(هامبارسوم، اسمه في المعمودية) كانت قد نُقِلَت إلى متاحف و جامعات و مراكز البحوث الفرنسية. حَصلَ ذلك عن طريق العلماء الذين رافقوا

حملة نابليون على مصر. إنهم كانوا على علمٍ بِ تراث العالم هامبارسوم(أبّاسو). كان قد ذاع صيته، كَ عالم وفيلسوف، عن طريق التجار الذين كانوا يذهبون، بِ بضائعهم، إلى دمشق والقدس و بيروت، و من هناك، تكون أخباره قد انتقلت إلى شمال وغرب البحر المتوسط. أمّا العلماء الفرنسيون(جان كلود رينو، و شامبليون، وسيمون ايمانوئيل، وغيرهم)، فَ قَدْ حصلوا عليها بِوسائلهم و طرقهم الخاصة، وتمَّ نقلها إلى باريس. و هناك تمَّ تصنيفها أرشفتها، وذلك بِ إعطائها أرقاما و رموزاً خاصة بِ محفوظات مراكز البحوث و المتاحف. فَ مثلا:
المخطوط الذي كان يحوي رَسْماً يُمَثِّل تجربة التبوّل واقفا، و الذي كان طافيت قد كتبَ تحته "قانون أبّاسو الثاني– طَرْد الجاذبية الأرضية–". هذا المخطوط كان قد دَخَلَ إلى محفوظات مراكز البحوث و المتاحف في باريس، تحت التصنيف التالي:

TA215/AB03/NA01–EG

TA– الأحرف الأولى لِ مسقط رأس أبّاسو– TARTAB–

215 – الرقم التسلسلي لِ المخطوط.

AB – الأحرف الأولى لِ اسم العالم أبّاسو– ABBASO–

03 – رقم الكروكي لِ حركة جسم في الفضاء.

NA01 – حملة نابليون الأول.

EG – مصر

أمّا المخطوط المتصل بِالشكل المتصالب، والإنسان المنبطح في الهواء، و الذي كان قد كُتِبَ تحته "العالم أباسون يطير في السماء"، فَ قد صُنِّفَ هكذا. TA216/AB05/NA01-EG. بعدَ أكثر من قرنين من الزمن، ظهَرَ قسم من مخطوطات(طَرْطَبْ) في دمشق و بيروت. فَ في منتصف الثلاثينات، أو أكثر بِ قليل، من القرن المنصرم، و ربما يكون في عام/1938 /، وخلال الانتداب، كان قد جاء علماء و أكاديميين فرنسيين إلى سوريا. كان العالم الفيزيائي برونو، و الأكاديمي جوليان المتخصّص في علوم الفضاء و الفلك، من ضمن المجموعات المتخصصة التي أوفَدَتْها الحكومة الفرنسية لِ تجهيز البنية التحتية لِ المعاهد و الجامعات، ومراكز الأبحاث في الدولة السورية. ووَضْع الأسس لِ اعتماد الوسائل المتطوّرة، والمناهج الحديثة في التعليم الأكاديمي.

كان يعمل معهم بروفيسور سوري، فاضل عزوز، كان قد درسَ في جامعة تولوز، و دافع عن رسالة الدكتوراة في الفيزياء، و بِ الضبط، في علم الآيروديناميك. البروفيسور، فاضل، كان في الثلاثين من عمره حين عَملَ مدَرّسا لِ مادة الهيدروليك في جامعة السوربون، و خلال العمل في التدريس، تعَرَّف على زملائه الفرنسيين، برونو و جوليان. كان البروفيسور، فاضل، يُدَرِّس نظرية الجناح، إلى جانب مادة الهيدروليك. استمرَّ في الجامعة إلى أنْ عاد إلى البلاد، بناءاً على طلب الحكومة الوطنية، بِ الاتفاق مع السلطات الفرنسية و رئاسة جامعة السوربون. كان العالم برونو قد أَطْلَعَ زميله الاستاذ عزوز، بعد عام من بدء العمل معاً في سوريا، على المخطوطات التي كان قد حصلَ على عدة نسَخْ منها من مكتبة المعهد العالي لِ الفيزياء، و التابع لِ مركز أبحاث الفضاء. قَدَّمَ برونو نسخة من تلك المخطوطات إلى الاستاذ عزوز، و راح الأخير، فيما بعد، يدرسها بِ اهتمام شديد. يطَبِّق عليها المنهج التحليلي، و نظرية التفكيك، لِ الحصول على إشارة ما، أو لُغْزٍ علميّ يدلّه على فكرة، أو نظرية ما، لِ ظاهرة علمية، أو

اكتشاف علمي جديد؛ لكنه لم يصلْ إلى أيّة نتيجة. بَدَّلَ أسلوب البحث و التحليل. لجأ إلى نظرية الانبثاق لَعَلَّه يحصل على معلومة مُخَبَّأة بين الأرقام المدوَّنة على تلك الرسومات. وهذه المرة راح يركِّز على الكروكي الذي يحتوي على شكل إنسان له جناحين و ذيل. و بدأ بِ التعمُّق في القياسات و الأرقام. أخذَ صورة الجناح بِ مفرده، وراح يقيس أبعاده بِ دقّة. الطول، العرض، السماكة والشكل الانسيابي له، بدءاً من مكان اتصاله بِ جَذْعِ(جسم) الطائر. أراد التحقّق ما إذا كان العرض بِ نَفْسِ المقاس من عند الجذع وحتى نهايته، وهل أنَّ سماكة الجناح هي نفسها على كامل العرض؟ أراد أن يعرفَ ما إذا كان السطح المواجه لِ الأرض مستوياً أم مقعَّراً، أو محدَّباً. هذه المعلومات لا يمكن الحصول عليها إلّا من المقاطع التفصيلية للجناح، ونفس الأمر بِالنسبة للسطح الخارجي، المواجه للسماء. و بِ سَبَبِ غياب، أو فقدان، المقاطع الجزئية(التفصيلية)، لم يصل إلى معرفة أيّ شيء بِخصوص الشكل الخارجي والانسيابي للجناح. مسألة أُخرى كانت تشغله، و تأخذ جهدا كبيرا منه، و هي الدفعة الأولى لِ الجسم الطائر. هل حصل على الدفعة الأولى عن طريق القذف النابضي؟ و إذا كان الجواب إيجابا، فَ كم كانت سرعته البدئية، في هذه الحال، و ما هي المسافة التي قطعها إلى حين سقوطه على الأرض؟. في أيّة نقطة من المنحني، أو المسار، بدأ الجسم بِالانحدار نحو الأسفل، وكم كانت المسافة التي قطعها، وهو في المستوى الأفقي في طيرانه؟. هناك احتمال أن يكون قد اكتسبَ الدفعة الأولى عن طريق الدفع الميكانيكي. و في هذه الحال، هل كانت سرعته خلال طيرانه، في الوضع الأفقي قُبيل السقوط، أكبر منها في الحالة الأولى؟. راح البروفيسور عزوز يفترض أرقاما، لِ قوة الدفع الأولى، ومن ثم، يبدأ بِ حساب السرعة والمسافة المقطوعة، و الزمن الذي قطعه إلى حين سقوطه. و عن طريق المعادلات التفاضلية و التكاملية، حاول معرفة الزمن الذي عنده بدأ الجسم بِ التباطؤ، أو بِ الأحرى، الزمن الذي عنده بدأت

سرعته بِ التخامد، طبعا آخذا بِ عين الاعتبار،عوامل الطقس وقتذاك (كثافة الهواء، سرعته، اتجاه الرياح...إلخ). بذلَ البروفيسور عزوز جهدا استثنائيا في الدراسات التي أجراها على تلك المخطوطات، و بِخاصة، تلك المتعلّقة بِ الفيزياء والطيران. واصلَ العمل في الحسابات والتحليلات والافتراضات، والاستعانة بِ المراجع المعنية في تلك العلوم. استمرَّ في العمل مدة سنتين، وفي النهاية، لم يصلْ إلى نتيجة ذات معنى علمي رصين، لا في مجال الفيزياء، ولا في مجال ديناميك الموائع، ولا، حتى، في مجال الطيران.كان من عادة الاستاذ عزوز، أثناء خوضه في الدراسات والأبحاث،أنْ يسجِّلَ ملاحظات وحواشي على الهوامش من الوثائق.وحين الانتهاء من عمله، كان يقوم بِ إزالتها(مسْحها). وكان قد فعلَ ذلك على هذه المخطوطات أيضا، لكنه، و لِ أسباب مجهولة، كان قد نسيَ إزالة ملاحظاته من على المخطوطات، وكانت إحداها والمدوَّنة على المخطوط TA216/AB05/NA01-EG. كانت الملاحظة المدوَّنة على هذا المخطوط: **"إن هذا الجسم الطائر، بِ التأكيد، كان ينقصه الدَنَب(الذيل)".**
اعتذر لِ زملائه عن توقّفه و تخلّيه عن متابعة تلك المخطوطات العجيبة، و التي لم يفهم منها أيّة مسألة علمية، و خصوصا في مجال الفيزياء و الطيران.

بعد ربع قرن تقريبا، من الوقت الذي تخلّى، فيه، الدكتور البروفيسور عزوز، عن مهمته في تحليل و دراسة مخطوطات(طرطب)، انتقلت تلك المخطوطات إلى أيدي أكاديميين جُدُد. هم أيضا درسوا علوم الفيزياء والهنسة الميكانيكية بِمختلف الاختصاصات(التيرموديناميك، الطيران، الهيدروليك، نظرية الآلات، علم الحرارة و الطاقة...إلخ). هذا الجيل كان متحمّسا لِ الأبحاث العلمية و تطبيقاتها في الواقع العملي. كانوا متحمسين لِ خدمة الوطن، و مدافعين صلبين عن القومية و عن العقيدة الدينية و التراث العربي الإسلامي. منهجهم يختلف عن منهج الاستاذ عزوز في التعامل مع العلم. الاستاذ عزوز كان رجل علْمٍ و منطق. كان يفصل

ما بين انتمائه القومي وعقيدته ودينه، وبين العلم وتجلّياته و نتائجه في الحياة. لم يُشَخْصن أيَّة قضية، أو ظاهرة في الحياة. أمّا هؤلاء الأكاديميين الجُدُد، فَ منهجهم كان وليد المنهج الوطني القومي العقيدي. فَ المرجع لِ المقارنة في هذا المنهج، هو الثقافة العربية الإسلامية. فَ كلّ ما يتعارض مع الثقافة و الحضارة العربية الإسلامية، هو خطأ، و الصحيح هو ما ينطبق و يتناغم مع العلوم و الثوابت و اللتراث. و على هذا الأساس، و هذه المرجعية، بدأ هؤلاء الأكاديميون الجُدُد أبحاثهم و دراساتهم على المخطوطات التي انتقلت إليهم، من بَعْدِ المحاولات التي قام بها الاستاذ عزوز، و التي كانت نهايتها الفشل في الحصول على نتيجة علمية.

كانت المخطوطات قد انتشرت في الحجاز و حضرموت و بغداد قبل حملة نابليون الأول على مصر. و كانت قد وصلت إلى الأندلس عبْرَ مضيق جبل طارق. حتى أنَّ بعضا من الباحثين العرب اعتبر أبّاسو مغربيا، و البعض الآخر قال بِ أنّه أندلسيّ من أبوين مسلمين. و قدَّموا أدلّة على الشبه بين اسمه و الأسماء الإسبانية و الإيطالية، حيث أنّها تنتهي، كما اسم أبّاسو، بِ الحرف– O – كَ (رودريغو، خوليو، رونالدو، سيرجيو...إلخ). و راحوا يفتّشون عن حقيقة اسمه، و ذلك بِ للجوء إلى الاحتمالات، و تفكيك الآسم، و من ثمَّ تركيبه إلى أقرب ما يكون من الأسماء العربية. أخذَ أحدهم الاسم، و كتبه على ورقة أمامه(أبَّاسو)، وقام بِتفكيكه على النحو التالي.(أَبّا سون)، وفكَّر في التأويلات والمعاني الممكنة له. كان صعباً عليه إيجاد تأويل مقبول. ذهبَ إلى احتمال آخر (أبْ باسون)، في هذا التفكيك، حاول أنْ يُقرّبَه إلى الدارج بين العربان، حيث ينادون بعضهم بعضا بِ الألقاب مثل(أبا جاسم، أو أبو جاسم). فَ قام بِ تأويل الاسم أبْ باسون إلى (أبو باسون، أو أبو باسين، و ذلك بِ الاعتماد على جواز قَلْب الواو ياءً)، كانت لديه عقبة الباء في(باسين)، فَ كيف سَ يتصرَّف بِ هذه الحرف، حيث أنّه أراد

أنْ يقلبها إلى الياء. لو أنّه نجح في ذلك، لَ كان المعنى قد استقام، و لَ كان قد حصلَ على اسم لا غبار عليه، كما هو بين العربان(أبو ياسين). فكَّرَ في النتيجة، وكان بِإمكانه إقناع نفسه بِهذه التوليفة. إذْ أنَّ اللغة العربية كُتِبَتْ، في بداياتها، من دون تنقيط، حتى أنَّ القرآن أقدس وثيقة تاريخية لدى المسلمين، كان قد كُتِبَ، في البدايات، من غير تنقيط. و بناءً عليه، ربّما كانت الباء ياءً. تأمَّل هذا التفكيك و التركيب، و التأويل، كانت النتيجة جيدة و مقنعة. فَ كل ما افترضه في موضوع أخْذ أحرف مكان أحرف أُخَر، و قَلْب أحرف إلى أحرف أُخَر، كان هذا العلم قد طُبِّقَ في لسان العرب. لكنه كان خائفا من اتهامه بِ المَسّ بِ المقدَّس، أو التطاول على كلام الله، وإخراجه من سياقه الإلهي. لذا صرَفَ النظر عن تلك النتيجة الأقرب إلى ما كان يرغب في إثباته حول هوية العالم أبَاسو. في الأثناء، كان باحث آخر يعمل على نفس الموضوع، محاولة معرفة حقيقة اسم (أبّاسو). خلال دراساته و أبحاثه في علوم اللغة، و تطبيق احتمالات ولادة أحرف من أحرف، و تقمّص أحرف أحرفاً أُخَر. وضّعَ احتمال أنْ يكون أصل اسم(أبّاسو) هو(قبّارسو)، ولأنَّ الأحرف الأخيرة في الأسماء والكلمات، غالبا ما تتلاشى وتغيب عن السمع، لذلك، ربّما كان الاسم(قبّارسون، أو قبّار أسُود)، وكان مرتاحا لِ هذا التأويل، لأنه يعطي رمزية جبّارة لِ عالم على درجة عالية كَ العالم (أبّاسو)، لذلك راح يشتغل على هذا الاحتمال. فَ اعتبر أنَّ أصل اسمه هو(قَبّار أسود). و بدأ بِتطبيق أدوات علم المورفولوجيا، و علم الصوتيات– Phonetics– عليه. إذن، الاسم(قبّار أسود) يصبح مع النطق في سياق الحديث بين الناس(قَبّارسود) حيث حرف الألف تتلاشى أثناء النطق، و حرف الراء هي الآخرى تضيع لِ ثقلها أثناء اللفظ، و بِ التالي، و مع هذه التطبيقات، يتحوّل الاسم هكذا (قَبّار أسود، إلى قَبّارسود، إلى قبّاسود، و أخيرا إلى قبّاسو)، و هنا راح الباحث يتأمّل اسم (قَبّاسو)، فَ هو قريب جدّا لِ الاسم (أبّاسو). إلّا أنّه وقف طويلا أمام حرف

القاف، فَ هناك فئة من العرب تقلبها إلى الجيم (المصرية)، كَ أبناء تهامة و صعدة، وفئة أخرى تقلبها إلى الألف المهموزة، أو الهمزة، كَ أهل الشام و لبنان، وبناءً عليه، يمكنه أنْ يختار الحرف الذي يناسب موضوع بحثه، ألا و هي حرف (الألف المهموزة)، و بذلك يصبح الاسم(أبّاسو). راح ينظر إلى الاسم، و هو بين الشكّ واليقين من نجاحه. وبعد التعمّق في التغييرات والتحويرات الممكنة، و غير الممكنة، في علم اللغة، و التي طبَّقها على الاسم، كان يسمع صوتا في داخله، غير مقتنعٍ بِهذه المحاولة التعسفية التي أجراها في بحثه هذا، و بِالتالي، غَضَّ الطَّرْفَ عمّا توصّلَ إليه، و لم يعلن عن النتيجة، و كَ أنّه لم يقتنع بِ محاولته.

كان لا بدَّ من إثبات عروبة أبّاسو، أمّا إسلامه، فَهو ثابت، يكفي أنّه يعيش في بلاد المسلمين، فَهو مسلمٌ، حتّى لو قام من القبر وأنكر ذلك. فَالباحثون، وخاصة العرب منهم، منشغلون على إثبات عروبته، لأنَّ هناك عدد من المسلمين، صُنِّفوا بِ مرتبة العلماء في شتّى المجالات، حتّى دون اعتراف العالم الآخر بِ مرتبتهم العلمية. وأكثر من ذلك، فَ هم يفرضونهم كَعلماء على العالم،حتّى، دون تقديم نظرياتهم و قوانينهم العلمية إلى المحافل الدولية، و المجامع العلمية.

هؤلاء الباحثون الجُدُد كانوا قد سمعوا بِ المحاولات التي قام بها باحثون من قَبْلِهم، منذ قرون مَضَت، بِ خصوص حقيقة اسم العالم (أبّاسو). لذا، راحوا يفتِّشون عن الوثائق المتعلّقة بِ أبحاثهم، و النتائج التي توصّلوا إليها، فَ ربَّما تفيدهم في أبحاثهم المستقبلية حول التراث العلمي لِ (أبّاسو). عثر الباحثون الجدد على أوراق تعود إلى حقبة دوكالبيوس الذي تزوَّج إحدى عشر إمرأة، و كانت مناتاسيا أولاهنَّ، و كانت قد أنجَبَتْ تسعة أولاد. و كان مجموع أولاده من نسائه الإحدى عشر/82/ ولداً (ذكر و أنثى)، و كان عدد ذريته، حين بلغ الخامسة و السبعين من عمره/2666/. لقد رَكَّزَ الباحثون الشباب على رحلة حفيده، رخماندیس، الذي قَدِمَ إلى قوم ابراهيم و اسحق، و تزوَّجَ واحدة من

بناتهم(آريئيلا). كانت آريئيلا، قد أنجبَت ثلاثة أولاد، خلال أربع سنوات من زواجهما. و في السنة الخامسة، التحق رخماندیس بِ قافلة متوجّهة إلى بلاد الهند. خلال مطالعتهم لِ أوراق تلك الحقبة، وقعَ بصرهم على واحدة من تلك المحاولات، في تفسير وتوليف الأسماء وتقريبه، قدر الإمكان، إلى اسم العالم (أبّاسو). كانت المحاولة تكمن في العمل على اسم ابن رخماندیس من (آريئيلا)، و هو (بن زيون) = (ابن صهيون). كان رخماندیس قد رُزِقَ بِ بنتين و ولد، و هم (آهافا، و خافا، و بن زيون). آهافا(الحُب) هي الإبنة الكبرى، و خافا(حواء) الإبنة الصغرى، و بن زيون(ابن صهيون) الإبن الوحيد من(آريئيلا).

كانوا قد حاولوا تفكيك و تركيب اسم، بن زيون لِ تقريبه إلى اسم، أبّاسو، و هذه المرّة بِ شكلٍ مباشر، و ذلك عن طريق الافتراضات. فَ (ابن صهيون) يمكن اعتباره(اب صهيون)،أو (أباصيون)، و هذا يمكن تحويله إلى (أباصون)، و بِ إهمال النون في آخر الكلمة، يصبح الإسم (أباصو)، أو (أبّاسو)، لكنهم رأوا بِ أنهم بالغوا كثيرا في محاولتهم هذه، و لذلك، لم يأخذوا بِ النتيجة، و اعتبروا بِ أنهم قد فشلوا في مسعاهم. قرَّرَ الباحثون الشباب تجميع تلك الوثائق، وَ وَضْعِها على الرفوف، و الانتقال إلى الوثائق التي كانت قد جاءت إلى المركز من علماء أمازيغ. و بينما هم يضبّون الأوراق و يُرَتِّبونها في مَحَافِظَ جلدية، و إذْ بِ وثيقة من الورق البردي تلفتُ انتباههم. اضطلعوا عليها. كان محتواها تتحدَّثُ عن موضوع مختلف، لكنه على علاقة، أو على صِلة بِ المعجزات التي تَزْخَرُ بها العلوم الإسلامية. تقول الوثيقة: أنَّ المهندس سليمان، طبعا سليمان– صاحب الهيكل–، أو بِ الأحرى، كبير المهندسين، سليمان، كان يحلم، و يتمنى أنْ يقوم بِ بناء أبو الهول، و تشرح الوثيقة أنَّ أبا الهول هو جزء من الثقافة الإسلامية، أو بِ الأصح، جزء من التراث الإسلامي. و أنَّه شاهِدٌ على كون الذين بنوه هم من المسلمين، لا بل، أكثر من ذلك، فَ أبو الهول يشهد على أنَّ آل داود هم

البناة الفعليون، و على أنَّ آل داود هم من المسلمين. بعد قراءتهم لِ هذه الوثيقة، تمنّوا لو أنَّ هؤلاء الباحثون الأوائل نجحوا في الربط بين اسم أبّاسو و اسم بن زيون (ابن صهيون). راحوا يطالعون الأوراق التي كانت تدور محتواها حول احتمال أنْ يكون الاسم شرقيّاً، عربيا، لكن بِ تأثير التهجئة الإسبانية في نهاية الكلمة، أو الاسم. و من بين عشرات الأوراق التي احتوت على محاولات الباحثين في تحليل و تركيب الأسماء، عثروا على بعض منها مثل. أبا ايسو، و الذي كان في الأصل، أبا عيسو، و لأن العين يُلْفَظ كَ الهمزة، فَ صار الاسم أبا إيسو...إلخ من هذه التأويلات، و كانت جديرة بِ الاهتمام، إلاّ أنَّ أصحابها لم يكملوا بحثهم، لكن كانت هناك وثيقة أُخرى تشرح أصلَ الاسم كما يلي: الاسم هو (أبْ اباس) يعني في الأصل(أبْ عباس)، والذي هو(أبو عباس). لكن المشكلة في هذا التحليل كانت في أل(O) اللاتينية، لذلك لجأوا إلى تحليل و تفسير آخر، وهو أنَّ الاسم كان في الأصل أبّاس، أيْ عَبّاس، وبإضافة اللكنة الإسبانية(O) إلى نهاية الاسم، فَ يصبح (عبّاسو)، و بِ تبديل العين بِ الألِفِ المهموزة(أ) يصبح الاسم (أبّاسو)، أيْ (عبّاسُ)، و هناك ظاهرة في بلداننا، و خاصة في المدن و البلدات ذات العلاقات العائلية، و العشائرية، الناس– غالبا– ينادون بعضهم بِ هذه الصيغة (عبّاسو، سليمو، محمدو، صامو، خليلو، كبرو...إلخ)، و ذلك إمّا لِ التحبّب، أو التصغير. إذن، فَ مخطوط طرطب، هذا، يتحدَّث عن العالم(عَبّاس). كانت هذه النتيجة مقنعة للباحثين الشباب. وفي الحال، شَرَعوا في تشكيل فُرَق و لجان علمية لِ إحياء ذكرى، تراث العالم(عَبّاسو= ABBASO) أوَّل مَنْ حاول الطيران، وأوَّل مَن وضَعَ أسس و مبادئ و قوانين الطيران.

حين كان يتمّ البحث عن نظريات العالم عَبَّاسُ(ABBASO) في الفيزياء و الرياضيات و الفلك و...إلخ، في المراجع العالمية لِ العلوم و الاختراعات، و في الويكيبيديا، كانت تظهر مقالات عن شخصيته و عن عبقريته و اكتشافاته و

اختراعاته، تفيد بِ أنَّه كان عالما فذّا في الرياضيات و الفيزياء و الفلك و الفلسفة، و كان حكيما و قانونيا و شاعرا و... و في نهاية المقال يقول الكاتب:"مِن المؤسف أنَّ معظم آثاره و مؤلَّفاته و ترجماته فُقِدَتْ، و لم يبقَ منها إلّا بعض أخبارها في بطون المصادر مُسْتقاة مِمَّنْ تَرْجَمَ لِ حياته أو أُخِذَ عنه".

عجبا! لماذا لم تضِعْ آثار و نظريات العلماء الذين كانوا معاصرين له، لماذا لم تَضِع قوانين لافوازيه و نيوتن و فيثاغورث؟ و لماذا لم تبقَ حتى مسودة نظرية أو قانون رياضي أو فيزيائي من إبداعاته و اكتشافاته؟!

منذ أنْ انتشرت هذه المعلومة، قبل ما يقارب السبعين عاماً، أصبحت طرطب مزاراً، و أصبح لها يوما في السنة. ربّما كان في فصل الربيع، حيث يخرج أهالي القامشلي، مع عائلاتهم، إلى طرطب. و كان ذاك اليوم، أشْبَه ما يكون، يوما كرنفاليا. كان الشباب و الشابات، الصغار و الكبار، يلعبون، يصعدون إلى قمّة التلّة، و يفعلون ما كان الشاب البسيط (هامبارسوم) يفعله قبل قرون. لكن الأهالي لم يكونوا يعلموا ذلك، حتّى أنَّ يوم زيارة طرطب، أخذ طابعا دينيا.أمّا الجيل الأول من الدارسين، و الذين كانوا معاصرين لِ هذا الاكتشاف التاريخي، عرفوا حقيقة الأمر، و كانوا مستغربين من الموضوع. لكن الضربة كانت قد أخذت مكانها، كما يُقال، و هامبارسوم كان قد أصبح عالِما على المستوى العالمي، و خاصة بعد أنْ تبنّته الأمة العربية والإسلامية، و بعد أنْ أصبحت تعقد المؤتمرات العلمية، كلَّ عام، في جامعات الدول العربية، و بِ شكلٍ دوري، تحت عنوان "تاريخ العلوم عند العرب".

إذن! نحن أيضا خرج من وسطنا عالِماً، و ما الضير من ذلك، هكذا كان يردِّدُ أهل القامشلي.هل الغرب هو أكثر ذكاءاً من الشرق؟ طبعاً كانوا يقولون ذلك بِ روحٍ فكاهية. هكذا إذن! فَ أنطو القَوَّاق ربَّما يكون من عشيرة(هامبارسوم).

كان مَعمله(مَشْغَلُه) يقع خارج المدينة بِ قليل، وكان يسكن هو وعائلته بِ جانب معمله. كان المعمل و البيت على الكَتِف الأيسر مِن نهر الجغجغ. بِ القرب من بيته كان الشَلاَّل، مَسْقَط المياه، الشلاّل لم يكن مرتفعا كثيرا. لكن بِ النسبة لنا، في ذلك العمْر، كان يبدو شَلاَّلاً بكلّ معنى الكلمة. في كثير من الأحيان، كنَّا نسبح في ال كولِه (GOLE) التي تَشَكَّلَت تحت الشلاَّل. كنَّا نتَحَدَّى بَعْضَنا في القفز مِن على الكتف الأيمن لِ الشَّلاّل غطساً(عَ الرَّاس). و كنَّا نتلَصَّص على بناته لَعَلَّنا نشاهد أجزاء مكشوفة من أجسادهنَّ و هنَّ في غمرة العمل في الساحة الخلفية لِ المعمل. مغامراتنا لم تخلُ من شقاوَة المراهقين، إذْ أنَّ بعضاً مِنّا كان يختبئ خلف الأشجار و الزِّلَل(القاميشات)، و كان يمارس العادة السريّة بِ استحضار السيقانات، التي لم يَرَها، مِنْ أجساد البنات المنهمكات في العمل لِ تحضير طين الصلصال، و إنَّما التي يراها في مُخَيِّلَته الجنسية لا غير.
عند الغروب، كان يشعل الكور لِ شَيّ ما أنتَجه خلال يومين من العمل. حين يبدأ اشتعال النار في الكور، كانت تتجَمَّع سحابة من الدخان الأسود الكثيف فوق الكور، وتسبح بِ بطء بِ الاتجاه الذي سَ تسوقها الرياح، هذا إنْ وجِدَتِ الرياح أصلاً، وفي أحيان كثيرة، كنَّا نرى لهب النار يخرج من مدخنة الكور.كان المشهد يتكَرَّر ثلاث مرَّات في الأسبوع. وفي كلّ مَرَّة، حين نرى الدخان من طرف بيت القَوَّاق، كنّا نعرف بِ أنَّه يشوي جِرارَه لِ يأخذها، في الغد، إلى سوق المدينة. مروره من الحارة بِ اتجاه بيته، قادما من السوق، كان يتكَرَّر ثلاثة أيام في الأسبوع. و ما جَعَلَنا نلاحقه كما الكلاب، و نطلقُ تعليقات مسيئة إليه، هو سيره البطيء، و تَرَنّحه في بعض الأحيان، و تحريض ماردو لنا على ملاحقته.
أكثر التعليقات كانت تنتهي بِ آنطو السكران، أمَّا باقي الكلام فَ لم نعدْ نتذَكَّره.
هذا الرجل الشاطر، الكادح، المسالم، لم يُسِء إلى أحدٍ. في الأيام التي يكون فيها في المدينة، بِ التأكيد يكون قد أمضى وقتَه في المطعم الكلاسيكي مقابل

الحمَّام العائلي، أو أيّ مطعم آخر مثله في قلب السوق، قَريب من العَرَسَة و يكون قد شَرِبَ بطحة عَرَق مع سمكة و قليل من المخلَّل(كان الأهالي يُسَمّون هذه المطاعم الصغيرة بِ الخَمَّارَات). و حين كان يمرُّ من الحارة، يكون، حتْماً، خارجا من الخمَّارة، متوجِّها إلى بيته.

تبيَّن فيما بَعد، أنَّ منزله كان قد تحَوَّلَ إلى ما يشبه قطعة حلوى تحت الشمس. يتجَمَّع عليها الذباب و الحشرات الزاحفة، و يعود ذلك إلى وجود البنات و الموقع الطَرَفي لِ المنزل و العلاقات المنفلشة لِ أبنائه الشباب.

– 15–

تشابك الأرواح، و تساقط النجوم

في نهاية الشهر الرابع من وصول سارو إلى بلد الرفاق، كتَبَ إلى صديقه الأردني طارق رسالة، معبّرا فيها عن صدمته بِالواقع، و خَبَّره بِ قراره المفاجئ و الصادم. إنه عائد إلى سوريا، و سوف يتابع تحصيله الجامعي هناك. لم يذكر السبب، أو الأسباب، التي جعلته يتَّخِذ قرار العودة إلى الوطن. طَلَبَ منه أنْ يبقى على اتصال معه، و أكَّدَ له بِ أنهما سَ يلتقيان مَرَّة أخرى، إمّا في سوريا، أو في الأردن.

في الواحد و العشرين من ديسمبر، أقْلَعَتْ طائرته إلى دمشق. كان حزينا، لا بل كان محَطَّما، ضائعا، تائها، لم يأبه لِ الحياة من حوله. فَقَدَ الإحساس بِ الوجود، حتى أنّه كان يتحدّى الحركات الحادّة لِ الطائرة. كَ المَيَلان إلى إحدى الجهات بِ شكلٍ مخيف، أو الهبوط المفاجئ من مستوى طيرانها إلى مستوى أدنى، أو بِ العكس. كانت وكأنها تصارع الليل والصواعق والبروق. كانت خطوط الشحنات الكهربائية المتصادمة ترسم حدود الغيوم، و لَمْعات البرق تكشف عن وجوه الركاب المذعورين. لم تهدأ الطائرة في مسارٍ محدَّد. كانت تهرب يمينا و يسارا. تهبط، و تصعد كي تخرج من دوّامة العاصفة المطرية تارة، و من عاصفة البَرَد الخطيرة، إنْ على المحركات، أو على نوافذ الطائرة، و خصوصا واجهة قمرة القيادة. كان الصمت سيّد الموقف بين الركاب. ينظرون إلى الفراغ و المجهول. في بعض الأحيان، حين كانت الطائرة تقوم بِ حركة قاسية، إمّا صعودا، أو انعطافا، أو تقوم بِ مناورة طارئة لِ التخلُّص من كارثة محقَّقَة، حينذاك كان الذعر يسيطر على الركّاب. كانت تصدر أصوات و استغاثات، كَ رَدّ فعل لا إرادي على الموقف الخطير الذي هم عليه. أمّا سارو، فَ كان يتابع كلَّ الحركات و

الوضعيات التي تمرُّ بها الطائرة دون أنْ يرفَّ له جفنٌ. كان ينظر إلى وميض البرق بِجواره، وإلى حبات البرد، وهي تضرب نافذته. ينظر إلى مراوح المحركات، ويُحَدِّد الأماكن التي سَ تَتَلَقَّى صدمة رِيَش المروحة في حال تحطّمها. كان يتوقع بِ أنْ تطير قطَع منها وتخترق حاجز نافذته دون اصطدامها بِ أحدٍ من الركاب. كان يصرخ صامتا. هيّا اسقطي إلى الهاوية، انشطري، تناثري، هيّا تحطّمي! كان مزاجه سيئا لِ الغاية. بينما هم في هذه الحالة المربكة، و هذا الوضع الخطير، سمعوا نداءً من مكبرات الصوت يقول: "صباح الخير! (كان الوقت فَجْرَ الثاني و العشرين من ديسيمبر). أنا الكابتن كوتوزوف، أرجو أن تكونوا بِ خير، و أرجو أنْ تهدأوا، فَ لا شيء يدعوا إلى القلق و الخوف. مجرّد عواصف رعدية، و أنّنا على وشك الخروج من دائرتها. رحلة سعيدة".

معظم الذين يعرفون سارو، أهله و أصدقاؤه، كانوا يتناقلون الأحاديث فيما بينهم، حول السبب الذي جعله يترك جامعة الرفاق، و يعود إلى البلد. كانوا يغمزون ضمناً، إلى ندى، أيْ أنّه لم يطِق الابتعاد عنها، وأنّه عاد لِ أجْلِها.إنّه يحبّها، لا بل يعشقها. فَهذا ليس حُبّاً، وإنّما هو رَحَم الحُبّ نفسه. إنّه الوَلَه،الهُيام، العشق. إنّه، و بِ كلمة، التحليق في الفضاءات فوق الغيوم و السُحُب.
عودته هذه، جعلتهم يستذكرون سلوكه العشقي، في بدايات تفتُّح براعمه و نضوج غُدَدِهِ الغريزية، واكتمال شبكيته الملوَّنة، و منظومة حواسّه، الأرضية منها و السماوية. راحوا يستحضرون مشاهد و مواقف لِ هذا الفتى الذي يجتاز البرزخ في احتفالية إلهية.
إنَّ القدر المكتوب في دفتر مواليده منذ بدء الخليقة، قد تحقَّقَ. فَ قَدْ كان مكتوبا في صفحته؛ بِ أنَّ جَدّه الأوَّل قد خُدِعَ، وأنّه كان بِمثابة فأر المختبر. إذْ أنَّ الله، ومن باب التسلية ليس إلاّ، قام بِ تشكيل هذا الحيوان، وجعله منتصبا على قائمتيه. راح يراقبه و يسجّل الفروق بينه و بين الحيوانات الأُخرى.

كان كما الآخرين، يقفز، يركض و يتسلّق الأشجار. يقتل و يأكل، يهرب، يختبئ في الكهوف. يصنع أدوات من حجرٍ، و من فروع الأشجار و أغصانها. يُصْدِرُ أصواتا كَ غيره من الحيوانات. كان الله يضحك منه، حين يفشل في القبض على حجرٍ، أو غصن شجر، و حين يفشل في تشكيل أداة صالحة لِ الاستعمال. و لِ التغلُّبِ على هذه المعضلة، أعطاه الله ميّزة تَقَابُل الإبهام مع الأصابع الأُخرى. هذه الميّزة اقتصرت عليه فقط. لم يمنحها لِ فصيلٍ آخر من الحيوانات. و بعد تَمَتُّعه بِ هذه الميّزة، لاحظَ الله تطورا نوعيا في أدائه. أعجبته هذه العيّنة من الكائنات التي خلقها. ولَمّا كان قد حَدَّدَ لِلأفلاك نظاماً تسير وفقه، و لِ الحيوانات الأُخَر قانونها الخاص بها، فَ في هذه الحال، لا حاجة لِ إشغال نفسه بها. لذا، راح يشتغل، فقط، على هذه التجربة، على هذه العَيّنة. لاحظَ بِ أنَّ هذا الحيوان يستطيع الإمساك بِ الأشياء جيدا، و يستطيع التلاعب بها و تشكيلها كيفما أراد. و لاحظَ بِ أنَّ عضوه الذكري لم يتغيّر، لا شكلا و لا حجما، و أنَّه، هو نفسه (الإنسان الأوّل)، غير مبالٍ لِ هذه المسألة. لذلك رسمَ سيناريو خبيث، و هو إضافة عنصر جديد لِ المسرح. و هذا العنصر هو حيوان مثله، مختلف عنه جنسيا(أنثى). وراح يتخيَّل سلوكه وتصرّفه والمستجدات التي سَتطرأ على حياته. فعلَ ذلك دون أن يسأل الحيوان الذكر(الذي سَمّاه –الإنسان–) عن رأيه، أو رغبته في إشراك أنثى في حياته. و دون أنْ يسأله ما إذا كان راضياً و مرتاحاً هكذا دون أنثى في حياته. و السؤال الذي يتوجب على الله أنْ يرُدَّ عليه، هو:

لماذا كان المخلوق الأوّل ذكرا، و لم يكن أنثى؟

إلى هنا، لم يكن لِ سارو نصيبا في الوجود. أمّا بعد أنْ خلقَ الأنثى بِ تلك الطريقة الكوميدية الخرافية، فَ الأمر اختلف. راحَ الخالق يراقبهما، فورَ المجيء بِ الأنثى إلى مكان قريب من حدوده. شَرَعَت الأنثى في التقاط ثمار الأرض، و بعض الحشائش و الأعشاب. راحت تتذوَّقها، ترمي الضارّ منها و تأكل النافع.

كانت تحمل قصبة متوسطة الطول بِيدها. تستعملها كَ منكوش وكَمنبّه و مزمار. تصدر منها أصواتا مختلفة. بَحَثَتْ عن ماء لِ الشرب، عثرت على ينبوع مياه عذبة في الجوار. كانت تتسلَّق الأشجار لِ تقطفَ الثمار... تعرَّضَتْ لِ مواقف صعبة، أكثر من مرّة، و هي تتسلَّق و تنزل من على الأشجار، و ذلك لِ كثافة الأغصان و تفرّعاتها الرفيعة المنتشرة في اتجاهات شَتّى، و خاصة حين تعلق الأغصان، أو الفروع بين ساقيها، و لذلك لم تعُدْ تتسلَّقها.

ذات مرة، سمعتْ خشخشة و صوتاً يقترب منها. رأتْ حيواناً يشبهها، يحمل عصاً غليظا في يده مصنوعا من غصن شجرٍ. يضربُ ثمار الأشجار بِ عصاه. يأكل بعضاً من نباتات ذات سوقٍ ليليكيّة اللون. كان سائرا بِ اتجاهها دون معرفته بِ وجودها. اختبأت خلف شجرة ضخمة. راحت تراقبه. رأت جسده بِ وضوح، و رأت زائدة لحمية متدلّية تحت سرّته بين فخذيه، و أيضا لاحظتْ الكتل اللحمية المقطوعة من صدره. تَلَمَّسَتْ جسدها، و خاصة تلك الأماكن التي فيها اختلافات بين جسدها و جسد شبيهها. أصدَرَتْ صوتا من القصبة لِ معرفة رَدّ فعله على صوت القصبة. لكنه لم يأبه لِ ذلك، تابع سيره و كَ أنَّه سمعَ صوتا من أصوات حيوانات الغابة.عاودت إصدار الصوت، ولكن هذه المرَّة، من حنجرتها. في الحال، توقَّفَ مندهشا. تَنَحَّى جانبا إلى خلف شجرة كبيرة، و راح يتلمَّس هراوته الضخمة بِ كلتا يديه. نظرت الأنثى إلى حيث كان، فَ لم تجدْه في المكان. عاودتْ إصدار الصوت من حنجرتها. إنَه، لِ أوَّلِ مرَّة، يسمع هذا الصوت الذي لا ينتمي إلى الأصوات التي تَعَوَّد على سماعها. وحين أراد محاكاة الصوت، فشلَ في المحاولة الأولى. فَبَدَل الصوت، كان يصدرُ فحيحا وسُعالا مخنوقا. أمّا الأنثى، فَ أطلقت، هذه المرَّة، صوتا متقطِّعا وكَأنَّها تنطق أحرفا مجهولة. في هذه المرَّة نجحَ الذكرُ بِ إصدار صوتٍ شبيه لِ الصوت الذي سمعه. و حينها، صار الإثنان يصدران الأصوات، و كَ أنَّهما يفعلان ذلك لِ الاطمئنان و التعارف. و في الأثناء أظهرت

الأنثى نفسها له، و ما أنْ رأها، حتى أخذَ الحيطة، و راح ينظر إليها من خلف الشجرة. اندهش من الكتل اللحمية المتدلّية من صدرها، و من الجزء المقطوع من بين فخذيها. يبدو أنَّ جسدها لم يُثِرْ فيه أيّة أحاسيس جنسية، لِ أنَّه خُلِقَ هكذا كبيرا بالغا، لم يرضع حليبا، و لم يرَ أثداءً. لم يتحوَّل من الطفولة، عبْرَ المراهقة، إلى البلوغ، و لم يصدفْ أنْ انتصب ذكره أبداً. شرعَ الاثنان في إصدار أصوات مختلفة الدرجات و الحدّة. كانا يراقبان بعضهما، و يسجّلان ردود الأفعال على الأصوات المختلفة في ذاكرتهما الحيوانية. تختبئ الأنثى خلف الشجرة، و تصدر صوتا حادّاً، حينذاك، يركض الذكر و يختبئ خلف أقرب شجرة. يراقب محيطه، و يمدُ رأسه من طرف الشجرة لِيرى ما الذي يحدث، و لِ معرفة ما حصل لِ شبيهه الذي اختفى. بعد حين راح يبرطم بِ كلام غير مفهوم. إنّه مجرَّد أصوات متقطِّعة بِ نبرات متناوبة في الحدّة و الخفوت. قذَفَتِ الأنثى ثمارا كان في يدها بِ اتجاه الصوت. أحْدَثَ ارتطامه بِالأرض خَشْخَشَة و استقرَّ على بُعْدِ أمتار منه. رأى أين استقرَّ. خرجَ من مخبئه و سار منحنيا بِ اتجاه الشيء الذي رَمَتْه. أخذها و هو يتَلَفَّتُ يمنة و يسرة بِ حركات سريعة، تَحَسَّسَ الثمرة. قَرَّبَها إلى أنفه. عَضَّها بِ حذَر، وراح يتذوّقها وتأكَّد من صلاحيتها لِ الأكل. في الأثناء، أصدرَ صوتا خافتا في موجات منحنية غير حادّة، و كأنَّه يدعو شبيهه إلى مشاركته الثمرة. رَدَّتْ عليه بِمثلِ ما فعَلَ، و بِموجات قريبة جدّا لِ منحنيات صوته. قَرَّرَ كلاهما الاقتراب من بعضهما، و لكن بِ حذرٍ شديد. مَشَتْ نحوه، و هو أيضا مَشى نحوها.

صارتْ تبربر بِ أصواتٍ، و تؤشِّر إلى صدره بِ فَزَعٍ و اندهاش، و كأنها تبدي له أسفها و حزنها على المصاب الذي أَلَمَّ به. ربّما أثناء صراعه مع حيوانات أُخرى. و تغَيَّرَتْ نبرة صوتها، أثناء الإشارة إلى الجزء المتدلي بين ساقيه، و كانت تعابير وجهها تدلُّ على الرِضى، و المفاجأة من رؤيتها لِ ما بين ساقيه. بِ الطبع، هو الآخر كانت لديه نفس الانطباعات حول الزوائد و النواقص في جسدها. كانت

سَ تضحك من مشهد قضيبه المتدلّي، لكنهما لم يدخلا، بَعْد، طور الضحك. فَ مرحلة الضحك لا زالت بعيدة عنهما. الآن يمارسان حياتهما مثل أقرانهما، الحيوانات الأُخرى. اقتربا من بعضهما، تقلَّصت المسافة بينهما. راحت تلكزه بِ طرف يدها، لِ تتبيّن ردَّة فعله. بينما هو، مَدَّ يده إلى شعرها، تراجعت بِ شكلٍ خاطف، خوفا منه. لكنها تأكَّدتْ، بَعْدَ لَأْيٍ، من أنّه لم يقصد إيذاءها. اقتربَت منه، و راحت تنظر إلى قضيبه المتدلّي، شَبَّهته بِ المزمار الذي معها. صارت تتحدَّث إليه بِ لغة لا يعلمها إلاّ الخالق. كانت تقول له إنَّ هذا، مشيرة إلى قضيبه، مثل هذا، قَصْدُها المزمار، و ركَعَت على ركبتيها، أخذَت قضيبه في فمها و راحت تنفخ فيه، لكن دون نتيجة. لم يصدر صوت المزمار منه. أمّا هو، فَ راح يحدِّثها، بِنفس اللغة التي لا يعلمها إلاّ الخالق. يقول لها، مشيرا إلى نهديها، بِأنَّهما مثل تلك، قَصْدُه الثمار المعلَّقة بِتلك الشجرة. ضَمَّ ثديها بين يديه، معتقدا أنّها نوع من الثمار. راح يتذوَّقها من حلمتها لِ معرفة طعمها، أراد قطفها من صدرها، آلمها بِ فعلته. صرخت من وجعها وابتعدت منه. استغرب لِ هذا الشيء المعلَّق على صدرها. في الأثناء، أَطْلَقَ الله ضحكة مجلجلة، اهتزَّت النجوم من صداها. ضَرَبَ الكفَّ بِ كَفّ، و هو في قمة السعادة مما يرى من ردود أفعالهما لِ ما هما عليه. تركهما هكذا، في جهلهما(فاقدان لِ الغريزة الجنسية)، لِ بعض الوقت من الزمن السماوي. فَكَّرَ (فيما بينه و بين نفسه) بِ صراحة تامة، و طرحَ الأسئلة الوجودية و المصيرية، و خاصة، فيما يتعلَّق به هو ذاته: إذا اكتفيتُ بِ ما هو موجود، و بِ هذه الكيفية، فَ ما العبْرة من هذا الخَلْق؟ وضَعْتُ لِ الكون قوانين دقيقة، تتحرَّك وفْقها كلّ الأفلاك، فَ أصبحَ مُبَرْمَجاً، و لا حاجة لِ تدخّلي اللحظي، اليومي، الشهري، أو السنوي، في عمل الكون.

الحيوانات البرية و البحرية، وضَعتُ لها قانون التوحّش. و هم أيضا ليسوا بِ حاجة لِ تدخّلي في حياتهم، لا في البَرّ و لا في البحر، و لا حتّى في السماء.

بقي هذا النوع، أو هذا الفصيل، من الحيوانات، و الذي يمثّله هذان الكائنان. فَ إذا تركتهما هكذا، دون جنس و على هذه العفوية و البساطة، فَ المشروع سَ يكون قد انتهى، و الفشل سَ يكون قد أَفْسَدَ التجربة، و سوف أبقى وحيدا في هذه الرتابة الكونية. و لن يكون هناك كائناً يحبني، يكرهني، يتجرّأ عليَّ، يهابني، يعبدني. و لن يكونَ هناك مَنْ أهديه إلى طريق النجاح و الخير، و مَنْ أخدعه و أُضِلُّه وأجعله ينزلق إلى طريق الشَّر و الخديعة و المَكْر. في هذه الحال سَ أكون كَ أنْ لم أكُنْ، لا فرْقَ بين وجودي وعدمه؛ وبِسَبَبِ هذا الملل و الكآبة و اليأس، ربَّما ألجأ إلى تدمير ما خلَقْتُه، و كأنَّ شيئا لم يكن. و لِ أنَّني بدأتُ هذه التجربة، فَ سَ أُكمله حتى النهاية. و لِأنَّني أنا الخالق و سيّد الأكوان و الحياة، فَ يجب أنْ أكون ملكاً على كائنات يعبدونني، و أكون مرجعهم الأول و الأخير، القاضي الأوحد في حياتهم. أنا أمنحُ الحياة و أُنهيها متى شئتُ. فَ الغاية من تجربتي و هدفي منها، هو أنْ تستمرَّ لعبة الموت و الولادة، و أنْ يفتكَ هؤلاء بعضهم في بعضهم الآخر، و سَ أَضعُ بين أيديهم أسلحة مدَمِّرة لِ تنفيذ خطَّتي الكونية، أنا الله، أنا الخالق و أنا الماكر و المدمِّر.

أرسلَ الله نوعين، صنفين، من الأسلحة إلى ذاك الحيوان(الإنسان) المغَفَّل. النوع الأوَّل هو ذلك التقابل السحري بين إبهامه و أصابعه الأربعة الأُخَر، أمّا السلاح الثاني، فَهو البروتينات المنتجة لِ القنابل الذرية، بل النووية، لا بل أخطر منها و من الهيدروجينية، الا و هي القنبلة الجنسية، و التي رَكَّزَ إنتاجها في الخصى و المبايض. إذن أهدى الخالق آليتين لِ الإنسان الذي خلقه، و هاتين الآليتين هما ماكينة القتل والحياة، الموت و الولادة. كيف يقتلون بعضهم، و لماذا يقتلون بعضهم، و كم عدد الذين يُقْتلون في كلِّ مذبحة، هذا ليس مهمّا بِ النسبة لي، المهم هو أنْ يُدّمِّروا بعضهم و يذبحوا بعضهم، و من ثمّ ينكحوا بعضهم لِ إنتاج هذه الحيوانت المفترسة المتوحّشة الغبيّة. هكذا بدأت بروتينات الموت بِ الإنتاج.

اكتشفا سرَّ الجنس(ارتعاشة الخلايا) قبل الحُبّ. و حين بدأا بِ ممارسة الجنس، صار لِ سارو نصيبا في الوجود. أمّا الله، و لكي يجعل الحَبْكة متينة، مترابطة و متماسكة، و لكي يدفعهما لِ التكافل و التضامن في العيش معا، راح يعاتبهما على فعْلَتهما(ممارسة الجنس)، و رماهما، هكذا، بين أحضان الطبيعة متخلّيا عنهما، كَ باقي إخوتهم(الحيوانات) في الحياة. تأمَّلَ سارو في موضوع جَدِّه الأول منذ تشكيله من التراب، أو الرمل الناعم، و إنْ كان الله قد بَصَقَ عليه أثناء تصنيعه إيّاه، أمْ فَعَلَ شيئاً آخر، ربما يكون قد بال عليه. أمّا بِ خصوص علاقته بِ الأنثى التي خلقها الله دون أن يبصقَ، أو يبول عليها. تذكَّرَ حديثه مع خسرو الفارسي، أثناء زيارته لِ العشاق المزروعين في صفحة السماء، بين النجوم و الأحجار الفضائية. حينها قال له: أريد زيارة جَدّي الأول و إمرأته، هنا بين أيقونات هؤلاء العشّاق، و تذكَّر، أيضا، بِ أنَّ خسرو قال له، آنذاك: "بِ أنّهما لم يكونا عاشقين البَتّة، و إنَّما كانا أدوات لِ الإنجاب ليس إلاّ". أعادَ سارو تقييم الموقف، في مسألة عشق الذكر الأوَّل لِ الأنثى الأولى، و تساءل، لماذا سَ نعتبرهما عاشقين، أو حتّى حبيبَيْن؟ هل كان هناك أنثى أُخرى، أو ذكر آخر، كي يختار أحدهما الآخر من بين حَشْدٍ من البشر؟.

شَرَعَ سارو في التفكير عميقا في موضوع العشق، و ما حصلَ مع الإنسان الأول. هل عَشقا بعضهما، أم أدَّيا وظيفة معيَّنة مرسومة مُسْبَقا؟ دخلَ في مواجهة حادة مع ثنائية الروح و الجسد. الحُبّ و الغريزة. الخير و الشر، و بِ التالي، السماء و الأرض. صارت هذه الثنائية تقلقه، تلاحق تفكيره، في الصحو و المنام. باتَ رهيناً لها، و صارت نفسه تختلج و تنبعث منها موجات روحانية، و راحت تداعبُ الأثير الكونيّ، حتّى اهتزَّ محيط صديقه الفارسي، خسرو، الساكن في حدائق النُور، حدائقِ آهورامزدا. إنه يُرَنِّمُ أناشيد الحكمة و الحُبّ و الجمال، و يُرَتِّلُ أقانيم الصدق و الخير و السلام. أدرَكَ خسرو، بعد تحليل

الذبذبات الصادرة من نَفْسٍ أرضية، بِ أنّها تعود إلى صديقه العاشق سارو. عَرفَ بِ أنّه يعاني من مشكلة ما، أو قُل، معضلة حياتية. إنَّه امام منعطفٍ خطير. يبحثُ في موضوع يتعَلَّق بِ العرش السماوي، بِ عمَل الإله نفسه. قبلَ أن يتصلَ خسرو بِ سارو، راح يبحث في مَلَفِّ صديقه عن الرموز و التعاويذ السحرية، و التنبؤات و إرشادات الدراويش و العرّافين، لكي يقفَ على العوامل و المؤثّرات التي جعلته يواجه الأساس، المنبع، الأصل. قرأ في صفحة من ملفِّه. أنَّه في أحد أيام مايو، كان ماشيا في شوارع دمشق، و بِ الضبط، قبل القصر العدلي بِ خمسين مترٍ، و إذْ بِ عرّافة سمراء تتلقَّفه، و تعرض خدماتها عليه. انتبه سارو إلى شكلها، و توقَّعَ بِ أنْ تكون إمَّا من عربان بني إسرائيل، أو من إحدى دول الشمال الافريقي. لم تكن سمراء كَ سكّان مالي أو تنزانيا، و إنما سمرتها أقرب إلى الشعب الجزائري أو الليبي أو التونسي. كان شعرها أسودا فيه خصلات بِلون التراب الحديدي، أكثر فاتحا من لون الحنّاء، كان أجعدا و مُسْدلا على كتفيها فوق شال أصفر اللون معرَّقا بِخطوط خضراء. كانت الخرزات الملوّنة تتدلّى في عقد، ذي لَفَّتين، فوق صدرها الغائب خلف فستان مزركش. كانت تحمل حقيبة من قماش مشرشب، أو ما يشبه الحقيبة، و بِ التأكيد تحتوي على عدّة شغلها. كانت الأوشام واضحة على ذقنها و ظاهر كفّها، و كانت تكحيلة عيونها السوداء مبالغٌ فيها، و لم تكن تناسب عمرها، فَ هي لم تتجاوز الواحد و العشرين ربيعا. وافقَ سارو ضمنا أنْ يخوض هذه التجربة. لأنّه كان يُقَطّع الوقت، كما يُقال، سيرا على الأقدام في شوارع العاصمة، ريثما يحين موعد سفره إلى مدينته، العزيزة على قلبه، القامشلي. ولأنه، ومن ناحية ثانية، أراد أنْ يُجَرِّبَ علوم العرّافات، و قراءة الكَفّ، و خاصة بعد تأكده من أنَّ قارئة الكفِّ هذه تنتمي إلى ثقافة أُخرى. كان لديه موقف مُسْبَق من الدراويش والسّياد و التعاويذ و قراءة الغيب. كان يعتبرها خزعبلات وأكاذيب و احتيال على الناس. تباطأ في السير عند

حدودها، تاركا الفرصة لها كي تصطاده. تَعَمَّدَ اللامبالاة تجاهها، لِ يوهمها بِ الشطارة والذكاء في استدراج الزبائن إلى فخاخها. وعند اقترابه من مكان وقوفها، سمعها تقول: "تفضّل يا سيّد أقرأ لك مستقبلكَ، و اكشف لك حظَّكَ و نصيبك في الحياة. تفضّل يا أيها الشاب المهيوب، يا أسمر يا جميل يا محترم. فقط قُل لي ما اسمك، و أنا أكشف لكَ المستور من حياتكَ".

تابع سارو سيره بِ بطء. ألقى نظرة عليها دون أن يتوقَّف. في الحال أدركت غريزيّاً بِ أنَّ الصيد قد وقعَ في الفَخ. راحت تناديه هو بِ الذات، و تنظر في عينيه. اقتربَتْ منه، و عرَضَتْ عليه كَشْف المخبوء في أيامه القادمات. مشى معها إلى حائط بناية، و قَرْفَصا بِ مواجهة بعضهما. كانت تداعب كراتٍ من كهرمان، صفراء اللون فيها عروق حمراء خمرية، مصفوفة في سبحة جميلة. كانت تنبعث منها رائحة عطرٍ غجريّ ممزوج بِ بخار صمغ البخور، الباعث لِ التعبّد و الخشوع. كانت الأساور الفضية و أساور من الجلد البنيّ المحروق مشرشبة بِ خرزات حمراء و خضراء و صفراء ناعمة، تُزَيّنُ معصميها، و بضع خواتم من فضة و نحاس فيها فصوص من اللؤلؤ التقليد، تُزَيّنُ أصابعها الطويلة الناعمة. أمّا أذنيها، فَكانت مزيّنة بِ أقراطٍ دائرية كَ العجلات. فيها أسلاك دقيقة، وفي نهاياتها خرزات ناعمة جدّا كَحبّات العدس. سألتْ عن اسمه وتاريخ مولده، اسم أمّه وعمل والده. أجابها سارو عن كلّ المعلومات التي طلبَتْها، ولكن لم يصْدق في إجاباته. طلبَتْ رأيه في المطر، الثلج، البحر والعجاج. سألته رأيه في الحُبّ، وما إذا كان قد عَرِفَ الحُبَّ أمْ لا؟. بِالتأكيد، صحّة الإجابات أو عدمها لم تكن مهمّة بِ النسبة إليها. فَهذه الأسئلة هي من صلب عملها، و هو نوع من الإيحاء للزبون، بِأنّها مرتبطة بِمستقبله. وربّما الطرفين يعرفان اللعبة في هذه الجزئية.إنّهما يخدعان بعضهما بعضاً؛ أمّا المهم بِالنسبة للعرّافة، هو صوته (شدّته، حدّته، طراوته، حنّيته)، نبرته، طريقته، أو أسلوبه، في الكلام. انفعالاته

أثناء حديثه عن موضوع مُحّدّد، بريق عينيه. تأثير المفردات على تعابير وجهه وتَغَيُّرات نظرات عيونه، من الحزن، الغضب، السَكينة، التأمّل، الحُبّ...إلخ.
إنَّ قارئة المستقبل تعتمد على هذه العناصر.وبِحكم تراكم الخبرات التي حَصَلَتْ، وتحصلُ، عليها من خلال التعامل مع نماذج مختلفة من البشر، صارت تعرف، أو بِالأحرى، تكون قد كتَبَتْ في ذاكرتها المهنية،التحاليل والاستنتاجات و الحلول، لِ كلّ حالة على حِدى. فَ هؤلاء المنجّمون و قارئوا الكفّ و الطالع، و بِ سَبَبِ توارثهم المهنة من الآباء و الأجداد، و تأثّرهم بِ حكايات الجدّات عن الأشباح و الجنيّات، الملائكة و الشياطين، و بِ كيفية ربطهنَّ كلّ كائن اسطوريّ بِ حَدَثٍ أو ظاهرة معيّنة في حياة البشر، صاروا يتفنَّنون في التعامل مع الزبائن، لِ جهة رَبْطِ الأحداث الحياتية مع الظواهر الطبيعية و الأشباح و الرموز الفلكية و الخرافية. يستخدمون مهاراتهم المكتسبة بِ أدَقّ و أفضل ما يمكن. فَ صاحب الصوت المرتفع، مثلا، هو شخص مفرط في الثقة بِ نفسه، و قَلَّما يسمع مُحاوره، أو يستمع إلى الآخر. إنّه سريع الإنفعال، و يطلقُ إجابات سريعة، و أحكام قطعية، حدّية، نهائية. لا يساير الآخرين، و احتمال فشله في العلاقة العاطفية أكبر من نجاحه فيها. ليس عدوانيا. سَريعاً ينفعل، و سريعا يهدأ. أمّا الشخص الذي تسيطر دقائق الحكاية، أو الموضوع قيد النقاش، على انفعالاته، ونظرات عيونه، من حزنٍ وغضب فَرَح، فَهو شخص لا يعرف، أو بِالأحرى، لا يستطيع أن يكذب. إنها، بِالتأكيد، لم تهتم إنْ كان، سارو، قد صدَقَ في إجاباته، أمْ لم يَصْدقْ، عن اسمه و اسم أمّه...إلخ. المهم بِ النسبة لها، أنْ تسمعَ نبرة صوته، و ترى إلى عيونه، انفعالاته، و تلمسَ أصابعَ كَفّه. تنظر إلى باطن الكفّ، و خطوط الحياة و الموت، النجاح و الحُبّ. كان سارو قد تحدَّثَ عن فصول السنة بِ رومانسية و شفافية رائعة. حتى فصل الصيف الشديد الحرارة، و الذي فيه كانت المدينة تتعرّض، في كثير من الأحيان، إلى موجات حارّة و عواصف رملية أو ترابية. لم

تكن تلك الظروف القاسية من فصل الصيف تُشْغلُ مُخَيّلته، وإنّما الجَماليات التي يتذوّقها، و التي تتناغم مع روحه المرهفة. كان يتحدّث عن المساءات التي فيها كانوا يقضون أوقاتا جميلة. كانوا يسردون قصص عاطفية عن مراهقين من بلدان مختلفة وعن أفلام غرامية، والتي، غالبا، كانت تنتهي بِ فشل العشاق في قفزتهم الليلكية. كانوا يستمعون إلى أغانٍ من إذاعات ناطقة بِ العربية، تُبَثُّ من لندن و أمريكا وموناكو. كانت هذه الإذاعات تُقَدِّم برامج "ما يطلبه المستمعون من الأغاني العربية و الأجنبية". كانوا يلعبون لعبة العشاق الصغار، بِ التورية، فَ كان أحدهم يقول هذه الأغنية هي على حظي، وإن كانت أغنية عاطفية مشهورة، حينذاك كان يكتسب حظوة من بعضهم على حظّه من الأغنية، وخاصة الصبايا.و في الأثناء كانت الإشارات الخفيّة تنطلق من قلوبهم الصغيرة، وكانوا يشعرون بِ سعادة روحية أكثر منها مادية، جسدية. أمّا عن الشتاء، فَ كان يتحدَّث عن العصافير التي كانت تقفُ على أغصان الأشجار بين وريقاتها.على عرائش الدوالي وهي منفوشة الريش. و عن قوس قزح التي تُبْهِجُ ناظريه. عن الثلج الناصع البياض، وكيف أنَّهم كانوا يخلطونه مع دبس التمر ويأكلونه بِشهيّة. كان يتحدّث عن عيد الميلاد وبهجته في حياتهم. كانوا يقاومون سلطان النوم، يبقون يقظين إلى أنْ تأتي الفُرَق الغنائية، وجوقات المرتّلين مع آلاتهم الموسيقية يمرّون من الحارة، وفي الحال كانوا يخرجون إلى الشارع ويملأون أنظارهم بِهذه المشاهد الجميلة، و بِ ملابسهم الخاصة لِ هذه المناسبة. كانوا ينظرون إلى آلاتهم الموسيقية بِ إعجاب و دهشة. كان يتحدّث عن احتفال رأس السنة، و كيف أنّهم، و في الساعة الثانية عشر من منتصف الليل، و حين كانت تُطْفأ الأضواء، كانوا يتمنون أمنيات خاصة بينهم و بين أنفسهم لِ السنة الجديدة. لم يأبه لِ الليالي التي فيها كانوا يستيقظون من النوم بِ سَبَبِ دَلْفِ مياه المطر من سقف الدار.كانوا يأتون بِ الطناجر و مواعين التَنَكْ، والخوابي الفخّارية، و

يضعونها على أرض الغرفة تحت مكان الدلف، طبعا كانوا يرفعون الفِراش إلى زاوية ليس فيها تسرّب من السقف. كانوا يتابعون النوم بِ مصاحبة موسيقا الطَرْقِ، حيث قطرات المياه الساقطة من السقف في الطناجر ومواعين التوتياء (التَّنَك)، كانت تُحْدثُ صوت الطرق والدَّق. يتمدَّدون في فِراشهم إلى أنْ تأخذهم الغفوة رَغْما عنهم بِ سَبَبِ النعاس؛ و عن الخريف، كان يقول واصفا تَبَدّل لون الطبيعة تدريجيّا: "إنه مشهد خيالي جميل، لا يمكن لِ أيّة ريشة أنْ تُحاكيه". كان يتحدّث عن سقوط أوراق الأشجار بِ حُزْنٍ، و كأنّها كانت تَلْفظُ أنفاسها الأخيرة، و هي تهوي على الأرض جثّة طريّة. و كان يَصِفُ رائحة الأرض أثناء المَطْرَة الأولى، و يُشَبّهها بِ رائحة العذراء في ليلتها الأولى. أمّا حديثه عن الربيع، فَ لا حاجة لِ ذِكْرِ أيّ شيء عنه، لأنّه، هو ذاته، عنصر من عناصر الربيع. كان سارو قد اختار لِ نفسه اسما حياديا، و قَدّمَ نفسه لِ العرّافة بِ اسم ناجي. فَعَلَ ذلك لأنّ الأسماء تَجْلِبُ مشاكل لِ أصحابها في هذا الشرق العُصابي الأصولي. و في الوقت نفسه، هناك أسماء تفتح طاقة الفرج لِ أصحابها، و أيضا، في هذا الشرق الأصولي المريض. كانت هناك أوراقا في دفاتره لِ كتّابٍ ينتمون إلى هذا الشرق، من المحيط الهندي إلى الأطلسي. تلك الأوراق تحتوي على كتابات في هذا الموضوع، و منها هذه الورقة، و ربّما صاحبها يكون من الطوارق، أو الأمازيغ، أو الأراميين. يقول صاحبها:

"ها أنَذا أتمرَّغُ في الأوحال و الأوساخ، و التراب ينهال على جراحي وسطَ هذه الأوطان الممتدة من المياه إلى المياه. إنّه اسمي الذي قطع الوريد من الطرَفِ إلى الطَرَف، لا فَرْقَ، إنْ كان في العُنق، أو الساعد الأيسر. لماذا يا اسمي الحبيب تفعلُ بي هكذا؟ هل الجلاد هو أنت، أم هو التاريخ العاصف بعدَ بيلاطس البنطي في شرق المتوسط؟ ربّما يكون الجلاّد هو المكان، لكنه لا ينفصل عن أسلاف السيوف في الآبار السبع، أو بئر الزمزم تحت الهيكل، أو الحائط

المقدّس، أو النفق المحفور تحت المكعَّب الأسود. إنّكَ نغشي الذي أَخَذَني إلى هذا الجحيم المقدّس. إلى هذا الجحيم الذي يرقد في قاعه أصحاب العمامات و القلنسوات الربّانية. ما لي و هذه الأسماء الإلهية، أَ لَم تُدْركْ بِ أنّهم مجموعات الله في هذه البقعة العجيبة؟ لماذا سَحَبْتني إلى ساحة الله؟

كنتُ أعلمُ، من اسمي الذي لم أختره، بِ أنّه ضدّ قواميسه العجيبة، في قِفار هذا الشرق المخيف. رَمَيْتَني في أرض السيكلوب، أرض العملاق بوليفيم، حيث القادم إليها عدوّ، و قطعة شِواء على مائدة المارد الأهوج. لا فرقَ بينه و بين نِعاجه فوق النار، فَ سَيّدُ الأحكام هو بين الناب و اللسان.

رَحَلَ الذي كتبني حروفا غريبة على وجهكَ يا سيّد الشرق. رَسَمَ حلمه المستحيل على صفحة البارود. لم يكن يعلم بِ أنّه يَضَعَ كَبْده فوق فوهة البركان، ويضع لونا من خارج القوس في دفتر الرسام، ولم يُقَدِّر شقائي في زحمة الألوان.أَ تَراني كما أرى روحكَ فوق جراحاتي التي أحدَثْتَها في روحي بِ براءتكَ المعهودة؟.

قُلْ لِ الخالق العطوف الجبّار المكّار، بِ أنّكَ راغبٌ في ترتيب الحروف، و إعادة الانسجام بين المكان و الزمان، و فَرْز الأبجديات، من جديدٍ، على الأقوام. فَ النخيل لا ينبت على الدانوب، كما الجوريّ لا يعيش في الرمال، فَ لماذا وضَعْتَ الروح بين النصل و البارود؟. إنّني، اليوم، أُقَدِّرُ ما فَعَلْتَ من وحي الخيال، و ما كان يفعله الحالمون قبلَ قرون هناك في الشمال. يا ليتني ولِدْتُ عند قصيّ في بلد الرمال، أو في زمن امرئ القيس تحت قبّة الشعراء. كان ذلك أفضلَ لي بِ آلاف المرات من هذا الهامش الرافض لِ اسمي الغريب في هذه الساحة المزدحمة بِ البيارق و النياشين. لِ الوطن اسم في المعجم الشرقي، و الاسم يكون وطنيا فقط في المعجم الشرقي، و الشرق في تعريف الشرق، هو وحيُ الله في الشرق المرعب. و كلُّ اسمٍ بعيدٍ عن أسماء الله الحسنى، هو عدوّ الله و الوطن في هذا الشرق العجيب. فَفي وَجْهِ مَنْ تَضَع روحك على كَفِّكَ، و لِ أجل أيّ وطنٍ تخترق

حقول الألغام؟. فَتَّشْتُ عنكم يا حروفي التي أُحبُّها، كما الأرض التي احتضَنَتْ ظهر أمّي عند الولادة. فَعَلْتُ ذلك بعد الحصار الرهيب، وعزلتي المرعبة، و غربتي الخانقة، تحت النجوم التي أَبْصَرْتُها للمرَّة الأولى. رحتُ أسأل اسمي سَبَبَ الجفاء بين المكان و بيني. يجيئني الردّ عبْرَ الوسطاء القابعين في خيمة المختار، مِن أحفاد عبد شمس و مناف، بِ أَنَّني ضحيّة الربِّ منذ ابراهيم و كبشه المقدّس. فَ مَنْ منكم أراد تقديم قربان لِ الخالق، فَلْ يأتِ إليَّ. فَ أنا هو قربانكم و سبيلكم إلى الخلاص. ارموا أحمالكم عليَّ، فَ خلاصكم هو في اسمي، كما ذنوبي هي في اختيارات والدي لِ اسمي، وذنوب والدي هي في اختيارات الله لِ ترتيب الكون. إنَّ والدي كان قد وضَعَ ثقته المطلقة في عدالة الله ومحبّته للبشر. لم يرَ الذي حصلَ و يحصل تحت أنظار الله. هيّا يا أَبَتِ قُمْ بِ تصحيح الاعوجاج مِنْ جَذْره، فَ الزمن هو أنت، المكان هو أنت، و كلُّ الظلام هو ملك يديك، فَ لا تبخل بِ نبراسك على البشر. قُلْ لهم أنَّ الأسماء كلَّها واحدةٌ لديك. لا فَرْقَ بين الجهات في مقلتيك. ها أَنذا أعترف بين يديك، بِ أنني أَفْزَعْتُ روح فراشة كانت تحوم على الأزهار تحت ناظريك. فَ أنا هو الاسم الذي يرفضه الوطن، و وطنٌ بلا اسم، و اسمٌ بلا وطن".

كانت العرّافة قد كَوَّنَت فكرة شاملة و دقيقة عن شخصيته، طبعا بعد استماعها لِ حديثه وصوته. استطاعت الولوج إلى داخل نفْسه، وذلك بِفَضْلِ خبرتها المكتسَبة من قدمائهم، و خاصة من تجارب جدّتها و نصائحها الرصينة في قراءة سيماء الوجوه، ونبرة الأصوات ونظرات العيون. داعَبَت كرات الكهرمان بين يديها، و هي تنظر إلى عيونه. يا ناجي! قالت العرّافة: قبل أن تتحدَّث، و قبل أنْ أتمَعَّن في تفاصيلك، من الكلام والصوت والعيون والتنفُّس وفواصل الكلام، و عند رؤيتي لكَ لِ الوهلة الأولى، مَشْيَتكَ، قوامكَ، لون بَشَرَتكَ، نظرتكَ الخاطفة إليَّ، حينذاك كتَبْتُ سيناريو، في مخيّلتي، لِ مستقبل حياتكَ، كنتُ سَ أقول لكَ التالي:

"يا ناجي إنكَ شاب فَطِن، ذكي، و إنَّك تُخَطِّطَ لِ مستقبلكَ بِ شَكلٍ جيّد. سَ تكون ناجحا في حياتكَ واختياراتك. سَ تنضم إلى صفوف الجيش المصري، وسَتخدمُ في القوات المسلّحة المصرية ضابطا عالي الرتبة.سَتصبح قائدا للجيش، و سَ تكون مَحَطّ أنظار النساء و الفاتنات، و إنّي أرى جِهات مجهولة من الجزر و الممالك المتناثرة، وحُرّاس المغاور والكهوف والهياكل المقدّسة يحيكون أفخاخاً شيطانية لِ الإيقاع بكَ. سَ يجبرونكَ على تشويه و تزوير تاريخ الفراعنة، و تدمير الثقافة المصرية المرتبطة بِالأهرامات والمومياءات الفرعونية. أمّا أنتَ، فَكنتَ سَ ترفض الانصياع لهم وتنفيذ مخططهم. عند ذاك، كنتَ سَتُشنَق بِتهمة الخيانة العظمى. يا ناجي! إنّكَ مهدَّدٌ من قِبَلِ الطاقة فوق النفسية، الطاقة الما بعد النفسية.الطاقة الغيبية. و بناءاً على صفاتكَ و التشابه بينكَ و بين الذين كانوا ضحايا لِ سموم أشخاص يتسلَّلون إلى الذات الخفيّة لِ المرء.أخشى عليك منهم. إنّهم يسمّمون حياتهم و يبثّون فيها نبضا سلبيا لِ أسباب متعلقة بهم قبل كلّ شيء. هؤلاء قادرون على تغيير نظرتك إلى الحياة و التأثير في قراراتك المصيرية. هؤلاء إنْ قَرَّرْتَ إبقاءهم في حياتك، لا تسألهم نصيحة، أو تطلب استشارة منهم، لأنهم يقيسون الأمور انطلاقا من أَنْفُسِهم و تفضيلاتهم. في المقابل، مَنْ يتحلّون بِ الثقة في النفس، يشكّلون مصدرا لِ الدعم و الإلهام و مساعدة الآخرين و بَثّ النبض الإيجابي متى وُجِدوا. و هناك مَنْ يلومون الآخرين على أخطائهم. هذا النوع من الأشخاص لا يُقرُّ بِ خطأ ارتكبه. هؤلاء يجدون دوما سبيلا لِ لوم الآخرين على أخطاء ارتكبوها، أو على أيّ حادث يصادفونه، و السبب بِ بساطة، هو في عدم تحمّل المسؤوليات. هؤلاء هم مِنْ أسوأ أنواع الشخصيات التي يمكن أنْ تصادفها في عملك. أمّا فئة السلبيين، فَ هم قادرون على امتصاص كلّ ما لديك من طاقة إيجابية. كلّ ما لديك من حماس لِ القيام بِ مغامرة، أو إتمام أيّ عمل آخر. إنّهم بِ بساطة لا يرون إلاّ الجانب القاتم من

الأمور، و يركّزون تفكيرهم على الاحتمالات السلبية مهما بَدَتْ احتمالات النجاح كبيرة. لا تتوقّعوا سماع أيّ كلمات تشجيع من السلبيين، فَ هم أعداء النجاح و الفرح. أبعدوهم من حياتكم. أمّا الكاذبون، فَ من الطبيعي ألاّ تثق بهم. فَ هؤلاء لا يمكن معرفة ما إذا كانوا يقولون الحقيقة أم لا. على الصعيد المهني، يجب الابتعاد من هذا النوع من الأشخاص، لأنَّ الكذبَ يمكن أنْ يتسرَّبَ إلى نواحي عملية مختلفة قد تصل إلى السرقة التي ليس بِ الضرورة أن تقتصر على المال، بل على المعلومات و الأسرار المهنية. وأخيرا أريد أنْ أنبّهَ من فئة النمّامين، فَ هؤلاء همُّهم الثرثرة ونقل الأخبار و تحويرها. هؤلاء قادرون على مجالستكم، وفي اليوم التالي نقل أخبار مسيئة عنكم. قادرون على تحوير الحقائق وقلب الوقائع رأسا على عقب. أحيانا، ومن دون أنْ يدركوا، يتسبّبون لكم بِ مشكلات مع طرف ثالث. لذلك سارعوا إلى وضعِ حَدٍّ لِ هذا النمط من الأشخاص، أو اختصار العلاقة بِ الحدّ الأدنى". ابتسم ناجي(سارو) لِهذه المعلومات التي قَدَّمَتْها. أُعْجِبَ بِ هذا التحليل الباراسيكولوجي لِ الطاقات السلبية التي قَدْ تؤثّر في سلوك ومستقبل الأنسان، ووجدَ لها العذرَ في مخاطبتها إيّاه في سياق حديثها عن الطاقة السلبية بِ صيغة الجمع في أغلب الأحيان، لأنها شَمَلَته مع آخرين، حين قالت: "أنتَ و الذين يشبهونك". ويمكن أنْ تكون فقرة محفوظة عندها كَمعلومات مهنية، هكذا تُتْلى على مسامع الزبون، لا أكثرَ ولا أقَل. طَلَبَ منها قراءة طالعه(مستقبله) الآن، بَعْدَ أنْ سمعته و رأتْ ملامحه عن قُرْب، بِ الرغم من أنّ القراءة التي قَدَّمَتها كانت في العمق، و ذات دلالات روحية و نفسية. وضَعَتْ مسبحة أحجار الكهرمان جانبا. وأخذّتْ رقعة جلدٍ مدبوغة بِمهارة عالية، لونها بنيٌّ كَ لون لحاء أشجار السنديان والصنوبر. ذات رائحة زكيّة. فيها بضعة أسطر مكتوبة بِ لغة غريبة، ربّما هي لغة المصريين القدماء. فيها أيضا أشكالاً شبيهة لِ تلكَ التي تظهر على مقابر الفراعنة. نظرَتْ إليه مُجَدَّدا، و نظرَتْ إلى رقعة الجلد. راحت

تتمتم دون صوت، و كَ أنَّها تتحدَّث إلى أرواح أسلافها لِ معرفة أسرار مستقبل الشخص الماثل أمامها.أخْرَجَت كَعْبَين من حقيبتها الجلدية. وضعَتْهما في زاويتين متقابلتين قطْريّا على رقعة الجلد التي أمامها، وشَرَعَتْ في قراءة السطور بِ صمت. بعدَ قراءة مقدار ثلاثة سطورٍ من التميمة الجلدية، رفَعَت الكعبَ الذي في الزاوية العلْوية و وضعته في الزاوية المقابلة، أفقيّاً، لِ الكعبِ الذي في الأسفل. رفعَتْ رأسها ونظرت، ثانية،إلى عيون ناجي لِ لحظات. و في الأثناء ، بدأتْ بِ الكلام، و هي ترفع الكعبين و تدسُّهما في حقيبتها الجلدية المشَرْشَبة، قالتْ:"لا أدري يا ناجي، هل أحْزَن عليكَ أم أفرح لكَ؟ بياناتكَ كلّها، أو قُلْ أكثر من تسعين في المئة منها، تقول بِ أنَّكَ عاشق، أو بِ الأصَح، أنّكَ حالمٌ، غارقٌ في الخيال، تسبح في جرن الألوان المقدَّسة.لا مستقبل لكَ في السياسة. سَ تفشلُ في العمل السياسي.لا تستطيع أنْ تكونَ قائدا، أ تَعْرف لماذا يا ناجي؟ لِ أنَّ القائد مُجَرَّدٌ من العواطف و الأحاسيس. القائد مخادع، منافق، ماكر و غَدّار. لن تكون تاجرا و لا صاحب مال. سَ تَفْشَل في الزواج، أو بِ الأحرى، أنتَ مشروع أبٍ حنون و ناجح، و لكن أنتَ زوج فاشل. سَ تَمرُّ في حالة عشقٍ جارف، و أعتقد بِ أنَّكَ الآن عاشقٌ ، بل أنا متأكِّدّة بِ أنّكَ مُصابٌ بِ داء الحُبّ يا فتى، لا بل الهيام، يا ناجي. نعم أنتَ عاشق، عاشقٌ منذ الولادة، بل قبل أن تولَد. أنت عاشق قبل أنْ تُقْذَفَ مكوّناتكَ في ظلمة المياه الأبدية. كنتَ متشَبّثا بِ مستقرّكَ البدئي، و حين كنتَ شرنقة في البيضة الكونية، راحتْ جزيئاتكَ تُثْقِبُ جدار البيضة، و تفلَتُ من قوى الجذب الهائلة التي كانت تربطكَ ب ظُلْمَةِ الهيكل الكلسي. تَفْلَتُ نحو القبة الزرقاء المرصَّعة بِ الجزيئات البرّاقة من الماسات الدقيقة. رحتَ ترضع من حلمة الأمِ الكونية حُبّاً نقيّاً. أخَذَتْكَ أمَنا في حضنها، تُهَدْهِدُكَ بين ذراعيها و تحقن جرعات الحُبّ في روحكَ. تعزفُ ألحان السماء في مَسْمَعك. و في تاريخ مولدك، اندلَقْتَ من رحمها نحو مجارير الأرض. بَقَيْتَ معلَّقا بِ مشيمتكَ المتدلّية من رحم

امّنا القمر، حتى التمع البرق وقَطَعَ سرَّتكَ من السماء، لكنَّ إله الحُبّ كان قد حَقَّنَ اكسير العشْقِ في دمائكَ. وجدتُ في صفحتك إشارة تدلُّ على رقم ثلاثة.و صفحتكَ بيضاء خالية، إلاّ من أجنحة الفراشات وأزهار الياسمين والعسليات. وأنا أُفَسِّر لكَ الإشارة تلك، فَ هي تعني بِ أنَّكَ سوف تعاشرُ حبيبتكَ ثلاث سنوات، في حُبٍّ جارف، لا بل، في عشْقٍ إلهيٍّ لا سطوة لِ أُنْسيٍّ على مساراته. ومن ثُمَّ سَ يأتي الأرضيّ كَيْ يُفَرِّقَ بينكما. لأنه سَ يُخَيّرُكما بين الزواج أو أنْ يذهبَ كلٌ في طريقه. هكذا يقول الذي يدير الكون، و يرسم الأقدار.

أَخْرَجَتِ الكعبين، ثانية، من حقيبتها الجلدية المشرشبة. وضعتهما على الرقعة الجلدية التي أمامها، و شرعت في تقليب الكعبين، أو رميهما معا على التميمة الجلدية التي تقرأ منها. الذي يهمها في هذه الحركة، هو وضعية استقرارهما. فَ الكعب له أربع وضعيات لِ الاستقرار، أو التوقف عليها. فَ إمّا أنْ يستقرَّ على كتفه الأيمن أو الأيسر، وإمّا على بطنه أو على ظهره، ومن النادر جدّا أن يقفَ، أو يستقرَّ على أَحَدِ رأسيه، وإذا ما حصل، واستقرَ الكعب على أحد الرؤس، فَ ذلك يعني، أنَّ الشخص الذي يحظى بِ هذه الوضعية لِ الكعب، سَ يكون له مسقبل ملَكيّ لا محال. في حالة ناجي، فَ قد رَمَتِ الكعبين معا لِ مرّات ثلاث. في المرّتين الأولى و الثانية استقرّا على كتفيهما الأيمن، أمّا في المرّة الثالثة، فَ قد استقرَّ أحد الكعبين على رأسه، أمّا الآخر فَ قد استقرَّ على كتفه الأيمن.

جمعَت الكعبين في يدها و راحت تقرأ في التميمة الجلدية التي أمامها. نظرت إلى يديّ و عينيّ ناجي، و بعد برهة من التأمّل، قالتْ:"سَ يأخذكَ القدر العاقل، أو... ماذا أُسَمّي هذا الشيء... أريد القول بِ أنَّ الطاقة الزرقاء، أو، صديقٌ لكَ بين النجوم و الكواكب، سَ يحملك إلى مكانٍ تقابل فيه كائنا نصفه حيوان و نصفه الآخر إنسان، أو حيوان بِ رأس إنسان. سَ يدور بينكما حديث في العمق و سَ يطلب منكَ أنْ تصعدَ فوق كتفه و تُرْسلَ بصركَ نحو النقطة التي، هو، ينظر

إليها، و في الأثناء سَ يأتي طائر ضخم كَ الرخ، أو العنقاء، و يَحطُّ على مثلثٍ عملاق خَلْفَكما. إنه بناء ضخمٌ قاعدته في الأسفل، على الأرض، و رأسه في السماء. سَ تُشَكّلون لوحة تاريخية. أنتَ فوق كتف الحيوان العاقل، و نسرٌ ضخمٌ فوق رأس المثلث، هو الآخر ينظر حيث تنظران أنتَ و الكائن الذي تقفُ على كتفه. هذا التكوين المؤلّف من العناصر الأربعة(أنتما و هما) سَ يُحَدِّدُ زمنَ إطلاق الرجوم من السماء على المكان الذي تنظرون إليه. سَ يتمُ تدميره بِ الكامل، و سَ يُسَوّى بِ التراب. سَ تسبق إطلاق الرجوم مَقْتَلَة رهيبة في العالم بِ اسم الآلهة و الشياطين". طَوَتْ قطعة الجلد و دَسَّتها، مع الكعوب، في حقيبتها الجلدية. أَخْرَجَتْ مسبحة مدروزة من خرزات ناعمة ملوَّنة، متوسطة الحجم، طولها ما بين (35– 40)سم، كَوَّرَتْها بين يديها، و راحت تفركها بِ نعومة و بطء. أخَذَتْ يد ناجي، اليمنى، بين يديها، بعد أنْ وَضَعَتِ المسبحة على الأرض بينهما، وراحت تنظر إلى الأصابع والسلاميات وخطوط الحياة و الموت، الحُبّ و الكراهية، النجاح و الفشل، و تُقارن أطوال أصابعه بعضها بِ بعضها الآخر. فَعَلَتْ ذلك مع اليد اليسرى أيضا. أخَذَت شريطا بلاستيكيا، ذهبيَّ اللون، من حقيبتها، رَكَّزَتْه على رأس السبّابة و مَدَّتْه نحو الخنصر، فَ كانت نقطة التقاطع، أو نقطة التقاء الشريط البلاستيكي مع الخنصر في أسفل السلامية الأولى منها، أيْ أنَّ أصبع الخنصر أطوَل من أصبع السبّابة. كانت أصابعه رشيقة كما الشموع، و هي لاحظت ذلك، و كانت تداعبها لِ التأكّد من كلّ ذلك. قالت له: "يا ناجي! أنتَ مكانك ليس على الأرض. إنّكَ أتَيْتَ، أو بِ الأحرى، ولِدْتَ في المكان الخطأ، بل، ولدتَ بِ الخطأ. في كلِّ الأحوال، سوف تعاني كثيرا في هذه الحياة، بين هؤلاء البشر. أنتَ إنسان حالم منفصل عن المادّيات. لقد حَفَظْتُكَ بِ دقّة، و سَجَّلْتُ كلَّ بياناتكَ في ذاكرتي القمرية. يمكنكَ التواصل معي،

و يمكنني مساعدتك حين تطلبُ ذلك. و أريد منكَ عنوانا لِ التواصل معكَ، و من خلال الكتابة إليك سَ تعرف عنواني كي تكتبَ لي عندما تريد".

-16-

في نهاية السنة الثانية بعد عودته من بلاد الرفاق، بدأت استحقاقات الرابطة الكنسية و الأعراف الاجتماعية تَدُقُّ بابه. حين ضَبَّ أمتعته في حقيبة السفر نحو جامعات الرفاق، كانا اتفقا، هو وندى، أنْ يكونا معا، و لكي يتمَّ ذلك كان عليهما أنْ يرتبطا أمام الأهل و الناس جميعا بِ رابط كنسيّ، يُضفي شرعية مقدَّسة، و رهبة اجتماعية على ارتباطهما بِ بعضهما. المسألة عند سارو كانت من أبسط ما يكون. كانا يحلمان، حينذاك، بِ الدراسة معا في جامعات الرفاق، و العيش معا دون أنْ يكون في ذهنهما الزواج، أو على الأقل، سارو لم يكن في ذهنه و مخيّلته كلمة زوجة، أو زواج. الذي كان في ذهنه و حياته هو، فقط، أن يبقيا معا. أمّا كيف و بِ أيّة طريقة، و وفْقَ أيّة شرعية، و هل يجب أنْ يُشْهِدَ الناس على ارتباطهما الطوعي معا؟ كلُّ هذه التفاصيل لم تكن تشغلُ باله، ولم يكن مهتما بها. هكذا، بِ كلِّ بساطة، ودون أنْ يقيما وزنا لِ ما سَ يُقْدِمان عليه -الارتباط الكنسي و الاجتماعي-. طبعا أعمارهما لم تكن تخوّلهما لِ الخوض في هكذا مجازفة، و خاصة، التكوين الروحي و الفلسفي، لِ سارو، تجاه العادات و التقاليد والأعراف الاجتماعية، وأيضا نظرته،أو موقفه الرافض لِ الطقوس الكنسية و قوانينها. كانا يضحكان من منظرهما وهما يسيران في الشارع معا، بعد الارتباط وفْقَ الشروط والقوانين الاجتماعية والسماوية، لِ أنّهما كانا يلفتان أنظار أهل الحارة، وخاصة النساء و الصبايا. كانا يتصرّفان كَ العشّاق، و ليس كَ خطيبين. سارو لم يكن يعرف العادات و البروتوكولات التي يجب التقيّد بها، أو قُلْ، لم يكن يعترف بِ الأعراف و العادات و البروتوكولات، حتى و هو في ذلك العمْر الصغير نسبيا. و لذلك، وعند الاستحقاق القطعي، أيضا رفض الالتزام بِ الخضوع لِ ذلك الموروث الديني و الاجتماعي، كان الانفصال. هو لم يُصدِّق بِ أنَّهما لن يلتقيا

بعد ما حصلَ اجتماعيا، و أيضا أمام الشهود. تابع سارو دراسته في حلب. مضى ثمانية أشهرٍ على انفصالهما. و في غمرة انشغاله في الواجبات الجامعية، و تسكّعه في الشوارع و المتاحف و الحدائق التي كانا حاضران معا في هاتيك الأمكنة. سَمِعَ نبأ قدوم المغني اليوناني ديميس روسس إلى حلب لِتقديم أمسية (حفلة) غنائية في مسرح القلعة. لم يكن يملك النقود لِ حضور الحفلة، فَ رَسْم الدخول كان بِمقدار اجار شهر لِبيته. وفي ليلة الحفلة،ذهبَ إلى ساحة القلعة. من هناك راح يستمع إلى صوت ديميس. جلسَ على المقاعد الحجرية. افترش الأرض المعشوشبة في الحدائق المحيطة بِ القلعة. يستمع إليه تحت نور القمر الفضي. كان يهتزُّ في محطات غنائية معيّنة، وحين بدأت موسيقا الأغنية الأثيرة على روحه(Goodbye my love goodbye)، انتابته برديّة و انتصبت شُعيرات وجهه ويديه. اقشعرَّ بدنه و تسارعَت دقّات قلبه، و راحت عيناه تدمعان. في قلب الأغنية تراءى خيال ندى أمام ناظريه، كانت صورتها تتماوج في الغَبَش الذي طغى على عيونه. غَلَبه بكاء حزين، بكاء عميق. ابتعدَ إلى مكان منزوٍ بعيد عن الناس، و أشْبَعَ نفسه بِ البكاء على فراق ندى. ترى هل تَقَصَّدَ المجيء إلى محيط القلعة لِ الاستماع إلى صوت ديميس، وهو يعرف يقيناً بِأنّه سَ يغنّي نفس الأغنية التي لَوَّنَتْ وريقات براعمه. الأغنية التي قَدَّمَتْ له طعام الآلهة؟ هل جاء كي يُنَفِّذَ حُكْمَ الحُبّ و يُسَدِّدَ ضربية الفراق عن ندى؟، هل جاء كي يُعَذِّبَ روحه، هل جاء لكي يتألَّم؟. أمضى قرابة الثلاث ساعات عند القلعة. ثمّ عاد إلى البيت مَشْياً على الأقدام. كان الطريق هو الذي يأخذه إلى البيت. كان غائبا عن العالم. وصلَ إلى البيت في ساعة مجهولة. استيقظَ في اليوم التالي وهو لا يتذكَّر كيف عاد ومِنْ أيّ الشوارع، و كم من الوقت استغرق في الطريق. مشى بِ اتجاه بيتها، ضاربا الأعراف و التقاليد الاجتماعية عَرْضَ الحائط. لم يكن يعلم عواقب الارتباط الرسمي أمام المجتمع والكنيسة، ولم يكن يعلم عواقب أن تتحَلَّلَ من ذلك

العقد الكنسي الاجتماعي الإرهابي. كانا يلتقيان سرّا في الحدائق و المتنزّهات و مقاصف الجامعة. لكنها كانت بداية نهاية العلاقة العاصفة بينهما. كان سارو يفضفضُ معاناته وأحزانه من خلال طقوسه الصوفية الرومانسية، وكتابة تأملاته و يومياته غير العادية. في الليل يطفئ النور في غرفته. يُشْعلُ الشموع ويحرق قليلا من البخور. يُشَغِّلُ آلة التسجيل لِتصدح بِالموسيقا الكلاسيكية والرومانسية. يرتشف العرق بطيئا من كأسه. يضعُ سيكارته،الحمرا القصيرة، في فمه ويُشْعِلها من لهب الشمعة. يصنع دوائر متداخلة من دخان السيكارة، و يذهب معها في فضاءات غرفته. يلاحق الأشكال التي تنبثقُ منها. يرى من ضمن تلك الصور والتشكيلات، طيورا وفَرَاشات وأزهار، و أحيانا يتهيأ له أشكال صبايا كَ الحوريات يتمايلن بِ رقّة و نعومة. في هذه الأجواء، وبعد أنْ يكونَ العرق قد حَرَّرَ دماغه من التابوهات، وأَطلَقَ العنان لِ خياله، يشرعُ في الكتابة. يأخذ القلم و الأوراق البيضاء، و يبدأ حوارهِ معها. يتغزَّل بِ الصفحة البيضاء، يخشى الاقتراب منها كي لا يخدش عذريتها. وهي بِ دورها تثير حواسه و تدغدغُ خياله إلى أنْ يصلَ إلى الذروة في انفعالاته، حينذاك يغيب في متاهات الصفحة في رحلة عشْقٍ و وجدٍ عميقين. و هكذا بدأ. رأيتُ صبيّة من دخان تمسكُ بِ خيطٍ مشدودٍ إلى رسم عصفور صغيرٍ. تركض كَالأطفال في رَوْضٍ ملوّنٍ. كانت تتمايل بِرشاقة. تستطيل يدها ويستطيل الخيط أيضا. نظرتُ إلى العصفور المربوط بِ طَرَفِ الخيط، وإذْ به يطير منفلتا إلى أعالي السماء، وراحت الطفلة تغني وتقفزُ فرحة. مَرَّتْ بِجانبي. كانت تتكوَّر و تتمدَّد و تعود إلى شكلها الطبيعي. أَلْقَتْ نظرة خاطفة إلى وجهي، و أنا رأيتُ عيونها السود المكحَّلة. صَرَخَتْ. سارو! كانت هي العرّافة الدمشقية، أو التي التقيتها في زمنٍ اسطوريٍّ في دمشقَ، و قبلَ أنْ تتلاشى أمسكتُ بها و أنقذتها من التبخّر.

– أراكَ حزينا يا سارو. قالت عرّافتي، غجريتي السمراء. كان سارو قد أفْصَحَ لها عن اسمه الحقيقي عندما أعطاها عنوانه قبل سنوات مضَتْ، حين قرأت طالعه في دمشق.

– أنا لستُ حزينا، بل، أنا أمشي بِ اتجاه السعادة.

– أيْ أنَّكَ لستَ سعيدا، و في الوقت ذاته لستَ حزينا، كما تقول، فَ هل هناك حيادية في الأحاسيس والمشاعر يا سارو؟. كنتُ قد قرأتُ طالعكَ في ذلك الزمان، فَ هلاّ أطْلَعْتني على ما حصلَ معكَ بِخصوص الحُبّ الذي توقَّعتُ بِأنْ يجرفكَ في طوفان هائل؟

– قراءتكِ كانت في الصميم، و ها أنذا أتَرَنَّحُ مع أحزاني الجميلة. إنَّني أمتطي صهوة الألم نحو السعادة، فَ بدايات السعادة، دائما، هي النشوة، و النشوة لا تكون ما لم يكن الألم. لقد افترقنا عن بعضنا، أنا و هي، يا عرّافتي الجميلة.

– و هل السعادة مرهونة حُكْماً بِ الألم، و ماذا تقول عن هؤلاء الذين يعملون و ينجحون و يكسبون المال و ينجبون الأولاد و...؟

– لا توجد سعادة مطلقة في الحياة، بل لا توجد سعادة على الأرض،أيْ، الأرضيات لا تمنح السعادة. فَ الأرضيات بِذاتها، هي نفسها، لا تمتلك السعادة. إنها تمنح المتعة، فقط، و المتعة غير السعادة. السعادة هي سلسلة، أو مسبحة، حبّاتها تلك النجوم التي ترتجف في حدائق السماء و تشعشع في أركانها، و هي مرتبطة بِ بعضها بِ شريط الفجر القطبي. السعادة هي اختلاجات الخلايا، هي نبض الروح وتحليقها خارج هيكلها الفاني. السعادة هي السلام الروحي، التصالح مع الذات. الانعتاق من جاذبية الأرض و التماهي مع الموسيقة الكونية.

– هل تعتقد أنَّ الذي يبتغي السعادة، عليه بِ الضرورة، الانفكاك و التخلّص من الروابط الأرضية، المادية، هل عليه انْ ينفكَّ عن الأنثى، أو بِ الأحرى، هل عليه أنْ يقاطعَ الأنثى و يهجرها، هي الأُخرى، كَ أيّ جاذبية أرضية؟
سؤالٌ عميق من العرّافة، ممّا استدعى تأمَّلاً عميقا من قِبَل سارو. اجابَها بِهدوء.

– الأنثى، المتحلِّلَة، أو المتحرّرة من الأرضيات، هي الجانب المشرق من الذكر. الجانب اللدن منه. هي أيضا تسعى إلى السعادة، و كلاهما يشكِّلان واحدة من العناصر الداخلة في تكوين السعادة. طالِبُ السعادة يجب أن يكونَ في حالة الألم المستمر. ينتقل من محطة إلى محطة، من موضوع ألم إلى موضوع ألَم آخر. الأنثى تتحوَّل من كونها أداة متعة إلى موضوع من مواضيع السعادة. الشرّ هو أحد مواضيع السعادة. أنا أتألّم لِأنَّ الشرَّ هو أساس المعرفة، هو أساس الشريعة الإلهية. ولِأنَّني أسعى للقضاء، أو الانتصار، على الشرّ، فَ بذلك، أكون، أسعى إلى السعادة.
الكراهية، الحقد، الغش، السرقة، الكذب، القتل، الظلم.. كلها هي مواضيع السعادة. و إلى جانبها هناك أيضا الحُبّ، الموسيقى، الجَمال، الطفولة، الأنثى و الذكر.. هذه أيضا تشكِّل مواضيع السعادة. فَ الارتباط العشقي، الصوفي مع الأنثى هو قمة من قمم السعادة، و إلى أنْ يصلَ المرء إلى هذا الارتباط العشقي، يكون الألم هو المشترك بينهما. ربّما تكون السعادة، عند البعض، هي التوافق بين أوهام المرء الشخصية مع الأوهام الجماعية السائدة، فَ ما دامت رؤيتي الشخصية منسجمة مع رؤية الناس من حولي، فَ باستطاعتي أنْ أقنعَ نفسي بِ اَنَّ حياتي ذات معنى، و أنْ اجدَ السعادة في هذا الاقتناع.

– قلتَ قبل قليل، لا توجد سعادة مطلقة. لكنّ جدَّتي كانت قد قرأتْ على مسامعي من كتاب أسلافها المنجّمين و الصوفيين عن هذا الموضوع، و أتذكّر

ممّا قرأتْ؛ أنَّ المرء يمكن أنْ يصل إلى السعادة المطلقة، و حين سألتها ماذا تعني السعادة المطلقة. أجابَت: إنَّها السعادة التي لا سعادة بعدها. إنّها المحطة النهائية في طريق السعادة، و أضافَتْ قبل أنْ أستفسرَ منها عن جوهر هذه الأحجية، عن الآلية التي من خلالها يمكن لِ المرء بلوغ السعادة المطلقة،قالت مضيفة إلى ما قالته: حين يصل المرء إلى مرحلة أنْ يخترقَ الضوء جسده دون أن يعكسَ ظلاً على الأرض، أنْ يتغلَّبَ على قوى الجَذْبِ الأرضيّة، حين يتمكَّن من قَصْقَصَة، أو فَكْفَكَة كلّ الروابط المادية التي تربطه بِ القاع،أنْ يقضي على كلّ مواضيع السعادة، أنْ يقضي على الشرّ المطلق، حينها يكون قد وصلَ إلى السعادة المطلقة. الشرّ لا بدَّ من وجوده في الحياة، فَهو الحافز والمُحَرِّض على التفكير، و اكتساب المعرفة و تنمية المهارات.عَرفتُ من قدمائنا بِ أنَّ الشرَّ هو المقياس الذي يتمّ قياس المسائل الحياتية بِالنسبة إليه.أيْ انَّ الشرَّ هو المِقْرَن، كلّ الأمور تُقارَنُ به. فَإنْ كان الغشّ شَرّاً، فَالأمانة هي نقيضه، وإنْ كان الكذبُ شَرّاً، فَ الصدقُ هو نقيضه، وإنْ كانت الشهوة شَرّاً، فَ التعَفّفُ هو نقيضه، وإنْ كانت الغريزة شَرّاً، فَ إماتتها هي نقيضها. الشَرُّ موجود منذ الأزَل، منذ البدء، لا بل، في البدء كان الشرّ، و من ثمَّ اكتشف الإنسان نقيضه، و الذي هو الخير. فاجأته العرّافة بِ أفكار قدمائهم من الحكماء و الزهّاد. فَكَّرَ مَليّاً في آرائهم. شرَعَ في الغوص في أعماق الكون و الخليقة، و لا سيما في جوهر الفكرة التي ساقتها عرّافته – الشرّ موجود منذ الأزل. في البدء كان الشرّ–.

حاول تركيب الأجزاء من الزمن الأول، أو من بداية الزمان، حين لم يكن أيٌّ أحد على وجه الأرض. في الأثناء تَبَخَّرَت، أو بِ الأحرى، تناثرت العرّافة في فضاء الغرفة. انطفأ نور الشمعة و سادَ السكون الأبدي حوله. أراد اللحاق بها، لكنها كانت في رحلتها إلى التلاشي، و كانت تنادي عليه، أنْ تعالَ إليَّ. رأى الطرف الأخير من شالها الفضي في الركن الأيمن من الغرفة، و كأنّها كانت قد تقصَّدَت

التمهّل لِ يراها و يلحق بها. و في الحال أمسكَ بِ طرفِ شالها مسافرا معها إلى الطرف الآخر من الكون. أَخَذَتْه إلى المسرح الأول، المكان البكر الذي شَهدَ القَفْزَةَ الأولى لِ الإنسان الأوَّل. هنا فوق هذه الصخور والمنحدرات تدحرجا، وهنا تسلّقا الأشجار، عبرا الأنهار، وعَلقا في السبْخات. اتخذا الكهوف أماكن مبيت لهما. اتفقا، سارو والعرّافة، على مراقبة الوجود والحياة معهما وحولهما، و يُمْعِنا في كلّ شيء، حتى في أدقِّ الجزئيات. فَ هما(سارو و العرّافة) غير مرئيين و محصَّنين ضدَّ كلِّ شيء. هيّا لِ ننظر إليهما و نراقب ما يجري. لم يكن يوجد سواهما على هذه الأرض. الجَدُّ الأوَّل و الجَدّة الأولى، أو قُلْ، الإنسان الأول و الإنسانة الأولى. كلاهما كانا بِ لباسهما الطبيعي، حيث لا لباس. فقط الجلد و الشعر. ربّما كانا مكسوين بِ الريش أو، حتى، الصوف كما الأغنام. كان هذا الكائن الحيّ مختلفا، شَكْلاً، عن إخوته الكائنات الحية الأُخَر. كان مثلهم يقاوم، و يتأقلم مع، الظروف الطبيعية، و مثلهم يتفاهم مع مثيله، و يفهم لغتهم، إيماءاتهم، روائحهم و حركاتهم. في بدء الزمن كان الجميع يعيش معاً. كانوا يلعبون و يتقافزون بعضهم مع بعضهم الآخر. كنتَ ترى الذئب يلاعبُ النمر، و الأسد يلاعب الغزال، و الإنسان يلاعب الضباع. كلهم كانوا يتغذّون من الأثير. يلعبون في الأثير، ويركضون ويقفزون على الأثير. لم يكونوا يتغوطون ولا يتبوّلون. لم يتكاثروا ولم يتناكحوا. كانوا أطهرَ من كائنات اليوم.كان الإنسان الأوّل والإنسانة الأولى ملازمين لِ بعضهما على مدار الساعة. يمشيان معاً في الحقول، يتنزَّهان في الغابات.يلتقيان مع أجناس أُخَر من إخوتهم الكائنات الحيّة، حينذاك كانوا يتمسَّحون بِ بعضهم و يشمّون روائح بعضهم لِ التعارف. لم يقتلوا بعضهم، ولم يَقسُ أحدهم على الآخر، و لم يجرح أحدهم الآخر. ما كانوا يعرفون الغضب و العنف و القتل. الكل كان يعاشر الكل. الكلّ يلعب مع الكلّ. الأسد مع الإنسان، الذئب مع الحَمَل. لم يكن أحد يشرفُ عليهم، أو يأمرهم. لم تكن لديهم

ذاكرة. لا ماضي لديهم ولا أسلاف و لا أجداد. كلهم سقطَ هكذا، جَرّاء التصادمات الفلكية. إنهم غبار الكواكب العملاقة، تلك التي تتدحرجُ فوق ربوات لا نهائية. إنَّ الذي نراه هنا أمامنا، قالت العرّافة، هي تلك الجزيئات التي قطَعَتْ مسافات زمنية مجهولة، وتعرَّضّتْ لِ تصادمات مع جزيئات من غبار كواكب أخُر، خلال مساراتها العشوائية في الظلام البدئي. وصَلَتْ إلى هنا على شكل هذه الكائنات التي نراها الآن. إنها بريئة. لم تُحَمَّلْ بِ شِفْرات و رسائل شرّيرة. إنها مجرَّد أرواح تَجَسَّدَتْ في هذه الهيئات و الأشكال. التفتَ سارو إليها، و اقترح، لا بل، طلبَ منها البقاء معهم إلى أنْ يتمَّ التغيير العجائبي، أو أنْ تتمَّ المعجزة الكونية لِ هذه الكائنات. ربّما ترسل الأفلاك إشارات لِإبقائها على حالها، كما هو الوضع القائم الآن بينها، أو أنْ تُقَلِّبَ الأمر رأسا على عَقب. فَكَّرَت العرّافة في اقتراحه. عجبتها الفكرة، لكنها قالت له: ربّما نمضي وقتا طويلا هنا يا سارو، و ربّما يُقارب ثلاث ساعات كونية، أو أكثر بِقليل. سارو لم يكن يعلم بِالأزمان الفلكية الشيء الكثير، لذلك رَدَّ بِسرعة قائلا موافق على ذلك يا عزيزتي، يا عرّافتي الجميلة. طبعا لم يكن يعرف بِأنَّ الثلاث ساعات تلك تعادل، ربَّما، ثلاثين مليون سنة من الزمن الأرضي. كانا مسرورَيْن لِ مرأى هذه الكائنات والعابها وأصواتها المختلفة. كانا يسمعان، بين الفينة والأُخرى، وَشِيْشاً قادما من أطراف مجهولة، وأحيانا يسمعان هديرا يتهادى إلى مسامعهما، كَ أمواج البحار حين تتكسَّر على الشواطيء. كانت الطيور أيضا تشارك تلك الكائنات ألعابها و لَهْوِها. كان الإنسان الأوّل مع مثيله، يركبان على ظهور الطيور التي تجثوا أمامهما و تطير عاليا، وسْطَ ضحكاتهما و صفير الطيور و تغريداتها. الأبعاد لم تكن ثلاثية كما هي على الأرض في أيامنا هذه. فَلا يمكن لِ المرْء القول بِ أنه يسير إلى الأمام أو الوراء، إلى اليمين أو اليسار، يصعد إلى الأعلى أو ينزل إلى الأسفل. إنَّ الأبعاد لدى هذه الكائنات، في هذا الأثير، هي كروية. لذلك، فَ عندما صعدا إلى أكتاف الطيور، فَ إنها طارت

بهما، لا أكثر و لا أَقَّل، أو تحرَّكت من السكون بِ اتجاه ما. في واحدة من تلك المغامرات، أو تلك الألعاب المُحَبَّبة إليهم، راحتِ الطيور أبْعَدَ من اللازم، أبعدَ من المرسوم في لوحتها الغريزية، أو في ذاكرتها الغريزية. كان ذلك واضحاً على وجوههم، وبائنا في عيونهم، لأنهم تعرَّضوا لِ تغيّرات مفاجئة لم يمرّوا في ظروف شبيهة منذ البدء. إنها المرّة الأولى التي فيها يشعرون بِ شيء غريب يجتاح دواخلهم. تعرّضوا لِ ذبذبات ناعمة جدا كما الخَدَر. شعروا بِ تأثيرها في أعماق خلاياهم، كادت تغيّر القطبية الكهربية في السيّالات العصبية لِ نظام أجسادهم. ظهرَ شعاع خافت من قلب الظلام الدامس المحيط بِ أرجاء هذا المكان. كانت الدقائق الأخيرة من الساعة الكونية الأولى، التي توشك على الانقضاء، لِ تبدأ الساعة الثانية من عمر الأفلاك.راحتِ الأشعة تكبر وتتوضَّح ألوانها وتطول موجاتها. ترافقَتْ لمعاتها بِ انفجارات مدوّية تصمُّ الآذان و تمزّقُ الحُجُبَ.امتزجت الأشعة بعضها بِ بعضها الآخر.أضاءتِ الأمكنة كلها، تداخَلَتِ الألوان جميعها، ولِشدّة وهجها، كانت تعمي الأبصار.امتدت أَلْسِنَة النيران في الفضاءات، و راحت الأمكنة تَرْتَجُّ من وَقْعِ أقدام عماليقَ تَهُمُّ بِ التقدُّم أماما. وبدأت الأعاصير المدمّرة تصفِّر منذرة بِ اجتياح ممالك المعتدين. ارتفعَ ضجيج مرعب لِ كائنات اسطورية تستعدُّ لِ الهجوم على الأعداء، والصوت الأكثر رعْبا، كان صدى الفحيح الصادر من حواة خرافيّ يزحف بِ اتجاه الأعداء، إلى ساحة الحرب الكونية، حرب الآلهة و الجان و الشياطين. الكلّ يصفُ الكلّ بِ الأعداء. إنهم بِ الفعل، كلهم، أعداء. دَبَّ الذعرُ في قلوب هذه الكائنات التي لم تكن تعرف معنى الخوف قَبْلا. بدأت بِ حركات لا إرادية، صارت تقوم بِ تحرّكات عشوائية، وتصدرُ أصواتا و كأنها تطلب المساعدة لِ إنقاذها من خطر قادم عليهم، خطر محدق بهم. أطَلَّتْ طلائع القوات المتحاربة على الميدان الفلكي، كلّ قوّة من جهة معيَّنة. أمّا موضوع الجهات، فَ هي من صنْعِنا نحن، كي لا نخلط بين الجيوش المتحاربة.

هذا فيلق من التراب يصطفُّ جنوده خلف قائدهم، المارد الترابي. إنه عملاق من التراب يتقدَّم بِ خطوات زاحفة، عيناه واسعتان تدور في محجريهما العميقين. كتلتان من كرتين ضخمتين من التراب الأحمر تلعبان في ساحة من التراب الأصفر. ينشر دوّامات ترابية عندما يخْبطُ بِ خطوته الثقيلة على الأرض، و يحجب الضوء عن المكان بِ عجاجه، حين يرفع راية الفيلق الترابي. يملأُ الأرجاء ترابا حين يصدر الأوامر لِجنوده الترابيين. إنهم يأتون من جهة الشرق لِ مواجهة جيش عرمرم يزحف من جهة الغرب نحو ساحة القتال. جنود هذا الجيش القادم من الغرب، هم من المياه المتلاطمة، تتماوج خلف ملكهم الذي يهدرُ بِ قامته العملاقة، رافعا رمحه ذي الشِعاب الثلاثة، رمز مملكته، جارفا كلّ شيء في طريقه. أمّا شمالا، فَ قد تدفَّقَ من هناك موجات من الهواء الحارق، بثَّتها النيران الهائلة كَ رسالة لِ قدومه، أو هجومه العاصف. اجتاح وهج النيران هواء الأفلاك، إنه طليعة الجيش القادم من الشمال، حيث جنوده يرتدون النيران و ينفخون اللهب الحارق لِكلّ حَيّ، إنهم يتراقصون، كَألسنة الثعابين، خلف قائدهم، التنين الناري، القاذف لِ النيران في الاتجاهات كلها. ظهرَ في مواجهة هذه القوة النارية الحارقة، جيشٌ جبّار من الرياح الجنوبية. جنوده عبارة عن زوابع تصطفُّ عن يمين ويسار قائدهم المهلك لِ كلّ من يقف في طريقه. إنه الإعصار الكوني، الهواء الذي يقتلع و يسوق معترضيه إلى الهاوية دون رحمة. انطلقتْ أَلْسِنة النيران من قاذفات اللهب العملاقة. نَشَرَتْ موجات من الوهج لِ مسافات بعيدة جدا، و شرَعَت النيران في التهام كلّ ما تصادفه في مساراتها، و بدأ هسيسها يتعالى، و قهقهاتها تشقُّ عنان السماء، فَ هي مسرورة لِ وفرة الطعام اللازم لِ استمرار توهّجها. في الأثناء هاجمها إله المياه، ملك المحيطات، بِ دفقات هائلة من المياه. هجمَ جنوده على النيران وراحَتْ الأمواج العالية كَالأسوار تقضي عليها وتخمدها حيثما لامستها. جنود المياه يَفْدون أنفسهم لِإطفاء اللهب المستعر، فَ

هم يموتون تَبَخُّرا في الوقت الذي يطفؤنها. أمّا الحرب، فَ تبقى مستمرة، فَ لا النيران تنتهي، ولا المياه تَجفُّ. في الأثناء دخَلَت جيوش المارد الترابي في الحرب الضروس. راح التراب ينهال على المياه والنيران معا. تخنق النيران و تَسدُّ طريق المياه. و حين اشتدَّ الصراع والتقتيل بين هؤلاء، حَلَّقَت دوّامات الهواء مقتلعة كلَّ ما تصادفه في حدودها، و راحت تضرب في الاتجاهات كلِّها. إنها الحرب الفلكية بين الآلهة الطغاة، فَهي لا تعرف الرحمة، ولا تعرف الحدود. إنها القوة الغاشمة، القوة العمياء .آلهة عُتاة، قساة، وحوش. تحوَّل المكان إلى ساحة اسطورية مرعبة. ألْسنة النيران تطال عِنان الفراغات، و الأمواج الهائلة تقفز فوقها. يختلط هديرها المدوّي مع الهسيس المرعب لِ ألسنة النيران. يَسدُّ المارد الترابي طريق المياه، يختلط بها مشكّلة مستنقعات موحلة، و سبخات كبيرة. تجتاح أعاصير الهواء ساحة القتال، موسِّعة بِ ذلك أفق الدمار. هديرٌ، صفير، زعيق، فحيح، هسيس ودبيبٌ عظيمٌ يصدر من تداخل النيران و التراب و المياه و الهواء بعضها في بعضها الآخر. في الأثناء دخلَ إلهٌ مجهولٌ ساحة المعارك. إنه إله الرجوم، و راح هو الآخر يطلق أسلحته الفتّاكة على الأعداء. حُزَمٌ من الرجوم تُقْذَفُ بِاتجاه الميدان. حَلَّ دمار هائل بِ المكان. حيث اجتاح الحريق و الطوفان و الإعصار و العجاج، و الرجوم المدمِّرة لِ كلِّ شيء. استمرَّت المقتلة و المحرقة و الطوفان و السديم الترابي و ضَرْبِ الرجوم، مدة الثلاث دقائق الأخيرة من الساعة الأولى المنتهية. خمسون ألف سنة أرضية استمرَّت الكارثة الكونية. قُضيَ على الكائنات الحية التي كانت تعيش معا بِ أمان، دون غرائز، ولم تنتهِ المحرقة إلّا بِ تشابك شرائط ملوّنة متوازية مترابطة بعضها مع بعضها الآخر بِ قطَعٍ واصلة بينها، فَ كانت كَ السلالم ملتوية على نفسها، أو كَ الجدائل الملتفة على بعضها. هذه الجدائل هي التي أطفأت الحريق و الطوفان الكوني. هي التي أوجَدَت نوعا جديدا من الكائنات الحية، بَدَلَ تلك التي فنيَت جرّاء هذه المحرقة الكونية. إنها الرجوم.

هي التي جاءت بِ تلك الجدائل من عندِ إله الرجوم، و حَقَنَتها في الأنفاس التي نشأت بعد هذه الحرب الفلكية. إله الرجوم انتصر بِ رجومه، وأرسَلَ أَوَّلَ أسلحته الفتّاكة لِهذا النوع من الكائنات الحية. إنّه السلاح الضامن لِ ديمومة و استمرار إله الشرّ والموت(إله الرجوم) في اختطاف الأرواح والأنفاس من الكائنات الحية. السلاح الذي، إذا انتفى من الوجود، يكون قد قضى على(إله الرجوم) إله الشر و الموت. السلاح الفتّاك ذاك، هو أصغر الأسلحة على الإطلاق، هو سلاح نوويّ لا يُرى بِالعين المجرَّدة. مخازنه قابعة في الخصى والمبايض. فَفي الرشقة الواحدة من هذا السلاح تنطلق عشرات الملايين من الجنود الانتحاريين. جنديٌّ واحدٌ، فقط، من هؤلاء يصل إلى الهدف، حيث تبدأ عملية إنتاج السلاح الفتّاك،مجدَّدا، هناك في الرحم النووي.إنه الجنس. هذا هو السلاح الذي شَرَّعَ الشرور كلّها بين الكائنات الحية.إنه سلاح لا يحتاج، لِ استعماله، إلى عقلٍ ومعرفة و حكمة. إنه سلاح الجهَلَة و الأغبياء و المجرمين. هذا النوع من الكائنات استمرَّ في الحياة وفْقَ قانون التوحّش. طبعا من ضمنهم الحيوان الذي اسمه الإنسان، مثلما يوجد حيوان اسمه الذئب أو الحمار.

انتبه سارو إلى شمعته التي كانت قد انطفأت منذ دقائق معدودات، و الموسيقا التي كانت، هي أيضا، قد انتهت منذ زمن قريب. راح يفكّرُ بِ الرؤى التي كانت تتتالى أمام عيونه الباطنية كَ فيلم اسطوريّ، حين كان بِرفْقة روح عرّافته هناك في اللامكان الأبدي. لم يكن بِحاجة لِ رحلة خيالية إلى التاريخ القديم، كي يحيط بِ طبيعة الحياة وسلوك الكائنات الحية مع الطبيعة ومع بعضها الآخر. فَ النوع الجديد الذي نشأ بعد المحرقة الكونية التي دامت أكثر من خمسين ألف سنة أرضية، كان الجديد في حياة هذا النوع، هو سيادة النظام الغريزي. هذه هي الكارثة، أو الطفرة، التي حَلَّت بِ الكائنات الحية. فَ لكي يستمر هذا الكائن في الحياة، عليه أنْ يأكل، و لكي يأكل، عليه أنْ يقتل. هذا هو القانون الإلهي،

القانون الوحشي، القانون الذي يحوي نقيضين. الحياة و الموت. أي أنَّ الكائن الحيّ يجب أنْ يحيا لكي يموت الآخر، و يجب أنْ يموت لكي يحيا الآخر. و الحيوان الذي يُسمّى بِ الإنسان، هو الآخر ينتمي إلى هذه المنظومة الإلهية. هو أيضا كائن متوحشٌ، مفترس مثل الآخرين، لا بل، أكثر وحشية من الجميع، و أكثرَ خسّة و دناءة من الآخرين. هو أيضا يعيش كما الآخرين، عاريا، تحت الأمطار و الثلوج، في الغابات و المغاور و الكهوف. لم يكن يتميَّز عنهم. كانوا يقتلون و يُقْتَلون، يأكلون و يؤكلون. ينكحون، ينجبون و يموتون.

امتدَّت تلك الحقبة التي، فيها، كان الجميع تحت حكم قانون القوة، دون تَفَرّد أحد الفصائل على الآخَر بِأيّة ميّزة، سوى القوة المطلقة.امتدّت ربّما لِ ملايين السنين، إلى أنْ حَدَثَت محرقة كونية ثانية لِمدة مئات الآلاف من السنين. كان سارو يعتقد بِ أنَّ حَدَثا فوق قوانين الطبيعة والعلوم الأرضية والفلكية قد حصلَ، وربّما أقوى وأكثر تدميرا من تلك التي حصلَ قبل مئات الآلاف من السنين. فَ كما أنّ الحريق الكونيّ الأوّل، أحْدَثَ طفرة في حياة الكائنات،إذْ انتقَلَتْ من كائنات لا غريزية إلى كائنات غريزية، من كائنات مسالمة، هادئة و ودودة إلى كائنات منوحشة.

هكذا! فَ الحريق الكونيّ الثاني قد أحْدَثَ، هو الآخر، طفرة خطيرة جدّا في حياة الكائنات الحية، و هذه الطفرة، كما يعتقد سارو، اقتصرت على الحيوان المسمّى بِ الإنسان. طبعا بِ صَرْف النظر عن تلك التي انقرضت لِ أسباب يطول الحديث حولها. فَ هذا الحيوان كان كَ أقرانه يعيش تحت الظروف الطبيعية. كان يقاوم الأعاصير و درجات الحرارة العالية، و برودة الشتاءات القارصة، و كان يتكيّف مع الجوع و الأمطار و الثلوج، أيْ، و بكلمة، كان مثل إخوته الحيوانات الأخَر تماما. إذن، ما الذي جرى له، و إلى أيّ شيء تَعَرَّضَ، أو أيّة قوّة طبيعية، أو فلكية، أو سحرية أثَّرَت على تكوينه البيولوجي و الباراسيكولوجي، بِ حيث جعَلَته

ينفصل عن عالمه البكر؟!

شربَ كأسا من الماء. أفْرغ مثانته، و دَلَفَ إلى فراشه، و راح في نوم عميق.

- 17 -

حِوارات الآلهة و مؤامرات الأَتباع

أخذ سارو يقلّبُ صفحات الكتاب الذي حصل عليه من مكتبة الخال قرياقس على سبيل الاستعارة. كان سارو يتحدّث السريانية، وذلك بِ حكْمِ صداقاته العميقة و المديدة مع السريان والآشوريين طوال فترة المراهقة والشباب والجامعة وما بعدها وإلى هذه الساعة. و حين أدركَ تورّطه وشغفه بِ التاريخ والميثولوجيا، و من ثم بِ الميتافيزيك و الباراسيكولوجيا، وقتذاك انضمَّ إلى معهد اللغات السامية. حيث درس اللغة السريانية على أصولها، و أتقنها كَ العربية و الأرمنية، بِ الإضافة إلى دراسته العبرية لِ كونها من العائلة الآرامية. كان الخال قرياقس يشجّعه على التعمّق والبحث في ما حصل في هذا الشرق الساحر. كان يرتاح لِ مجالسته و تبادل أطراف الحديث معه، وخاصة في مجال الميثولوجيا والأديان القديمة. كانا متفقين على جمالية وروعة القصيدة الخالدة أل"إينوما إيليش" الأولى في العالم، قديما وحديثا، من حيث موضوعاتها الماورائية والحوارات في مسائل الخَلْق، و الصراع الوجودي مع الطبيعة والبحث عن الخلود. كان سارو يضيف، في معرض الحديث عن ملحمة الخلق هذه، مقارنةً بينها و بين القصيدة الهوميرية التي أتَتْ بعدها بِ قرون عديدة.

كان الخال قرياقس يبدي سعادته لِ تعرُّفه إلى ما كتبه هوميروس في أل (إلياذة والأوذيسا)، وذلك من خلال سَرْدِ سارو لِ ملخَّصها. كان لِ سارو آراء غريبة في موضوع الخلق والأديان، وفي بعض الأحيان كان الخال قرياقس يبدي استغرابه مع رضا روحي لِ طروحاته.لأنه لم يكن يستفز مشاعر المؤمنين، أو يزدري معتقداتهم. فَ، مثلا، في موضوع الإله الواحد، أو تعدّد الآلهة، فَ كان يقول: يا خالي العزيز! أنا أُفَضِّلُ أن يكون لِ كلِّ جانب، أو موضوع في الحياة، إلهاً خاصا

مسؤلا عنه. فَالموت يكون من اختصاص إله الموت، والحبّ يكون من اختصاص إله الحُبّ. العواصف، القحط والجفاف. السلام و الحرب، الجحيم و النعيم، الخير والشر...إلخ. يكون لكلّ هذه الموضوعات إلها خاصا بها. هكذا يكون الإنسان،أو المؤمن على بَيّنة من أمْره. يعرف لِأيّ إلهٍ يتوجه بِدعائه، أو لومه، ولا مجال لِأنْ يتشَوَّش في معرفة المسؤل عن الخير و الشر، الحياة والموت، السلام و الحرب، العواصف و الزلازل والطوفانات. لم يتفاجأ الخال من طروحاته، لِ أنه كان على دراية بِتلك المنظومات الدينية، التي كان فيها أكثر من إله واحد. كانت منظومات متعدّدة الآلهة، لكنه، وكما قال لِ سارو، لم يفكّر في هذا الموضوع بِشكلٍ جدّي. فَالأعوام الألفين من بعد ميلاد السيد المسيح، و انتشار الديانة المسيحية، كانت كفيلة بِ الركون إلى الاستقرار في الديانة المسيحية، والاعتقاد بِأنَّ الديانات التي كانت قبل المسيح، إنّما كانت خرافات وأساطير و أوهام، خَلَقَت رموزا و شخصيات مقدَّسة إلى درجة التأليه. و بِسَبَبِ هذا الإيمان الراسخ في المسيحية، اعتبرنا كلّ المعتقدات السابقة على المسيحية باطلة. وأضاف، وربَّما لِمرة الأولى التي شعرَ فيها بِأنّه ينتمي إلى هؤلاء الذين أبدعوا فنونا وقوانين وحِكَم وأمثال وآدابا رفيعة، و أيضا المنظومة اللاهوتية التي استمرَّت لِ آلاف السنين. إننا رفضنا، حتى، ما أنتجه أسلافنا العِظام، هكذا قالها بِانكسار خجول. وتابع بعد لحظات من التأمّل. أمّا اليوم، فَيجب أنْ نعود إلى تلك الذخائر التي أنتجها أسلافنا وأن نعيد إحياءها، وأنْ نتعلَّمَ منها ونعلّمها لِ أجيالنا. بِ التأكيد! قال سارو، وأضاف توضيحات تؤيد رأي الخال فيما ذكرَه بِ خصوص التعامل مع التراث والتاريخ والمنظومة القِيَمية التي كانت سائدة وقتذاك. يا خال! لقد عاش الإنسان لِعشرات الآلاف من السنين في ظلّ معتقداته الدينية تلك، وتحت مفاعيل تلك المنظومة القيَمية التي كانت سائدة، ومع ذلك، لم نقرأ، أو نعثر على علامة سلبية فارقة في حياتهم تجعلهم أقلَّ شأنا من إنسان اليوم، مع العلم أننا نعتبر بِ أنَّ جوهر ديانتنا هو الأفضل

وهو الصحيح. أنا لا أجد ما يميّز هذا العصر عن ذاك العصر. ولا أجد ميّزة لِهذه المنظومة العقائدية على تلك التي كان فيها أكثر من إله واحد، بل بِ العكس، فَ أنا أعتقد بِ أنَّ جوهر تلك الديانات المتعدّدة الآلهة كان أفضل و أرحم من هذه الديانات الديكتاتورية، الشمولية الاستبدادية، ذات الإله الواحد.

– كيف يكون هذا يا ولدي! قال الخال قرياقس.أعتقد بِ أنّك متحمّس زيادة لِ الديانات القديمة، وربّما بالغتَ قليلا في حكمك على الديانات التوحيدية.أنا أوافقكَ على أنَّهم بنوا حضارات عظيمة و راقية، و آداب و فنون و علوم في قمة الرقي، لكن مسألة الإله الخالق الوحيد لِ الكون و الحياة، فَ هذه أختلف فيها معك يا سارو. فَ لا يُعْقَل أنْ يكون المصير الأبدي، لِ الإنسان، يتخبَّط بين عدّة آلهة.

– اسمح لي يا خالي العزيز أنْ أوضِّحَ وجهة نظري في هذه المسألة الجدلية.

– إنّي أسمعكَ يا سارو. تفضَّل! قالها مع ابتسامة ودودة.

– بدايةً. أنا أعطيتُ لِ نفسي الحَقَّ في أنْ أُعيدَ ما لِلطبيعة لِ الطبيعة، وما لِ الذكر للذكر. فَالقمر، يا خالي العزيز، جعلتها تلك العذراء التي تخرج في استحياء كل ليلة لِ بثِّ الطمأنينة في روعنا وتهذيب غرائزنا وتنظيم انفعالاتنا، وبالتالي تنقية وضبط رغباتنا... وقفَ لِ لحظات، و طلب من الخال قائلا: يا خال أريد أنْ أقرأ بضعة أسطر كنتُ قد كتبتها منذ زمنٍ حول هذا الموضوع، لأنني لا أستطيع قوله هكذا ارتجاليّا. هزَّ الخال رأسه دلالة الموافقة على ما أراد. أخرَجَ قصاصة من بين أوراقه التي يحملها أثناء زياراته إلى الخال، و را ح يقرأ، طبعا هو كان قد غَيَّر الجنس بين الشمس و القمر في قاموسه اللغوي، فَ جعلَ القمر أنثى و الشمس ذكرا. قرأَ التالي:
فاتنتي، أيتها القمر الحبيب كم أنتِ جميلة، ناعمة، هادئة! و كم يزيد شوقي

لِ رؤياكِ والنظر إلى جمالكِ حين تختفين عن ناظري في قمّة تورّد خدّكِ في البدر البديع. تغيبين عن فضائي أيتها الحبيبة وتتركينني في ارتباكي وقلقي وفقدان توازني الروحي. أبحث عنكِ في زوايا السماء حيث مستقركِ دائما. فَ أنتِ الأنثى الأولى، قبل سقوط الجدائل من الفضاءات المحيطة بكِ. أنتِ الأنثى البدئية، قبل صدفة التلاقح تحت ظلالكِ؛ أنتِ حبيبتي الأبدية، أنتِ هوائي ونور عيوني. الصورة الأولى في أعصاب دماغي هي صورتكِ. صوتُ الله الذي تسرَّب إلى مسمعي كان من خلالكِ أنتِ، أيتها الحبيبة التي لقمتِني مادة الحياة الأولى، و نشرتِ الأمان وملأتِ قلبي حبًّا لا ينضب. لقد قام الشمس بِ انقلابه الغادر عليكِ يا عشتار. إنه الانتقام الأزلي، والصراع الطويل الأمد بين الخشونة والقسوة والعنف والبداوة والطيش من ناحية، وبين الحنان والرقّة والنعومة والمسؤولية والتضحية من ناحية أخرى. فَ الذكر الطائش الجلف الغرائزي، هو الذي ينتقم لِ ضعفه وسقوطه العاطفي مفضوحاً بِ عجزه الجنسي الواضح لِ العيان. ينتقم لانهزامه الأبدي أمام قدراتكِ العجائبية.

انتهت الأسطر في القصاصة. أعادها إلى أوراقه، وتابع حديثه قائلا:"فَ الانتقام، يا خالي العزيز، تجسَّد بِ الضربة الأولى التي قضت على الديانة العشتارية، الأنثوية، القمرية، مما أفسح في المجال أمام الرجل بِ خَلْقِ ديانة ذكورية، شمسية، و بالتالي إله ذكوري تمَّ تنصيبه في أعالي السماء مجهول المكان والإحداثيات. إن هذا الانقلاب الديني كان مفتاح الانقلاب الأخلاقي الثقافي القيَمي في الحياة. إذ أن الإله الذكوري أصدر لعنة ظالمة بِ حقّ الأنثى، حين حمَّلها سبب معصية آدم له عندما نهاهما من أكل ثمرة (التفاحة) شجرة معرفة الخير والشر، لأنها سَ تدفعهم– إنْ أكلوها– إلى شجرة الحياة(=الخلود) المغروسة وسط الجنة. فَ الرواية التوراتية معروفة بِ هذا الخصوص. إذْ أن آدم ألقى بِ اللائمة على حواء، وحواء ألْقَتْ بِ اللائمة على الأفعى، وكانت اللعنة

(البيان الذكوري رقم1) التكوين/ ... "فقال الرب الإله للحية لأنكِ فعلتِ هذا.....إلخ ، وأضع عداوة بينكِ وبين المرأة.... إلخ"."وقال للمرأة تكثيرا أكثِّر أتعاب حبلَكِ. بالوجع تلدين أولادا، وإلى رجُلِكِ يكون اشتياقك وهو يسود عليكِ..." لاحظ، يا خال، هذا المرسوم الظالم بِ حقِّها، إذْ أنه جعَلَها تابعة لا بل عبدة لِ رجُلِها، سيدها، ذكرها(و هو يَسودُ عليكِ). يذكِّر الكاهن العروسين والحضور في مراسم الزواج الكنسي بِ سيادة الرجل على المرأة. العريس على العروس، الذكر على الأنثى، حين يقول من ضمن واجبات وحقوق الطرفين بعضهما تجاه بعضهما الآخر. يقول ما معناه:"إن الرجل هو رأس المرأة كما أن السيد المسيح هو رأس الكنيسة". إن هذه الثقافة، يا خالي، ما زالت سائدة في المعتقد الديني بِ الرغم من تجاوزها عمليا في المجتمعات المتطورة، وذلك بِ فضل القانون المدني السائد هناك، وبفضل هجرة الكنيسة عن السياسة وعن الأخلاق أيضا. أقول عن الأخلاق، لِ أنَّه ليس بِ الضرورة أن يكون المتديّن على خلق حسنة، وأن الملحد هو بِالضرورة سيء الخلق. والعكس بِ العكس، فَ صاحب الأخلاق الحميدة ليس بِ الضرورة أن يكون متدينا، وأن صاحب الأخلاق السيئة هو بِ الضرورة ملحد؛ إنهم هناك استطاعوا وضع العقلية الذكورية، الثقافة الذكورية في متحف الشموع، بِفضل تحرير المجتمع والإنسان من المقدس والمدنس الدينيين. فَ العمل بِ شرع الله بين الناس هو أخطر من الطاعون وأخطر من السرطان على الناس، لا بل تبين في الوقت الحاضر بِأنه أخطر من السلاح النووي نفسه. لأن الله بِ ذاته تدخَّل لِ الحؤول بين الإنسان والمعرفة/منعه من أكل ثمرة شجرة معرفة الخير والشر/. لم يسمح له بِ فتح بابها، لأنه يعلم جيدا بِ أنه إذا سمح له بِ الخوض في رحاب المعرفة، فَ إنه سيسعى إلى الخلود، وذلك عن طريق السؤال، البحث، الشك. أي بكلمة عن طريق الفلسفة التي بِ غيرها ليست الحياة جديرة بأن يعيش فيها الإنسان– وهذا ما هو حاصل لدينا وللأسف– لأن الفلسفة

تبدأ عندما يبدأ الإنسان يتعلَّم الشك. خصوصا في المعتقدات التي يحبها، والعقائد والبديهيات أو الحقائق المقررة التي يؤمن بها ويقدسها. يا ليتنا فعلنا مثلما فعَلَ الفلاسفة اليونان حين وجهوا أسئلة عن كل شيء. و وقفوا بلا وجل أمام المحرمات الدينية والسياسية، وأخضعوا كل عقيدة و مذهب و نظام لِ العقل. يا ليتنا فعلنا ذلك ولم نفعل بِ ما أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (كما يقال) حين قال عن القرآن:"احرقوا المكتبات لأن قيمتها موجودة في هذا الكتاب". إننا، يا خال، نعيش في جغرافيا تحكمها الأصوليات الدينية. و الأصولية الدينية هي بِ الحَتْمِ ضدّ الفلسفة والعلوم الطبيعية والفلكية، لأنَّ هذه العلوم هي في التضاد مع السلطة الدينية. فَ العلوم لا تؤمن بِ المطلق، وإنّما بِ النسبي. وهنا أيضا يوجد فرق جوهري بين العلمانية والأصولية. فَ العلمانيون يفكِّرون في النسبي بِما هو نسبي، بينما الأصوليون يفكِّرون في النسبي بِما هو مطلق. أودُّ أنْ أسوقَ جوهر الخلاف الذي نشأ بين الكنيسة، أو، فَلْنَقُلْ، السلطة الدينية والعالِم كوبرنيكوس. فَفي الظاهر كان نقض كوبرنيكوس لِ الرأي الكنسي بِ خصوص دوران الأرض أو عدمها. إذْ خَرَجَ كوبرنيكوس بِنظريته حول دوران الأرض، وقال: "إنَّ الأرض تدور حول الشمس، و هي ليست مركز الكون". في حين كانت الكنيسة تعتبر الأرض ثابتة في مكانها، وهي مركز الكون. حيث أنَّ الأفلاك كلّها تدور حولها. يعني(من وجْهة نظر السلطة الكنسية) أنَّ الإنسان هو مركز الكون و بِ التالي يستطيع أنْ يقول بِ أنّني أملك الحقيقة المطلقة لأنني مركز الكون. و في هذه الحال يمنع أيّ خصم ضدّه مِن أنْ يجاريه، أو ينقض آرائه و معتقداته. لأنه يعتبر أيّ خصم له هو ضدّ الحقيقة المطلقة(خاصته)، وبِالتالي يقضي عليه. ومن هنا انتشر قتل العلماء الذين كانوا يؤيدون دوران الأرض. لأنَّنا إذا قلنا أنَّ الأرض تدور، يعني أنَّ الإنسان يدور، أي يبقى في حركة دائمة. يعني يتغيَّر، و يعني تفكيره يكون نسبيا، وفي النتيجة يكون ضدّ الحقيقة المطلقة، ضدّ المطلق. السلطة الدينية

اعتبرته(كوبرنيكوس) هرطوقيا. و مِن بعده جاليليو أيضا خَضَعَ لِ المحاكم الكنسية، لِ التهمة ذاتها. وقبلهم بِ ألف عام و أكثر، كانت تتمُّ محاكمة الفلاسفة و الأدباء و الرهبان بِ تهمة الهرطقة".

نحن مركز الكون، أو بِ الأَصَحّ، نحن الذكور، مركز الكون. نحن الذكور نمتلك الحقيقة المطلقة. نحن الذكور خلفاء الله، ظلّه، على الأرض. راحَ يتابع مرافعته أمام الخال قرياقس، متابعا كلامه:"إنه الانتقام. إننا ننتقم لِ عقم أدمغتنا و فساد ثقافتنا. و مظاهر الانتقام هذه بادية للعيان. بدءا من الشك بكل مَن و ما يحيط بنا، و اعتبار أن الكل يعمل ضدنا، و أَنَّ الكل يتآمر علينا، و بشكل خاص على معتقداتنا التي هي أساس ثقافتنا. هذه الثقافة الذكورية التي تقدس الأوهام، هي التي تحكم على الهرطوقي و المرتد بِ الإعدام. كما فعل اليونان مع الفيلسوف الحكيم سقراط قبل أكثر من ألفين و أربعمائة عام من الآن. وكما فعلنا نحن أيضا مع الحالمين و الصوفيين قبل أكثر من ألف عام من الآن. إننا، في هذا الشرق الذي تحكمه الأصوليات، فعلنا أكثر من ذلك. فَ قد منعنا الفنون عن أبنائنا، و اعتبرناها من البدع و الهرطقات، كَ الرسم والنحت والشعر والموسيقى...إلخ متجاهلين،إمَّا عن عمد أو عن جهل، بِ أن هذه الفنون هي روح الإنسان و روح المجتمع. وأننا رَفَسْنا هذه الروح التي تتعلم الانسجام والإيقاع والتناسب ومحبة العدل، فقط، عن طريق الموسيقى. لا يمكن لِ شخص تمَّ بناؤه بطريقة متوازية ومتعادلة أن يكون ظالما، ولم نكن نعرف/ أو كنا نعرف/، بِأن التناغم و الانسجام الموسيقي يجدان طريقهما إلى خفايا الروح، ويحملان الجمال و الجلال و الحسن و الكياسة في حركتيهما، ويجعلان الروح رشيقة لطيفة و ظريفة. و لم نكن نعرف أو بِ الأحرى أولياءنا لم يكونوا يعرفون، أو كانوا يعرفون، بِ أن الموسيقى تُهَذِّبَ الخلق و تشترك في تقرير القضايا الحياتية".

عندما تتسلل المحبة إلى عتمة النفوس، تطرد منها كل شبح، و تفرغها من كل

شاغل آخر لِ تقطنها بِ مفردها. لا أدري لِ مَن هذا الكلام السماوي، ربما لِ هيرمن هيسه أو سوفوكل أو فيثاغورث، أو ربما لِ شكسبير أو لِ سمير الحاج شاهين. إنني لم أدقق وقتها في ملكية أو صاحب ذاك الكلام الجميل، لأني صادفته ضمن القصاصات والملاحظات التي كنت، و لا زلت، أدوّنها عند قراءاتي و مطالعاتي. في ذلك التاريخ كنتُ أُحَضِّرُ نفسي لِ كتابة بَحثٍ عن الأخلاق والموسيقى. و من ضمن المراجع القَيّمة التي بحثتُ فيها، كتاب بِ عنوان(روح الموسيقى). بعد التأمّل في اللوحة الكونية، والثقافات المختلفة التي تُحَرّكُ الشعوب، والتي تعكس المستوى العقلي والنفسي والروحي، لِ كلّ شعبٍ، و ذلك من خلال ثقافته. قَرَّرْتُ أنْ أكتبَ عن قِيَمِنا(نحن) و موسيقاهم(هم). و فيما بعد وضَعْتُ رؤس الأقلام، و من ثمَّ كانت هذه الخربشات التي قلتُ فيها: بِ أنَّنا بِ حاجة لِ مَنْ يحضّنا على العمل لِ أجل انتصار النور والخير وأقانيم الفرح (التسامح، الرجاء و المحبة) على الظلام و الشر و مقومات الحزن الثلاث (القتل، الحقد و الكراهية). هذا الانتصار هو انتصار النزعة الروحية ومناخات السماء على الناحية المادية، وأجواء الأرض، وانحلال الجسد وتراخيه الكسول في مستنقع الشهوات(الجنس، السلطة، الطغيان). نحن بحاجة إلى ثقافة تحثّنا على أن ننسى ذاتنا. أن نتحوّل إلى أرواح و فراشات تتطير في ملكوت السماوات. أن نلي تحية الصباح على الروح الكبرى، هناك فوق الغيوم بين النجوم خلف القمر. وهل هناك أَلَذّ من أن يتحوَّلَ العدو إلى صديق؟ فَلا نعود في حالة حرب مع أحد، ولا يبقى لنا خصوم، بل نتآخى و نتصالح مع جميع البشر. و حين نتخلص من الضغينة، ألا نمحو إحدى بشاعاتنا؟ إن مضمون الفن يشمل كل مضمون الروح. إنه يبيح لِ حَدسنا أسرار النفس البشرية. ما يحرّك كوامنها ويهزُّ أغوارها، و هو يفعل ذلك من خلال المظهر الذي يعلو مقاما، حيث أنه يشحذ الوعي و الإحساس بِ الأشياء السامية. وهكذا يعلمنا بما هو إنساني فينا، وهدفه النهائي هو في

تخفيف الهمجية و تهذيب الأخلاق، لأنه يترك الإنسان وجها لِ وجه أمام غرائزه و كأنها غريبة عنه.

الفن هو وسيلة لِ التعبير عن أسمى حاجات و متطلبات الروح في تطابقها مع الأمور الإلهية. إنه همزة الوصل بين عالمي المادة والروح. وهنا في هذه الجزئية كنتُ سَاقول بِأننا، بِالتأكيد، لسنا بحاجة لِالفن. لأننا، و بكلِّ بساطة، مجرَّدين من الروح. نحن منغمسون من باطن أقدامنا إلى قمة شعرنا في الماديات،وبالتحديد، الغرائز البدائية،أو قُلْ، الغرائز المشتركة بين الكائنات الحيةكلها(الجنس،الطعام). إنَّ الأصوليات العنصرية سَ تُبْقي شعوبها في الظلام الدامس. في مستنقعات الدماء والأوحال لأنَّها تُلقي خَرَزات النوم والصمت الأبدي على نور الشمس. سَ تبقى هذه الشعوب غارقة في الرتابة و القوقعة المتكلِّسة بعيدين عن الآخرين، عن الآخر.عن التنوّع البشري، عن الفن الرفيع والذي ذروته هي الموسيقى، العدّاد الذي يشير إلى أين أصبح تيار حياتنا الداخلية. فَ الموسيقى هي سَكْرَة من نوع آخر، من نوع تلك الانفعالات الجامحة التي تستيقظ فينا بِ فَضْل المخدّر أو عودة الربيع، و تنسينا ذواتنا. عندئذ تتوثَّق الرابطة، من جديد، بيننا و بين كلِّ شخص.إن هذه الخمرة قمينة بِأن تَبثَّ في جمهور كامل نعمة الفن الذي يحيطهم بِحَشْد من الأرواح المتطابقة معهم تماما. بأن تُجْبِرَ الأرض التي أصبحت غريبة أو عدائية إلى إحياء مصالحتها مع الإنسان. بأن تحرِّر العبد و تلغي فجأة الحواجز المصطنعة التي وضعتها المنفعة و الصدفة بين البشر. و في هذا الانسجام الكوني لا ينصهر كل فرد مع قريبه فقط، و إنما يتوافق أيضا مع ذاته. فَالحياة، كما يقول نيتشه:"بِ دون موسيقى هي بكلِّ بساطة غلطة، تعب، منفى" نعم. إنه على حقّ، فَ لِ الموسيقى قوة تَتَسَلَّطُ على الأرواح و الأقوام، و تُسَيّرهم كَأنها قائد آمر أو قانون ينضوي له الناس. والمرءِ بِفضل الموسيقى يملك طبيعة إيمان نوراني لا يُقْهَر، و أخلاقا موسومة بِ الشهامة و النبل.

فَ الموسيقا في الصين الأسطورية، كانت تلعب دورا قياديا في حياة الحكومة و البلاط. و كان الصينيون القدماء يساوون بين ازدهارها أو تدهورها و بين ارتقاء أو انحطاط الثقافة والأخلاق، بل والدولة بِ كاملها. إذْ أن جذورها تمتد بِ حَسَب نظريتهم في الواحد الأعظم الذي خلق قطبين، أبدعا بدورهما قوتي الظلام والنور، و هي لا تبلغ حَدَّ الكمال إلاَّ عندما يتوافق الليل مع النهار، و تنسجم الأرض مع السماء، ويسود العالم السلام، وتروح الأشياء وقد اطمأنت، تتبع في تحولاتها تلك التي تعلوها، وتبتعد الرغبات والأهواء عن مسالك الضلال. وهي في هذه الحال، إنَّما تنبع من التوازن الناجم بدوره عن العدل الذي ينشأ عن روح الدنيا. ذلك السرّ القادر وحده على سبر أغوار الجمال. و لم يكن شكسبير على خطأ حين قال:" ليس ثمة مخلوق مهما بلغ من القسوة والفظاظة والوحشية ، ألاَّ تفعل الموسيقى فعلها فيه فَ تبَدِّل طبعه. و الرجل الذي لا يشعر بِ الموسيقى، ولا تحرّكه أو تثيره الأنغام العذبة، إنَّما هو مخلوق مطبوع على الغدر و الخيانة. مفطور على المكر و النهب، و أنَّ حركات روحه لا بدّ مظلمة ظلام الليل، و عواطفه داكنة مثل الجحيم. و مثل هذا الرجل حقيقٌ بِ ألاَّ يوثَق به".
و استطرادا أقول: الأمة، لا بل الأمم، التي تكره الموسيقى أو التي تحرِّمها و تمنعها، إنَّما هي أمة همجية، قيَمها لا تتعدَّى قِيَم الإنسان البدائي المتوحّش، الذي يرى في كلِّ شيء فريسة له، و الذي ردود أفعاله لا تختلف عن ردود أفعال أيِّ حيوان مفترس متحفِّز لِ الهجوم و الانقضاض على مصدر أيَّة حركة من أين أتت. لا يعرف الخيال ولا الابتسامة، كيف سَيعرفها وهو يحرِّم ويمنع الموسيقى؟!

في بضْعِ صفحات من دفاتره اليومية، يتحدث سارو عن زيارته إلى صديقه طارق في الأردن. حينها كان صديقه قد نال شهادة الدكتوراة في علم الآثار،و ماجستير في الأنتروبولوجيا البنيوية، بِالإضافة إلى دراسته لِ اللغات السريانية والعبرية. و في موسكو كان قد تعلَّمَ اللغة اللاتينية، حيث أنَّها كانت مادة من مقرَّر المنهاج

الدراسي. و من ثمَّ تابع دراسته لها في معهد التاريخ الإغريقي، حيث تُدَرَّس اللاتينية في أحدِ أقسامه. كان قد مضى ربع قرنٍ على لقائهما الأوَّل في الباخرة التي كانت متّجهة إلى بلاد الرفاق. لكنهما كانا على اتصال شبه دائم، و كانا يقرآن كتابات بعضهما، أحيانا في الصحف العربية، و أكثر الأحيان من خلال مراسلاتهما الإلكترونية. كانت آراؤهما قريبة من بعضها إلى حَدٍّ كبير، سواء على الصعيد السياسي، أو الاجتماعي، أو الثقافي.

سارو لديه تصرفات و طقوس اجتماعية غير مألوفة، كان متمرّدا على العادات و التقاليد الاجتماعية. فَ في حال سَفَر أحد الناس إلى إحدى المدن الكبيرة البعيدة عن القامشلي، كَ حلب، أو دمشق مثلا، فَالمُتَعارف عليه في هذه الحال، هو قدوم مجموعات من الأهالي والأصدقاء إلى البيت لِتوديعه، واضطرار المسافر البقاء في البيت و مسايرة جموع المودِّعين. و أيضا يكون المشهد نفسه، تقريبا، حين قدوم أحدهم من السفر.تَرى جموع المستقبلين ينتظرونه في الكراج، ويضطر لِقضاء وقت من الزمن في المعانقات والسؤال عنه وعن السفرة. أمّا سارو، فَحين كان ينوي السفر إلى حلب أو دمشق، أو أيّة مدينة أُخرى، لم يكن يُعْلِم أحَدا على موعد سفره. كان قبل ساعتين أو ثلاث ساعات يُخْبِرُ أهله بِموعد السفر. وبِنفس الطريقة حين كان يأتي من أيّة مدينة إلى القامشلي. لم يكن يعلم أحد بِ موعد قدومه. لم يكن يُحِبُّ تكليف، أو تحميل، أيّ شخص، صديقا كان أو قريبا من أهلياته، بِ أيّ غَرَضٍ، أو أيَّة مهمة يؤديها له حيث هو مسافر إليه.

طارق كان قد تكلَّم معه عبْرَ الهاتف، وطلَبَ منه أنْ يُحَدِّدَ موعدا معلوما بِ اليوم و الساعة لِ السفر إليه، و سارو طَلَبَ منه بِ ألاّ يهتم بِ هذه التفاصيل، و أنَّه سَ يفعل كما يريد. انطلق سارو ليلة الثالث من حزيران إلى الأردن. وصلَ إلى دمشق فَجْرَ الرابع من حزيران. و هناك كما يقول في دفتره اليوميّ: كانت السماء تُوَدِّعُ النجوم، ومِن ضمنها هؤلاء العشّاق المزروعين في قلبها، وآخرُ تلك النجوم

التي تغادر السماء، هما العاشقان ليلى و مجنونها قيس. إنهما يرحلان من كبد السماء، من جانب القمر، بعيدا عن أعين الوشاة لِ يعودا إلى المناجاة و اللوعة إلى يمين القمر. حين كان يقترب من واحة تدمر بعد أنْ يجتازَ صحراءها، كانت النجوم تشعشع في القبة الزرقاء الليلكية، وكَأنَّها كانت تُرَحِّبُ بِ مروره كَ عاشق مثلهم. كان ينظر، من بللور البولمان، إلى السماء، و يتبادل معها و مع هؤلاء العشّاق أسرار باطنية، أو لواعج روحه. يتحدَّث مع اللوحة دون أنْ يسمَعَه أحدٌ. يقول وهو غارقٌ في التأمّل حيث يهمس لِ نفسه: "هذه هي اللوحة التي تأخذني من غفوتي و تُدْخلني في حيرة، حين تَزميني في واحة الألوان– و أنا، بَعْدُ، لم أفلَتْ من عمى الألوان. اندهشتُ حين رأيتُ غير الظلام من الألوان. رأيتُ خامة بيضاء، و رحتُ أعبثُ بها في مخيّلتي كما الطفل الذي يعبث بِ ألعابه الأثيرة. كَ الفتى الذي استنشق روح الأنثى، لِ المَرَّة الأولى، و راحَ يتذوّق الحياة، و كأنّه يعيد اللحظة ذاتها. ظلَّ يبحث عن الإشراقة الأولى بين دفاتره المدرسية، حين كانوا يضعون بتلات الوردات بين صفحاتها. لكنه لم يكن يعلم بِ أنَّ الشمس كان قد أشرقَ مرّات عديدة، و الكتب قد تغَيَّرَتْ مرات عديدة، و الروح التي استنشقها كانت قد كَبُرَتْ، أيضا مرات عديدة، و السطوح الملساء كانت قد تكوَّرَتْ، و بات اللعب معها يُشَكِّلُ خطرا في هذا الشرق المخيف". كان ملتصقا بِ أنغام الحُبِّ و الحياة كَالتصاقه بِالماء والهواء. كانت الموسيقى طعامه،أنثاه وهواؤه، حتى أمسى جزءا منها. أمسَت هي اسمه وعنوانه وتاريخ مولده، ومكان انبثاقه من رحم أمه. عندما كان البولمان يسير بِجوار الآثار الخالدة والأعمدة العملاقة وأقواس النصر، والطريق المَلَكي، كان يتململ في مكانه ويَتَلَفَّتُ يمنة ويسرة. يرفع رأسه ينظر إلى الطريق من البللور الأمامي. كان يفتِّشُ عن المكان الذي يحتجز صديقه الماركسي في إحدى زنزاناته تحت الأرض. كان يحاكي طيفه الذي يتراءى له كلَّما مَرَّ من هنا، حيث يقول في حزنٍ و ألَم شديدين: يا صديقي العزيز! أيها البطل

الذي تهزم الجلاد، في كلِّ لحظة، بِعنفوانكَ واحترامكَ لِذاتكَ! كنتُ أبحث عنك في أزقَّة مدينتنا البائسة. كنتُ أتقصَّدُ المرور في الشوارع ذاتها، و الأمكنة إيّاها. كنتُ أناديكَ من أمام باب بيتكم، لكنني لم أكن أسمع سوى الصدى، و كم كان الصدى قاسيا عليَّ. كنتُ أُكَذِّبُ أذني، و أزجر حواسي لِ التخلُّص من حكاية الجدران المصمتة. لكنها كانت تحجب الشمس عنك، و تقتل براعم الربيع في روحك. حَلَّقْتُ مرارا فوق جدران سجنك. كنتُ أكلِّمكَ عبْرَ الأثير من خلف هراوات السجّانين، كم كنت خَجِلا من المسافة التي بيني و بينك.

كنتُ أسحب النجوم في الفجر حين أجتازك يا حاضرة الواحات، وكنّا نعقدُ أمسيات لطيفة تحت ظلال أعمدتك الرخامية. زنوبيا يا جميلة الصحراء، و راحلتها الفاتنة! هل وضَعْتِ الأحجار فوق بعضها لِ تحجبين الشمس عن العيون البريئة؟.

هل صنعتِ ذلك لِ احتجاز الروح المتمرّدة في ظلام الكهوف؟.

لقد ألغيتُ الحدود منذ أزمان بعيدة، بين العاشق و المعشوق في أطراف الكون اللامنتهي. أطلقي أطياف رعشتك المقدّسة، وجمال طلعتكِ البهية. أرسلي انشودة الواحات لِ تخترقَ موجاتكِ أقبية العذابات، لعلَّهم يستشعرون الربيع، من دفء صوتك، و يسترحمون الربّ لِ هدوء روح أُذينة الحبيب. كنتِ عذراء في لحظة من عمركِ يا أميرة اليخضور. كم كان قاسيا عليكِ غروب شمسكِ؟

لا زلتُ أعدو هَرَبا من هنا، مِنْ اسمي و عنواني. كم كنتُ أعشقكَ يا شرقي الحبيب حين كنتُ فتاً، و الأفكار تعتصر في دماغي، و نماذج الحُبِّ كانت تجول أمام ناظري. كنتُ أختار الأفضل في خيالاتي وأضعُ تقويما شخصيا لِ أحلامي، و برنامجا زمنيا لِ حدود الورد و الياسمين. لكنني، في زمنِ العجاج، أدركتُ حجم فراغي، ومقدار بؤسِ مرآتي. لم أكن أعلمُ بِ أنَّني أنا هو ذاته، وأنَّ الذي أرسمه هو أنا ذاتي. كنتُ أحبو وأزحفُ بين الأوساخ. تدحرجتُ كثيرا بين شظايا الأحجار و أشواك البعير. أَطعموا لساني لِكلاب البراري. جعلوني مسخا يشبه الإنسان، في

أفضل الأحوال، كتلة من اللحم المترهّل يسير بِ قوّة الدفعة الأولى، و السوائل تَنزُّ من ثقوبي، و القيح المنسكب منّي يدلّهم على جحري المظلم كي لا أُفْلَتَ منهم، حتى و أنا في تلك الهيئة المخزية. كنتُ أتلاشى رويدا رويدا، حتى انطفأتْ آخر ومضة من عيوني. و لذلك رحتُ أبحث عنّي تحت الأرض بعد أنْ مَلَلْتُ العبث فوق هذه القمامة. لا ضوء في عيوني، و لا لسان في كهف رأسي، و دهليز جمجمتي محشوّ بِ حكايات العرائس المقدّسة. فَ أنا هو الذي يبحثُ عنّي تحت الأرض. دخلتُ الممالكَ المنخفسة بِ كلِّ نفائسها. رحتُ أمشي وحيدا في الظلام اللامع، حيث الأشياء تتكشَّفُ بِ لون الزفير العتيق، و كأنّي أسيرُ تحت شمس حقيقيّ في ممالك أسلافي. سمعتُ أصداء أنغام قادمة من أعماق الدهاليز. قرأتها رُقُما على الأحجار المترامية بيني وبيني. رأيتني وسط العازفين وقديسات الهيكل. لمَحْتُ أورنينا بِ قَدِّها الممشوق كَ الآلهة تومئ لهنَّ بِ التواءات الحوريات في قمة الرعشات. عدتُ إليَّ و أنا في الأعماق. أفرَدْتُ صور دماغي بِ هدوء، هنا تحت الأرض. أدركتُ بِ أنّني كنتُ قد تمرَّغتُ على رمال دجلة لِ مرأى جمالهنَّ، وكنتُ قد عانقتُ المفاتن مع اللحن، حين كان الربيع يقترب من عقده الثاني فوق الأرض، وحين كانت المسافة بيني وبين الفراشات كَالمسافة بين الهواء و الهواء. هذي رمالي، وتلك هي مرتفعاتي. مجرى الدجلة والتلال المترامية حولها، وبضع غرسات أضحَتْ اهداف رصاصات الكهوف. كنتُ غرسة هناك على ضفاف الدجلة وأمسَيتُ الآن جذرا تحت الأرض أرتشفُ دمائي من وريد دجلة المحتضر. أحقنها مما تَبَقّى من دمائي كي نحيا أو نموتَ معا تحت أنظاركم. فَ أنا الحياة حيث الموت يجتاحكم، و أنا الموت حين تريدون الحياة. هلمّوا إلى جسدي المزدان بِ الأزهار. خذوا ما شئتم منه، كلوا ما اشتهيتم من ثماره! فَ هو لكم و لِ الشمس و الهواء، و هو روح دجلة المحتضر. على أيّ شَطٍّ رَمَيْتَ ثيابكَ يا ابن الآلهة؟ و مِن أيِّ شَطٍّ ضاعتْ عشبَتكَ يا ابن الآلهة؟ و على أيِّ شَطٍّ كانت بَغْي السماء

قد تَعَرَّتْ حتى أمسَيتَ وحيدا تحت برج الحوت، و أنتَ المارد الفاني تحت النجوم؟ تلك كانت مسافة حلمكَ الجميل. من شَطِّ الخيال عبْرَ غابات الأرز إلى شَطِّ دجلة المحتضر، حيث رسمتَ الأقواس و الرماح، و نَحَتَّ الثيران بِ أجنحة طريّة تحت أعاصير الرياح العاتية. كم كنتَ جميلا بِروحكَ، و كم كنتَ رائعا بِ خيالكَ. دوَّنتَ نفسكَ حكاية جميلة، و راحت دجلة تقذفكَ في الفرات رواية، تناقلتها ذكور الشرق فوق أعضائها القذرة. رسموا صوركَ في المتاحف. كتبوك تاريخا لِالزيف الصارخ بين دفّات القصور و المكتبات. كنتَ المعلّمَ و الحكيمَ و السيّدَ في لغات الكون. و كانت رفيقة دربكَ و حبيبة روحكَ سيدة السماء، نجمة الصبح في لغة العشاق، رَبّة التوالد والحُبِّ والجمال. أمسَيتُ وإيّاكم رموز الصمت و كتل الجبْسِ و الصوّان في سراب هذه الصحارى. يلتقطون صورنا في كلِّ الأمكنة، و مِن كلِّ الأمكنة. فَ ها أنذا أخلع ثيابي امامكم وأمام الربِّ في عليائه، وأرمي اسمي الترابيّ فوق أبعاد الرمال. أنادي آدون من تحت جذوع الأرز، من قمم صنّين وحَرَمون لِ يعانق ابن الآلهة والبشر، و لِ ينفضوا الغبار عن وجه الفينيق والعاشق المقدام. فَ أنا بِ انتظاركم هنا تحت الأرض. ولأنني أبحثُ عنّي تحت الأرض، فَ لعلّي ألقاكم هنا، وأستعيد فرحي معكم بعيدا عن الرصاص ورائحة البارود المقيت، و أنياب الكواسر ومخالب المفترسين دسائس المتوحشين. دعوا نياشينهم تلتصق بِ أسمائهم، و لنبتعد عن أسمائنا تحت سمائهم. فَ هم لِ الأشياء، و الأشياء كلّها لهم. نحن لِ اللاشيء، و اللاشيء كله لنا. كلُّ الأمكنة لهم، و نحن لنا اللامكان. فَ أنا مكان الذي لا مكان له، و زمان الذي خرجَ من زمانه.

في الفجر الدمشقي ينسى سارو التعب و معاناة السفر. يرسل بصره إلى قبة السماء، و كَ أنَّه استيقظَ لِ التوّ من نومه العميق، حيث اللون الليلكيُّ يصطبغ رويدا رويدا بِ اللون البرتقالي. يتتبَّع بِ عيونه كلَّ حركة من حوله. الباعة الذين يرتّبون بسطاتهم. بعضا منهم يستخدم عَرَبَة بِ ثلاثة دواليب فوقها كومة من

المناقيش، بِ الزعتر و الجبن. و مثلهم بائع السحلب السخن، حيث يبيع أنواع الكعك بِ السمسم والزبيب الأسود مع السحلب السخن. و البائع الذي حَوَّلَ طاولة صغيرة بِارتفاع مترٍ و نصف المتر إلى مقهىً صغير، حيث وضَعَ عليها ببور غاز بِعينتين، وعليها أوعية لِصنع الشاي والقهوة. كان باعة الدخان المهرَّب يعرضون أنواع السكائر.وترى باعة اليانصيب يفركون عيونهم ويعرضون بطاقات اليانصيب على القادمين و المسافرين بِ كَسَلٍ واضح. وفي المحيط تبدأ سيارات الخدمة و التكاسي بِإطلاق زمامیرها، وكذا الميكروباصات التي ينادي سائقوها على الركاب موضحين خَطَّ سيرهم. إنَّ هذه الحركة المتصاعدة و الضجيج المرافق يجعلان الجرادين تهرب مسرعة نحو المجارير، والقطط تبحث لِنفسها عن أماكن غير التي احتلها الباعة، وغيرهم من القادمين والذاهبين من و إلى مركز الانطلاق الرئيس. في الأثناء تبدأ آلات التسجيل بِ إطلاق الآيات القرآنية بِأصوات شيوخ عديدين، لكن الأكثر شهرة هو صوت عبد الباسط عبد الصمد. قبل هذا التاريخ، حين كان المرء يصل إلى دمشق في مثل هذه الأوقات، كانت آلات التسجيل تَبثُّ أغاني الياسمين والحبَّ السوري بِصوت رسولة الحُبِّ و الطفولة و النقاء(صوت فيروز). كان المرء ينتعشُ في الفجر الدمشقي بِ الموسيقى الناعمة المُنَشِّطة لِ الروح، و بِ الصوت الملائكي الذي يعمُّ المكان كَما النور و الهواء.
ماذا حصلَ يا أُمّ الحياة، يا دمشقَ الحُبِّ و الياسمين؟!

آهٍ يا دمشق، يا أيتها الفاتنة التي عشقتك وأنا مراهق صغير، قَدِمْتُ إليك من شمالي البائس بُرْعُما. كنتُ ألتفت يمينا ويسارا أنظر من شبّاك الباص العتيق، باص أل هوب هوب، كي أحمل كل شيء ألتقيه من مسافة مئات الأميال قبل المثول في محرابك المقدس. كان الفرح يجتاحني و أنا في طريقي إليكِ. عند مشارف أبوابكِ و مخدعكِ المقدَّس. كان الطريق يلتفُّ حول ذاته و يشرف، في نقاط عديدة، على أودية عميقة. كان أبي قد حَدَّثنا عن تلك المسافة المخيفة،

حيث كان السائقون يسمونها طلوع الثنايا،(هم كانوا يلفظونها، طلوع التنايا) وكان قد حدّثنا عن حوادث سير قضى فيها عدد من السائقين نَحْبَهم هناك. بعدها تنحدر بِسلاسة إلى الغوطة الغنّاء التي تحتضن الطريق الوحيد القادم من أقصى شرق الشمال مُلَمْلِمَا كل المحافظات الما قبل موكب العروس. عند دخول الباص بين الأشجار على الطريق الوحيد المؤدي إلى دمشق الزمان، كان قلبي يرقص بين ضلوعي. وقتذاك لم أدرِ السبب في ذاك الاختلاج الطري المباغت. أما الشعور الذي كان يغمرني لحظة اقتحام الباص حرمة دمشقي الحبيبة، كان شعور الفاتح المكتشف قبل غيره من القادة والمستكشفين. كنت أودُّ أنْ أقفزَ من الباص وأطير في سماء الغوطة، التي لم أكن أعلم بِ أنها هي الغوطة، كي أتشبّع بِ جمالها وهوائها النقي. كي أحمل كل شيء بين أنفاسي وعيوني. لأنني تجرأت وحيدا من اقتحام مخدع عروس الشرق. العروس التي تغفو تحت ظلال الغوطة، مسندة رأسها على وسادة من حرير قرب منبع النهر المقدس ذي الشعاب السبعة(بردى). كان صوت فيروز يهدهد الركاب، و يداعب أرواحهم ناثرا الحُبَّ و الطمأنينة فوق رؤسهم. كان ذاك التاريخ بعد سكوت المَدافع وهدير الطائرات التي كانت تقتل الحياة في مربع واحد من رقعة الشطرنج. في ذلك التاريخ وقفت على رصيف شارع لم أعرف اسمه ولم أسأل عنه.لكن بِ التأكيد سيكون إما شارع الثورة أو النصر أو الوحدة أو 8 آذار أو7 نيسان..إلخ. هناك رأيت لاعبَيْن ماهرين من بين اللاعبين الدوليين وهما بِ جانب بعضهما في سيارة مكشوفة قادمة من مطار دمشق الدولي. كان الرئيسان حافظ الأسد و ريتشارد نيكسون يلوّحان لنا، طبعا هما لم يلاحظاني، ولم يعرفا بِ أنّني موجود في دمشق في تلك الساعة. لكني أنا رأيتهما شخصيا، وحاولت ألاّ أضيّع لحظة واحدة، حتى رفّة الجفن سيطرتُ عليها كي آخذ كل الوقت وكل المشهد. كانا يلوّحان لكل شيء/ هكذا هي العادة/. مرَّ الموكب دون أن أشعر بالخوف. اختفى الموكب

واختفيت في زحمة البشر، وأيضا دون خوف. لم أدرِ وقتذاك لماذا جاء نيكسون إلى دمشق. لكنني أتذكر بِ أننا هُزِمنا في حربنا ضد اسرائيل قبل مجيئه و أتذكر الآن زيارته تلك التي جاءت بعد حرب تشرين، وأيضا ضد اسرائيل. أمّا يوم وشهر وسنة تلك الزيارة فلم أدوّنها، فَ يكفي أنها كانت في نفس الوقت الذي فيه كنت أنا في دمشق، ألا يحقّ لي أن أؤسِّسَ تاريخا خاصا يرتبط بي شخصيا؟ ولِم لا؟، فَ يوم كنت أنا في دمشق(زيارة نيكسون) كان الزمن بعد الحربين. كان التاريخ بعد حزيران وقبل تشرين، وكان هو التاريخ الذي معه بدأ الرئيس الأسد بِ بناء دولة آيديولوجية، ولقد نجح نجاحا مذهلا في بناء هذه الدولة. بعد بضع سنوات من(يوم كنت أنا في دمشق) مررتُ من نفس الطريق الذي يلتف حول نفسه منزلقا نحو دمشق الحبيبة. كانت صدمتي كبيرة، فَ الدولة كانت قد أكلت الجزء الأعظم من الغوطة الغنّاء. كم كان حزني كبيرا لمشهد الأشجار المقتولة والمقطّعة أوصالها، وهي تنزف وتئن تحت مرأى ومسمع البشر، ولا أحد يشفق عليها وعلى احتضارها المؤلم. فَ الدولة يجب أن تبنى؛ ولأجل ذلك راح الرفاق يدرسون ويتعلمون ويتلقون شتى أنواع العلوم والمعارف. و من أهم تلك العلوم التي جاء بها الرفاق إلى دمشق، كان علم صناعة القادة(الزعيم) وفْق تراتبية صارمة كما فعل الرفاق السوفييت(آنذاك). ألم يكن لينين زعيما وقائدا للثورة البلشفية، ألم يكن كاسترو زعيما وقائدا للثورة في كوبا، ألم يكن جمال عبد الناصر زعيم العرب وقائد الثورة في مصر؟ فَ لماذا لا يكون الأسد هو أيضا مثلهم يأخذ فرصته في الانتشار كَ قائد ثورة وزعيم أمة؟!

بعد عشرات السنين من(يوم كنت أنا في دمشق) دخلتُ قلب العاصمة دون أن أصادف شجرة واحدة من تلك الغوطة التي كنّا نَمرُّ فيها و التي أصبحت أثرا بعد عين. فَ الدولة كانت قد أتت عليها كما الجراد حين يهجم على حقل الغلال. ما حاجتنا إلى الشجر؟ هل سنبقى عاجزين أمام هذه الخضرة البسيطة وجذورها

المتواضعة؟ إنها تعيق نمو الدولة وتطورها وتعرّض الثورة لِ مخاطر حقيقية حينما تعجز عن التوسع في المدى الحيوي لها. فَ الصراع بين الثورة والشجر يجب أن يُحْسم، وَ واضح أنَّ النصرَ هو حليف الثوريين. فَ هناك مشاريع كثيرة تنتظر حكم الاعدام على الأشجار، وما أن تمَّ اغتيال الأشجار حتى راحت المنائر والعمائم تفرّخ المشاريع، وتستجلب العجاج والرمال من الربع الخالي، و راحت الأصوليات تؤسِّسُ لِلمحاكم الإلهية، وتُبَشِّرُ بِ حروب الآلهة وفيالقها من الأبابيل والرجوم السماوية.عندما مرَّ الموكب في ذلك اليوم، الذي فيه كنتُ أنا في دمشق، لم أشعر بِ الخوف ولم يكن الخوف ظاهرة مألوفة خلف موكب الرئيس. لم نكن نخجل من أنفسنا أو من أي أحد آخر بِسبب أحلامنا الوردية، و خيالاتنا الرهيفة. أمّا اليوم وبعد بضع عشرات من السنين من(يوم كنت أنا في دمشق)، واغتيال الأشجار تحت ضوء الشمس وعلى مرأى ومسمع الناس، ودون أن يدافع أحدٌ عن تلك القامات المقدسة التي تهاوت بِفعل الأحكام الثورية، صار الخوف من نصيبنا والخجل يلازمنا لأننا أمسينا خطرا على هؤلاء وأولئك. و راحوا يطلقون الاتهامات علينا، لِ أنَّنا لا نزال نبكي الأشجار التي ضاعت في زحمة الشعارات والمزايدات و التكبيرات في رقعة الشطرنج ذاتها.

آلَمتني ذكرى قدوم الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون في ذلك اليوم الذي فيه كنتُ أنا في دمشق. مشيتُ إلى نفس الشارع الذي جاء منه الموكب، وذهبتُ إلى نفس المكان الذي وقفتُ فيه حين مَرَّ الموكب من أمامنا. ظللتُ واقفا في مكاني أنظر إلى الشارع،وأتخَيَّل الازدحام الذي كانه في ذلك اليوم. لَوَّحْتُ بِيديَّ الاثنتين، كما الزعماء، بِاتجاه الشارع الذي مَرَّ فيه الموكب. ابتسمتُ لهما و لِ المستقبلين على أرصفة دمشق. نظرتُ إلى كلّ الجهات، كانت الهتافات تشقُّ عنان السماء. كانوا يبتسمون لي و يلوّحون بِ أيديهم و يصفّقون دون انقطاع حتّى بعد اجتياز الموكب بِمئات الأمتار منهم. إنهم كانوا يصفِّقون لي و يهتفون لي. في الأثناء،

قطَعَتْ تخيُّلاتي ضحكات شابين مَرّا مِن أمامي، حينها أدرَكتُ الحالة التي أنا فيها. رأيتُ اليمامات البنية تَحطُّ عندَ قدميَّ، و تفتِّشُ عن وجبتها الصباحية مع عصافير الدوري. قعدتُ على عتبة البناء المواجه لِ الشارع إيّاه. شعرتُ بِ برودة بلاطة العتبة تخترق مؤخّرتي. على ناصية الشارع إلى يميني، و على بُعْدِ سبعة أمتار تقريبا استقَرَّتْ عربة فول. كان صاحبها يرتدي سترة بترولية اللون فوق ملابس العمل، فَ كما يبدو، أنّه موظف في مكانٍ ما، وأنّه سَيذهب إلى عمله بعدَ ساعاتٍ من الاسترزاق على ناصية الشارع. يستعدُّ لِ استقبال الزبائن. كان يتمتمُ، من غير ما أسمع ما يقول.على الأغلب كان يردِّد الأدعية والتمائم الصوفية وابتهالات الاستفتاح. يُقَلِّبُ الفول في القدر بِ مغرفة طويلة الذراع، وينظر إلى أطباق الطعمية والطرشي المرصوصة على العربة. يتأكَّدُ من امتلائها و جمال هيئتها ومنظرها المغري. ينظر إلى الصحون الفخارية الفارغة إلى جانبه متفحِّصا نظافتها. يتفقَّدُ ربطات الخبز التي جلبها لِ التوّ من الفرن الآلي. يُمَرِّرُ يده على قناني زيت الزيتون(يُفْتَرَض أنْ يكون زيت الزيتون حقيقةً)لِ التأكّد من امتلائها ليس إلاّ. يتفقَّد صلصة الطحينية بِالحامض، و يحرص على خلوّها من الشوائب. بعدَ هذه اللفتات والفحوصات الضرورية، يعود فَيتمتم ويرفعُ عيونه نحو السماء، ويمسحُ وجهه بِ كَفَّيه وكأنّه كان يقرأُ الفاتحة.أخّذني التأمّل بعيدا، رأيتُ صورتي وأنا فتىً طريّ البنية مقبلٌ على الحياة غير ملوَّث بِمفرداتها.قلبه يرقص في صدره لِ الفراشات والعصافير وأزهار الربيع.

أخذني تفكيري إلى تاريخ زيارته(الرئيس نيكسون)، والذي جاء بعدَ حرب حزيران 1967 بِ ستِّ سنوات و بعد حرب تشرين 1973 بِ سبعة أشهُر، حينها أدركتُ بِ أنَّ زيارته لِ دمشق كانت لِ تقييم نتائج الحربين. أمّا نتائج حرب أل 1948 و حرب أل 1956، فَ كانت قد أصبحت أمرا واقعا غير قابل لِ النقاش. اجتاحتني موجة من الغضب على الإنكسارات و الهزائم العربية امام هذا الكيان المصطنع.

هذا العدو الغاصب. هذا الشعب القادم من أقاصي العالم لِ يسلب فلسطين من أصحابها الحقيقيين.إنَّ الروح الثورية التي تربَّيتُ عليها، و الإيمان المطلق بِ الأدبيات الحزبية، و اعتبار التاريخ المُقَدَّم من قِبَل القيادة الثورية تاريخا صحيحا و مقدَّسا بِ المطلق. هذه التربية العقائدية دفعتني إلى الانخراط في جيش الأمة العربية والهجوم على الكيان الصهيوني اقتلاعه من أرض فلسطين، و تطهيرها من رجس الاحتلال و طَرْد هذا العنصر الغريب من فلسطين، لا بل، من الشرق الأوسط كلّه. يجب استئصال هذا الورم السرطاني مِنْ جسد الأمة. رأيتني مقاتلا في فرقة ذئاب الليل. كانت لدينا عشرون فرقة من الجبابرة. تَمَرْكَزَتْ ثلاثة منها في الجنوب اللبناني على الحدود الشمالية لِ فلسطين. أُضيفَت إليها خمس فرق من أبطال الجيش الموريتاني، و أربع فرق من بواسل الجيش الجزائري، و فرقتان من الجيش الألباني البطل، و فرقة الصاعقة من الجيش اللبناني. في المحصِّلة، تمركزَ 150000 مقاتل في الجبهة اللبنانية تحت اسم الجيش الأول.

وفي سورية تجمَّعَتْ الفُرَق التالية: 4 سورية+ 5 عراقية+ 3 مغربية+ 2 ليبية+ 3 صومالية+ 3 تونسية+ 5 سودانية+ 5 كازاخية. انتشر 300000 مقاتل في الجبهة السورية تحت اسم الجيش الثالث. وفي الأردن بلغَ عدد الفرق وجنسياتها كَ الآتي: 3 أردنية+ 4 سعودية+ 3 (من قطر و عمان و الكويت)+2 نيجيرية+ 3 أريتيرية+ 4 تركمانية+ 2 جيبوتية. عدد الجنود في الجبهة الأردنية 210000 مقاتل، تحت اسم الجيش الرابع. أمّا في الجبهة المصرية، و التي أخذَت تسمية الجيش السابع، فَ كانت الفرق على الشكل التالي: 7 مصرية+ 6 باكستانية+ 8 إندونيسية+ 5 أفغانية+ 4 أذريَّة+ 8 تركية+ 2 يمنية+ 5 ماليزية+ 1 جزر المالديف. بلغَ عدد الجنود في الجبهة المصرية 460000 مقاتل. أفضت الاجتماعات المكثَّفة بين قادة الجيوش المسلمة إلى تشكيل ثلاث غرف عمليات لِ قيادة الهجوم الساحق على العدو. غرفة عمليات بِ قيادة

تركيا(وريثة الخلافة الإسلامية). و تخضع لِ أوامرها كلّ الدول ذات الأصول التركية. القيادة الثانية، و تخضع لها الدول الإسلامية غير العربية، و تقودها أندونيسيا المؤمنة، و أخيرا القيادة العربية، و تخضع لها الدول الإسلامية العربية و تقودها مصر الأزهرية. و كانت قد تَشَكَّلَت قيادة عليا مكوَّنة من قادة غُرَف العمليات الثلاث آنفة الذكر مع ملك السعودية، حامي و حارس و خادم كعبة الإسلام و المسلمين. لدينا جيش قوامه أكثر من مليون مقاتل مؤمن و حاقد على أبناء القردة و الخنازير. يُضاف إليه المجتمع الفلسطيني الشرس المقاتل في الداخل الإسرائيلي.إنه جيش الحق ضدَّ المرتزقة الغاصبين القادمين من بلاد الكفر و الكفار. نحيط بِ العدوِ من كلِّ الجهات، سوى جهة البحر غرباً. إنه المَنْفَذ الوحيد لِ هروبهم من الموت المُحَقَّق. مِن هناك سَ يرمون بِ أنفسهم في التهلكة، ولسنا نحن مَنْ سَيرميهم في البحر. منذ شهرين و نحن، فرقة الكشّافة، نجمع المعلومات الدقيقة من الداخل بِ مساعدة إخواننا فلسطينيي الداخل.
أحصينا عدد الملاجئ وميّزاتها الفنية والعمرانية ومواقعها. أماكن المراكز الخدمية والمعيشية، كَالأفران،المتاجر،الأسواق الشعبية، محطات توليد الكهرباء ومحطات ضخ المياه العذبة...إلخ. أجرينا مسحا إحصائيا لِعدد سكان المدن والبلدات مبيّنين فيها عدد الإناث، على وجه الخصوص، حينها قال رفاقنا الفدائيون بِ هذا الخصوص: "إنَّ معرفة عدد الإناث و أعمارهنّ ضروريّ لِ المجاهدين"، وقتها لم أفهم قَصْدهم من ذلك.
كان آذان صلاة الفجر ف مسجد النبيّ الأعظم في مكة، في السابع عشر من شَوّال هو ساعة الصفر لِ بدْءِ الهجوم المبارك. كانت خطتنا العسكرية تقوم على تشويش العدوّ. حيث أنَّ القيادة العُليا قَرَّرَت اتّباع خطة الصحابي المجاهد عمرو بن العاص حين فتَحَ دولة مصر و حَرَّرها من الكفرة. حيث كانت خطّته العسكرية في الهجوم قد أَخَذَتْ اسما رمزيا، و هو"الرقص مع الذئاب". أنْ تضربَ في مكان

لِ تَسْحَبَ الذئب إليه، و من ثمَّ، تضرب في مكان آخر، و هكذا تكون قد أنهكتَ عدوَّكَ و شَوَّشتَ عليه رؤيته، و خَرَّبْتَ استراتيجيته و خطته العسكرية. ارتفع الآذان في مكة، و كان ذلك في السابع عشر من شَوّال، و في نفس اللحظة انطلق هدير مدوّ من حناجر الجيوش المحتشدة حول الفريسة تُكَبِّر بِ صَوتٍ واحدٍ. بَدَأَ الهجوم، و بدأ الرقص مع الذئاب. كنتُ في مجموعة كومندوس من الجيش الثالث نتقدَّمُ بِ اتجاه الجولان. كانت المدفعية الثقيلة قد باشرت القصف فَوْرَ انتهاء آذان الفجر، على خطّ الدفاع الأول على كافة الجبهات. تزامن القصف المدفعي مع إطلاق رشقات غزيرة من الصواريخ بعيدة المدى على مواقع جيش العدو الواقعة بعد الخط الأول من دفاعاته.كانت الطائرات تستكمل القصف، حين ترتاح المَدافع و الصواريخ. استمرَّت الجبهات الأربع بِ تدمير قوّات العدو طوال اليوم الأوّل من الحرب المقدَّسة. و لَمّا لمْ يستطع العدوّ تجميع قواته و استيعاب الضربة المباغِتة، أصدَرَت القيادة العليا الأوامر بِ اقتحام الحدود، فور انتهاء الثانية الأخيرة من الساعة 36 بِ توقيت مكّة المكرَّمة، و احتلال الأرض، المدن و البلدات و القرى. و في فجر اليوم الثاني، و بعد إتمام الساعة دورتها المَكّية أل/36/، اجتاحت جيوشنا حدود الدولة الإسرائيلية. في ساعة الصفر المكّي بدأ الزحف الأكبر. كان الفدائيون الفلسطينيون هم طليعة الجيش الأوَّل الذين اقتحموا بلدة شَبْعا. فَ هؤلاء المقاتلون، هم أبناء و أحفاد النازحين الذين تَمَّ طَرْدهم من بيوتهم إلى لبنان. كانت أرواحهم تسيل من قلوبهم شوقا لِ معانقة تراب الوطن. كان الغضبُ يأكل أحشاءهم، فَ هم يعرفون، أكثرَ من غيرهم، الطريق إلى القدس. اللبنانيون لم يكونوا على دراية تامة بِ شبكة الطرقات المؤدية إلى خارج الحدود، و لم يكونوا متأكّدين من الطريق المؤدّي إلى القدس. لذلك تَقَدَّمَ الفدائيون الفلسطينيون إلى الصفوف الأمامية، و قادوهم عبْرَ جونيه إلى القدس. كانوا يعرفون، منذ زمن، بِ أنَّ طريق القدس يَمرُّ من جونيه. و

هكذا! دخلَ مقاتلوا الجيش الأوَّل إلى مزارع شَبْعا. قتلوا مَنْ صادَفوه، سواء في حقله، أو قُرْبَ منزله، أو في سوق البلدة. اغتصبوا، على عَجَل، الفتيات و العذارى، ثمَّ دعوا السكان إلى الاستسلام تحت طائلة القتل المؤكَّد. لقد استسلموا وخضعوا لِ كلِّ الشروط. أصبحوا، هم و ذراريهم و نساؤهم و أنعامهم، من أملاك المقاتلين. أمضوا اليوم بِ أكمله في تقسيم الغنائم، و توزيع الإناث على بعضهم لِ الاستمتاع بهنَّ متى و كيفما شاءوا. لم يختلفوا، إلى حَدِّ النزاع، في التقسيم و التوزيع. كانت تتمّ تنازلات متبادلة في بازار الغنائم.

رَفَعَ المقاتلون العَلَمَ اللبناني فوق تلَّة البلدة. إلاّ أنَّ قيادة الجيش الأوَّل أمَرَتهم بِ إنزال العلم المحلّي و رَفْع عَلَم الأمة، العَلَم الجامع و ليس علم الجماعة. تَوَغَّلَ المقاتلون إلى الداخل بِ اتجاه الجنوب الغربي، إلى مدينة نهاريا الساحلية. عند مداخل المدينة، و على بعد خمسة أميال، استعملوا الأسلحة النارية المختلفة. مدافع الهاون، صواريخ الكاتيوشا، قذائف المدفعية الثقيلة، و رميات من الدبّابات الحديثة و رشقات من الرشّاشات البعيدة المدى. استمرَّ هذا القصف العنيف و المدمِّر من الساعة الواحدة فَجْرا إلى الساعة الثانية عشر من منتصف النهار. تَمَّ تدمير الشريط الأوَّل من البيوت السكنية و إحراق البساتين و المَزارع و الحقول التابعة لِ أصحاب البيوت وغيرهم من أهالي المدينة. توَغَّلَ المقاتلون إلى الداخل، و الحقد يحرق أكبادهم. قتلوا مَنْ بَقيَ حَيًّا بعدَ القصف العنيف التي تعرَّضَت له المدينة. لم يكن لدى الأهالي ملاجئ، أو خنادق يحتمون فيها.

على أبواب نهاريا، راح المقاتلون يطلقون صيحات النصر ويُكَبِّرون بِصوت واحدٍ مدوٍّ يَشقُّ عنان السماء .استبدلوا أسلحتهم النارية وملابسهم العسكرية بِالأسلحة و اللباس التي جاهد بها المسلمون الأوائل.امتشقوا السيوف و الخناجر و الرماح والهراوات، وامتطوا الجياد المطهّمة. قرأَ قائد الحملة رسالة الرحمة على الأهالي: يا أهالي نهاريا! إنَّ دماءكم معصومة علينا بِ أَمْرٍ من الله تعالى و كتابه العزيز،

القرآن الكريم، فَ إنْ أردتم أنْ تبقوا على قيد الحياة، أمامكم طريقين تختارون الذي يناسبكم بِكامل حريّتكم. فَإمّا أن تدخلوا في دين الله و تسلموا، أو أنْ تدفعوا الجزية وأنتم صاغرون، بِالتالي تصبحون في ذمَّتنا.أمّا إذا رفضتم فحوى رسالتنا، فَهذا يعني أنَّكم تختارون الطريق الثالث، أيْ مقاتلتنا.

كانت دماء المقاتلين تَغْلي في عروقهم. إنهم يقفون منتصرين أمام أبناء القردة والخنازير. ليس هذا فَحَسْب، وإنما، هؤلاء و أسلافهم قد قتلوا المسلمين أصحاب الأرض، ودنَّسوا المقدّسات الإسلامية. ولذلك اغتنموا فرصة تأخّر الأهالي في الردِّ على رسالة الرحمة التي تلاها قائد الفوج. اعتبروا تأخّرَ الردّ جواباً على الرسالة. سَرَتْ إشارة غريزية بينهم، مفادها، بِ أنَّ الأهالي رفضوا دخول الإسلام، و أيضا رفضوا دَفْع الجزية. بِ الكاد سُمِعَ صوت أحد المقاتلين من الصفوف الخلفية، كان يقول: حَسْبي الله و نِعْمَ الوكيل، لا إله إلّا الله محمد رسول الله. بدأتِ الجموع المقاتلة بِ ترديد الأدعية و العبارات الدينية المحَرِّضة. كانت البدايات دمدمة تموج فوق رؤسهم، كما وشوشة الأمواج القادمة من بعيد. راحوا يرددون معا: استغفر الله العليّ العظيم، حَسْبي الله و نعم الوكيل، لا إله إلّا الله محمد رسول الله. تحوَّلَتِ الدمدمة الخافتة إلى هديرٍ، وأضيفَت إليها تعويذات وآيات قرآنية، وخاصة تلك المتعلّقة بِاليهود والنصارى، والتي تُكَفّرهم وتشتمهم وتزدري عقيدتهم وإيمانهم وتدعو إلى قتلهم صراحة. كلّ هذا ساهمَ في رَفْعِ مستوى هرمون الغضب و العدوانية في دمائهم. لم يعد ممكنا السيطرة على الغريزة العدوانية، و الاستعداد النفسي والغيبي لِ القتل. المسألة كانت قد نضَجَت، و لم يكونوا بِ حاجة إلى أيّة ذريعة لِ البدء في المَقْتَلة. كانت الشرارة في صَيْحَةٍ صدَرَت من الرتل الأمامي من أحد المقاتلين، حين صَرَخَ: الله أكبر، إنَّ الكفار يرفضون الإسلام و يرفضون دَفْعِ الجزية، إنّهم أعداء الله ورسوله. هَيّا إلى الجهاد في سبيل الله يا أيها المسلمون. صدرَ صوت من الوسط مع لمعة السيف، يصرخ: تكبير! رَدَّ الجمع بِصوت

مزلزل، الله أكبر.

كان المقاتلون عند أبواب نهاريا قد استبدلوا أسلحتهم وملابسهم بِتلك التي غزا بها المجاهدون الأوائل بلاد الكفّار،لذلك، وعند بدء الهجوم والزحف على المدينة، تَعثَّر الكثير منهم بِ جلابيبهم ودهَستهم الجياد بِحوافرها، وراحت تركلهم بِ قسوة لِتتخلّص من تلك العثرات التي كانت تستفزها.قُتِلَ عدَدٌ كبير من المقاتلين وهم في هيئة المجاهدين الأوائل، لكنَّ فقيه المجموعة احتار لِبَعض الوقت في تسميتهم و وصْفهم. هل يعتبرهم شهداء في سبيل الله، أمْ قَتْلى تحت حوافر الجياد؟ اندفع الحشد إلى داخل المدينة تسبقهم الهيعات والتكبيرات. كانت قطعان من الأبقار والجواميس تسرح في شوارع المدينة،وأسراب من الغربان والزرازير تحوم في سمائها. وفي الأزقّة رأوا الأرانب والقطط تتقافز، وكأنها تلعب، و في المجارير القريبة منهم كانت الجرذان تُخَربش، و تَخرج منها مسرعة إلى نواصي الشوارع المتسخة، تبحث عن الصراصير واليعاسيب التائهة لِ التهامها و إسكات جوعها. خلف البيوت ظهر قطيع من الخنازير تَبحثُ في القمامة عن طعام. و رأوا أكداس من ورق العنب تتطاير في الهواء، و أعداد كبيرة من الليمون و البرتقال تتدحرج نحوهم. و من طرف البحر، خَرَجَت مجموعتان من الأسماك، مجموعة على اليمين حرشقية، و مجموعة على اليسار دون حراشف كَ الدلافين. تقدَّمَتِ المجموعتان نحوهم، ومن خلفها كانت السلاحف والروبيان وقناديل البحر تتحرَّك، هي أيضا بِ اتجاه المجاهدين. أصدر كلّ من الشيخ والفقيه والمفتي المرافقين لِ السرية المقاتلة، أصدروا معا أمرا شرعيا على وجوب مقاتلة كلّ هؤلاء و أولائك و هاتِك وتلك، فَ هم الأعداء ذات نفسهم. اشتبكَ المجاهدون مع الأعداء، و راحوا يعملون السيف في رقابهم. كانت الأرانب و القطط تقفز على الجياد، مما سَبَّبَ هيَجانا فظيعا فيما بينها، و راحَت تعدو منفلتة من سيطرة راكبيها من الفرسان. ترفس بعضها و تصيب مَنْ يقع في مدى رفساتها، و تنطح كلّ كائن و أيّ شيء

يظهر أمامها. ترمي الفرسان من على ظهورها أرضا، و هناك في ساحات الوغى، يشتدَّ القتال مع الجرذان و الأرانب. يقذفون الرماح بِ اتجاه اليعاسيب التائهة، و النبّالون يرمون الغربان و الزرازير بِ السهام. قطعوا رؤس الأسماك و السلاحف. كانوا يأكلون الروبيان وهي طازجة. طارد المشاة حَشْدَ الصراصير في زوايا جدران البيوت، و نصبوا كمائن مُحْكَمة لِ قطعان الخنازير التي كانت ترعى في القمامة خلف البيوت. تصَدّوا لِ أوراق الدوالي وعناقيد العنب التي كانت ترافق أغصانها، أحرقوا الأوراق. سحقوا الأعناب وطمروها تحت التراب كي لا تختمر تحت الشمس.داسوا على الحمضيات المتدحرجة بِ سنابك خيولهم و قتلوا أرواح الشياطين القابعة داخلها. جمعوا الغنائم و الغلمان و السبايا. أحرقوا البيوت و الحدائق والبساتين. صَبّوا القطران في المجارير، ردموا الساحل بِأحجار البازلت ذات الرؤس المسنَّنة، و مَلَؤوا الفجوات التي بين الأحجار بِأشواك البعير و الصبّار. اجتمعت قيادة الجيش الأوّل بعدَ هذا الانتصار المبين. قَرَّرَ المجتمعون بِ متابعة الزحف بِ اتجاه عكّا و حيفا و الخضيرة و نتانيا.

أمّا في الجبهة الشمالية الشرقية، فَكان الجيش الثالث يزحف بِ عنفوان مجاهدي سيف الله المسلول، الصحابي الجليل، القائد الشرس خالد بن الوليد. كان الغضب يلمع بين عيونهم، و شَوقهم لِ الشهادة كان يدفعهم كَ الزوبعة، دون الاكتراث لِ مخاطر، أو مفاجآت قد تواجههم. هكذا اجتاحوا كَالإعصار حدود الجولان، بِ صرف النظر عمَّن يسكن في مدنها و بلداتها، و راحوا، مِنْ فَورهم، يضرمون النيران في منحدرات بيّاراتهم و بساتينهم و منازلهم. لم يستخدموا الأسلحة النارية، بل تأسَّوا بِ المجاهدين و الصحابة الذين كانوا يقطعون الرؤس في غزواتهم المقدَّسة. لم يُنذروا أهالي الجولان، و لم يُخَيّروهم بين الاستسلام و الإسلام، وإنّما عملوا فيهم السيف، حيث راحوا يضربون الرقاب ويفصلون الرؤس. لم تأخذهم، صيحات الأهالي و استغاثات المسنّين و النساء، و لا بكاء و صراخ

الأطفال و لا توسّلات الحوامل أيّة شفقة، فَ المهاجمون الأشاوس لم يكسروا قواعد السنّة والسيرة. فَالغنائم والسبايا و العبيد، هي من ثوابت الجهاد في سبيل الله. طارت أسراب السنونوات من بين النيران المشتعلة في البيوت، وأسراب الجراد من بين النيران المشتعلة في الحقول. في الأثناء أطلق المجاهدون نيران رشاشاتهم على السنونوات، فَتناثرت مِزَق أشلائها فوق النيران، و راحت تتحوَّل إلى غيمة من النمل الطيّار تقطع الهواء على ألسنة اللهب. تنطفئ النيران، و تخرج جحافل الخلد من جحورها، و قطعان القنافذ من رماد النيران، تتوجّه نحو المجاهدين، تتقافز بين أرجلهم.أمّا مجموعة المقاتلين الذين طار الجراد فوق رؤسهم، فَ قَدْ أطلق الرماة منهم قاذفات اللهب على أسراب الجراد. احترق قسم منها احتراقا كاملا، و القسم الأعظم تَحَوَّل إلى شواء ذي رائحة مغرية، فَ ما كان من الجنود، إلّا البدء بِأكلِ الجراد المشوي مع العسل الأسود. و قريبا منهم، بِ جانب المنازل المدمّرة، راحتِ الأجساد المقطوعة رؤسها تُفَتِّشُ عن رؤسها، و تمشي بِ اتجاه الجنود و هم يطلقون النشيد الوطني لِ دولة سوريا. عند رؤية الجنود لِ هذا المشهد، استلَّ أفراد الصاعقة سيوفهم و اندفعوا في هجمة شرسة على الأجساد المتقدِّمة نحوهم، و شرعوا بِ تقطيع أوصالهم وشَقِّ بطونهم و صدورهم، و إخراج قلوبهم و أكبادهم، و راحوا يشوونها ويتلذَّذون بِ أكْلِها. أمّا الأطراف و الجذوع المرمية هنا وهناك، تحَوَّلَت إلى أفاعي وعقارب زواحف قاتلة. تزحف في ساحة المَقْتَلَة بين أرجل الجنود وحوافر الأحصنة، تلدغ وتلسع وتعضُّ الجنود و الجياد على حَدّ سواء. أدّى ذلك إلى هياج رهيب لِ الأحصنة مما تَسَبَّبَ في مقتل الكثير من الجنود تحت حوافر الأحصنة الهائجة.كانت الرؤس المقطوعة تنشد قصيدة"بلاد العرب أوطاني من الشام لِ جولانِ..." أمّا الذين سَقَطوا تحت الحوافر، والذين قضوا بِالعضّات واللسعات و اللدغات، فَ كانت الفَتْوَى جاهزة لِ اعتبارهم شهداء. و القسم الأعظم، منهم، لم يتسنّى له تلاوة الشهادة قبل خروج

روحه من فمه أو أنفه أو أيّ ثقبٍ آخر.
كانت طيور السماء، القادمة من لدن الله، تحوم فوق ساحة المعارك فَهي تعرف الشهداء بِالأسماء. تبتلعهم فور استشهادهم و تحملهم في حويصلاتها. و تبقى تطير عند تخوم الجنة والشهداء راقدون داخل أمعائها و حويصلاتها إلى أنْ يأذنَ الله بِ تقيّؤهم في الجنة لِيستمتعوا بِ الحوريات الموعودة لهم. أمّا إذا طال الوقت بهم، وهم في العُصارة المعوية، ويكون الله قد انشغلَ بِمسائل ذات أهمية أكبر من مُجَرَّد شهيد وحوريات ونكاح. فَفي هذه الحال، تهضمهم في عصاراتها الحامضية وتتبرَّزهم في أقرب مستنقع راكد مليء بِ الأشنيات و الطحالب و العفن الأخضر.
رّفّعّ المقاتلون علم سورية فوق أعلى نقطة من هضبة الجولان. إلّا أنَّ القيادة العليا أمَرَتْهم بِ إنزال هذا العلم، و رَفْعِ علم الأمة بدلا عنه. كانت التعليمات تقضي بِعدَمِ وَضْعِ العلم القطري. عدم استعمال عَلَم الجماعة، و إنّما تثبيت العلم الجامع، علم الأمة، على صواري الانتصارات. بعدَ تحرير الجولان، تَمَّ تحديد الناصرة كَ هدف لِ الهجوم المقبل. في الأثناء كان الجيش الرابع قد احتلَّ بحر الميّت بِ الكامل، و كان قد سَوَّى المنتجعات السياحية المنتشرة على شواطئها مع الأرض. جعلها ركاما من الأحجار و البللور المحطَّم. طبعا لم يَفُتِ المقاتلين الاستمتاع بِ السبايا الشقراوات البيضاوات السمراوات، ذوات النهود المغرية و الأفخاذ الملفوفة على بعضها لَفًّا محكما، تلفتُ أنظار المجاهدين إلى قواعد اتصالها بِ الحوض المرمري. بدأ القصف من الشاطئ الغربي على مدينة نابلس. انهمرت القذائف الصاروخية و قذائف المدفعية الثقيلة، كما المطر، على المباني و البيوت الآهلة بِ السكان. استمرَّ القصف لِ ثلاث عشرة ساعة. أحْدَثَ دمارا هائلا في المنازل و المرافق الحيوية، و اشتعلت الحرائق في البيوت و المراكز الخدمية و الحقول و البساتين المحيطة بِ المدينة.
تَقَدَّم المشاة بِ اتجاه المدينة. كانوا يطلقون النيران من الرشّاشات الثقيلة، و هم

على مشارف البيوت السكنية. يقتلون كل مَنْ و ما يتحرَّك في مرمى نيرانهم. كان الصراخ والعويل يختلطُ بِ دويّ الانفجارات وأزيز الرصاص،وراح القتلى يتساقطون في الشوارع، و دماءهم تجذبُ الكلاب و الحشرات و القطط الجائعة. كان الأطفال يصرخون من الهلع، ويبكون بِحرْقة على مقتل أمهاتهم وآبائهم، وكان المصابون منهم يتشبَّثون بِ جثث أوليائهم. تَوَغَّل المقاتلون في أحياء المدينة. كان الدمار كبيرا، والحرائق ما تزال مشتعلة في البيوت و البساتين. راحوا يجمعون الغنائم من المنازل والمحال التجارية المدمَّرة. صّعّدَ أحد المقاتلين إلى مئذنة مسجد المدينة رَفَعَ عَلَمَ الأردن فوقها. إلّا أنَّه اضطرَّ إلى إنزاله بَعدَ أنْ صَرَخَ قائد السرية قائلا: أنْزِلْ العَلَمَ المحلّي، و ارفَعْ العلم الجامع، عَلَمَ الأمّة! كانت الأوامر الصادرة من القيادة، تقضي بِ أَخْذِ الجنود استراحة المقاتل لِ أربع و عشرين ساعة. يتفقَّدون خلالها جهوزية أسلحتهم و أغراضهم الشخصية في أكياسهم الميدانية. يرتِّبون مقتنياتهم و أسهمهم من الغنائم. كانت الخطّة، بعدَ الاستراحة، هي الهجوم على بيت لحم و حَبرون و القدس.

في الجبهة الجنوبية الغربية، كان مغاوير السيناء يقطعون رؤس الأفاعي بِ اسنانهم، و يأكلونها طازجة بِ دمائها. كانت زمجرتهم تصلُ إلى مسامع جنود الجيش الأوّل في شمال إسرائيل. حتّى أنَّ الفدائيين الفلسطينيين أكَّدوا ذلك، و قالوا بِ أنّهم سمعوا صدى التكبير الآتي من الجنوب. خاض جنود الجيش السابع صراعا مريرا وشَرسا ضدَّ قِوى الصحراء الغاشمة.عانوا كثيرا من قيظ الصحراء، و حرارة الرمال غير المحتملة. كان الهواء الساخن يلفح وجوههم، و العجاج يدفع بِالرمال الناعمة إلى عيونهم والأجزاء الحسّاسة من أسلحتهم، ممّا أدَّتْ إلى تَعَطُّلِ الكثير منها. كان تَقَدّمهم بطيئا، و خاصة الأليات الثقيلة و الدبّابات و مدفعية الميدان. أمّا جنود المشاة، فَ قد تعرَّضَ ربعهم إلى صدمات التجفاف وضيقْ في التنفُّس. و قسم منهم فَقَدَ بصَرَه جزئيا أو كليا بِ سَبَب الوهَج المنعكس من لهيب

الرمال و السديم الملتهب. كانت هناك معضلة في إمداد أفراد الجيش بِ التموين، و المياه، و خاصة مياه الشرب. شَعَرَ القادة بِ تململ الجنود من هذه الظروف الصعبة، و النقص في احتياجاتهم الأساسية كَ مقاتلين يخوضون حربا مقدَّسة. على بُعْدِ خمسة و ثلاثين ميلا من الحدود مع العدو، أمَرَ قائد الجيش السابع بِ التَخْييم و الاستراحة إلى غروب الشمس. في الأثناء كانت القيادة العليا قد استدركت العثرات التي اعترضت المقاتلين في جبهة السيناء. هذا أعطى زخما لِ موجّهي الحرب النفسية، بِحيث قاموا بِ إلقاء خُطَبٍ و خطابات سياسية و وطنية تُعَزِّز وترفع من معنويات المقاتلين. كما أنّ الدعاة والشيوخ والأئمة المرافقين لهم استغلوا الظرف، و راحوا يلقون خُطَبَ دينية، كَ التي يلقونها في المساجد أيّام الجمعة، مستفزة لِلعقيدة ومحرِّضة على الدفاع عنها حتّى الاستشهاد. كان هدفهم الأساس من خُطَبِهم، هو أنْ يُحَوّلو هذه الحرب إلى حرب دينية بين الإسلام و المسلمين من جهة، و بين الكفار و أبناء القِرَدة من ناحية أُخْرى.

بدأ الهجوم العنيف مع بدء آذان الفجر. تَمَّ القصف بِ مختلف صنوف الأسلحة على المدينة. كانت غَزَّة هي المدينة المستهدفة. لم يكن فيها جيش إسرائيلي، و لا حتى على حدودها. اشتعلت النيران فيها. دُمِّرَتِ المباني و البيوت و الساحات والأسواق، وكأنَّ زلزالا بِ ثماني درجات ريختر قد ضَرَبَها. صُعِقَ الأهالي من هَوْلِ الانفجارات والنيران التي اندلعت فيهم. أسْرَعَ الناجون من القتل إلى الشوارع هربا من الأتون المشتعل. لم يتسنَّ لهم تفقُّدَ أفراد أُسَرِهم، و لم يحظوا بِ أدنى فرصة لِ البحث تحت ركام المباني و البيوت، لِ معرفة مصير فلذات أكبادهم و أحبابهم. لجأ الأهالي إلى الجوامع للاحتماء بِقببها وأعمدتها الرخامية. ازدحمت المساجد و الجوامع بِ الهاربين من نيران الجحيم التي أشعلها المؤمنون المجاهدون. كانوا يختبؤن خلف الأعمدة، و يتكوَّمون في زوايا قاعة الصلاة. كانوا يتراصّون بعضهم فوق بعضهم الآخر. يحملون الصغار على أكتافهم، ويتدافعون لا إراديا و

يتلامسون ويلتصقون بِبعضهم.الرجال والنساء ،الشباب والشابات،الصغار والكبار. كان أغلبهم بِثياب النوم، وكانت أعضاؤهم الحسّاسة المغرية مكشوفة. في غمرة هذا الوضع المأساوي، كان البعض(من الرجال و الشباب) يستغل حالة الازدحام و التدافع، و يدعكُ حوضه بِ مؤخَّرة الإناث لِ الحصول على اللذة الجنسية.

كانت النساء و الفتيات يعْلَمْنَ ما يفعله هؤلاء الأوغاد. لكن لم يكن لديهنَّ الوقت و الرغبة في الصراخ و البصاق في وجوههم، و ربّما كنَّ على يقينٍ من أنّهنَّ سَ يتحوَّلْنَ إلى سبايا بعد حين من الزمن. زَحَفَ المجاهدون، فرسانا و مشاةً، إلى داخل المدينة المشتعلة. سيوفهم و رماحهم تلمع أنصالها حين تنعكس ألسنة النيران عليها. زئيرهم يخترق قبَبَ و جدران المساجد. يقطعون رؤس الذين يصادفونهم مع التكبيرات المدوّية. نهبوا البيوت من حيٍّ لِ حَيّ. ساقوا السبايا و الوِلْدان. اقتحموا الجوامع الواقعة على طريق غَزْوَتِهم. قتلوا الرجال، سَبَوا النساء. انتشرَت رائحة الدماء والبراز و الأبوال و مَني المجاهدين في الأرجاء. كان صراخ الأطفال و العذارى، و أنين المذبوحين يُقَطِّع نياط القلب.

ازدحمَتِ الشوارع و الساحات بِ الدواجن الهاربة مِن أقنانها المحترقة. العجول، الخراف، الأرانب و الخنازير التي داهمتها النيران في حظائرها المُدَمَّرة، ملأتِ الشوارع بَحْثا عن ملاجئ آمنة. كانت تقفز فوق الجثث، تنطح العوائق التي تعترضها، و ترفس القطط و الجرادين. تهرب من هجمات الطيور الجارحة التي جَذَبَتها روائح الدماء إلى شوارع المدينة. اقتحمَت، تلك القطعان، المساجد هربا من الموت المُحَقَّق. تبعتها الصقور و النسور و البواشق إلى ساحات المساجد، وعدد منها راحت تُمَزِّقُ الجثث داخل قاعات الصلاة، ولم يفلت الرضَّع من وحشية مخالبها و مناقيرها الحادة، كما الخناجر القاطعة.

راح المجاهدون يقتلون الخنازير والأرانب، ويرمون جثثها في أقنية المياه العذبة. قُتِلَ عدد من المقاتلين بِ سَبَبِ نطحات العجول و طعنات أنياب الخنازير. تَعَرَّض

الجيش إلى صدمة. سيطر عليهم هياج و حالة عصبية مما أدَّى إلى تخلخل في الصفوف، وغياب الانضباط العسكري الصارم. في الأثناء صعدَ أحد المقاتلين إلى مئذنة الجامع، و بدأ بِ التكبير و الدعوة إلى صلاة التعَقُّل. لكن محاولته باءَت بِ الفشل. فَ لون الدمّ و رائحته الزنخة، كانا يثيران الغريزة العدوانية و الرغبة في القتل، بل الحاجة إلى القتل. لم يتم السيطرة على الوضع إلّا بِ الدعوة إلى اجتماع عاجل لِ القيادة. بَحَثَ قادة الجيش السابع، المهاجم مِن السيناء، الذي تعرَّض إلى هذه الحالة الخطيرة من الفوضى و الهيجان و الرغبة في المزيد من القتل. بَحَثَ هؤلاء الوضع العسكري والنفسي لِالجيش.وقَرَّروا مَنْحَ الجنود استراحة لِ مدة ثلاثة أيّام، يقومون بِ ترتيب أمورهم المادية و الجسدية و الغريزية. في الأثناء، سُمِعَ دويّ انفجارات من أرجاء مختلفة. ارتجَّتِ السماء وأرْعَدَتْ، و راحَت أصوات الانفجارات تخترق طبقات الهواء و كَ أنَّها صادرة من تصادم الصخور بِ بعضها، أو جَرّاء سقوطها من قِمَمِ جبالٍ شاهقة و تدحرجها في الاتجاهات كلِّها. عَقَدَتِ القيادة العليا اجتماعا خاطفا. البند الوحيد على جدول الاجتماع، كان، هذا القصف المدوّي من أماكن مجهولة في السماوات. لم يعرفوا من أيّ سماء هو هذا الهجوم المرعب. هل هو مِن السماء الأولى أو الثانية أو الخامسة، و ربّما يكون مِن السماء السابعة. قَرَّرَ المجتمعون فَرْض حالة التأهّب القصوى، و بقاء الجنود بِ لباس الميدان الكامل مع أسلحتهم و ذخائرهم، و توجيه الصواريخ و المدافع المضادة لِطيران نحو السماء. وتركيز الرادارات و الهوائيات لِ استكشاف الأجسام الطائرة في المجال الجوّي لِلمعسكرات كلّها. تَمَّ تفعيل الخَطّ الساخن بين القيادة العليا و الكعبة المشرّفة. التوجيه الأوّل الذي صدرَ مِن مكة إلى القيادة العليا، كان فحواه، أنْ ننتظرَ صدى صهيل الأحصنة المرابطة شمال البحر المتوسط، في بلاد الفرنجة الكفّار، و أيضا الشعاع الواصل مِن عيون أبي الهول إلى رداء الحجر الأسود المقدَّس في مكة المكرَّمة. عند ظهور هذه الإشارات مع

صَفيرِ ملائكة الرحمن، سَ يتقَرَّر ساعة الصفر لِ الفتح الأعظم في تاريخ الأمة. كنتُ على هضبة الجولان قُرْبَ سارية العلم، يقول سارو، حين أَرْعَدَتِ السماء. كنتُ أنظر إلى الفضاء محاولا تحديد الجهة التي تَضجُّ بِ الانفجارات و الرعود، و في الأثناء، ضَرَبَ شعاع البرق قمة الهضبة حيث كنتُ أَقِفُ و أستمع إلى صدى الانفجارات. أَحْدَثَ الشعاع دائرة ضوء من حولي، بِ قطْر ثلاثة امتار و بِ ارتفاع موصول بِالسماء. وجدتُني داخل اسطوانة ضوئية مُفَرَّغة، من الهواء. أرتفعُ، في هذا الخلاء، نحو الأعلى، أَصْبَحْتُ في السماء الثالثة. مِنْ هنا بتُّ أرى الكوكب الأزرق الموشاة بِ خطوط بيضاء و بُقَع خضراء. أرى ساحة المعركة بِ صورة بانورامية، أرى الدول الأربع المحيطة بِ إسرائيل، وأرى الجيوش المهاجمة و راياتها الخَفّاقة بِألوانها الخضراء والسوداء، وأكاد أسمع هدير الهيعات و التكبيرات الصادرة من حناجر الجنود. لم يكن هناك أيّ أثر لِ الجيش الإسرائيلي في المدن التي اقتحمها المجاهدون، و لا حتّى لِ المواطنين اليهود المدنيين. فَ جيوش المؤمنين قتلوا وذبحوا المسلمين وأشباح اليهود والنصارى. إنهم سبوا ونكحوا نساء وعذارى المسلمين. كانوا يطاردون القنافذ والصراصير والخنازير، وكانوا يرمون نبال أقواسهم على الخفافيش.

كان اليهود يخطِّطون لِ المواجهة الكبرى مِن مقرّات القيادة التي أنشؤها تحت الأرض. كانوا على علْمٍ بِالهجوم الكاسح لِاستعادة القدس إلى الوقْفِ الإسلامي. لذلك تجنَّبوا المذابح على يد المجاهدين، فَ هم يعيشون تحت الأرض في مدنٍ تشبه تلك التي على السطح. إنَّهم يتواصلون مع جواسيسهم الفضائيين. هؤلاء يتجسسون على الخطط التي يضعها إله المجاهدين و معاونيه. يرسلون المعلومات التي يحصلون عليها إلى القيادة المجتمعة تحت الأرض، و ما تلك الانفجارات و الرعود سوى رجوم يقذفها إله الحرب على هؤلاء الجواسيس. رأيتُ صواريخ هائلة تنطلق من أعماق البحر بِ اتجاه معسكراتنا. حُجِبَتِ السماء بِ

الصواريخ، و راحت تدكُّ مواقعنا و تدمّرُ جيوشنا. خَرجَ الجيش و الشعب من تحت الأرض إلى فوقها، و راحوا يزحفون على جنودنا. في الأثناء لجأ الشيوخ و أرباب الشعائر الدينية إلى المساجد. فعلوا كما فعلَ بلال الحبشي من قبلهم، و صعدَ صوت التكبيرات والهيعات إلى مسامع الله في عرشه.أدركَ بِ أنَّ المجاهدين في ضيق وكرب شديدين، و في الحال، أرسل فيالق الأبابيل. فيلق القدس و فيلق الأقصى و فيلق ثالث الحرمين. راحت طيور الأبابيل تقصف جنود العدوّ بِ حجارة من سجّيل. تُدَمّرُ الحصون وتحرق الأخضر واليابس، و تفجّرُ الصواريخ المنطلقة من البحر في الجوّ قبل سقوطها على المجاهدين. لم تؤثّر صنوف الأسلحة جميعها في الفيالق المغيرة، ولم يسقطْ منها أيّ طائر.استمرّ القصف بِ صواريخ السجّيل إلى أنْ تَمَّ إسكات مصادر نيران العدوّ كلها، و تَبِعَ ذلك هجوم شامل على كافة الجبهات. رأيتُ أشلاء الأعداء، من جيش و شعب، تملأ الشوارع و الأزقة و الساحات. اقتحم المجاهدون كلَّ المدن، وفتحوا القدس. هرَب جيش العدوّ بِاتجاه البحر، وزحفَ اليهود من وراء جيشه الرعديد بِاتجاه البحر. ركبَ مَنْ حالفه الحظَّ في البواخر والبوارج الحربية هربا، ورمى بِ نفسه في البحر، مَنْ لم يجد لِ نفسه فرصة و مكانا في المراكب. و هكذا تَمَّ تطهير الأرض المقدّسة من رجس اليهود، و تَمَّ رميهم في البحر.

تَنَبَّه سارو إلى المكان، حين أطلقَتْ سيارة أجرة زمّورها القوي في وجه دراجة هوائية، حاولَ راكبها قَطْعَ الطريق على السيارة مِنْ أمامها. أخرَجَ سائق التكسي رأسه مِن نافذته شاتما إيّاه بِ مَسَبّات فاحشة. أمّا سائق الدراجة رَدَّ عليه بِ مَسَبَّة مِنْ عيار ثقيل مع حركة مِنْ أصبعه الوسطى.

كانت السماء قد انكشَفَتْ، و أضاءت شوارع المدينة بِ أولى إشعاعات الشمس الصاعد نحو الفجر، و الزبائن كانوا قد تَجَمَّعوا حول بائع الفول. كان نشيطا، و كان يُرَحِّبُ بِ الزبائن بِ أحلى الكلام و أجمل العبارات التي حفظها لزوم المهنة.

رحَّبَ بِ سارو، ولبّى طلبه بِسرور. راح سارو يتناول الفول المدمَّس و هو يُرَدِّدُ، أثناء الأكل، لقد رميناهم في البحر. نعم.. لقد رميناهم في البحر.
كان يُرَدِّدها مع ابتسامة سحرية غامضة الدلالات.

-18-

حروب الآلهة و غباء الأتباع

مع اشعاعات الفجر الأولى، كان سارو يحتسي الشاي في كاراج الانطلاق، وكان قد حَجَزَ لِ نفسه مقعدا في البولمان. في الخامسة و النصف مِن فَجْرِ الرابع من حزيران، انطلق البولمان بِ اتجاه الأردن. كان قد حَجَزَ المقعد الأمامي بِ جانب الشبّاك، لِ يستحوذَ على المشهد بِأوسع مساحة ممكنة. تَحرَّكَ الباص من العبّاسيين، مَرَّ مِن ساحة الأمويين حيث السيف المنصوب أمام مبنى الإذاعة والتلفزيون الحكوميَين. ألقى نظرة خاطفة على النصب(السيف) الذي يحتوي على أعلام الدول و الممالك العربية. اجتاز البرامكة آخذا طريق السيدة زينب، و مِن هناك تَوَجَّه نحو الطريق الرئيسي الذي يقود إلى درعا و منها إلى الأردن. لِ المَرَّة الأولى ينتبه إلى أسماء الأحياء والساحات والمزارات التي اجتازها.أسماء الحدائق والمدارس والمساجد. كَخالد بن الوليد، سعد بن أبي وقّاص،صلاح الدين الأيوبي، السلطان العثماني عبد الحميد...إلخ. ولِمَرَّة الأولى استفقد اسماً أو مزارا سوريّا، فَكلُّ تلك الأسماء والرموز هي من آثار الغزاة و المستعمرين الذين خَرَّبوا روح دمشق و روح سوريّا.

كان النعاس يسحبه من اليقظة إلى مملكة النوم. أمّا هو، فَ كان يقاوم سلطان النوم. يريد أن يبقى صاحيا كي لا يُضَيّعَ فرصة مروره في الجنوب، و خاصة الحوران. كان يعشق الفجر بِ جلاله و رونقه وهيبته المقدَّسة. الفجر في وجدانه هو الانبعاث، هو عودة آدون إلى الحياة من بين الأموات. هو قيامة المسيح من الموت. هو بداية سمفونية الحياة، بداية أنشودة الفرح. الفجر هو الزمن الأَدَقّ لِ مرور الأحلام الصادقة في أخيلة النائمين. و لكي يَفْلَتَ من سلطان النوم، أَخَذَ يقرأ في كتابٍ لِ مرسيا إلياد، أو بِ الأصحّ، يعيد قراءته لِ المرَّة ال(X). إنّه،

مرسيا إلياد، يبحث في تاريخ الأفكار و المعتقدات الدينية. كان قد زيَّنَ الكتاب بِ ألوان الأقلام الفسفورية، و بِ ملاحظات في الهوامش. كان يفعل ذلك مع كلِّ الكتب التي كان يقرأها، و في كثير من الأحيان كان يَردُّ على الكاتب في بضعة أسطر في هوامش الصفحات. كان يَفْعَلُ ذلك حتّى مع الكتب المقدَّسة، طبعا هو لم يعتبرها مقدَّسة، وإنَّما ينظر إليها كَ كلّ الكتب التي تتناول موضوعات حياتية، فيها الفلسفة و الأدب و اللاهوت...إلخ. معظم أصدقائه الذين كانوا يستعيرون الكتب من مكتبته لِ القراءة، كانوا قد اقتنعوا بِ ذائقته الثقافية و نظرته الثاقبة لِ النصوص. لذلك كانوا، في أغلب الأحيان، يكتفون بِ قراءة المقاطع التي كان قد أَشَّرَ تحت أسطرها بِ الألوان الفسفورية. كانوا يقولون: بِ أنَّه يَدلّكَ إلى الجوهر، يُلَخِّصُ، لكَ، الكتاب أفضل تلخيص بِ ألوانه الفسفورية و ملاحظاته المدوَّنة في الهوامش. عن هذه الرحلة، كان قد كتبَ في، ما يشبه، دفتر المذكَّرات، وكما جاء في صفحاته، قوله: كنتُ سعيدا و أنا أنطلق إلى الجنوب، إلى حوران. كنتُ اتلَفَّتُ إلى كلِّ الاتجاهات، حين كان البولمان يجتاز الساحات والأحياء الدمشقية. مَرَرْنا من السبينه والقدم و الحجر الأسود، وعند مفرق الباردة بِاتجاه الكسوة، أحْسَسْتُ بِالنعاس يغزو جفوني. حاولت البقاء يقظا و ذلك من خلال قراءة الكتاب الذي شَرَعْتُ بِمطالعته، لكنني لم أقوَ على معاندة النوم. فَما أكاد أقرأ سبعة إلى ثمانية أسطر، حتّى كانت عيوني تضعفُ و جفوني تنطبق على بعضها. و بين الحين و الآخر، كان الكتاب يقع في حجْري و كنتُ أعاود فَتْحه مُجَدَّدا لِ القراءة. لكنني شعرتُ بِ خَدَرٍ في أعصابي، ولاحَظْتُ بِ أنّني أنزلقُ إلى مملكة النوم. وفي لحظة غير محسوسة،وجدتُني أنتقل إلى المستوى الحَلَقي،عندئذ تَمَّ انتقالي في الزمكان. وجدتُ نفسي في بلاد تبدو و كأنّها فوق بلادٍ مندثرة، سكانها يتحدَّثون الآرامية و العبرية. مَشَيْتُ في طريقٍ نحو نفَقٍ مضيءٍ، يأخذُ في الاتساع كلّما توغَّلَ المرء فيه. كان ينحدر بِ سلاسة نحو الأسفل، و كأنّكَ تنزل طوابق تحت الأرض دون

الشعور بِ تَغَيُّر الارتفاعات. رأيتني في مدينة قديمة لا زالت متمسكة بِ الحياة. تتألَّفُ من شبكة واسعة من الممرّات والمساكن والغرف والمعابر المحفورة بِمهارة فائقة. لقد سَكَنَها الإنسان منذ القِدَم وعملَ على نحتها وتشكيلها بِ الصورة التي يرغبها. سكنها إنسان الكهوف، وتَدلُّ الأدوات التي خَلَّفها على معرفته بِ الزراعة وتربية الحيوان وصنْعِ الفَخّار.وهناك دلائل تشير إلى أنَّه استخدمَ الألوان، و صَنَعَ الخيوط و تبادل مع جيرانه المحاصيل الزراعية و المصنوعات التي كان يُنتجها. و يبدو أنَّ الذين سكنوا، أو بِ الأحرى، الذين استقرّوا في هذه الأرض كانوا من سلالة العمالقة. عَثَرْتُ في، أحدِ الكهوف، على كتابات محفورة على الجدران الداخلية تقول بِأنَّ الأموريين هم أوَّل مَن استقرَّ في أرض حوران. وأسفار اليهود تحكي عن عوج(ملك باشان) على أنَّه كان من سلالة هؤلاء العمالقة، و كانت مدينة أَذرعي عاصمتهم. أَرَدْتُ تدوين المعلومة في أوراقي، و رحتُ أمعنُ النظرَ في الكتابات المنقوشة و أكتبها، بل، أنقلها، أو قُلْ، أرسمها في أوراقي. في هذه الأثناء سمعتُ أحداً يلقي عليَّ السلام. ألتفتُّ إليه و إذْ به شيخٌ يتّكئُ على عصاً بِ كلتا يديه. موفور الصحة ذو لحية بيضاء مُشَذَّبة. يحمل حقيبة مصنوعة من ألياف القنّب مع خيوط الكَتّان. يضع بطرشيلة قرمزية اللون فوق كتفه الأيمن. لا أدري مِنْ أيّ فجٍّ خَرَجَ. إنَّه، بِ التأكيد، واحدٌ من الفريق الاستشاري لِ أحدِ الآلهة المُبَعْثَرة في فجاج الأرض وسماواتها. قال، و هو يرسم بَسْمَة رقيقة على شفتيه: أهلا بكَ في أرض العماليق والنبوءات. أنا تيما! أتيتُ مِن زمن الماقبل، كما أَتَيْتَ أنتَ من زمن المابعد. أتيتُ كي أساعدكَ على ما تبحث عنه، أو يمكنكَ القول، كي نتبادل أطراف الحديث و نتناقشَ في الأُحجيات و الخيالات التي تشغلكَ. هل أنت راغبٌ في ذلك، أمْ أَدَعكَ و شأنك؟

هيئته وابتسامته وطريقة تفاعله مع الآخر، أسلوبه الهادئ في الحديث و مدخله الفريد والمثير لِ التعارف، كلُّ هذه الدلالات بعثَتْ في نفسي الطمأنينة و الحميمية

لِلدخول معه إلى عالم رَحْبٍ، بل، إلى عوالم رباعية الأبعاد.عوالم حسّية، لا مرئية وما ورائية. ابتسمتُ له مع حركة دالّة على الاحترام و قلتُ بِ هدوء: يَسرُّني ذلك يا معلّمِ و خاصة نحن... و قبل أنْ أنهي كلامي، قاطعني، فقط، لِ يطلبَ منّي أنْ أناديه بِاسمه و دون لَقَب المعلّمِ. سُرِرْتُ لِ إزالته هذا القيد، أو هذا الحاجز فيما بيننا. فَ هذا يعطيني أريحية وثقة بِالنفس في التعامل معه، لأنني في هذه الحال أشعرُ و كأنَّه صديقٌ لي، و أنّنا نتحدَّثُ في مسائل و اهتمامات مشتركة.

– هذا رائع يا صديقي تيما! كما ترى، إنّني أنقل هذه المنقوشات، أفعل ذلك لِ أقارنها مع المخطوطات التي أعارنيها الخال قرياقس. عرفتُ بعد مطالعاتي في الوثائق والمكتشفات الأركيولوجية، أنَّ هذه البقعة من الأرض كانت مختبر الإله، الهيكل الذي خَرَجَ منه رُسُل الله، الأرض التي وطأها الأنبياء والغزاة، ومَرَّتْ عبرها القوافل التجارية.أُريد إضاءاتكَ يا تيما. لَمَّ الطرف الأيمن من جلبابه و أومأ إليَّ بِالسير إلى خارج الكهف. قال، ونحن نمشي: أوَّلا، أنتَ لم تُعَرِّف عن نفسكَ، أو ربَّما فاتكَ ذلك، و ثانيا ... قاطَعْتُه بِ أدَب و اعتذرتُ عن نسياني لِ تقديم نفسي إليه. حَدَّثْته، أولا، عن الخال قرياقس، ومن ثمَّ قَدَّمتُ له اسمي سيرو (SERO). وقَفَ ونظرَ إليَّ مستفسرا، ربَّما مندهشا، عن الاسم والقوم والانتماء. هو أيضا من حَقِّه معرفة أصلي و فصلي، لَ طالما اسمي هو من خارج الطيف. في هذه المرَّة رحتُ في الشرح و التعريف أكثرَ ممّا فعلتُ مع صديقي خسرو. أَضَفْتُ روحاً شاعرية و أدبية، إذْ قلتُ في معرض التعريف: أنا سيرو (SERO) السوريّ ابن آرام و فينيق و آرا الجميل و كنعان و زنوبيا بِالتوارث والتواتر والتناسخ. مررتُ بِ القلمون والجولان و آرارات وجبل الشيخ. كنا نتسلق جبال العلويين وجبل صهيون منذ بدايات تشكّل الأمم في أصقاع الأرض. أنا السوريّ الذي امتصّ كلّ رميات الغزاة، واحتفظ بِكلِّ الآثار التي أحدثوها في جسدي، كلّ القيَم التي فرضوها على أبنائي، وكلّ العادات والأعراف والتقاليد والعقائد التي حقنوها عنوة في روحي. وأنا

هو الذي يتأمل الشقائق التي أَنْبَتَها دمي في بيادري و حقولي، و دروب شقائي و آلامي. إنّي أتخيَّل معسكراتهم، يا تيما، وأقرأ أسماء ملوكهم وقادتهم، وأوامر غزواتهم و إعداماتهم. إنهم مرّوا من هنا، على جسدي. رأيتهم و رأيت سيوفهم، رماحهم و وجوههم المكفهرة. أنجبونا من سوريَّاتنا، و حاولوا تشكيل سوريّتي كما يرغبون. قاموا بِ صنْع عجينة جديدة لِ سوريةٍ جديدة. كنتُ أحسُّ بِ خشونة و نعومة آياديهم، و التعويذات التي كانوا يتلونها عليَّ و هم يصنعونني. و ها أنا ذا بقيتُ في مكاني مع أبنائي، و هم رحلوا ورحلتْ معهم الأعاصير وحمحمات الجياد وصليل السيوف. بحثتُ عنهم في أزمان كانوا يذوبون فيها كَ الرصاص. قلَّبْتُ قمامات الأنهار بعد تحويل مجاريها، فَلم أجد سوى فوارغ الطلقات، و منعكسات وجوههم على صفحة مياه المجارير. فعلتُ مثل جلجامش في الفرات و الدجلة. غطستُ في الخلجان المستباحة، ذوات الأسماء المتغيرة. تمدَّدتُ فوق مفارش الشطوط المتغيرة أسماؤها؛ كلهم أتوا إليَّ، و كلهم رحلوا مع ذواتهم و أرواحهم. إلاَّ الغزاة البدون، لا هم رحلوا ولا أرواحهم رحلت. كلُّ الأسماء التي تعمَّدت في أنهاري اغتيلت وتعرَّضت لِ إبادة وحشية، وصارت في أعراف و عقائد و أخلاق هؤلاء البدون أبناء الرمال، صارت كذبة، أو في أفضل الأحوال، ذكرى مشوَّهة. أمَّا الاسم الذي ملأ الآبار رمالا، و رمى الأوساخ في أنهاري المقدَّسة، و حرق روح الفرات وبردى ودمَّر قمم صنّين وصهيون، هو الاسم الذي بقي حارسا، لا بل، جلادا مجرَّدا من الأحاسيس و العواطف الإنسانية. إنه إله الرعب والإرهاب الشامل. إنه الأمة السراب، أُمَّة يابال ويوبال. يابال الذي كان أَبَاً لِساكني الخيام رعاة المواشي،ويوبال الذي كان أَبَا لِكلِّ ضاربٍ بِالعود والمزمار. أُمَّة لا تعترف بِسواها. و هذا المكان يا تيما، هو قطعة من جسدي، و إنْ أمْعَنْتَ النظر في الهواء، لَوجَدتَ روحي تحلّقُ مع أرواح السوريين، ولَوجدتَ التناغم بين ألوان الطيف في أبهى تجلياتها.

– رائع يا سيرو! تقديم جميل ومُعَبِّر. وعَطْفا عليه، واستكمالا لِما بدأته، أقول بِ أنَّ الإشارة الأولى إلى سلالة هؤلاء العمالقة ورَدَتْ عند سرجون الأكادي، و أيضا في التناخ (الكتاب اليهودي المقدَّس)، حيث يوصف الملك عوج، ملك باشان، بِ أنَّه من بقية الجبابرة و ذي قامة كبيرة. و التوراة وصَفَت الأموريين بِ أنَّهم مثل الأرز طولا و مثل السنديان قوَّة. كانت القوافل التجارية تأتي من شبه الجزيرة إلى درعا، الشهير بِسوق أذرعات، السوق التي كانت قوافل العرب تحطُّ رحالها فيها، وتتسوَّقُ من خمورها وخيوطها. بِحديثه هذا، عَزَّزَ تساؤلاتي في قضيتين هامَّتين كنتُ ابحث فيهما. توجَّهتُ إليه لِ الاستيضاح.

– لقد أثَرْتَ لديَّ رغبة في البحث حول وجود الماقبل، في هذه الديار، أقصد بلاد الشام بما فيها أورشليم و المدن الأخرى في ممالك أحفاد شيث. هل فعلا هؤلاء اندثروا من أرضهم، قتْلاً و تشريدا و سَبْياً، و لم يبقَ يهوديا في إسرائيل؟!
إنَّ وثائق علمائنا تفيد بِأنَّ اليهود أبناء المملكتين(مملكة إسرائيل و مملكة يهوذا) أبيدوا ونفوا دون رجعة على يد الآشوريين عام720 ق.م والبابليين(نبوخذ نصر) عام 587 ق.م، و الإفناء النهائي التام لِ القلّة اليهودية المتبقية كان على يد الرومان عام 70 ميلادي. إذن فَ اليهود قد سحبهم الله عن بكرة أبيهم بِإحدى آلاته السحرية، ولم يبق يهوديا على وجه الأرض، أو في أرض أجدادهم، لأن الثقب الأسود، أو الحجر الأسود، قد شفَطهم شفطا محكما؛ فَعلماؤنا اكتشفوا أرض التوراة في غرب الجزيرة العربية. والمسألة الثانية التي كانت تشْغل تفكيري، و التي أتَيْتَ على ذكرها، هي القوافل التجارية التي كانت تأتي من شبه الجزيرة إلى بلاد الشام، و كانت تَحطُّ الرحال هنا لِ الاستراحة و التجارة و الاستمتاع.
إذن أيها الصديق تيما! أتمنى أنْ تساعدني في الكشف عن هذين الموضوعين. علماً بِ أنَّهما مرتبطان بِ بعضهما و مادتهما واحدة، و هم شعب يهوه، الشعب الذي انحدر من نسل سام و ابراهيم و اسحق. كنا قريبَيْن من كهوف النسّاك و

صوامعهم المبعثرة حول البصرى. و هناك جلسنا تحت سنديانة تَهَصَّرَتْ اغصانها علينا. أسْنَدَ تيما عصاه على جذع السنديانة، و أخَذَ يُمَرّرُ حَبّات مسبحته بين أصابعه. كانت حبّاتها من الكهرمان الأصفر المعرَّق بِ أعصاب خمرية. كَوَّمَ المسبحة بين كَفَّيْه و راح يفركها، مُحْدِثا جَلَبة، لِ لحظات، و من ثمَّ عَلَّقها في معصمه الأيمن في حلقتين و نظَرَ بعيدا، كَ مَنْ يُقْسِمُ أمام قاضٍ مختفٍ خلف الأفق. و في الأثناء سمعته يقول:

"كانت القوافل، بعد أنْ يلتئمَ شمل التجار القادمين من بلاد الهند و فارس و استرخان و يريفان في دلمون، تصعدُ من الجنوب، من اليمن و تَمرُّ على طول الشاطئ الشرقي لِ البحر الأحمر، في شبه جزيرة العرب، حيث ينضمُّ تجّار مكة و عسير وجيزان إلى القافلة بِاتجاه بلاد الشام مرورا من هنا، من حوران و سوقها أدرعات. في ذلك الزمان الماقبل، كنتُ أنا المتَحَدّر من نَسْلِ اسماإيل أحمل أسفاراً من كتاب يهوه، و كنتُ أسكن في يثرب حيث أحفاد لامَك بن قابيل يسكنون. كنتُ مُكَلَّفا بِ إرسالية سماوية إلى أحفاد يابال و يوبال. التقيتهم في يثرب تحتَ خيمة الكاهن الأكبر.مهمَّتنا كانت في تغيير، أو تصحيح، بعضاً من المعلومات المتعلّقة بِالأَنساب في سفر التكوين،وبعضا من المعلومات المتعلّقة بِجغرافية سفر الخروج، وإضافة قصصَ وأساطير و خرافات من ثقافة صحراء الجزيرة هذه، و في الوقت نفسه تغيير المفاهيم اللاهوتية وجعْلها منسجمة مع ما نريده نحن.وقمنا بِ نفس العمل في المزامير و سفر الأمثال و التثنية و الملوك... و بِ كلمة يا سارو لم نترك سفرا واحدا، أو قُلْ، صفحة واحدة، تَفْلَت من الإصلاحات، أو التَغْيرات، التي أدْخَلْناها في هذا الكتاب، حتى أنَّنا أدخلنا آيات في سفر الأنبياء مفادها:

أنَّ هناك نبوءة تتحدَّث عن قدوم نبي أو مخلِّص دون اسمٍ، و إنّما له صفة الإله و ... هنا تَدَخَّلَ سارو مضيفا إلى ما قاله تيما حول موضوع النبيّ أو الشفيع قائلا: هناك مجموعة من المخطوطات تتحدَّثُ عن سيرة الراهب يامَاءيل الذي كان

معتكفا في صومعةٍ هنا في حوران. كان شابا لم يبلغ الخمسين من عمره. قويّ البنية و ذو قامة معتدلة. خَطَّت لحيته السوداء خصَل بيضاء أضْفَت هيبة على سماره الشرق أوسطي و عيونه السود الاوساع ذات الرموش الطويلة. كان يرتدي سترة، أو عباءة سوداء طويلة تصل إلى القدمين وتكاد تغطيهما، ويربط خصره بِ حزام، أو بِ الأحرى، بِ كَمَرٍ مصنوعٍ من الصوف المجدول مع شرائط من الحرير الصيني القرمزي، و ينتعل صندلا يونانيا بِ لون الزيتون الأخضر. كانت صومعته عبارة عن كهف في صخرة ضخمة، و كان قد رَتَّبَ الفسحة وقَسَّمها إلى منامة و مكتبة ومطبخ. مكتبته كانت تضمُّ مخطوطات جلدية ومخطوطات من ورق البردي، ورُقم هيروغليفية وسريانية و لاتينية. خلف الصخرة و عند مدخل الغابة كان قد صنع ما يشبه الكوخ لِ قضاء حاجته. الراهب ياماءيل كان يصوم أربعة أيام في الأسبوع، و في أيام الصيام تلك، كان يقتصر طعامه على الخبز و الماء. الكائنات السماوية كانت قد أَخْبَرَتْه عن وجود الأسماك البرية تحت الأرض، و عَلَّمَتْه كيفية اصطيادها، أو بِ الأحرى، كيفية استخراجها من تحت الأرض و هي حَيّة. و هكذا، كانت لديه كمية من السمك المدَخَّن، و مخزون، لا بأس به، من الجراد المجَفَّف وعدة قطرميزات من مخلَّل شرانق القزّ. خَلْفَ صومعته، في الغابة المطلّة على صخرته، كانت تنمو أصناف من الفطور البرية. كان قد استدلَّ على السامَّة منها، بِحكمِ التجربة والخبرة. لذلك كان يلتقط غير السامَّة منها بِسهولة، و كان يُفَضِّل الورديّ منها. كانت توجد، أيضا، بضعة أوكار من خلايا النحل، حيث يقطف العسل الأسود مع يرقات النحل المغموسة في شمعها الطريّ. إنَّ مكوّنات طعامه، في الأيام التي لم يكن فيها صائما، كانت كفيلة بِتزويده بِالطاقة اللازمة لِ الحفاظ على قوته وحيويته. كان الراهب ياماءيل متبحِّرا في الماورائيات و الغيبيات، و كان يُحاجج في أعقد القضايا اللاهوتية. لم يكن يعتقد بِنظرية الشمس وتجلّياته من الضوء و الحرارة. لم يقتنع بِ فلسفة الثلاثة في واحد. كان

يتَّصل بِالكائنات السماوية. كان يتقنُ قراءة الرموز التي ترسمها الأفلاك و النجوم في صفحة السماء، و أنَّه تَوَصَّلَ إلى حساب المسافة بين القمر ونجمة الصبح. يُقال بِأنَّ الكائنات السماوية قد زوَّدته بِ المواصفات المورفولوجية والسيميائية والنفسية لِلقديسين والأنبياء والأولياء .كان ياماءيل على اتصال بِالحَبْر الأكبر في مكة. كان يخوض معه في نقاش و حوار حول مسائل الإيمان القمري. يتباحث معه في نظرية الشمس و تجلّياته، كلَّما يلتقيان في غار الحبر الأكبر. شوهِدَ ياماءيل، في عام العقرب، في مكة يبحث عن أثرٍ أو دليل يكشفُ قصّة هروب العبرانيين، بِ قيادة موسى، من جيش الفرعون، من أرض مصرايم. حينما سألَ مستفهما من الأهالي عنه(موسى)، أفاد الكبار منهم: بِ أَنَّه من أصل عبراني، مجهول الوالدين. ولِدَ في المستعمرة المصرية، قربَ خميس مشيط، المسماة أرض مصرايم، أو مدينة مصرايم. و قد تربَّى هناك تربية المصريين من الطبقة الحاكمة. كان ناشطا سياسيا في المدينة، و أدّى نشاطه السياسي إلى إبعاده من مصرايم مدّة من الزمن، لكنه بقيَ واعيا لِ أصله العبراني ينتصر لِ بَني قومه في المستعمرة ضدَّ المصريين كلَّما دعت الضرورة. وهناك دلائل تشير إلى أَنَّه كان في صفوف المعارضة بِمصرايم عندما اضطر إلى الهرب منها إلى مديان، المدينة التي تقع إلى الشرق من مصرايم. ولمّا انتصرت المعارضة وقُتِلَ الملك(حاكم المستعمرة) وأتباعه، واستلمَ حاكم (فرعون) جديد القيادة، تمكَّنَ موسى من العودة إلى مصرايم. بعد رجوعه من مديان إلى مصرايم استعاد بعض النفوذ الذي كان له هناك من قَبْل. كان يدخل على الفرعون، وهو الحاكم الجديد لِلمستعمرة، كلما شاء، و يتكلَّم أمامه بِ كامل الحرية و بِ قَدَر كبير من الجرأة. كان قد اتَّخذَ قرارا بِأنْ يقود هجرة لِ بَني قومه من أرض مصرايم إلى مكان آخر يستقرون فيه كَ شَعب مستقل. أمّا فرعون فَ كان يعارض هجرة العبرانيين من أرضه لِحاجته إليهم كَيَد عاملة.لكن، وكما يبدو، كان له اعتراض أيضا على الوجهة المقترحة

من قِبَل موسى لِهذه الهجرة. أمَّا إله العبرانيين(يهوه) كان قد أَمَرَ موسى وهارون بِإخراج بني إسرائيل من أرض مصرايم إلى الضَبَطَيْن، أيْ واحة الضَبَطَيْن بِنَجد، إلى الشمال من وادي اليمامة.

كان بنو إسرائيل مصمّمين على الخروج من أرض مصرايم، بِاتجاه داخل الجزيرة العربية، و ليس إلى أيّ مكان آخر. و قال العارفون بِ طبيعة جغرافية الجزيرة: لو اتخذَ بنو إسرائيل طريق(ءرص فلشتيم) لَ انتهوا إلى بلاد الحجاز، ولَاصطدموا هناك بِالقبائل الحجازية. وراحوا يوضِّحون لِ ياماءيل معنى فلشتيم، حين سألهم عن أورشليم، فَ هي، كما قالوا: فلشتيم هو جَمع النسبة إلى فَلشة، و التي هي الفلسة بِ بلاد خَثعم في أقصى الشمال من حوض وادي بيشة. ولعلَّ تَخَوّف بني إسرائيل كان من الاصطدام بِ الفلستيين(فلشتيم) هناك. ناهيك عن عدم رغبتهم في الوصول إلى الحجاز بدلاً من أرض اليمامة، و ما يليها إلى الشمال من أرض نَجد حيث واحة الضبطين.

إنَّ الرب يهوه شَدَّدَ قلب فرعون ملك مصرايم حتى سعى وراء بني إسرائيل. و قال الأهالي، نقلا عن قدمائهم: أنَّ بني إسرائيل اجتمعوا في سُكّوت، في سراة بلقرن، استعدادا لِ الرحيل من أرض مصرايم. و أنَّهم انتقلوا من هناك جنوبا إلى قرية الريمة بِالمنطقة ذاتها، فَخرجوا من هناك، و عن طريق وادي الريمة، إلى منطقة بيشة، ثمَّ انطلقوا شرقا من هناك بِ اتجاه الخماسين بِ وادي الدواسر.

كان ياماءِل يبحث عن رأس خيط يأخذه شمالا إلى سيناء و البحر الأحمر، حيث انشقَّ إلى أنْ اجتاز بنو إسرائيل إلى الشطِّ الآخر، إلى صحراء سيناء وصعودا إلى أرض الميعاد. قرأ في مدوَّنة، بِ الخطّ العبري، حول هذه الجزئية؛ بِ أنَّ المصريين ماطلوا في القبول بِ خروج بني إسرائيل(العبرانيين) من أرض مصرايم. ثمَّ سمحوا به بِ شَرْط أنْ يكونَ الخروج بِ اتجاه الحجاز عن طريق الفلستيين، أيْ بلاد خَثعم بِشمال سراة عسير. لكن بني إسرائيل خدعوا المصريين، فَ تَجَمَّعوا

في قرية آل سكوت من سراة بلقرن و منها انتقلوا جنوبا إلى الريمة، و من هناك انحدروا بِوادي ريمة في محاولة لِلوصول، مباشرة، إلى وادي اليمامة عن طريق الخماسين بِ وادي الدواسر.

دَهْشَتُه كانت عظيمة حين قرأ هذا المقطع الذي ينسف قصة، أو خرافة، شَقّ البحر الأحمر وغرق جنود الفرعون بعد انتقال العبرانيين إلى الضفّة الثانية منه. إذْ جاء فيه... إنَّ منطقة وادي نجران و ما يحاذيها من الأودية إلى الشمال و الجنوب، هي أكثر مناطق الجزيرة تعرّضا لِ السيول الجارفة. إنَّ المصريين سَعَوا وراء بني إسرائيل بِ جيشهم و فرسانهم و مركباتهم، و أدركوهم و هم نازلون بِ أعلى صفن بين وادي حَبونا ووادي نجران. فَ سارع بنو إسرائيل إلى الخروج من هناك إلى وسط بلاد يام، و كان هناك سحاب كثيف يحول دون تَرَقّبَ المصريين لِتحرّكات بني إسرائيل، وينذر بِ سيل عَرِم. في الغداة تَبعهم المصريون إلى وسط بلاد يام، ولاحظوا قدوم السيل، فَ انثنوا عن ملاحقة الهاربين وحاولوا العودة من بلاد يام عن طريق وادي حبونا، فَ لحقهم السيل هناك وأَهْلَكَ ما أهلك منهم. أمّا بنو إسرائيل فَمَشوا على اليابسة و الماء سورٌ لهم عن يمينهم(سَيْلُ وادي نجران) و عن يسارهم(يَلُ وادي حبونا). و هكذا تَمَّ خروج بني إسرائيل من أرض مصرايم بِيَد حزقة، أي عن طريق "وادي حزقة" الذي هو وادي حبونا، و خروجهم لم يكن إلى(هـ – يم) أي البحر، بل إلى بادية بلاد يام، والتي ما تزال بِاسمها هناك و بِ محاذاتها يَم سوفْ التي هي رمال"بحر صافي" و ليس مياه البحر الأحمر.

أُصيبَ الراهب ياماءيل بِ صدمة عميقة جَرّاء سماعه هذه القصة و المعلومات المتعلّقة بها، و ما إذا كان هناك احتمال أنْ يكون هذا التفسير، و تلك التحاليل والتقابلات في أسماء الأماكن و الشخوص التاريخية و الاسطورية، أن يكون كلّ ذلك أمرا صحيحا و ألاّ يكون القوم العبراني،الإسرائيليين، قد خرجوا من مصر إلى أورشليم، عبْرَ صحراء سيناء المصرية! و تبيَّنَ فيما بعدْ، حين فاتحَ الحبر الأكبر

في الموضوع، بِأنَّه هو الآخر كان على علمٍ بِقصة خروج الإسرائيليين العبرانيين، كما قرأ- ياماءيل- أجزاء من مؤلفات الباحثين المجتهدين في هذه العلوم، و كما سمعها من أهالي المناطق التي شَهدَت عملية الخروج تلك. لكن، و كما هو واضح- لا بل من المؤكَّد- بِ أنَّ هناك قرارا صادرا من خيمة كاهن الربّ فوق تابوت العهد، مفاده التعتيم التام و الكامل على هذه القصة، و اعتبارها من التابوهات. و لِهذا اقتصرَت لقاءات ومداولات ياماءيل مع رأس المعبد المكّي على القضايا اللاهوتية التي هي موضع خلافات وإشكاليات في الفهم و التفاسير، في الشكل والجوهر، الروحي و المادي، المنطقي و العقلي، الخيالي و الغيبي...إلخ. وعُرِفَ من المقَرَّبين لِ الحبر الأكبر، رأس المعبد المكّي، بِأنَّ الراهب ياماءيل كان قد انزلق في طريق الخطيئة في مكّة. إذْ أنَّه عاشرَ واحدة من أصحاب الرايات على الطريق المؤدي إلى معبد اللات. و أنّه زَرَعَ نطافه في رحم شابة من اللائي نَذَرْنَ أنفسهنَّ لِ البغاء المقدَّس في هياكل ومعابد إساف و العزَّة و هُبَل و اللات. و اتَّفَقّ الاثنان(الحبر الأكبر وياماءيل) على اختيار أحدِ مواليد، صاحبات الرايات المزركشة، اللائي سَ تَلِدْنَ في المعابد والهياكل المقدَّسة، واعتباره هو الشفيع و المخلّص المنتظر.وفي موضوع التشابه بين الديانة العشتارية،والديانة المسيحية، من حيث الرتبة الألوهية للأنثى. حيث تُعْتَبَر العذراء مريم، في العقيدة المسيحية، أُمّ الله، والدة الله، ويمكن اعتبار أَنَّ الديانة العشتارية لم تُهْزَم، لا بل أصبحت في مرتبة أعلى مما كانت عليها قبل الإنقلاب الذكوري عليها. فَهنا ارتَقَتْ عشتار من حيث أَنَّها إلهة، ارتَقَتْ إلى أمّ الإله، أُمّ الله. هذه هي واحدة من الخلافات بين اللاهوتيين. و أبْرَز هؤلاء، هو القديس نسطوريوس الذي يقول في هذه المسألة الإشكالية:"نستطيع أنْ ندعو مريم العذراء والدة الله لأنَّ اللاهوت متَّحدٌ بِالناسوت، ويضيف، عندما نقول والدة الله يجب أنْ نُرفِقَ معها والدة الإنسان، و لكن

بِسَبَبِ الاتحاد بين الطبيعتين في المسيح، فَإنَّ والدة المسيح هو الأنسب". وعن المسيح يقول:"أنا أدعو المسيح إله كامل وإنسان كامل بِغَيْرِ امتزاج الطبيعتين".

كان ياماءيل يُصَلّي داخل صومعته صيفا وشتاءا وفي أجواء من الرهبة و التَعَبّد، حيث البخور و الشموع تُضفي مسحة من الإيمان العميق على مكان تَعَبّده. في أحيان كثيرة، في الربيع و الصيف، كان يتأمَّل الطبيعة و اللوحة السماوية. كان يتحدَّث مع الطيور والحيوانات والحشرات بِلغاتها. يفهم عليهم ويفهمون ما يقول، أو ما يريد قوله لها، إنْ بِإصدار الأصوات المتوافقة مع كلّ جنس من أجناسها، أو بِالإيماءات والإشارات الدالة على وجوب تأدية عملٍ أو أمْرٍ بِ عَيْنه. كان يهمس لِ النمل في حقله، حيث عدة مستعمرات لها بين الأعشاب و النباتات و عند جذوع الأشجار، كان يفعل ذلك، وكأنّه يطلب منها الفصل بين نوعها و النوع الآخر(النمل الأبيض) الذي يكبر ويكتنز بِ البروتينات المغذية، وينبت لها أجنحة لِتتحوَّل إلى طعام لِ الطيور وله على حَدٍّ سواء. وفي بعض المواسم، كان يُمَوّن كميات لا بأس منها لِ يَتغَذّى بها في الشتاءات الباردة. كان يستقبل طالبي العلم و المعرفة. يدخلون في نقاشات فلسفية. يخوضون في جدَلٍ بيزنطيّ لا ينتهي، حول الميتافيزيك والغيبيات.أغلب المواضيع التي كانوا يجادلون فيها، كانت بانثيونات آلهة اليونان والفراعنة والآشوريين والهندوس و البوذيين و العبرانيين. قلّة من هؤلاء كان على علْمٍ بِبانثيون الآلهة لدى العرب، أو لْ نَقُلْ، لدى سكان مكة والحجاز. فَهذه البلاد، هي أيضا، كانت لديها آلهة ولاهوت و منظومة دينية وقيَمية. لم يكن هناك حَدّ القتل لِمَنْ ينتقد دين البلاد، أو يترك دين آبائه و يعتنق دينا آخر. كان بانثيون الحجاز غنيّا بِ الطقوس و الأمثال و الحِكَم و اللاهوت. ويكفي أنْ تُذْكَرَ المُعَلّقات الذهبية لِلشعراء الفضاحل في ظلّ تلك المنظومة القيمية و اللاهوتية، و الحركات الدينية المناوئة لِ دين البلاد دون تجريمهم و تخوينهم و تكفيرهم، و بالتالي، دون تَعْنيفهم أو قتلهم.

الراهب ياماءيل كان قد ذاع صيته في تلك الأرجاء، و حتى في بلاد الحجاز. و كانت القوافل التجارية في اغلب الأحيان تقصدُ صومعته لِ معْرِفَتهم بِ مكانه كَ ناسكٍ منعزل عن صَخَب الحياة، و لِسعةِ صدره ومجلسه الحميمي وسِعَة علمه و هدوء نفسه. في بعض الرحلات، وخاصة الربيعية منها، كانت تأتيه إرساليات من الحَبْر الأكبر، رأس الهيكل في مكة. كان محتوى معظم تلك الرسائل يدور حول القضايا اللاهوتية. و في واحدة منها تَطَرَّقَ الحَبْرُ الأكبر إلى مسالة المخلّص، أو الشفيع، أو المعزّي. إنَّ هذه القضية هي موضع إشكالية بين مذاهب مختلفة، و بين أديان مختلفة. و الإشكالية هي في الكلمة اليونانية التي ورَدَتْ في الكتاب المقدَّس عند المسيحيين، وهي باراكليت. فَ هذه الكلمة، كما شرَحَها رأس الهيكل المكي، كان مطابقا تماما لِما قالته مناتاسيا، زوجة دوكالبيوس الأولى،عن معنى الكلمة. في إحدى الرحلات الصيفية لِلقوافل التجارية، أرسلَ الحَبْرُ الأكبر مكتوبا على جريد النخيل لِ الراهب ياماءيل. يُعلِمه عن حَدَثٍ عجائبي حَصَلَ، إذْ أَبْرَقَتِ السماء و أَرْعَدَت و احْتَجَب الشمس عن الأنظار لِ مدَّة ساعة و نصف الساعة. و نَزَلَت مجموعة من الجن المؤمنين فوق معبد هُبَل، و كانت جوقة من الملائكة يُنْشدون لِ المولود الذي ولِدَ هناك. و شوهِدَت شُهُب و نيازك تتراقص فوق معابد وهياكل آلهة الحجاز. بعد اضطلاعه على محتوى المكتوب، راح يَتَمَعّن في المخطوطة البابلية، تلك التي تَشْرَحُ الظواهر الفلكية و رموزها الخفيّة. كانت مسألة ولادة الطفل الهُبَليّ(الذي ولِدَ في معبد هُبَل) تتفاعل في شبه الجزيرة. منهم مَنْ تفاءل بِ الحدث، و بعضهم رأى نذير شؤم فيه. انتهى الموضوع إلى هذا الحَد من الأخذ و الرد. إنَّ الراهب ياماءيل، بعد عشرة أعوام مِن الحدث العجائبي الذي حصل في بلاد الحجاز،استقبلَ قافلة تجارية قادمة من هناك. و كَ العادة، حَطّوا أحمالهم و اسْتَقُوا لِ الإبل والبهائم المرافقة. أمّا الراهب وبعضا

من أفراد القافلة كانوا يُحَضِّرون الطعام. ما أنْ فَرغَ الآخرون من تلبية حاجات الحيوانات، حتى دعاهم الراهب إلى الطعام.

حول المائدة و قبل البدء بِ الأكل، سألهم إنْ كان أحد من أفراد القافلة غائبا عن المائدة. أجابه قائد القافلة: بِ أنَّ هناك غلاما لم يبلغ بَعْد، إنَّه جالس في الحديقة الخلفية و سوف نأخذ إليه الطعام فور انتهائنا نحن من الأكل. أمّا الراهب، فَ أبى أنْ يأكل ما لم يجلس الغلام معهم إلى المائدة، و هكذا جيء به لِيشاركهم أكل الطعام. كان مكان جلوس الغلام وما جاورهِ مكشوفا لِحرارة الشمس القوية. و ما هي إلاّ لحظات حتى ظهرت غيمة رقيقة فوق رأس الصبي دون الآخرين، مشكّلة مظلّة تحميه من وَهج الشمس، و كانت تميل كلّما مال الشمس لِ يبقى الصبيّ تحت فَيْئِه. وحين وقَعَ نظر الراهب على الغلام و رؤيته لِ المعجزة السماوية التي ساقَتِ الغيمة فوق رأسه، جعل يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء من جسده. حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا، قام إليه ياماءيل فقال: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى أنْ تُخْبرني عما أسألك عنه. وإنّما قال له الراهب ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما(اللات و العزّى)، أمّا الصبي قال: "لا تسألني باللات والعزى شيئًا! فَ والله ما أبغضت شيئا قط بغضهما". فقال له الراهب: فَ بالله إلا أخبرتني عما أسألك عنه. فقال له" : سلني عما بدا لك "فَ جعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره، فَ راحَ الغلام يُخْبِره، فَ يوافق ذلك ما عند الراهب من صفاته. تذكَّر ما كان الحبر الأكبر قد أخبره عن المعجزة التي حصلت فوق معبد هُبَل قبل سنوات عشر، ثم نظر إلى سرّته وظهره و بين كتفيه، و قرأ خطوط كَفَّيه. دَقَّقَ في قياس قدمه الأيسر، و أطوال أصابع القدمين ولون وحجم أظافرها. فَلَمّا فرغ، دَخَلَ إلى صومعته. أشْعَل ثلاث شمعات وحَرَقَ ثلاث قطَع صغيرة من بخور العبرانيين، وراح في تأمّل عميقٍ لِ مدة خَمس عشرة دقيقة. ثمَّ خَرَجَ و أقبل على قائد القافلة فَ قال له: هل هذا الغلام منك؟

قال: ابني. قال له الراهب: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حَيًّا. ارجع بِه إلى بلده، واحذر عليه اليهود. فَ والله لَئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ سَيفعلون به شرًّا. فإنه سَيكون لِ هذا الغلام شأن عظيم. هناك دلائل تُشير إلى هذه النبوءة و مخطوطات تتحدَّثُ عن هذه الواقعة.

و خارج المصادر العربيّة الإسلاميّة عثرتُ، في التقليد السريانيّ الذي حصلتُ عليه من الخال قرياقس،الذي حَدَّثَتْكَ عنه، على مجموعة من المخطوطات تتحدّث عن سيرة هذا الرّاهب ولقائه بِ الغلام ضمن أفراد القافلة.

فَ المخطوطة– Ms Sachau 87: مخطوطة حديثة، لكنّها الأكمل، مكتوبة بخطّ سرطو يعقوبيّ، وهي غالبًا نسخة عن مخطوطة قديمة أصليّة. تأثير اللغة العربيّة فيها واضح، و خاصة في الأسماء، وكذلك اللاتينيّة، لكنها أقَلّ بِ كثير من العربية،

والمخطوطة–Ms Sachau 10: نسخة أقدم من السّابقة غير كاملة، يمكن تقدير تاريخ كتابتها من نوع الخط و المحتوى. مكتوبة بخطّ سرطو نسطوريّ. تمتاز هذه المخطوطة بحواشٍ موجّهة ضدّ الذين تبعوا الغلام. و هناك مخطوط سريانيّ أُكتُشفَ في ديرِ الزّعفران بالقربِ من مدينة ماردين و هو أقدم من تلك المخطوطات المذكورة آنفًا. وايضا مخطوط "جرشونيّ"(عربي بحروف سريانيّة) يتناول نفس الموضوع.

– جيد! قال تيما. وهذه المخطوطات تُعَزِّزُ من مصداقية ما قمنا به. إننا فعلنا ذلك على أكْمَلِ وجه، حتّى أنَّنا شَوّهْنا صورة بني إسرائيل و جعلْنا فرعون المصريين شريرا و ظالما. و بعد الانتهاء من عملنا، أمَرَ كبير الكهنة بِ حفْظِ نسخة من الكتاب المُعَدَّل، أو المُنَقَّح، في هيكل رحمن اليمامة، و إرسال نسخة منه إلى بلاد الشام مع القوافل التي تذهب إلى هناك. في السابع عشر من عام

العنقاء، كانت قافلة تجارية تستعد لِ الانطلاق من مكّة إلى بلاد الشام، و كان قائدها من أشراف قريش و من سَدَنَة معبد الهبل. التقيناه، أنا و الكاهن الأكبر، في معبد بين جَبَلَيْ الصفا و المروة حيث ينتصب عليهما تمثالي العاشقَيْن، أو الشفيعين، إساف ونائلة. ذهبنا إلى هناك في وقتٍ لم يكن هو موعد أداء الطقس المقدَّس إنّ اهالي مكة يطوفون بهما سبعة أشواط. فَ الصفا والمروة هي من الأماكن المقدَّسة، ولها أثر كبير في عبادة أهل مكَّة. كانوا يطوفون بِإساف أولًا و يلمسونه، كل شوط من الطواف، ثم ينتهون بِ نائلة و يلبّون لهما. كانت تلبيتهم لهما: "لبَّيك اللهمَّ لبيك، لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك".

قَدَّمَ الكاهن الأكبر الكتاب المعدَّل المنقَّح إلى قائد القافلة، دوشر بن كُليب، مع توصية المَجْمَع الكهنوتي لِ الأتباع في بلاد الشام. قفزَ سارو حين سمعَ اسم دوشر، وتوجَّه إلى تيما مستعلما عن الاسم الذي سمعه من فمه. أراد التأكّد من أنَّه سمع اسم دوشر و ليس سواه. في الأثناء كان مرافق البولمان ينقرُ، بِلطفٍ، على كتفه الأيسر. استفاق من غفوته عند حدود الأردن. استمرَّت إجراءات التفتيش و التدقيق في الوثائق مدّة ساعة و عشرين دقيقة.كانت الساعة تقارب الحادية عشر من صباح الخامس من حزيران حين نزل من البولمان في العاصمة(عمان).

-19-

لم يُبَلّغ طارق بِوصوله. ذهبَ إلى مركز المدينة حيث المطاعم و المحال التجارية والفنادق. سألَ عن أسعارا لمنامة في الليلة الواحدة، اختار السعر الذي يناسبه. حجزَ في فندق يقع في ساحة مزدحمة بِ الباعة الجَوَّالة و الدكاكين و المقاهي الشعبية وأيضا المطاعم الشعبية. ساحة تمور بِالحيوية، تَعجُّ بِالسيارات والدراجات الهوائية و النارية، ذات العجلتين و ذات الثلاث عجلات تراها تنزلق بين السيارات والمارّة بِ شكلٍ عجيب وغريب. وبين الفينة و الأُخرى يصرخ سائق دراجة هوائية منبّها المارّة و بِالكاد يُسْمَعُ صوته، و خاصة عندما يكون قريبا من العربيات التي تحمل آلات التسجيل ومجموعة من الكاسيتات والكتب الدينية، وكاسيتات لِأغاني شعبية وشعبوية وكتب خرافية. تُطْلقُ المسجّلات أغانٍ شعبية وآياتٍ قرآنية يرَتّلها أحد الشيوخ المرتّلين، و لذلك يضيع صراخ سائق الدراجة في عجقة هذه الأصوات.اسم الفندق الذي اختاره هو"الوحدة العربية".

بعد إتمام إجراءات التسجيل وتسليم مفتاح الغرفة، أجرى اتصالا هاتفيا مع صديقه طارق لِ يُعْلِمه بِوجوده في عمّان. كانت مفاجأة سارّة بِالنسبة لِ طارق. أراد أنْ يُطيل في الحديث ويطمأنَّ على أحواله، لكنَّه اختصر بِسَبَبِ ظروف الفندق وحاجتهم إلى الهاتف لِهكذا حالات. تواعدا أمام باب الفندق في الخامسة عصرا. صعدَ إلى غرفته. دخلَ إلى الحَمّام، حَلَقَ لحيته و استحمَّ. استلقى على السرير، و من شدّة تعبه راح في نومٍ الظهيرة. في الخامسة كان سارو في الشارع أمام باب الفندق. و في الدقيقة الثالثة بعد الخامسة كان طارق بِ جانبه، هكذا، كانا دقيقين في التزامهما بِالمواعيد، و هذا ليس غريبا عليهما،فَ هما كانا من الماركسيين الرومانسيين الصادقين مع أنفسهم و مع الآخرين. كانا يُقدِّسان الاجتماعات الحزبية و مواعيدها و مواعيد المهمات التي كانوا يُكَلَّفون بها. كانا

من الذين لم ينسجموا مع التنظيمات الحزبية التي انبثقت من الفكر الماركسي، لم يتحمّلا ألاعيب وأحابيل الحزبيين. اكتشفا مبكّرا بِأنَّهما لا يصلحان لا لِ السياسة ولا لِلقيادة. تعانقا طويلا. كانا ينظران إلى عيون بعضهما، و يتعانقان من جديد. أهلاً بكَ في بلدك يا صديقي العزيز! كيفك يا سارو، وكيف جرحُ العشق فيك، هل شُفيتَ أم أدْمَنْتَه؟ باغته طارق مع ضحكة طفولية صادقة.

– يا طارق لا تدري كم كنتُ مشتاقا لِ رؤيتك! أمّا عن جرح العشق، فَأنتَ تعرف حال العشاق يا صديقي، جرح الهوى ليس في الجسد يا طارق و إنَّما هو في الروح، فَ كيف لِ الروح الخضوعَ لِ علاجات الأرض يا صديقي العزيز؟ أنتَ تعرف بِ أنَّ العشّاق هم المتمرّدون على الله. أقصد الإله البدئي الذي خَلَقَ السماوات والأرض والبحار والمحيطات والبشر والحيوانات، كما رَوَّجَ له العقلَ الكوني حتّى أصبح من المسلَّمات، و راح هذا الكائن الغبي (الإنسان) يقتل نفسه من أجل هذه الخرافة الجميلة. إنّه أصلُ الشر. لقد خلقَّ هذه الكائنات لِ التسلية والاستمتاع بِ تخبّطها و وحشيتها وجنونها. إنّه خَلَقَنا لِ إثبات ذاته من خلالنا، ليس إلاّ. العشّاق يكسرون زجاج مختبره، يحطّمون سياج أقفاصه. العشاق لا يعرفون شيئا في الحياة سوى الحُبّ.لا يتقنون عملا سوى المحبَّة. هواؤهم الحُبّ، ماؤهم و زادهم هو الحُبّ، إلههم هو الحُبّ.

– صورة جميلة لِ حال العشاق و المختبر الزجاجي، لكن لِ نؤجّلَ الحديث في هذا الموضوع الميتافيزيقي الشَيّق إلى وقتٍ آخر يا صديقي. و الآن، قُلْ لي من أين نبدأ، أو ... أَشَّرَ لِ سيارة أجرة و طلبَ مني الصعود. قال لِ السائق الوجهة التي سَ نقصدها، و بعد بعض الوقت نزلنا في ساحة هادئة. أخذني إلى مقهى، أو كافتيريا، جلسنا متقابلين، و بعد أنْ استرخينا في جَلْسَتنا و التقطنا أنفاسنا لِ دقائق معدودة، طلبنا قهوة عربية. و حين سأَلَنا النادل عن رغبتنا في حلاوتها، في هذه اللحظة بِ التَمام، تسارعت دَقَّات قلبي و أَحْسَستُ بِ عَرَقٍ ينسكب من

جبيني، و قلتُ تلقائيا:"سادة". لم يفهم النادل، ربّما لم يسمعْ جيدا ما قلتُ له، فَ اضطرَرْتُ لِلقول:"بَلا سكَّر". في الأثناء كنتُ قد مسَحْتُ جبيني بِ يدي، و كأنَّني كنتُ أمسح العرق. لاحَظَ طارق ارتباكي. انتظر إلى أنْ ذهبَ النادل، و إلى أنْ استَعَدْتُ توازني الروحي، عندها توجَّه إليَّ و هو يبتسم:

– أَمْسَكْتُكَ في الجرم المشهود. هيّا قُلْ ما تخبئه وراء القهوة العربية!

سارو هو كَالكتاب المفتوح. شَفّاف يمكن لِلمرءِ قراءة أفكارهِ من المصدر مباشرة. ويمكن أنْ يحسَّ المرء بِانفعالاته، أيضا من مصدرها. فَ حين تواجهه في موقف معيّن، تراه يُصَرِّح بِ أفكارهِ و آرائه، و حتّى مشاعره تجاه الموضوع المطروح. لا يعرف المراوغة و لا يستطيع الكذب، حتّى لو تُسَبِّبَ صراحته مواقف مخْجلة له. ابتسمَ سارو ابتسامة فيها مَسْحة حزن لذيذ. كانت لديه فلسفة خاصة في مسألة الألم و اللذة، الجمال و الألم، الموسيقى و الألم، الحزن و السعادة. كان يقول، مثلا، عن جمال فتاة: إنَّ جمالها مؤلم، و كذلك عن الموسيقى، إنّها تؤلمني بِ روعتها، وكان يقول:هناك حزنٌ نبيل يبعث السرور والسعادة في نفس الإنسانية. هناك أَلَمٌ يُنَظِّفُ الروح و يجعلها في أمان و متعة نادرة. حَدَّثه عن ذلك اللقاء الرومانسي في منزل الخالة روزا في حلب. حينها صنَعَت الخالة روزا قهوة عربية، هي شربتها سادة، من دون سكّر، أمّا سارو وندى فَشرباها سكّر وسط. انتبه طارق إلى انفعالاته وطريقة سَرْده لِلمواقف العاطفية الحميمية، كان يتحدَّث و كأنّه يعيش الحدث بِ دقائقه. تابعَ سارو قائلا: عرفتُ، فيما بعد، بِ أنَّ الخالة روزا كانت من سلالة الملوك الأرمن الذين حكموا مملكة كيليكيا الأرمنية. جَدّها السابع هو ليفون الثاني(LEVON II) مؤسس مملكة كيليكيا الذي لقب بِ ليفون المنتصر، توج ملكا 1198 م في كنيسة آيا صوفيا. تَمَّ القضاء على مملكة كيليكيا في عهد الملك ليفون السادس، حيث احتلَّها المماليك مع

عاصمتها سِيس(SIS) واقتيد الملك ليفون السادس،أسيرا،إلى القاهرة.و طبعا عرفتُ أنَّ القماش الذي رأيته في منزلها، في المكتبة الكائنة في الطابق العلوي حينذاك، والذي كان مرسوما عليه الأسد بِلبدته، إنّما كان علم مملكة كيليكيا.

– قرأتُ عن هذه المملكة و عن الأسرة الليفونية التي حكمت المملكة إلى تاريخ سقوطها بِيَد المماليك كما ذكَرْتَ الحدثَ تماما. أمّا عن الخالة التي تقول بِ أنَّها كانت من سلالة الملك ليفون، فَ أنا أحسدكَ على تلك الفرصة التي جمَعَتْكَ بِ حفيدة ملوك كيليكيا، ورؤيتكِ للمكتبة والمتحف الذاخر بِ الكتب و المخطوطات القيّمة، و التي جزء منها، كما يبدو، كانت تَخصُّ العائلة المالكة. أمّا الأجمل في هذا الموضوع، هو الحالة الرومانسية التي حَدَّثْتني عنها. فَ هلْ هناك أعظم من أنْ يرتعش المرء ارتعاشات الحبّ في معبد الثقافة و التاريخ؟ فَ أنتَ نلتَ شَرَف العاشق الكوني. و لأن الحُبَّ هو علّة الوجود، روح الوجود، فَ أضحَيْتَ أنتَ و حبيبتكَ ندى من مفردات هذا الحُبّ الكوني. كانت الساعة تقارب الثانية عشر من منتصف الليل، حين عاد سارو إلى الفندق. صعَدَ إلى غرفته. كانا قد سهرا في مطعمٍ ذي طابع ثقافي. الديكور فيه من النمط الكلاسيكي، و فيه لوحات فنية جميلة، وقناديل ملوَّنة معلَّقة ومثبتة على الجدران. أمّا المؤثرات الأُخرى، فَ كانت قمّة في الرومانسية. أغلب زوّار المطعم، كما قال طارق، هم من الموظفين و الجامعيين والكتّاب والمثقفين. تَسَطَّحَ سارو على السرير، وأطلقَ العنان لِ خياله. تَذَكَّرَ رحلته إلى بلاد الرفاق.الأوقات التي كانوا يقضونها، هو وطارق، على سطح الباخرة. استعاد تلك الساعات الليلية التي كانا فيها يتناقشان في الفلسفة و السياسة والآيديولوجة، وتذكَّرَ الغليون(البايب)الأسود المحجَّر الذي كان أستاذ قدير قد أهداه إياه في دمشق. حَصَلَ ذلك خلال إحدى زياراته الحميمية للاستاذ– ابن القامشلي– في منزله في دمشق، حيث يُدَرّسُ مادة الرياضيات في معهد

اللاييك. كان سارو يُدَخِّن منه مستعملا تبغ الكلان ذي الرائحة العطرة. كان قد لاحظَ إعجاب طارق بِ البايب، و لذلك، أصرَّ سارو بِ أنْ يُدَخّنَ هو الآخر منه. حين كان طارق ينزل إلى النوم، كان، سارو، يبقى وحيدا تحت ضوء القمر و وَشيش الأمواج المرافقة له. يرسل بصره إلى الأفق، إلى نهاية الضوء الفضيّ المنعكس على موجات مياه البحر. في المسافة تلك، كان يرى قطيع الدلافين تلاحقهم لِ اللهو والتسلية، فَهي تعرف الخطوط الملاحية وأوقات الرحلات البحرية لِلبواخر والسفن الأصغر. كانت النجوم تشعشع في السماء، كانت تَخبو كلما تقتربت من هالة القمر. كانت القمر هي عروس السماء، و هي تتوسَّط وصيفاتها من النجوم التي تتراقص حولها. في بعض اللحظات كان يرى، أو يتهيّأ له أنَّه يرى وجه حبيبته ندى وليس وجه القمر.كان يناجيها، في حضرة عناصر الطبيعة، بِ صوتٍ داخليّ: كم أحتاجكِ يا حبيبتي، و أحتاج إلى ابتسامتك و بريق عينيك و رفيف رموشك التي تُظَلِّل الينابيع الدافئة فوق الخدود الممتلئة حياةً، و سمرة مبهجة، يا سمرة الجمال وغمزة الحبّ. يا وردة الحَيّ و ياسمين المدائن، يا صدى الأغنيات والنَغَمات. أمْسَيتُ بلا وزن وأنا أمشي نحوكِ في الحارات، أُداعبُ الهواء وأنصتُ إلى حفيف الأشجار و زقزقة السنونوات على الشرائط. أسيرُ تحت المطر، أَلْعَبُ في مسيلات الطرقات.أفتح فمي لِ نُدَفِ الثلج المتساقط، أقذف بِالثلج خيالا يتراءى لي قُرْبَ شبّاك دارِكِ. لكنني لم أرَ سوى عيونكِ الجميلة تتساقط مع الثلج والمطر. في الصحو عيونك، في العواصف عيونكِ، في الليل بين النجوم وعلى وجه القمر عيونكِ. بين نجمات الدبّ الأكبر و الأصغر عيونكِ، بين نجمَتَي ليلى و مجنونها، قيس، عيونك. السماء عيونك، يا عيون الحبّ والجمال. عيونك فوق أجنحة الفراشات، فوق سنابل القمح وأشجار التوت.عيونك غيمة فوق الهَيْماء، فقاعات الربيع، فَرَحُ الأطفال تحت المطر المنهمر فوق إشعاعات الشمس الذهبية.أنتِ يا حبيبتي، الحافة الشفّافة بين الشمس والمطر، والتحاق العشق بِ

ذيول الشمس و القمر. أنتِ حُبّي الضائع وفرَحي المؤجَّل، أنتِ هوائي وشمسي ونبضُ حياتي يا منى القلب والروح، يا اسم الحُبِّ والعشق. لا تغادري كياني وروحي يا خيال أحلامي!.

كانت الدموع تغسل روحه. و كان يرسل قبلة إلى القمر و النجوم و السماء و البحر و الدلافين، و ينزل إلى النوم حيث ينام طارق في نفس الغرفة.
في العاشرة صباحا، رَنَّ جرس الهاتف في غرفته. كان طارق على الطرف الآخر من الخَط. تبادلا التحية الصباحية، و حَدَّدا ساعة اللقاء في الساحة العامة قُرْبَ الفندق. كانا قد اتَّفقا على برنامج لِ زيارة المواقع الأثرية. بدأَ طارق من الشمال. ذهبا إلى إحدى المدن الأثرية الرومانية، مدينة جَرَش. لم يكن بِ حاجة إلى دليل سياحي، فَهو متخصِّص في التاريخ و الآثار. شَرَحَ بِ إيجاز عن المدينة التي قامت فيها حضارة أيام الرومانيين، و حافَظَت على آثارها إلى يومنا هذا، من أعمدة و طرق و مسارح و مكتبة تحوي، إلى جانب الكتب و المخطوطات، قطع أثرية ذات أحجام وقياسات مختلفة، و هي بين العملات القديمة و أختام و أدوات منزلية سابقة، حتى، على الوجود الروماني في المدينة. كانت المدينة قد عُرِفَت قديما بِ اسم(جراسا). نحن لا علاقة لنا، قال طارق، بِعَظَمَة هذه الآثار، و إذا كنا نحن، أقصد أجدادنا، أصحاب هذه الأرض منذ ذلك التاريخ، فَ بِ التأكيد لم نكن، و أيضا أقصد أجدادنا، بِهذه الثقافة و هذه العقيدة، و إنَّما كنّا بِ غيرِ هذه اللغة و الثقافة و العقيدة.

– تَقْصد ما نحن عليه الآن يا طارق؟ قال سارو بِ تَفَهّمٍ و اندهاشٍ و إعجاب من هذا الطرح الجريء. اكتفى بِ أنْ هَزَّ رأسه إيجابا، و تَوَجَّه إلى أم قيس، و هي ، كما قال طارق، واحدة من المدن الرومانية الأثرية، و التي شَهِدَتْ، كما

جرش، على العصر الروماني الذي حَكَمَ هذه المدن. فَهي تطلُّ على غور الأردن وبحيرة طبريا وهضبة الجولان. تتميَّز، كما هو واضح، بِ أنَّها بُنيَتْ من الحجارة البازلتية السوداء، وتمتاز أيضا بِأنَّها مدينة متكاملة. فَملامحها ما زالت موجودة حتى هذا الوقت، من أسواق وطرقات وساحات وأنفاق خُصِّصَت لِ الري.

كانا على تَلَّة من جدارا، حيث كانت تُعْرَفُ(أم قيس) بِ هذا الاسم، يتأملان بحيرة طبريا و الجولان. طَلَبَ سارو أنْ ينزلا إلى شواطئ البحيرة دون الاكتراث للحواجز الطبيعية والسياسية. إنَّ زمنَ المعجزات لم ينتهِ بَعْدُ يا سارو، و خاصة في بلداننا و ثقافاتنا وعقائدنا، قال طارق و هو يتأمَّل السماء. أراد ان يخوض تجربة التأمّل الصوفي، لذلك، طَلَبَ من سارو أنْ يركعَ على ركبتيه ويوجِّهَ ناظريه نحو الشمال. لَقَّنه بعضاً من الأحجيات التي تعلَّمَها من متصوّفي الكازاخ، وبعضاً من الآيات و أبيات الشعر القديم التي حفظها من دراويش سمرقند الذين كانوا يجوبون غروزني و جزيرة القرم. رَكَعَ هو الآخر، و إنَّما، بِ اتجاه الجنوب، و راحا يردِّدان و يتلوان الأحجيات و الآيات معا. كان طارق قد قرأ الإشارات الفلكية المشجِّعة لِ انتقالهم إلى الطرف الآخر من المكان، وإلى الزمن الما قبل من هذا الزمان. لَبثا هكذا في خشوعٍ يتواصلان مع الأرواح السرمدية. يستحضران الأحداث الغريبة التي حَصَلَتْ في الأماكن ذاتها، كَ هطول العقارب السوداء فوق الحجاز، و انسداد فتحة كهف الناسك التقي نفلاءيل، حيث قامتِ العناكب الزهرية بِ خياطة مدخل كهفه، و ذلك لِ إخفائه عن عيون الملك الظالم، قاتل النسّاك و الرهبان و الأنبياء. حَدَثَ ذلك بِ فَضْلِ النحل، فَ العاملات اللاتي كُنَّ يجمعن الرحيق من الورود و الأزهار في حديقة القصر، سَمعْنَ الملك يأمر جنوده لِلقَبضِ على الناسك نفلاءيل. في الحال توَجَّهنَ إلى الكهف وأَخْبَرْنَ ملكة العناكب الزهرية بِ الأمرِ، و بِ دَوْرِها طَلَبَت من النمل الأسود أنْ تُفْرِغَ أجزاء من جذوع الأشجار والشجيرات القريبة من الكهف، و أنْ تُقَطِّعَ الأوراق و الأغصان كي يبدو المكان مهجوراً. نفلاءيل، هذا، هو نفسه

الحَبْرُ الأكبر الذي ترأَسَ فريق الكَتَبَة الذين غَيَّروا وبَدَّلوا وأضافوا و أزالوا و حَرَّفوا الكُتُبَ التي كانت بين أيديهم هناك في الحجاز و مكة و يثرب و كَرَك و حوران. بينما هما في حالتهما الوجدية تلك، سَمِعا أصواتا قادمة من الأماكن ذاتها، من الشمال و الجنوب. صوت الشمال يقول: إنَّ الشفيع مَرَّ من هنا. إنّ المُعَزّيَ كان هنا. إنَّه قادمٌ على صهوة الريح، كما صَعَدَ على صهوة البراق. عند قدومه، سَتَنْشَقُّ السماوات و تزلزل الأرض. أمَّا صوت الجنوب، فَ يقول: إنَّا أرسلنا الكتاب إلى الشمال مع قافلة(رحلة) الصيف، ذلك الكتاب المبين الذي لا ريبَ فيه. إنَّنا جمعناه حين كانت السماء تُمْطِرُ أحرفه. راحتِ الأصوات تتعالى و تنخفض، تتعاكس، تتوافق، تفترق، تتداخل قبل الاندماج و التوحّد. صوتٌ صاعدٌ من تحت الحجر الأسود، من كعبة مكة، و صوت نازلٌ من هيكل ياماءيل في أذرعات. أثارَ التقاءهما رعداً و زوبعة و إعصارا شديدا. ارتفعَ عجاج هائل في السماء و راح يسوق الغيومَ و السحب، و يدفع الكُتَل الضخمة أمامه. و الصوت المُدْمَجُ الواحدُ يُكَبِّرُ وسط العجاج. اقترَبَت غمامة على هيئة حمار مجنَّح، و على ظهره مَغْزَة بيضاء ذات قرون ذهبية، وفي رقبتها حجاب من الجلد الأسود، وطيور و كائنات غريبة تَنْشدُ لِ مَجده وأصله المبارك. جَثا أمامهما، وحملهما على ظهره الطاهر و صَعدَ بهما إلى السماء الأولى. في الطريق بدأ يُحَدِّثنا، كما يقول طارق، و في الحال بدأنا نَفهم مغزى نهيقه(كلامه)، و رحنا نشاركه النهيق متناولين أهمّ المواضيع، و خاصة تلك المتعلِّقة منها بِ الخَلْقِ، بِ نار جهنم و حوريات الجنة. حَدَّثهم بِ ثقة مطلقة عن أصله الشريف، و أنَّ تلك المعزة التي خلفكم، هي أيضا مباركة من الله. أمّا الكائنات الأُخرى، فَهي ممسوخة من سلالتي الكريمة، لِ أنَّها عَصَتْ إرادة الله، فَ حوَّلها إلى غربان و أفاعي و خنازير و قردة. كان جدّي قد ركب مع نوح في سفينته، و رَبَتَ نوحٌ على كتفه وتنبَّأ بِ سلالته المقدَّسة. إنَّنا نحترمكَ أيها الجحش العَفير ونُقَدِّسُ سرَّكَ، و الآن نرجوك أنْ تغوص بنا في مياه

بحرِ الجليل. في الأثناء، كان الكائن السماوي قد وَسَّعَ ظَهْرَه طولا وعرضا، و جاء بِ المعزة إليهما. أخذها طارق بين ذراعيه، كانت تثغو بِ رقّة وتميل بِرأسها على صدره. كانت تحتاج إلى الحنان الذي فَقَدَته يومَ أَظْلَمَتِ السماء واحتجبَ الشمس. كان ثغاؤها يتهدَّج وصوتها يرتجف. رفَعَ طارق رأسها الصغير و راح يمسح على جبينها وخطمها الرقيق. رأى الدموع تتدحرج من عيونها الجميلة، وأنفاسها العطِرة تغمرُ كيانه. ضَمَّها إلى حضنه و راحَ يُقَبِّل عيونها و بين قرنيها الذهبيين. عَرِفَ من ثغائها، بِأنَّها تحكي عن بيتها و مربيتها الحنونة التي كانت تحبّها حُبَّاً صادقا بريئا طاهرا. تحكي عن كلام الله الذي دخلَ في جوفها وأمعائها. كان ذلك جليًّا من النور الذي يَشعُّ من عيونها، والمسك الذي ينبعث من أنفاسها. سألها طارق عن الحجاب المعلَّق في رقبتها، وعن محتواه، ولمّا كانت قد شَعَرَتْ بِلَهْفَته عليها وحبِّه لها، فَ أَمَّنَتْ جانبه، وسَمَحَتْ له بِ فَكِّ الحجاب ورؤية محتواه. فَكَّ طارق رباط الجلد الأسود. كان بِداخله صَفحة صغيرة من الورق البرْدي الرقيق، مكتوبٌ عليها سبعة أسطُرٍ بِالخطّ السرياني الاسطرنجيلي، وأيضا كانت إلى جانبها خمس قطَعٍ صغيرة من العظم، حليبيّ اللون، شبْه مكعَّبات،محفور عليها أحرف واضحة. حاول طارق فَكَّ أُحْجية الأحرف ومعرفة ما إذا كان ترتيبها سَيُفضي إلى اسمٍ أو فعلٍ، ظَلَّ يُفَكِّر في اللغز الذي تُخبئه الأحرف المبعثرة أمامه. رَفعَ نظره إلى المعزة وهو في حيرة من أمره. سالها إنْ كانت تعرفُ سرّ هذه الأحرف. هَزَّتْ رأسها بِهدوء، للأسفل والأعلى عدّة مرّات، دلالة على معرفتها لِلسرِّ الكامن في ترتيب الأحرف. جَمَعَ طارق الأحرف بين كفَّيه و رماها أمامه، و راحَ يقرأ الأحرف من اليمين إلى اليسار دالاً إلى الحرف الذي يقرأه بِسبّابته. كان الحرف الأول– ش– و الثاني– ا–، في الأثناء، أطلقت المعزة ثغاءاً متكررا مع حركة من رأسها يمينا و يسارا، دلالة على خطأ الترتيب. تَوَقَّفَ طارق عن متابعة القراءة و الإشارة إلى الأحرف التي أَخّذَتِ الترتيب العشوائي هذا، وأتى بِحركة فيها رقّة وحنانا بِ حيث،

أدْرَكتِ المعزة مغزاها. أنَّه يطلب منها بِ رِفْقٍ أنْ تؤشِّرَ إلى الترتيب الصحيح لِ الأحرف. مالَت بِرأسها إلى كتفه و راحَت تلحسُ وجهه، ثمَّ أَقْعَت أمام الأحرف ممعنة النظر فيها. بعدَ لحظات، وضَعَتْ ظلفها اليمين على الحرف- ع-، و من ثمَّ رَفَعَتْ ظلفها اليسار و وضَعته على الحرف- ا-، و في الأثناء انطلق الجحش العفير بِزاوية حادة إلى الأعلى، في الوقت الذي كانت تمدُّ ظلفها بِ اتجاه الهمزة، مما أَفْسَد في ترتيب الأحرف من جديد. صعد بهما إلى السماء الثانية. هو الذي نَهَقَ لهما بِ ذلك قائلا: إنَّني أسيرُ بكما الآن في طريق الحمار ،أبي، إلى السماء السابعة، كما أخبَرَني بِنفسه. كان قد قال لي عن رحلته تلك، بِأنَّه واجه بَعْضا من المشاكل مع وحوش كانت قد هَرَبَت من الجحيم. كانت تنفثُ النيران من أشداقها و تَضْرب المصابيح المعلَّقة بِ ذَيْلِها. و أنَّ تنّينا ضَخْما ذي ثلاثة رؤس و ستة أجنحة واسعة قوية، باغته بِ هجوم صاعق كادَ يبتلع الراكب على ظهره. لكنَّه (الحمار أبي) انعطفَ فجأة بِ اتجاه الأعلى، مما جَعَلَ عَضَّة التنين تَشقّ موجة الهواء لا غير. و هكذا أفلتَ من فكوك الوحش المفترس. لكنه طاردهما بِ سرعة البرق، وفي الأثناء مَسَحَ الفارس على رأس مركبه و تَمْتَمَ كلمات و عبارات غير مفهومة، وما أنْ أنتهى من دمدمته، حتى اخترقَت رجومٌ ملتهبة أشداق التنين و حَوَّلَتْه إلى أشلاء. أَنَّه أُنْقِذَ من شَرّه و وحْشيته، لأنَّ ملك الجحيم كان يعلم بِ مسار رحلته إلى السماء. أمّا في السماء الثالثة، فَ قَدْ تَعَرَّضا لِ هجومٍ شَرِسٍ من قِبَلِ ماردٍ ذي جذعين ورأسين بِثلاث عيون حمراء تقذف الشَّرَرَ وتنشر الرعب في القلوب، و تُفَكِّكُ المفاصل و تصيب فريسته بِ الشلل. أيديه الأربع تأخذ شكل و هيئة كلّ الأسلحة الفتّاكة. يرمي أهدافه بِ صفائح مسنَّنة من العاج من تحت أظافره، وهي قادرة على تقطيع اللحم و العظم و الفولاذ أيضا. يسبح كما الحيتان الزرقاء القاتلة، وينزلق كما نسر الكوندور، ويقفز كَالأسد أثناء الانقضاض على فريسته. رفع أبي الحمار رأسه إلى الأعلى ونَهَقَ ثلاثة نهقات متتاليات بينها

فواصل زمنية ملغزة. في الحال رَدَّ الله عليه بِ واحدٍ ذي موجةٍ خاصة بِ الحقل الكهربائي لِ دماغه. بعدَ رَفَّةِ جفنٍ من التواصل بين الله و حماره المقدَّس، كانتِ العفاريت المُرْسَلة من لَدُنْه تَنْقَضُّ على المارد و تُمَزّقه إربا..إربا.
انتبه سارو لِشرود طارق.اقتربَ منه مع سُعال خفيف كَإشارة لِإعادته إلى الواقع.

– أراكَ شاردا يا صديقي! هل كنتَ تسبح في السماء أمْ في بحر الجليل؟
التفَتَ طارق إليه مبتسما، وهو بين الخَجَلِ و الحيرة، لكنه كان سعيدا في رحلته الصوفية.

– يا صديقي! قال طارق، إننا في بقعة من الكرة الأرضية يمكننا تسميتها، أو تشبيهها، بِسرّة الكون.أنتَ، أيضا، تعرف مكانة هذه البلدان في الخارطة الكونية. فَ معظم الخرافات و الأساطير و الأديان نَبَتَت من رَحَمِ هذه الأرض، من ها هنا، ناهيك عن مرور الأباطرة و الملوك و القياصرة من هنا. من ذخائر هذه الجغرافيا، أيضا، خَرَجَت أعظم الملاحم والأشعار والروايات التي أَغْنَتْ الحياة الأدبية وفَتَحَتْ عيون الناس. حَرَّرَت عقولهم، أطلقت العنان لِ خيالهم و دفعتهم لِ الغوص في الأعماق و التحليق في الفضاء.

– رائع يا صديقي! قال سيرو، فَ بِ هذه العناصر المختزنة في فضاءات هذا الشرق، كان من المفروض أنْ يكون منارة لِ الفكر و الفلسفة و الأدب، مختبر التقدم و المحبة و السلام. لكن لِ الأسف يا طارق، فَ كما ترى، إنَّ هذا الشرق باتَ أخطرَ بقعة على الإنسان، و كأنَّ الذين يعيشون عليها ليسوا، هم، وَرَثَة ذاكَ الرُقي الذي كان. هل حصل انقطاع ما في مكانٍ ما من تاريخ هذا الشرق؟!

– إنَّ كلمة الانقطاع، قال طارق، تحملُ في طيّاتها مفهوما بسيطا و لطيفا بِ المقارنة مع ما حصَلَ في بلداننا. إنَّ الذي حصلَ هنا، يا سيرو، إنَّما هو كارثة بِ كلِّ ما تحمل هذه الكلمة من معاني الفاجعة...لا، لا، ليس كارثة و ليس زلزالا، فَ الذي حصل لِ هذا الشرق هو أخطر من السرطان، بل أخطر من الطاعون. أخطر من الإيدز، أخطر من ثقب الأوزون، لا بل أخطر من الثقب الأسود نفسه. إنَّه الطفرة الكونية الثانية التي حَدَثَت لِ هذا الكائن الحيّ(الإنسان)دون غيره من، إخوته الحيوانات. الطفرة الكونية الأولى كانت، حين فَقَدَ هذا الكائن خصائصه و قدراته الطبيعية التي كانت تُمَكِّنه من التكيُّف مع الظروف الطبيعية، والتعامل مع الحياة بِذكاء فطريٍّ دون أنْ يُدَمِّرَ رحمه و حاضنته. الطفرة الكونية الأولى ضَرَبَت خلايا الدماغ.أَفْقَدَته ذكاءه، خياله،أحاسيسه.أمّا الطفرة الكونية الثانية،تابع طارق كلامه، فَكانت حين نزلت الألهة والشياطين و الأشباح و الجان إلى الأرض، حين اختلطوا مع البشر، فَكانت اللوثة البشعة التي ضَرَبَتِ المفاهيم والقِيَم و الأخلاق. إنَّنا ابْتُلينا بِ إلهٍ مخادع، حاقد، عنصري، مُنْحَل أخلاقيا. هذا الإله غَيَّرَ القطبية الكهربية لِلخلايا العصبية في دماغ هذا الكائن البائس.جعلَ الغريزة قانون الحياة. جَعلَ القتل القيمة الأخلاقية المقدَّسة. ثقافتنا و أخلاقنا هي من تلك التي أَمْطَرَتها السماء على أسلافنا. و من يومها رحنا ننفخ ذاتنا و نحتقر الآخر، نشوِّه ثقافة و أخلاق الذين سبقونا في حكم هذه البلدان. نطمس آثارهم، حضاراتهم و نلغي انتماءاتهم العرقية والقومية، نسرق تاريخهم و ميثولوجياتهم و نزدري معتقداتهم وأديانهم. كلما أتعمَّق في هذه المسألة، أجدُني أمام قضية،أو جملة من المعطيات الخطيرة التي كانت السببَ في هذا التشويه المريع لِ دماغ هذا الشرق. أريد توضيح فكرتي حول هذا الموضوع، قال طارق، و طَرْح السيناريو الذي أَتَصَوَّره لكن لا أعرف كيف أفعلُ ذلك.. سَ أُحاول أنْ أُقَرِّبَ المشهد يا سارو.. إذن..

تعال لِنَسيرَ عكس عقارب الساعة. إلى الزمن السالب بِأكثر من ثلاثة آلاف سنة من هذا التاريخ، من هذه اللحظة، أيْ إلى زمن الما قبل، لِنقف على حقيقة المجتمعات التي كانت على قيد الحياة. في الزمن الما قبل، كان هذا الشرق قلب العالم. كانت الأطراف تنمو وتنتعش لِارتباطها بِسرّة الكون(هذا الشرق الساحر)، حتى أنها اندمجت فيه، و أصبح الكل كيانا واحدا عصيّا على التفكك. كان هذا الشرق جرن الله، لِ تكن المسألة هكذا! .. نعم جرن الله، حيث كان(الله) منهمكا معظم أوقاته في صناعة عجينته الكونية. كان يضع مقادير محدّدة بِ وزنات كفّه في هذا الجرن الذهبي؛ حفنة من بلاد فارس يضعها فوق كومة من الآراميين الذين نثرهم فوق البابليين والآشوريين القابعين مع الأكاديين والسومريين في قاع الجرن، ثم يأتي بِالماء الممزوج بِالأمبروز والاستبرق، ويسكب قليلا منه فوق هذا الخليط ويعجنه، وبعد الفحص، تراه يمدّ قبضته إلى جبل الأولمب ويأخذ حفنة من الإغريق،أحفاد هوميروس وسوفوكليس، وحفنة أخرى من سفوح الأهرامات، أحفاد خوفو و أوزيريس، ويضيفها إلى الخليط الهامد في الجرن، ويبدأ بِ عَجْنه ثانية. يتأمل قوام العجينة، يتذوّقها، إلاّ أن طعمها لم يعجبه. فَ يأخذ كمشة من بلاد الفينيقيين و رشّة من المسحوق الدمشقي المركّز، وبضع قطرات من السائل السماوي، ينثر هذه المكونات فوق عجينته، و يعجنها من جديد. يقلّبها يمينا، يسارا، أعلى و أسفل، يمطّها يضغطها لِ إخراج أصغر الفقاعات المجهرية منها. بعد هذا العمل المجهد، يتفحّص عجينته مليّا ثم يُغطّي الجرن بِ سترة قيافا، و يركنها في زاوية لِتدفئة العجينة تمهيدا لِتخمّرها. ذهب العجّان الماهر لِ يستريح؛ وفي الزمن الموجب – حين أراد التأكد من نجاح عمله، وإنْ كانت العجينة صالحة أم فاسدة – رفع سترة قيافا من على الجرن، يا لِهول ما رأى! كان الفساد قد عَمَّ وتغلغلَ في العجينة، وكانت الديدان محتشدة فيها و رائحة النتن المنبعثة منها قد ملأتِ المكان.أُصيب بِصدمة. راح في تفكير عميق باحثا عن سبب فساد عجينته.

فجأة! تسمَّر في مكانه و في يده سترة قيافا. تذكَّر بِ أنه لم يُضِفْ حفنة من العبرانيين إلى عجينته، و لم ينثرهم في هذا الجرن الذهبي، و أيضا لم يكن حذرا في حراسته لِ الجرن و ما بِ داخله. إذْ أن هناك عناصر من خارج هذه الفيافي و البساتين و المدائن المزدهرة، عناصر من صحارى الموت و الجدب و السراب كانت قد تسلّلت إلى الجرن في غفلة منه. إنه ينظر إلى العجينة حزينا مندهشا من حجم الفساد الذي دبّ فيها. ألقى سترة قيافا على الجراثيم و الميكروبات المتكدِّسة. سرى الدفء في المكونات المغطاة بِ السترة المقدسة، و راحت تلِد كائنات خارجة على الشرائع الإنسانية. كائنات تتساقط من ثقوب المارد الذي خَرَجَ من العجينة الفاسدة. في الزمن الما قبل، و بُعَيدَ بداية رحلة التيه العبري، كان الحطاب قد بدأ بِ تَجْميع الحطب لِ المحارق التي سَ تشتعل. في الزمن الموجب هذا، زمن الما بَعد، راح الحطّاب–الذي كان يحتطب منذ الزمن الما قبل– يشعلُ مكانا بعد آخر، لا بل، يشعل حضارة بعد أخرى. كانت البداية في إشعال الحرائق في بابل حتى أُمحي هذا الاسم من جغرافيا الزمن الموجب، و استحالت بابل إلى ركام يتصارع عليها الأغراب روحا و قوما و ثقافة. إنّ المارد الذي ولدَتْه السترة المقدسة قد حفظ درسه جيدا، و التزم بِ التمام و الكمال بِ البرنامج الذي وضِعَ منذ الزمن السالب،الزمن الما قبل. ذلك الزمن الذي نسي الله فيه أن يضيفَ حفنة من العبرانيين إلى العجينة المقدسة(عجينة الشرق المقدّس). فَكان الحريق في بلاد فارس، حيث أحرقت روحها، ثقافتها،اسمها وآلهتها، كما حصل تماما في بلاد بابل وآشور وآرام وسومر. فَ الحريق لم ينطفىء بَعْدُ في هاتين الحضارتين. تابع المارد عمله، وأشعل الحريق في بلاد الإغريق، حيث تمّ تفتيتها و إخضاعها لِ قطيعه و إلقاء آلهة الأولمب و كبيرهم(زيوس) في أقرب جرف بحريّ.

باءت جميع محاولات الله لِإصلاح تركيبة عجينته بِالفشل الذريع، وأُصيبَ بِإحباط ويأس، وفقدَ القدرة على تشكيل هذا الشرق من جديد. لذا أوْكلَ أمر تشكيله إلى

أحفاد سلالة ذاك الحطاب الذي كانه في الزمن السالب من عمر هذا الشرق. و لِ هذا فَ أيّ مقترح لِ إضافة العبرانيين إلى تلك العجينة التي كان الله قد نسي إضافتهم إليها، لن يجدي نفعا. لأن تلك العجينة التي كان الله منهمكا في صناعتها قد فسدت و تجرثمت، و ما علينا سوى الانتظار و الترقّب لِ نرى ما سَ ينتجه المعلّمِ الجديد. ترى كيف سَ يكون الشرق الجديد الذي يعجنه مَن غاب من مكونات الطبخة الأولى(سهوا أم عمدا)؟.

– تحليلٌ في العمق يا طارق! وأعتقد بِ انني فهمتُ العناصر الرئيسة التي كانت السببَ في هذه المأساة، أو قُل، في هذه الطفرة الرهيبة التي ضَرَبَتْ دماغ هذا الشرق، قال سارو، و أضاف: إنَّ انشقاق العبرانيين على أنفسهم كانَ جرس الإنذار لِهذه الكارثة. وبدأتِ الطفرة، حين خَلَقوا إلهاً هلاميّا وتعاليم زئبقية لِتكون أساساً لِلدستور الذي كتبوه ونَسَبوه لِذلك الإله الوَهْمي. بدأتْ الطفرة، حين جَعَلوا ذاك الوَهَم حقيقة، و ذلك الدستور الديماغوجي العنصري الإرهابي قانونا إلهيا. ربّما يكونوا محقّين فيما خَطَّطوا له ضدَّ الذين دَمَّروهم على مدار عشرات القرون. أنا أرى بِ أنَّهم انتصروا، ليس فقط على هذا الشرق، و إنما على العالم كله، فَ هم نواة العقل الكوني الذي يُخَطِّط ويُجَنِّد ويدير يوميات هذه الحياة. فَمَن يسيطر على السماء، يسيطر على الأرض. و ها هُمْ يَتَحَكَّمون في جميع مفاصل الحياة، لأنهم اختطفوا السماء، رَبحوا السماء. السؤال الذي يقلقني هو.. لماذا يكرههم هذا الشرق، بل، لماذا كرههم أسلافنا و أَلَّفوا قصصَ و روايات بغيضة حولهم؟ لماذا صَنَّفهم أسلافنا في خانة الخونة والأعداء، و وَصَفهم بِ الخنازير و القِرَدة؟ لقد فعلَ أسلافنا ذلك دون دليل و برهان على ادّعاءاتهم بِ حَقِّهم، و دون شهود ثقاة على ما ادَّعوا.

أنا أميل، إلى حَدٍّ كبير، لِ وجهة نظركَ هذه، يا سارو، قال طارق، وأَضافَ قائلا: الشعب، أو العنصر، الذي يستطيع امتصاص وهَضْمِ ثقافات وعقائد الآخرين، و

إعادة إنتاجها مُجَدَّدا، مضيفا إليها خيالاته، تراثه، حِكَمَه، أساطيره و أدَبَه، ويستطيع ترويجها وتسويقها وجَعْلها الثقافة السائدة في الكرة الأرضية، إنَّما هو شعب جدير بِ التقدير والاحترام، بِصَرْفِ النظر عن موقفنا الشخصي منه.

-20-

أَتَذكَّر النقاشات الحامية التي كانت تدور بيننا، في السنوات الأولى من دراستي في موسكو، نحن الطلبة العرب، أو بِ الأحرى الناطقين بِ العربية، حول اليهود، و طبعا نحن من أصحاب المواقف المسبَقة تجاههم. لم نكن نرى سوى الصورة النمطية التي رَسَمَها أسلافنا عنهم، و من بعدهم الأصوليون و اليسار العربي الطفولي. كنّا مُعَبّأين بِالحقد والكراهية ضدّهم. لم نقرأ عنهم سوى نصوص وعد بلفور و، فقط، المقطع الذي يتناول الشخص اليهودي شايلوك في تاجر البندقية من مسرحية شكسبير، و بروتوكولات حكماء صهيون، أو قواعد حكماء صهيون، تلك المليئة بِالقبح والعنصرية وخطط شيطانية. على فكرة يا سارو، و بِخصوص تلك البروتوكولات، فَ بِالصدفة، عثرتُ على معلومات، أو بِالأحرى وثيقة، مزيَّفة تتحدَّث عن مخطَّط، أو خطة جهنمية لِغَزو العالم من قِبَل اليهود، و هي تتضمَّن 24 بروتوكولا. أمّا المعلومة حول هذه البروتوكولات فَ تقول: بِ أنَّ ماتيو جولوفيسكي، مزوِّر و مخبر من الشرطة السياسية القيصرية، هو الذي كتَبَ هذه الوثيقة في عام 1901 ، وهي مستوحاة من كتاب "حوار في الجحيم" بين ميكافيل ومونتسكيو لِ المؤلف موريس جولي، و الذي يشير في كتابه إلى وجود خطة زائفة ومسبقة لِغَزو العالم من قِبَل نابليون الثالث. يحتوي هذا الكتاب على عدة تقارير تكشف خطة سرية لِ السيطرة على العالم. تعتمد الخطة على العنف والمؤامرات والحروب والثورات، وترتكز على التحديث الصناعي والرأسمالية لِتثبيت السلطة اليهودية. وحين واجهت ألمانية، في العشرينات من القرن المنصرم، أزمة اقتصادية، راح هتلر يربط بينها وبين مخطط اليهود للسيطرة على العالم. كان هذا الهاجس مستحوذا على تفكيره آنذاك. وكان ذلك واضحا في كتابه" كفاحي" الذي فَسَّرَ فيه نظرية المؤامرة اليهودية من وجهة نظره. فَ نتجَ عن ذلك المذابح التي

تعرَّضَ لها اليهود في ألمانية الهتلرية، و المعروفة بِ اسم" ليلة الكريستال".
إنَّ اسطورةِ الهيمنة على العالم هي فكرة فرنسية ظهرت خلال القرن التاسع عشر. أمّا بروتوكولات حكماء صهيون، وتسمَّى أحيانا بِ البرنامج اليهودي لِغَزو العالم، ظَهَرَت في زمنين ونسختين متقاربتين:أولا في عام 1901. نُشِرَت لِ أوّل مرة في روسيا القيصرية بناءا على طلب القيصر نيكولا الثاني و الشرطة السرية لِ الامبراطورية الروسية، و نُشِرَت عام 1905 في نسخة كاملة بِ واسطة سيرج نيلوس. و في الخمس سنوات التالية، دارت البروتوكولات في دائرة مغلقة بين الشرطة السرية و المعادين لِ السامية في روسيا، ثم قاموا بِ ترجمتها إلى اللغة الألمانية منذ عام 1909.
هذه أقْرَب كذبة(تاريخيا، زمنيا) تمَّ تلفيقها بهم. راح طارق ينبش في المحظورات، و يُزيل الخطوط الحمراء و يهدم التابوهات بِ كلِّ أصنافها و أنواعها، السياسية، الاجتماعية، القبلية والدينية. في اليوم التالي كانا يقفان أمام صرحٍ من صروح الإبداع. أمام المدينة الوردية، مدينة بترا، المحفورة في الصخور. هذا الصرح يُعتَبر واحدا من عجائب الدنيا، كما حدائق بابل المعلقة. كان طارق يشرح له عن تاريخ بترا، و الحضارة التي تنتمي إليها و الشعب الذي أبدعَ هذا الصرح العظيم، و كّشَفَ، مرة أخرى، عن تزييف وتزوير التاريخ و الحقائق المحفورة في الحجارة و الصخور. فَعندما تقرأ عن هذه الأوابد، قال بِ شيء من الحزن والانفعال، من مصادر الإسلام و العربان، تقع على الزيف و الكذب الفاضح. إذْ أنَّهم ينسبون، و بِ كلِّ بساطة، هذه المعجزات و هذه العجائب الهندسية، المعمارية و العلمية، ينسبونها إلى العرب والمسلمين، بِالرغم من غياب العرب و المسلمين عن مسرح التاريخ والأحداث في تلك الحقب التاريخية. بينما هما أمام واجهة البتراء الوردية، وطارق منهمكٌ في شرح المسائل الخلافية الشائكة والخطيرة. كان السكون الكلّي يطبق على سارو وهو يستمع إلى حديث طارق عن النجمة الخماسية.

تَذكَّرَ هؤلاء العشاق الذين تحوَّلوا إلى أيقونات(نجوم) تزيّن السماء. و قد لَفَتَ حديث طارق عن النجمة الخماسية انتباهه، وشَرَع في التركيز لِ ما يقول، و أهم ما سمعه هو: أنَّ النجمة الخماسية تشير إلى ألوهية الأنثى، و قد عُرِفَت سابقا بِ النجمة السحرية. لقد اعتُبِرَ هذا الرمز مقدسا وسحريا في آنٍ معا في حضارات متعددة. السبب في ذلك، كما قال طارق، هو أنَّ الخطوط المتقاطعة في النجمة الخماسية تقسم نفسها تلقائيا إلى أجزاء حسب النسبة المقدَّسة، و هذه النسبة المقدَّسة يعود اكتشافها إلى المهندس المعماري الروماني ماركوس فيتروفيوس. حينها لم يفهم أحد البنية المقدَّسة لِجسم الإنسان مثلما فهمها ليوناردو دافنشي. فَ قد قام دافنشي بِنَبْشِ الجثث و قياس النسب الدقيقة لِ بنية الإنسان. و كان أوَّل مَن برهن أنَّ جسم الإنسان يتكوَّن من كتل بناء، نسبها إلى بعضها تساوي دائما الرقم ذاته. و يكون بذلك قد عَزَّزَ اكتشاف فيتروفيوس، و أبدع أشهر لوحة له "الرجل الفيتروفي" بِاعتبارها أكثر لوحة دقة من الناحية التشريحية في زمانها. أصبحت هذه اللوحة أيقونة للحضارة. فَنراها في كل أنحاء العالم على الملصقات، الكنزات و القمصان...

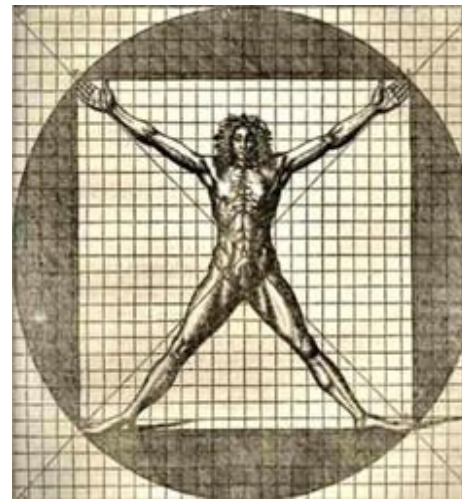

و يتكوَّن هذا الرسم المشهور من دائرة مثالية رسم داخلها رجل عارٍ، ذراعيه و رجليه ممدودتين في وضعية نسر باسطا جناحيه. و النقاط الخمس لِ أطرافه و رأسه هي رؤس النجمة الخماسية التي تشكِّله تلك الوضعية. الدائرة هي العنصر الأساسي الذي يمثِّل الحماية. فَ هي رمز أنثوي. فَ الدائرة المرسومة حول جسد الرجل العاري هي رسالة من دافنشي تشير إلى التناغم بين الرجل والمرأة. فَنسَب أجزاء الخط في النجمة الخماسية كلها تساوي الرقم الإلهي، و لهذا السبب كانت النجمة الخماسية دائما رمزا للجمال والكمال المصاحب لِ الإلهة الأنثى المقدَّسة. هذه المسائل لم تكن غريبة على سارو، فَهو أيضا له اهتمامات وأبحاث في هذه العلوم الفلكية الماورائية. لكنَّه أُعْجِبَ بِهذه الجزئية حول النجمة الخماسية و علاقتها بِ الإلهة الأنثى و لوحة دافنشي"الرجل الفيتروفي". و تَوَقَّعَ أنْ تكون لدى طارق معلومات شبيهة حول النجوم الأُخرى، كَ تلك التي تعبدها، أو لِ نَقُلْ، التي تأخذها شعوب متعددة رموزا لها على أعلامها و دور حكوماتها. كَ شعوب المايا و الملاوي و الأمازيغ و الأمريكان و إسرائيل.

شَكَرَ سارو طارق على هذه المعلومات التفصيلية حول النجمة الخماسية. تبادل معه المعلومات حول بقية النجوم، و لَمَّحَ إلى لَفْتة ذكية حول الشعوب التي لا تقدِّس النجوم، أو لا تُبْرزها علنية على راياتها و أعلامها الوطنية و القومية، و قال: إنَّني أعتقد يا طارق بِ أنَّ العالم كله يُقَدِّس النجمة الخماسية، أو النجوم بِ شكلٍ عام. فَ الشعوب التي لم تَضَعها على أعلامها وقصورها كَعلامة وطنية و قومية، فَ هي تَضَعُ النسر عليها، و النسر، كما شَرَحتَ آنفا، هو رمز واضح لِ النجمة الخماسية. وهنا أريد منكَ مقاربة حول النجمة السداسية، كَ التي أتَيتَ بها حول النجمة الخماسية، وربَّما نصل إلى السبب الذي أدّى إلى تَحْقيرها، على الأقل في هذا الشرق و في العالم الإسلامي.

أنتَ مُحقّ في ملاحظتكَ الجوهرية يا سارو! وأكثر من ذلك، فَمعظم الشعوب ترفع

الرمزين معا(النجمة الخماسية و النسر) على راياتها. أمّا النجمة السداسية، نجمة داود، أو نجمة إسرائيل، فَ إنّني أتذكَّر جيدا الجلسة التي جمعتني مع عالم في اللسانيات والرموز، البروفسور غسان الجبيلي. كنتُ حينذاك قد أنهيتُ السنة الأولى من البحث استعدادا لِ اطروحة الدكتوراة في علوم التاريخ و الآثار. في تلك الجلسة تحدثنا عن الميثولوجيا و عن آلهة الشعوب القديمة و مقدساتهم و الرموز المتصلة بها، و كان من ضمنها النجوم. حَدَّثني عن النجوم السباعية، التساعية و تلك الشبيهة بِ إهليليج الشمس، و بِالطبع النجمة الخماسية، وأخيرا النجمة السداسية. أذكرُ، حينها، أنَّه أخذَ قلما ورسمَ مثلثا على ورقة بيضاء، و رَسَمَ ثلاثة مستقيمات نازلة من رؤس المثلث على الأضلاع المقابلة لها. تقاطعت هذه المستقيمات في نقطة داخل المثلث. و من ثم شرعَ في شَرْحِ خواص هذا المثلث و المستقيمات النازلة من رؤسه(طبعا هذه المعلومات كنا نحصل عليها في المرحلة الاعدادية و الثانوية)، قائلا: انظر يا طارق إلى هذا المثلث! فَ هو متساوي الأضلاع. أضلاعه الثلاثة متساوية و زواياه الثلاث أيضا متساوية. المستقيمات التي تراها داخل هذا المثلث هي منصفات الزوايا، و هي في الوقت نفسه ارتفاعات ومتوسطات الأضلاع المتعلقة بها. نقطة تقاطع هذه المستقيمات هي مركز الدائرة التي تحتضن المثلث من رؤسه الثلاث. و هي نقطة الارتكاز، نقطة القوة، مركز العدالة و المساواة، العين الساهرة أبدا على ثبات المساواة و استمرار الانتظام في كينونة هذا المثلث الإلهي. هذا المثلث المنتظم يبعث على الطمأنينة والسكينة، فَ كلّ ما يخطر لك على بال في هذا الشكل هو في أمان و استقرار وانتظام. فَ لا حاجة بكَ لِ القلق و البحث و التفكير في أيّ شيء يخصُّ هذا المثلث الكوني. فَهو الإله بِ ذاته. حتى أنَّ بعض الشعوب قد صنعوا مثلثات وثَبَّتوا في مراكزها عيونا، وراحوا يستعملونها كَ تمائم لِإبعاد الشرور و الشياطين عنهم و عن ممتلكاتهم. إنَّ هذا المثلث الكوني هو مثلث إلهي منتظم. فيه الزوايا

الثلاث متساوية والأضلاع الثلاثة أيضا متساوية، وعناصره البقية(الارتفاعات، المنصفات، المتوسطات) منطبقة بعضها على بعضها الآخر و متساوية فيما بينها. إنَّ جميع عناصر هذا المثلث متوازنة متساوية مستقرة، و كلّ ثلاثة عناصر منه تتوحَّد في عنصر واحدٍ مساوٍ لِ الثلاثة. الأضلاع الثلاثة تتوحَّد في ضلع واحدة. الزوايا الثلاث تندمج في زاوية واحدة مساوية لِ البقية، و كذلك المنصفات و المتوسطات و الارتفاعات.إنَّها ثلاثيات في واحدٍ يمثلها في كلّ شيء، وفي كلِّ زمان و مكان. منه يبدأ اللامتناه و منه انبثقَ الأبيض و الأسود، الخير والشر، الين واليانغ، الأنثى والذكر... هذا الواحد يبقى متشبّثا بِ محيط حاضنته منتجا مع دائرته المقدَّسة واحداتٍ غيرَ منتهية، بِ حيث تُشَكِّل أرقاما تحوي حقولها أعدادا شيطانية وأُخرى إلهية. أعدادا مقدَّسة و أُخرى مدنَّسة. يبقى الواحد المطلق أساس الطغيان و الفساد في الأرض.

أنظر إلى هذا المثلث(رسمَ مثلثا رأسه في الأعلى وقاعدته في الأسفل)إنَّه الأنثى.

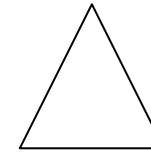

لاحظْ أكتافها الضيقة و وركها العريض.

أمّا هذا المثلث(رسمَ مثلثا قاعدته في الأعلى ورأسه في الأسفل) فَ هو الذكر

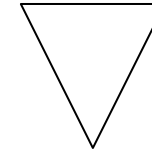

أكتافٌ عريضة و ورك ضيّق. بِالطبع أنَّكَ لم تنسَ بِأنَّهما مثلثان متوازنان إلهيان. والآن لِ نُدْخلهما في بعضهما البعض، أيْ نزوِّجهما مع بعضهما. لِيَخْتَرِق الذكر

الأنثى، أو تخترق الأنثى الذكر؛ فَ إنَّكَ سَ تحصل على مثلثين إلهيين متوازنين متشابكين ومتداخلين بعضهما في بعضهما الآخر، فَ أيّة قوة في الكون تستطيع أن تخلَ بِ توازن المتوازن؟ هل تعتقد بِأنَّ هناك قوة أرضية بِإمكانها فصل تلاحم التوازن الإلهي بين العناصر المتوازنة؟ هذا التزاوج يتحوَّل إلى نجمة متميّزة عن نجوم السماء التي نراها. فَالنجوم التي ترسمها الشعوب هي، في الغالب، خماسية الرؤس، أمّا هذه التي تَشَكَّلَتْ من عملية الزواج بين الأنثى والذكر،الاتحاد الكامل بين الأنثى والذكر، فَهي سداسية الرؤس.لا أدري إنْ كانت الصدفة هي التي دفعتها لِأنْ تكونَ نجمة بني إسرائيل، ولا أدري السبب الذي يجعل هذه الأوطان والدول والممالك العربية والإسلامية يَشْتمون ويَلْعَنون هذه النجمة. ربَّما لِوجودها في قلب العَلَم الإسرائيلي، أو ربَّما يربطونها بِالماسونية العالمية، ويمكن أنْ يكون السبب أَبْعَدَ من ذلك. أنْ يكون له علاقة بِ بِني قينقاع و قُرَيظة و غار حَرّاء؟!

هذه النجمة هي نجمة داؤد، و كانت تُعرَف أيضا بِ اسم "شعار سليمان"، ختمُ سليمان الذي مَهَرَ به قدس الأقداس حيث كان يُعْتَقَد بِ أنَّ الإله يهوا و الإلهة سكينة كانا يسكنانه. كانت في يوم من الأيام رمزا لِ كهنة النجوم، ثم اتخذها، فيما بعد، كلّ من داؤد وسليمان شعارا للمملكة اليهودية. وفي كلِّ الأحوال، يمكن اعتبار النجمة السداسية نجمة تَجَدّد الحياة، نجمة الحب، الخصب، التوازن.

كان طارق يستمع إليه بِ انتباه و خاصة حول نجمة داود، أو ختم سليمان، و كانت لديه معلومات، أو تفسيرات حولها من وجهة نظر مدارس مختلفة، أو حتى يمكن القول من وجهة نظر أديان مختلفة. أراد أنْ يتأكد من معلوماته من مصدر كَ العالم غسان، لكنه كان يخجل أنْ يطرح عليه السؤال بِ شَكلٍ مباشر. كان يخشى من أن يبدو، وكأنَّه يمتحن معلومات البروفسور غسان. لِذلك اتبع أسلوب التساؤل والحوار وتَوجَّه إليه قائلا: أعتقد يا استاذ غسان بِأنَّ هذا الشرح وهذا التفكيك الرمزي هو تفسيرك واجتهادك الشخصي في مسألة المثلثات التي أتَيْتَ على ذكرها. بِ الضبط يا طارق! أجاب الاستاذ غسان، هو الآخر يعرف بِأنَّ طارق لديه شيء يريد التحقّقَ منه. هناك تفسير مسيحي، أيْ من وجهة نظر اللاهوت المسيحي، وأيضا هناك تفسير محمدي لِ هذه المثلثات. التفسير اللاهوتي (المسيحي) يقول التالي: هناك مثلث رأسه في الأعلى وقاعدته في الأسفل و هو يمثِّل السيف، و ربَّما يقصدون بِ السيف، سيف فارس الهيكل، و هذا المثلث يرمز، بِ التالي، إلى الذكر.

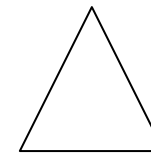

ومثلث آخر قاعدته في الأعلى ورأسه في الأسفل و هو يمثِّل الكأس، الرحم، و بالتالي يرمز إلى الأنثى. إلى الكأس.

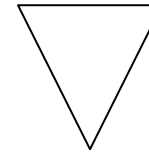

الكأس... الأنثى

وبِالتزاوج بين المثلثين، بين الذكر والأنثى، نحصل على النجمة السداسية.

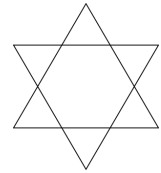

النجمة التي تحمي قدس الأقداس.

كيف تنشأ النجمة السداسية من المنظور المحمدي؟

يبدأ المشتغلون في هذا الحقل من الآية: "ن و القلم و ما يسطرون"

وينطلق صاحب هذا الرأي من هذه الآية بِ قوله: بِ أنَّنا أمام فلسفة حياة كاملة، نشأة وصيرورة، وأنَّ "ن" ليست نقطة بداية فقط، بل هي بداية تناسلت و تحددت في صيرورة، و بِبساطة هي وعاء شامل. لو حاولنا أنْ نتصور هذا الوعاء بِشكل هندسي، كيف ترى سَ يبدو ذلك؟

لقد بدأ النون بِ نقطة ثم نما بِ شكل مستمر على شكل خطين منفرجين عبْرَ مثلث يزداد نموه بِ استمرار. نقول ينمو بِ استمرار مع علمنا أنَّ "القلم" حدَّدَ مسبقا ما سَيكون عليه حجم ومسار هذا المثلث. إذن نحن أمام مثلث نون مقدَّر، و مثلث نون قيد النمو داخل المثلث المقدر لِ ينطبق عليه بدءاً و نهاية. و في عملية تحقق هذا القدر هناك هامش لِ البشر هو ما يسطره البشر بِ أنفسهم.

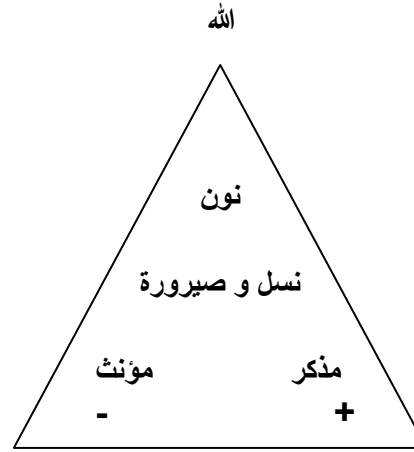

على الصعيد العملي بِ طبيعة الحال لنا أنْ نتصور المثلث هنا هرما. بدأ بِ حجر البنبن تماما مثلما كان التصور في مصر لِ ينمو و يصير هرما، و هو في نفس الوقت مستقر و مستودع، أي مستقر لِ الأحياء و مستودع لِ الأموات. إنَّ القلم بِالنسبة للهرم يعبِّر عن إرادة الخالق.. هو رسمَ التصوّر، صنعَ الحياة... هو الذي حدَّدَ الذكر والأنثى، وهو الذي أنظرَ إبليس في أن يمكثَ في جسم آدم، و من ثمَّ أن يتواجد في كلِّ نسله. إنَّ انقسام النوع من حيث الجنس إلى ذكر و أنثى يعني أنَّ الحياة هي نتاج قران بين عنصرين موجب و سالب. إيجابي و سلبي(+ و –). عندئذ، فَإنّ مثلث النون يجب أنْ يُعَبَّر عنه من ناحية الجنس بِ وَضْعِ إشارتي(+) يمثِّل الذكر و(–) يمثِّل الأنثى، على أساس تصوّر وجود خط عمودي يقسمه إلى نصفين، و هذا هو محور عملية التكاثر الحيوي. يتابع المفكِّر المحمدي تحليله قائلا: وهكذا سَنجد الأفكار الإنسانية و قد عاشت الصراع بين الاتجاهات الرحمانية والاتجاهات الشيطانية، وقاد هذا الصراع إلى تطور قدرة العقل على التفكير وعطاءاته أيضا بِ شكلٍ مطّرد. وهذه عملية بنيوية فكرية، هي قاعدة أو أساس أو محور عملية التطور الحضاري، و هذا هو" و ما يسطرون".

صار لزاما علينا، إذن، أنْ نرسمَ مثلثا جديدا ينقسم إلى سلبي و إيجابي على أساس فكري بحت.

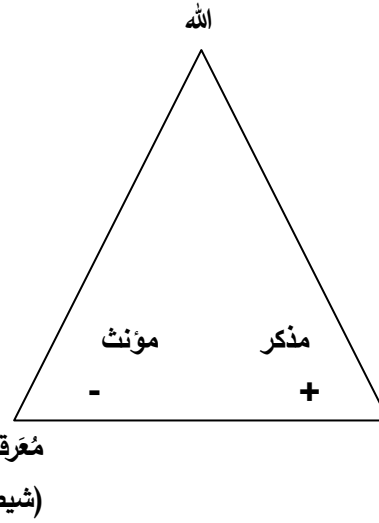

كما بات بِ وسْعنا أنْ نتخَيَّلَ مثلثا ثالثا ينقسم فيه السكان إلى أحياء و أموات، يضمّهم وعاء واحد (مستقر و مستودع)

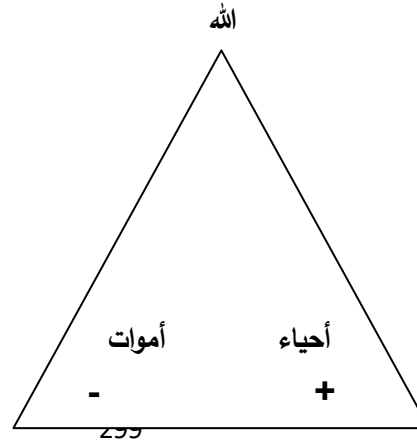

ولكي يصل المنظور المحمدي إلى نجمة داود، كان لا بدَّ من الخوض في المثلثات الجزئية التي مهما تبلورت وتباعدت أشكالها ومضامينها. فَهي تخضع حتما للمثلث الأعظم، مثلث النون. الفلسفة المحمدية في هذا الموضوع تفترض، بل، تؤكِّد على أنَّ أصل بواسير الضلال هو من بني اسرائيل. وذلك بِالاعتماد على نص ميثولوجي مصري، يعود إلى زمن الفراعنة، على لسان"شو" حيث يقول:"أنا الحياة، ربّ السنين، سرمديّ الوجود ربّ الخلود
الابن الأكبر الذي صاغه أتوم بِ جلاله حينما أنجبَ شو و تفنوت في هليوبوليس، وقتَ أنْ كان واحدا ثم بات ثلاثا".

هنا إذن، يقول المفكر المحمدي، نحن أمام عقيدة شرك واضحة قامت على التثليث بِحيث جعلت من شو و تفنوت محور الألوهية و الكون. و مباشرة يذهب هذا المفكر إلى النتيجة، و التي مفادها: أنَّ شو، أي، سو، أي قابيل الذي جرى تأليهه من قِبَل بني إسرائيل، هو مثلث الضلال الأول الذي عرفه الكون تاريخيا. و يطرحون السؤال التالي على أنفسهم: ما الذي تُمَثِّله نجمة إسرائيل السداسية؟! جيد! قال طارق، هذا هو السؤال الجوهري، بِ الرغم من المقدمة المشوّشة و المتشابكة بين الفلسفة والدين و العقيدة و السياسة... بِالرغم من ذلك يا استاذ، هل عثرتَ على الإجابة من منظورهم؟
مَطَّ شفَتَه السفلى و رفعَ حاجبيه في حركة استغراب و تَشَوّشْ، و قال بعد لحظات من التفكير: في الدراسات و المخطوطات المحمدية التي قرأتها، و منها هذه التي بين يديَّ. المشكلة هي أنَّهم ينطلقون من كتابهم(قرآنهم) ويبدأون بِسَرْدِ القصص و الأساطير و الخرافات من كلِّ حَدْبٍ وصَوْب، من أديان الشعوب القديمة... و يلوَوْنَ (اعناق) النصوص كلّها كي تنسجم مع ما يدَّعون. و هنا، و بعد المدخل إلى الموضوع عن طريق المثلث الأعظم، مثلث أل "ن" و بِجملة من كتابهم: "ن و القلم و ما يسطرون"، راح المفكر يرسم مثلثات، الحق، الضمير، الحب،

السلطة، الاستبداد، التسيب...، و من ثم يقفز إلى الجواب على السؤال الذي طُرِحَ: ما الذي تمثله نجمة إسرائيل السداسية؟!

الجواب، يا طارق، أدْهَشَني. فَ أنا كنتُ أُحَضِّرُ نفسي لِلعثور على إجابة ميثولوجية، لاهوتية، فلسفية... لكن ما قرأته كان التالي: من المتَّفق عليه، أنَّه لولا انقسام العرب والمسلمين وضعفهم، و لولا الشرخ في العلاقات بين العرب والمسلمين من جهة و بين الغرب المسيحي من جهة ثانية، لَ ما كان قيام دولة إسرائيل في القرن العشرين أمراً ممكنا بِ أيّ حالٍ من الأحوال... و لَ ما كان نجم داود الروي الخزري الذي زَعَموا أنَّه نجمة داود قد تحوَّل إلى عَلَم لِكيان دخيل قام على أرض بيت المقدس. و يتابع المفكّر المحمدي استنتاجاته قائلا:

و لكن، ما حكاية هذا النجم؟ يجيب على السؤال: بعد أنْ عرفنا ما تعنيه المثلثات والبواسير، بات بِوسعنا أنْ نفكّر أولا في معنى مقابلة المثلث بِ باسور، أي مثلث مقلوب! إنَّ هذه المقابلة تعني أنَّ القيمة هي(صفر). عندئذ، يتوجَّب علينا التساؤل: مَنْ يمثِّل المثلثان طالما أنَّ حصيلة وضعهما على شكل نجمة سداسية هي صفر. لا بدَّ أنهما يمثلان الأطراف التي يهم الإسرائيليين تدميرها. عندئذ لِ نفكّر في الواقع الذي أدّى إلى تمكين دولة إسرائيل من القيام. إنَّه الواقع الذي ساد فيه على الصعيد العربي الإسلامي، الانقسام بين مجتمعات قائمة على التسيّب و أخرى قائمة على الاستبداد. و هو الوضع الذي طغى فيه الغرب الاستعماري على العالم العربي الإسلامي و مارسَ عليه الاستبداد و الاستغلال. حصيلة اجتماع مثلثي الاستبداد و التسيب شكَّلَت إذن نجمة داود، نجمة إسرائيل السداسية. إذْ بِ دونهما لَ ما كانت إسرائيل تتمكَّن من إيجاد موطئ قدم لها في فلسطين، و لَ ظلَّت مجرَّد فكرة عند أصحابها أو ذبلت حتى كَ فكرة. عندئذ نستطيع رَسْمَ نجمة إسرائيل السداسية وفْقَ التحديد التالي:

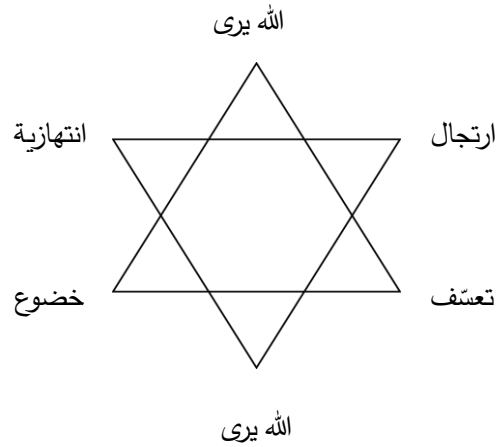

إنهما مثلثان، بل باسوران... باسور التسيب و باسور الاستبداد. هما سرُّ وجود إسرائيل و استمرارها حتى الآن. عندئذ نفهم على نحوٍ دقيق معنى قوله تعالى: "لا يغيّر الله ما بِ قوم حتى يغيروا ما بِ أنفسهم".

إنَّ تغيير ما بِ الأنفس يقتضي معالجة الأوضاع الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية...إلخ بِ ما يكفل التحرر من مثلثي الاستبداد و التسيب. و هذا التغيير يتم وفْقَ برنامج نظام المبنرى لِ الأمناء في أمتنا، و على رأس هذا البرنامج:

*** خَوْض الجهاد ضدّ إسرائيل و الاستعمار.**

*** البعث الحقيقي لِ المجتمع العربي الإسلامي.**

*** معارضة إيداع الأموال في البلدان الأجنبية.**

*** الكَفّ عن إثارة المشاكل السياسية مع السلطات العربية و الإسلامية.**

*** رَصْد الحركات الماسونية و تصفيتها بِ عنفٍ و ضراوة.**

طبعا هناك بنود أخرى في برنامج نظام المبنرى(الذي بُنيَ لِ يُرى) لِ أمناء الأمة الإسلامية.

– تفسير غريب و عجيب(قال طارق)! على كلٍّ هذا النهج ليس غريبا على العقيدة المحمدية، فَ هلْ سَ يكون هذا التفسير أفضلَ من تفسيرهم لِ النجوم؟ فَ مرَّة هي قناديل معلَّقة في السماء و مرَّة هي زينة، و هي أيضا تُسْتَخْدَم كَ رجومٍ لِ تضرب الأعداء. و الشمس في كتابهم تغيب في حمأة من طين... أنا أرى يا استاذ بِ أنَّ مقاربتهم لِ نجمة داود هي سياسية، كيدية و لا علاقة لها بِ الفكر والعلم والرموز والميثولوجيا.
كان سارو يشكر القدر على إتاحة الفرصة له لِ التعرُّفِ على صديقه طارق، بِ الصدفة البحتة، في ذلك اليوم الذي كانا فيه على ظهر الباخرة بِاتجاه بلد الرفاق، أو بِالأحرى إلى جامعات بلد الرفاق. اكتشف سارو بِأنَّه يعاشر مجموعة من علّيّة القوم. شباب مقتدر بِالعلوم والذكاء والحيادية في البحث. سمعَ النقاش الرصين الذي دار بينهما، كما نَقَلَ إليه صديقه طارق. كان سعيدا لهما، و لِ المواضيع التي كانا يبحثان في تاريخيتها و قدسيتها الدينية و القبلية.

– إنَّ الذي سمعته منكَ الآن يا طارق، يدفعني إلى التشبُّثَ بِرؤيتي لِهذا الشرق وعلاقته، أو بِالأحرى، تأثيره في العالم كلّه. طبعا هذا الشرق بِتاريخه الحضاري، الإنساني، الدموي، الدنيوي و الديني. هذا الشرق بِ انسيابه منذ الامبراطوريات و الأديان ذات الآلهة المتعدّدة و إلى هذا اليوم، و دون انقطاع في صيرورته.

– و ما هي رؤيتكَ لِ تأثير هذا الشرق في العالم، و هل يمتلك عناصر قوة إلى الدرجة التي تُمَكِّنه من التأثير في العالم؟ ثمَّ يا سارو، قال طارق، لو سلَّمنا جدلا، بِ أنَّ هذا الشرق سوف يؤثِّر في العالم، و السؤال، هنا، هو التالي؛ ما طبيعة هذا التأثير، أو إلى أيّة نتيجة سَ يفضي هذا التأثير في العالم؟

– أعتقد بِأننا سَ نساهم، أو بِ الأصحّ، سَنبدأ بِ إشعال الحريق الكوني، و سَ نكون نحن الحطبَ لِ نيرانه، أو الجزء الأكبر منه. التأثير الذي ذكرته، لا يعتمد على القوة و إنّما على الجهل، الغباء، النرجسية. أَ لا ترى ما فعلناه في حضارات وثقافات الشعوب التي استعمرناها منذ القرن السابع الميلادي؟ إنّنا دمَّرْنا آلهتهم، تراثهم، ثقافتهم، لغاتهم، تاريخهم، حاضرهم ومستقبلهم. هل تعرف إلى أيَّة حضارة، أو ثقافة، أو منظومة قيمية و لاهوتية ينتمي الشعب الأردني؛ و كذلك شعوب بلاد الشام و الرافدين و شعوب، ما يُسَمّى بِ، المغرب العربي؟!

– إنّي أوافقك، إلى حَدٍّ كبير يا سارو، في هذا الموضوع الحسّاس و الخطير في الوقت نفسه. أمّا الآن، دعنا نذهب لِ نشرب قليلا من سائل البهجة، أو الماء الحار، كما يقول السعوديون عن العَرَق.

-21-

خَرَجَ سارو إلى بلكون غرفته في الفندق. كانت الساعة تُشير إلى العشر دقائق بعد منتصف الليل. كانا قد شربا(هو و طارق) من سائل البهجة الأردني(عرق الزعميط)، ما يكفي لِ تنظيف الدماغ من العفن الأخضر المتراكم عليه. كانت السماء صافية، والنجوم كانت تُشعشع وتتراقص، كما النحلات فوق أزهار الربيع. راح يتأمَّل اللوحة البديعة. تَصَوَّرَ نفسه جزءا منها، أو بِ الأحرى، تمنّى أنْ يكونَ جزءا من هذا التشكيل الخارق. كان يراقب نجمة، تهيّأْ له بِ أنَّها، تتحرَّك و أنَّها تسير نحو الغرب من برج الجدي. حَدَّدَ مكان قدومها من الشرق. من فوق الحدائق المعلَّقة في بابل، والأعمدة الرخامية العملاقة لِلشارع الرئيس في مملكة زنوبيا. تَوَقَّعَ مرورها فوق أورشليم والسيناء وأهرامات الجيزة. كان يلاحقها إلى حيث النيل و المسلات الضخمة. كادت تضيع، أكثرَ من مرّة، عن ناظريه في زحمة النجوم المتراقصة. في الأثناء، كان قد انتقلَ إلى عوالم النجوم و الأفلاك و الفنون الكونية. كانت عينه الثالثة قد اخترقت حدود الرؤية البشرية. رأى نفسه هناك تحت النجمة السابحة في السماء، حيث طيفها يغمر منطقة الأهرامات. إنَّه الآن تحت شعاع النجمة عند أقدام أبي الهول، يبحثُ عن البرديات التي قد تكون مخبَّأة تحت أقدامه. تسلَّقَ إلى الأعلى. امتطى ظهرِه و هو في قمّة نَشْوَته. كان يُمَسِّد على عنقه و كَ أنَّه يداعب لبدة الغضنفر ذاته. فَتَّشَ عن مدوَّنات كهنة ممفيس، عن وثائق زواج إيزيس و أوزيريس.عن الدستور الذي به حَكَمَ، هوريس، مُجَمَّعَ الآلهة المصرية. بَحَثَ في أذنيه، تحت لسانه، بين أسنانه. عثرَ على شبه خَتْمٍ محفور تحت ذقنه. مال بِرأسه إلى أسفل الذقن في الطرف القريب من الجهة اليمنى من أذنه، و راح يمعنُ في النقش المحفور داخل الختم الدائري، لم يتجاوز قطره الأربعة إنشات. إنه خَتْمُ الفنان،توقيعه على عمله الفني الخارق.

تَفَحَّصَ محتوى الختم، متجاوزا بعضا من النخر في جزئين متقابلين منه. كانت الرسمة المحفورة في الخَتْمِ عبارة عن وردة خماسية البتلات بنفسجية اللون غامقه. إنَّ اللون البنفسجي الغامق هو اللون الرئيس لِ توقيع الفنان، و فيه أيضا لون أسود و بنفسجي فاتح و في مركز الزهرة لون أصفر. و بِ مجرّد النفخ على الختم لِ إزالة الغبار من عليه، صارت الألوان تظهر واضحة. كان الختم مرتكزا في أسفله على مثلث حاد الزوايا. تأمَّلَ الزهرة مليّا، و راح بعيدا في الطقوس الدينية والرموز التي تخبئها في التراتيل و الحركات و الأصوات، و أيضا في شكل لباس الكهنة و ألوان الأثواب التي يرتدونها أثناء أداء طقوس العبادة في هياكلهم المقدَّسة. حاول تفسير مكوّنات الزهرة والعلاقة التي تربطها بِالمثلث الحامل لها. فجأة! التفتَ إلى الهرم الأكبر الشامخ خلف أبي الهول مباشرة، و أعاد النظر إلى المثلث، وفي هذه المرَّة انتبه إلى أرقام متوضّعة في زوايا المثلث. في كلّ زاوية العدد (11) . صار ينقل بصره بين الهرم والمثلث إلى أنْ استقرَّ رأيه على المطابقة بينهما، محاكاة المثلث لِ الهرم الأكبر. أمّا الأعداد المتساوية في الزوايا فَ هي دليل على أنَّ المثلث هو متساوي الأضلاع، بِ صَرْفِ النظر عن قياس الزوايا في المثلث المتساوي الأضلاع والتي كلّ واحدة منها تساوي(60) درجة. حاول أنْ يستنتجَ معلومة تفيد الربط بين المثلث والهرم. فَكَوْن هذا المثلث متساوي الأضلاع لم يساعد على معرفة معاني رموز الزهرة ألوانها. أمّا الرقم11 فَ بِالتأكيد ليس قيمة الزاوية على الإطلاق، و ذلك لأنَّ مجموع زوايا أيّ مثلث هو/ 180 / درجة أمّا مجموع هذه الأعداد فَ هو/ 33 /.

اعتبرَ المثلث وجه الهرم الأكبر.واستحضر علم الأعداد والرموز التي تشير إليها، أو المعاني الكامنة في كلِّ عددٍ. كان يعتقد بِوجود أعداد سماوية مقدَّسة و أُخرى أرضية، شيطانية مدنَّسة. عاود التفكير بِ الأعداد النبيلة، المقدَّسة كَ: الواحد، السبعة، الواحد و العشرين، و ثلاثة و ثلاثين...إلخ. أمّا الآن فَ رَكَّزَ اهتمامه

في العدد/ 33 /. كان يعتبر هذا العدد مقدَّسا، فَ هو عدد السنين التي عاشها الإله المتجسِّد في شخص المسيح على الأرض، وهو الدرجة الأخيرة والأعلى في ارتقاء الماسوني سلَّمَ العضوية في المنظمة، أو التنظيم الماسوني، و هو درجة الغليان التي اعتمدها نيوتن في أبحاثه و نظرياته. في الأثناء قرَّرَ الصعود إلى الهرم الأكبر، و حَدَّدَ إحداثيات صعوده، أفقيا و عموديا، معتمدا على العدد(33). وقفَ عند قاعدة الهرم، أمام المثلث العملاق الذي يشكّله الوجه الأمامي للهرم، وراحَ يَعُدُّ الحجارة من الزاوية اليمنى لِلقاعدة. توَقَّفَ عند القطعة الثالثة والثلاثين، وبدأَ الصعود إلى الأعلى إلى أنْ وصلَ إلى القطعة(الدَرَجَة)/ 33 /. هناك جلسَ على المصطبة التي شَكَّلَتها الحَجَرَة الثالثة والثلاثين، لِيستريح و يستنشقَ هواءً نقيّا من ذلك الارتفاع.نظرَ إلى أبي الهول، الذي بدا صغيرا امام الهرم العملاق. حاول إيجاد علاقة ما، تربط بين المثلث الحامل لِ الزهرة و الرقم/ 33 /، و بين الحَجَرَة الثالثة و الثلاثين التي يجلس عليها... هل يمكن أنْ تكون ثمة زهرة محفوظة في هذا المكان،أو يكون سرّ بناء أبو الهول مخبَّا تحت هذه الحَجَرة؟... عايَنَ جسم الحَجَرة بِ النظر واللمس. بَحثَ في كلِّ الأرجاء المحيطة بها.. فوقها، تحتها و جوانبها، إلاّ أنَّه لم يستدل على أيّ أثرٍ تشير إلى معلومة يمكن الكشف، من خلالها، عن مخبإٍ أو مدخلٍ سرّيٍّ يؤدّي إلى شيء يفيد في حَلِّ اللغز. فَعَلَ نفس هذه الإجراءات على الدرجة الثالثة والثلاثين في الجهة الشمالية و الجنوبية و الغربية، لكن دون فائدة. قَعَدَ على مصطبة الدرَجة الثالثة و الثلاثين في الجهة الغربية يائسا. في الأثناء، لَمَعَت في دماغه فكرة غاية في الأهمية، و هي أنَّ الدخول إلى داخل الهرم، أو بِ الأحرى فَتْح باب الدخول إلى الهرم لن يكون من الخارج قطعا، حتى لو عُرِفَ مكان المدخل. فَ لِ الدخول يجب أنْ يُفْتَحَ الباب من داخل الهرم، ولكي يتمَّ ذلك، لا بدَّ من وجود مدخلٍ سرّي للدخول إلى داخل الهرم و من ثمَّ يتمّ فتح الباب من الداخل. تغَيَّرَت ملامحه و أكتسبَ دفعا من الأمل في

النجاح في مبتغاه. توجَّه نحو الشمس الذي كان في طريقه إلى مغيبه. كان ينزلق رويدا رويدا نحو الأفق، و كان قد اكتسبَ لونا ذهبيا. رأه في ذلك التوقيت قرصا عملاقا فيه كلّ ألوان الطيف الأصفر. بدا مهيبا، جميلا، جبّارا، قريبا.. أَكَّدَ على ألوهيته وأبوّته لِلخَلْقِ والكون. راح يقرأ ترنيمة آتون المكتوبة بِالهيروغليفية المذَهَّبَة على وجهه. كتبها اخناتون لإله الشمس آتون، وهو يركِّز على وحدانية الإله الممثل في قرص الشمس. آتون هو "سيد جميع البلدان. يشرق لهم جميعا ويحفظ حياة البلاد الأجنبية أيضا، حيث أنشأ نيلا في السماء و جعله يهبط على الأرض". فَ هو ليس إله مصر وحدها، وإنما إله لِ الناس أجمعين.

رأى نفسه واحدا من هؤلاء الذين يتلون الترنيمة مع الفرعون اخناتون، و زوجته الملكة نفرتيتي. كانوا كَ جوقة هيليوبوليس يردِّدون مفردات الترنيمة و كَ أَنَّهم ينشدون النصَّ المقدَّس في معبد آتون.

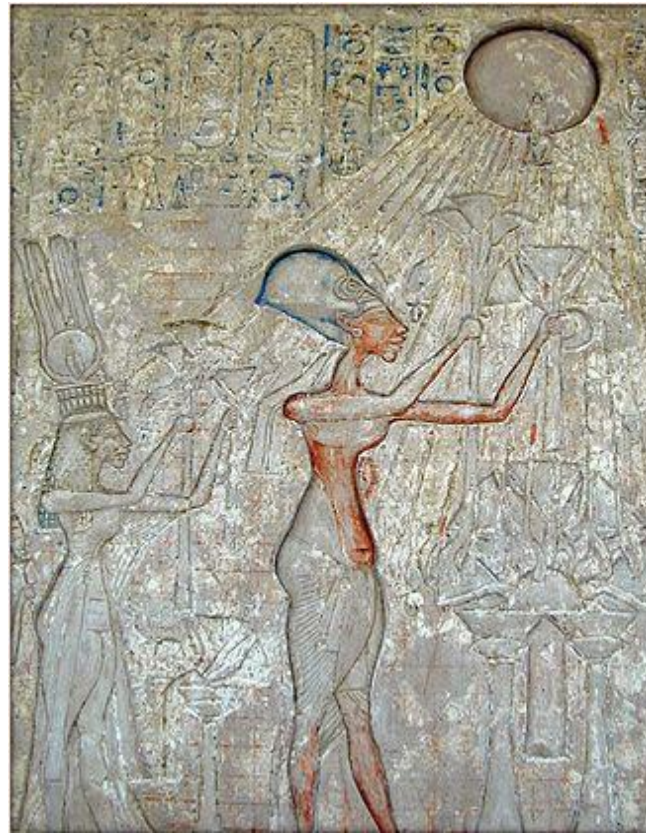

"تظهرُ في أفق السماء أيها الشمس الحية، الذي يقدر الحياة،
تشرقُ في الأفق الشرقي في الصباح وتملأ كل البلاد بجمالك،
أنتَ جميلٌ وعظيم ومشرق الآن فوق جميع البلدان،
وأشعتك تملك كل البلاد حتى آخر كل ما خلقت.
أنتَ رع عندما تصل إلى حدودهم وتجعلهم يركعون لإبنك المحبوب.
أنت بعيد ولكن أشعتك تصل إلى الأرض، وإنَّكَ في وجوههم، ولكن مسارك

مجهول.عندما تغرب تحت الأفق الغربي يبقى العالم في ظلام، في حالة كَ الموت. كل الأنعام راضية بأعشابها وأشجارها ونباتاتها الخضراء، وتنطلق الطيور من أعشاشها، ترفرف أجنحتها تسبح بروحك، وتقفز كل الوحوش على أرجلها، وكل ما يطير يرفرف، ويحيون عندما تشرق لهم.
وتسير السفن الحاملة شمالا وجنوبا، وكل طريق ينفتح بظهورك،
وتقفز الأسماك في النهر أمام وجهك، وتملأ أشعتك قلب البحار.

أنت الذي يُنْبِتُ البويضات في النساء، وتجعل من "الماء" أناسا.
وتبقي على حياة الطفل في بطن أمه وتهدئه فلا يسقط له دموع.
تعطي النفس لكي تحيا جميع المخلوقات".

في نهاية الترنيمة خرجَ عن النص. أضاف طلبا خاصا، وهو أنْ يكشف له، الإله آتون، لُغْزَ الزهرة... مشى إلى مكانه الأوَّل بِ مواجهة التمثال العظيم. تَنَبَّه إلى حركة الناس هناك في الأسفل بِجوار أبي الهول. كانوا مجموعات من السياح والفضوليين الذين يُحبّون القصص المدهشة، و ربَّما يكون بعضهم من المهتمين بِ الآثار و التاريخ القديم. شَعَرَ بِ تدفّق الأشعة داخل كيانه، و كأنَّ الشمس قد شحنه بِ الطاقة الضوئية غير المحدودة. نزلَ سارو بِ سرعة خاطفة، و صعدَ على كتف أبي الهول. ألقى نظرة إلى الزهرة و رأس المثلث الحامل لها. فَ اعتبر المثلث بِ مثابة سَهم، أو رأس سهم، و الذي يفيد كَ مؤشّر إلى الجهة المطلوب الإبلاغ عنها، أو الدلالة إليها. أعاد، مرَّة أُخرى، تفسير رمزية المثلث الذي رأسه في الأعلى، ورمزية الزهرة الخماسية. كان قد قرأ تلك التفاسير التي تعطي الذكورة للمثلث في هذه الوضعية، و الأنوثة لِ الزهرة(الكأس، الرحم..)، حينها نظرَ مرَّة أُخرى لِ التكوين الذي يُشَكِّله المثلث مع الزهرة الجالسة على رأسه. نَزلَ من على كتفه(أبو الهول)، و ابتعدَ مسافةً من وجهه. وقَفَ عند مخالب قدميه الأماميتين

أمام وجهه الذي ينظر نحو الشرق.
شرَعَ في التخطيط لِ بلوغ هدفه، و قبل البدء بِ تنفيذ القرار الذي سَيتَّخذه، كان لا بدَّ التأكّدَ من تحليله وتفسيره لِلرمزية التي يشكّلها التكوين المحفور هناك على رقبته. ولهذا، راح يتأمَّلَ الهرم الأكبر و وضعية الأسد الرابض المتحَفِّز أمامه، و كأنَّه يتوجَّس الشَرَّ من هناك حيث يذهب سَمْت نظره شَرْقاً. استحضرَ الخَتْمَ في دماغه و راح يُكَرِّرُ تفسيره لِ رمزيته. إنه تداخل بين الذكر و الأنثى، إنها وضعية جنسية بين الذكر و الأنثى. راح تفكيره إلى النجمة السداسية التي تحمي قدس الأقداس في المكان الذي يجب الحِفاظ على أسراره المقدَّسة. و بناءا على هذا الاعتقاد رأى أنْ لا مكان أقدسَ من الهرم الأكبر،وأبو الهول هو الحارس الجبّار.. إذن قال في نفسه صامتا:" من هنا يبدأ الطريق إلى معرفة لغز هذا الخَتم". أمْسَكَ بِذقن أبي الهول محاولا الصعود إلى الأعلى. كان يبدو قزما(لِصِغَرِ حجمه مقارنة بِ ضخامة أبي الهول) و هو يتعربش على جسده. مَدَّ يده إلى أنفه المكسور. تَمَسَّكَ بِ الجزء المنخور منه، وصَعَدَ إلى شَفَتَه السفلى. وقَفَ على رجليه ممسكا بِ جفنه الأيمن. كاد يسقط أرضاً حين انزلقت قدمه من على النتوء المتبقي من أنفه المحطَّم فوق الشفة العليا. لكنه تشَبَّثَ بِحواجبه و عاود التسلُّقَ بِ حَذَرٍ هذه المرَّة، و استطاع الوصول إلى أذنه في الطرف الأيمن. تَعَلَّقَ بِ الجزء العلوي من الصيوان. حَرَّكَ رجليه المتدلية داخل الصيوان في كلِّ الاتجاهات، وإذْ به يتحَسَّس كتلة صلبة تحت قدميه.. دعسَ عليها. كانت مائلة بِ زاوية خفيفة نحو الداخل. وقَفَ عليها مستندا إلى الجدار الداخلي لِ الصيوان، و من ذاك المكان المرتفع راح يَتَفَحَّص التجويف بِ دقَّة متناهية. لاحظَ خمس دعسات شبيهة بِ العتبات على الغضروف اليميني متصلة بِ مثيلاتها(خمس دعسات) في الطرف المقابل نحو الأسفل. كانت الدعسة العاشرة الأخيرة، و التي هي العاشرة من مجموع الدعسات على الطرفين، تستند على شاحط مرمري فوق شحمة الأذن يميل بِاتجاه

الدهليز المعتم بِ زاوية 23 درجة. لم يأبه لِ التجويف الذي يشبه أثر طعنة رمح جبّار على رقبته تحت أذنه بِ قليل. و من هناك نظرَ إلى الركام المتشكّل في مكانين بين مخالبه، ربَّما كانا مدخلين سريين، أو أحدهما على الأقل، يقودان إلى أعماق الأرض من تحته. تَعَزَّزَتْ قناعته، حينها، بِ أنَّ هذا الأسد العظيم الرابض فوق الهضبة، إنَّما هو الحارس الجبّار الذي يحمي كنوز الهرم، و يحمي الهرم من أيّ تدخّل غريب، وأنَّ أجهزة الحراسة تقع في الأنفاق الموجودة تحت الأرض، و التي تبدأ من بين مخالب أبي الهول، و تؤدي إلى داخل الهرم. فَ أبو الهول صُمِّمَ لِ يرى من بُعْد. و مع ذلك صَرَفَ النظر عن هذا الاحتمال. عَلَّقَ أمله على الدعسات العشرة و الشاحط المرمريّ. إذْ أنَّه قابلها بِ العدد/ 11/ المثبت في زوايا المثلث الحامل لِ الزهرة الخماسية. كان قد قَدَّرَ المسافة بين الهرم الأكبر و أبي الهول، حين كان جالسا على الدعسة الثالثة و الثلاثين على الوجه الشرقي لِ الهرم. و لم يعطِ أكثر من سبعمائة متر لِهذه المسافة مع تعرّجاتها. كان واثقا من تقديره، لأنَّه قطع تلك المسافة، منذ أنْ وجدَ نفسه في هذا المكان المقدَّس، سيرا على الأقدام، أكثر من مرَّة و لم يستغرق وقتا أكثر من تسعِ دقائق. نزلَ إلى الشاحط من خلال الدعسات. تمَسَّكَ بِجدار الدهليز تلافيا لِلإنزلاق إلى المجهول، لكنه لم يصمد على الشاحط الزلق، و خصوصا بعد أمتارٍ معدودات من دخوله الدهليز، إذْ أنَّ ميل الشاحط(الدرجة الحادية عشر) أصبح حادا نحو الأسفل، مما أدَّى إلى انزلاقه من ذاك الارتفاع الذي لا يقلُّ عن السبعة عشر مترا، و بِ لَمْحِ البصر، أصبحَ على الأرض في جوف أبي الهول. نظرَ إلى المسافة التي انزلقَ منها وإلى البلاطة التي كانت مسوَّرة بِحاجزين، أو بِجدارين، بِحيث كانت شبيهة بِ نفق أو قناة مستطيلة مفتوحة من الأعلى. و الجدارين هذين كانا منخورين أو محفورين بِ المعاول. بين الحفرة و الأخرى مسافة ذراع، أو أقلّ بِ قليل، و كأنَّ الذي صَمَّمَ ذلك كان يقصدُ تسهيل عملية الهبوط و الصعود، من و إلى الخارج.

احتفظَ سارو بِ هذه الملاحظة في ذاكرته لِ الاستفادة منها في رحلة العودة. كان الضوء الداخل من أذنيه(أبو الهول) يُشَكِّلُ دليلا لِمعرفة الاتجاه الذي سَيسير فيه، فَ ما كان منه إلاّ أنْ جَعَلَ الضوء خلفَ ظهره، ومشى في العتمة بِ اتجاه مؤخرة الأسد. بعد عشرين مترا، واجهه جدار مزيَّن، في الطرف الأيمن منه، بِرأس وَعْلٍ بريّ على ارتفاع ثلاثة أذرعٍ. كانت قرونه ملتفة على بعضها، في جانبي رأسه، بِ لَفَّة و ثلاثة أرباعها، متجهة من الأمام إلى الأعلى. ينظر بِ عينيه اللوزيتين، مباشرة، إلى القادم إليه. انتبه إلى الكرتين المستقرتين في محجريهما، حيث كانتا تلمعان في تلك العتمة. عرف بِ أنَّهما من الأحجار الكريمة، و ربَّما يكونان من الزفير الأخضر اللوزيّ اللون. التفتَ إلى الخلف حيث مصدر الضوء المتسرّب من الأذنين في الأعلى. كان خلف الضوء، من الأسفل، نفقين معتمين، هما بِ التأكيد قدما الأسد الرابض أمام الهرم الأكبر. كان يعلم بِ أنَّه لا بدَّ من اختراق الحاجز الذي اعترضه، وذلك لِمواصلة سيره إلى الأبواب السرية التي سَ تقوده إلى داخل الهرم. عَرفَ بِ أنَّ اجتياز الحاجز هذا، إنَّما يكون من خلال رأس الوعل. مَدَّ يده إلى محاجر عينيه، وشَرَعَ في تحيرك بؤبؤيه، في الضغط عليهما، تدويرهما.. لكن دون فائدة. حاول رَفْعَ، أو خَفْض رأسه من الذقن، أيضا لم تفلح محاولته في شيء. راح يدفع الرأس يمينا و يسارا علَّه يزيحه من مكانه.. لم تفضِ هذه المحاولة أيضا إلى أيَّة نتيجة. فَحَصَ الجدار من يمين رأس الوعل و يساره. كانت هناك نقرات ومسافات منخورة على مستوى الرأس وأسفله،حتى إلى الأرضية التي يقفُ عليها. حينها جَرَّب أنْ يدير الرأس، و لكن كيف.. أمسَكَ بِ قرنيه.. حاول تدويره يمينا، لكنه لم يتزحزح. جَرَّبَ تدويره يسارا، في هذه المرَّة تحرَّكَ الرأس، ورأى العينين تغمضان كلَّما أدار الرأس. سمع قرقعة صاخبة و كأنَّ حجارة كانت تتدحرج من ارتفاعات فوق بعضها، و في الأثناء، راح الجدار ينزاح إلى اليسار مفسحا في المجال. رَفعَ يديه عن القرنين، بِ حَذَر، فَما كان من الباب،

إلاّ أنْ عاد لِ الإغلاق بطيئا. فَكَّرَ في الأمر.. و رأى بِ أنْ يَدَعَ الباب يُغْلَق، فَ بِ التأكيد هناك آلية مشابهة لِ هذه من الداخل أثناء العودة. اجتاز الحاجز إلى الداخل،وراح الباب يُغْلَقُ تلقائيا وسط هدير الصوت الصادر من المكان المجهول. على مسافة عشرين خطوة من الحاجز، شعرَ بِهواء رطبٍ يلفح وجهه من الأمام. اقتربَ من مصدر الهواء، وهو يتقدَّم إلى الأمام. بدأ الممر الذي يمشي فيه يميل إلى الأسفل. وجدَ نفسه يدخل في نفق عرضه ستة أقدام، أمّا الارتفاع، فَهو غير منتظم. فَفي بعض المقاطع من النفق كان يضطر لِ السير محني الظهر، و في أماكن أُخرى كان يسير باستقامته. هذه المرَّة، تأكَّد من أنَّه يهبط إلى جوف أبي الهول، إلى تحت الأرض. فَالبلاطة التي كان يسير عليها كانت مائلة نحو الأسفل بِ زاوية 25 درجة تقريبا، و كانت مَشغولة على شكل عتبات لِ مساعدة خَدَم الملك في النزول الآمن.

وصلَ إلى الأرض الأفقية على عمق عشرة أمتار تحت بطن أبو الهول عند نهاية النفق الهابط. كان المسار الجديد يشبه الدهليز، و على مبعدة ثلاثين مترا، ظهر أثر ضوء من الجانبين. و عند الاقتراب أكثر، تبَيَّن له بِ أنَّ المكان الذي يدخل الضوء منه، إنَّما هو عبارة عن نفقين هوائيين على الطرفين يصلان إلى حجرة تحتية. فَحصَ المكان جيد، يمينا، يسارا، لم يجد منفذا آخرَ لِ متابعة مسعاه، فَ ما كان أمامه سبيلا آخر سوى هذه الحجرة. كان ارتفاع النفقين الهوائيين بِحدود ثلاثة أذرع من الأرضية التي يقف عليها، و بمقدار ذراع أسفل سقف الحجرة.

كانت الحجرة مفتوحة من الأمام محفورة في صخرة ضخمة، الجهة الوحيدة التي يمكن للخدم المرور منها. اقترب من المدخل، كان العرض بِمقدار ذراعين تقريبا، والطول حوالي الثلاثة أذرع، أمّا العمق فَ لم يستطع تقديره من مكانه. نزلَ عن طريق الدعسات المنحوتة على جدران الحجرة، و قَدَّرَ العمق بِ حدود أربعة أذرع. رأى في الجدار المقابل، و على ارتفاع ذراع واحدة، مدخلا يقود إلى نفق مسقوف

عرضه ذراع ونصف الذراع و ارتفاعه ذراعين و أكثر قليلا. دخلَ النفق وسار فيه صعودا بِ مَيْلٍ يُقَدَّر بِعشرين درجة. بعد خمسة وثلاثين مترا من الصعود المائل في النفق وصلَ إلى نقطة يلتقي فيها ممرّان، أحدهما يتابع على نفس الاستقامة نحو جدار مسدود حيث الباب الكبير المحفور فيه، والذي يُفتح من الداخل. وعن طريق هذا الباب الذي يؤدي إلى خارج الهرم، و الموجود تحت الأرض بما لا يقلّ عن 50 مترا على الأقل، و الذي مكانه مجهول حتى الآن. يدخل العمال حاملي الجثمان و الأثاث الجنائزي من هذا الباب السري من خارج الهرم إلى داخله. هذا الباب الموجود تحت الأرض، لا بدَّ أنْ يكون له ممرًّا طويلا(نفق) يبدأ من خارج الهرم، و يأخذ شكل المنحدر حيث يتم عن طريقه إدخال الأثاث الجنائزي، و التوابيت و كلّ ما يخصّ الملك المتوفّى. ثمَّ يقوم احد الأشخاص بِ إغلاق هذا الباب (الموجود في نهاية الممر) من الداخل، و في نفس الوقت تقوم مجموعة من الأشخاص بِرَدْمِ الممر المنحدر(النفق) و المؤدي إلى الباب الكبير، الموجود تحت الأرض، من خارج الهرم لِ إخفائه عن الأعين، ثمَّ يقوم الشخص الموجود داخل الهرم بِ إغلاق الممر السري الصغير الموجود داخل الهرم. يقوم بعد ذلك بِالخروج عبر البئر و منه إلى خارج الهرم لِ التضليل، بعد أنْ يكون قد أنهى مهمته بِ نجاح. و لو استطاع أحد الأشخاص التسلل إلى داخل الهرم عن طريق البئر الضيق، ثم الوصول إلى الممر السرى و منه إلى داخل المقبرة التى بها الأثاث الجنائزى، فإنه لن يستطيع الخروج بأى شىء من محتويات المقبرة نظراً لضيق البئر. و بالتالى عليه البحث عن باب الخروج (وهو الباب الكبير الواسع الذى دخلت منه محتويات المقبرة، من أثاث جنائزى وتوابيت و...إلخ)، و الذى يفتح من الداخل و الموجود على عمق لا يقل عن 50 متر تحت الأرض، والذى تم ردمه بعد إغلاقه مباشرة. فَ محاولة تحديد موضع هذا الباب وطريقة فتحه من داخل الهرم، لَهو ضرب من المستحيلات. و حتى بفرض أنه استطاع أحد

فتح الباب السرى الموجود تحت الأرض لِلخروج، فإنه سَ يُفاجأ فى هذه الحالة بِ حارس الهرم. فَ لكلِّ هرم حرس خاص يقوم بحراسة الكنوز ويحمي الهرم من أيّ تدخل غريب. هناك أجهزة حراسة داخل الأهرامات، و من المؤكَّد أنَّ الحرس مثبت على أبواب الدخول من الخارج.

ومن مدوَّنات وكتابات الرحالة والمستكشفين و المؤرخين، وبعد إعادة ترتيب هذه الروايات، يستطيع المرء أن يتوقع شكل الهرم من الداخل، عند الدخول من الممر السرى الموجود بالحجرة المسماة بحجرة الملك. حيث جاء في تلك المدوّنات و الكتابات ما يلي:" يمشي الداخل عشرين ذراعاً على التقريب، إلى أن ينعطف على يساره قائماً. يلتقى زلاقة(ممر صاعد يؤدى لأعلى) ضيقة من حَجَر الصوان الأسود، الذى لا يعمل فيه الحديد. قد نقر فى الزلاقة حُفَر(فتحات صغيرة لوضع الأصابع) يتمسك الصاعد بتلك الحفر، و يستعين بها على المشي فى الزلاقة لِ ألّا ينزلق. تحت هذه الزلاقة يوجد بئر، و يلقى هناك منفساً يدخل منه نوراً يسيراً. يتمكن الرجل النحيف من دخوله، فَينتهي إلى طاقة عندها مجدل يرتقي منه إلى زلاقة أخرى(أى ممر صاعد آخر). الطاقة المذكورة تحت الزلاقة الثانية، يدخل منها إلى بيت مربع(أى حجرة مربعة الشكل) فيه حوض(تابوت) فارغ. هناك بيوت و مخادع و عجائب و جميع هذه الأبواب تؤدي إلى ردهة واسعة(دار كبيرة). كانت هناك أربعة دهاليز مملؤة بالجثث الإنسانية. و المكان بِ رمَّته كان ممتلئاً بالوطاويط و قد دفنت بها، أيضا، حيوانات مختلفة. كان كل جسد ملفوفا بِ عدّة طبقات من القماش الذى أصبح قاتماً بِسبب القِدَم، و مرور الزمن الطويل عليهم. لقد بقيت أجساد جميع الموتى محفوظة بشكل كامل. كان على رؤوسهم شعر لم تكن فيه أية شعرة بيضاء، طبعا هذا دليل على أنَّهم كانو شبابا، و وضعت أجسادهم بشكل متراص الواحد تلو الآخر. و من الغرفة المذكورة ذات القبة، كان يمكن الصعود إلى أعلى حجرة فى الهرم. و ذلك عن طريق ممر عرضه خمس

خطوات، و لكن دون درج (أى بدون سلالم). كان هذا الممر يؤدى إلى معبر ضيق يفضي إلى قبة صغيرة، فيها صورة آدمي من حجر أخضر كالدهنج. فَ لمّا فتحت وجد فيها جسد آدمى (فرعون) عليه درع من ذهب مزين بأنواع الجواهر، وعلى صدره نصل سيف لا قيمة له، وعند رأسه حجر ياقوت أحمر كبيضة الدجاجة يضئ كلهب النار. تجدر الإشارة إلى أن هناك أبوابا و ممرات سرية أخرى أسفل الهرم الأكبر، و تحديداً فى نهاية الممر الهابط بداخل الغرفة التى تسمى بِ النقرة. أمّا الممر الآخر، فَينعطف يسارا و بِ اتجاه الأعلى مع ميلٍ صاعد بِ مقدار خمسة عشر درجة تقريبا. كانت المؤشرات تدلُّ على أنَّه أصبح داخل الهرم الأكبر. انعطف يسارا و مشى في الممر الصاعد مسافة ثلاثين مترا حيث وجدَ نفسه في ملتقى ثلاثة ممرات. واحد منها يذهب يسارا بِشكلٍ افقي، وآخر ينعطف يمينا في ممرّ صاعد، والثالث يذهب إلى الأسفل، إلى نفق الخروج من تحت الأرض. وقفَ في نقطة التلاقي هذه محتارا.. أيُّ الممرّات يختار؟ طبعا الممرّ المؤدي إلى الأسفل لم يكن واضحا إلاّ إذا مشى المرء فيه مسافة ما، كي يكتشف من أنَّه ينحدر إلى الأسفل. إنَّه أمام امتحان عليه أنْ يختار الجواب الصحيح. أنْ يُقَرّرَ الجهة التي سَ يمشي عبْرَها. بعد وقتٍ ليس بِ الطويل، أخذَ يمشي في الممرِّ الأفقي الذي على يساره. إنّه فعل مثل أوديب في اختياره، و لا أدري على ماذا اعتمدَ في قراره عند اختياره لِ الممرِّ الذي على يساره. لم يكن الممرّ ضيّقا. فَعرضه يُقارب الثمانية أقدام، و ارتفاعه حوالي أربعة أذرع. أرضيته من الصخر الجيري ممهَّدة لِ السير عليها دون صعوبات أو عثرات. كان هناك نظام تهوية و إضاءة مجهول المصدر. مشى في الممرِّ دون أنْ يعرف إلى أين سَ يأخذه، و إلى أين سَ ينتهي به. لكنَّه كان على دراية بِ ألغاز و مفاجأت، و حتّى مخاطر، الأماكن التي لها طابع اسطوري مقدَّس، و التي هي على درجة فائقة من التطوّر العجائبي في ابتكارها و بنائها و وظيفتها. لم يكن بِ حاجة إلى

مشاعل أو شموع لِ يتلمَّس طريقه، فَ الإله رع كان قد ملأه بِ الطاقة و الضوء حين كان يرتِّل مع أفراد الأسرة المالكة قبل دخوله إلى قلب الهرم.

على بُعْدِ ثلاثة و عشرين مترا من نقطة البداية، صادف كهفا على يمينه. كان لا بدَّ من الدخول إليه. فَ هو بِ حاجة لِ أيّ شيء يُمَكِّنه من الحصول على دليلٍ ماديّ يُقَرِّبه من الحصول على المفتاح الذي سَيشرح له معاني رموز الخَتْمِ الذي على رقبة أبي الهول.. وجَدَ حفَرا عديدة في الجدار المواجه لِ مدخل الكهف. رأى فيها جثامين ملفوفة بِخامات سكرية اللون، وقد مالت إلى السواد بِمرور الزمن. كانت عند الحُفَر بقايا من لباس(جلاليب و دشاديش..) مهترئة، تتناثر على الأرض بِ مجرَّد تحريكها. كانت الجثث قد تَرَمَّدَتْ على الأغلب، قال في نفسه، إنَّها تعود لِعمال كانوا يحفرون في هذه الصخور العملاقة. غادر الكهف بِ نفس الاتجاه الذي مشى فيه. كان يسمع صدى الصمت المطبق على المكان. و أحيانا كان يتهيَّأ له، وكأنَّه يرى الفرعون قادما إليه من خلف العتمة، كأنَّه يسمع صدى أنغام و أصوات كاهنات المعبد. بعد أكثر من عشرين مترا من الكهف الذي كان يضمُّ رفاة بُناة الأهرام، رأى جلاميد من البازلت الأسود مبعثرة على يمين و يسار الممر. تذكَّرَ بِ أنَّ مثلَ هذه الحجارة الضخمة كانت موجودة عند المفترق، عند بداية الممر. تجاوزها و مشى إلى الأمام. و على بعد ستة عشر مترا ظهرَ له ما يشبه منزلا، أو غرفة، أو حجرة. في الأثناء تسارعت نبضات قلبه، عرفَ بِ أنَّه أمام غرفة الملك. و في الحال أخْرَجَ مخطط الهرم، و شَرَعَ في تدقيق الأماكن و الجهات و القياسات. كانت المعلومات تشير إلى أنَّ غرفة الملكة هي قبل غرفة الملك، أيْ، هي تحت غرفة الملك، من حيث الارتفاع داخل الهرم، و أنَّها تقع في منتصف الوجه الشمالي و الجنوبي لِ الهرم، و تبلغ أبعادها: 5.75 متر من الشمال إلى الجنوب و 5.23 متر من الشرق إلى الغرب. وهي مبطَّنة بِ أحجار جيرية بيضاء، و لها سقف جملوني يبلغ ارتفاعه 6.23 متر. تبلغ زاوية السقف

الجملوني 30.5 درجة وتبدأ من ارتفاع 4.77 متر من فوق أرضية الحجرة (الغرفة). يوجد في الحائط الشرقي للحجرة زاوية بارتفاع 4.7 متر وبعمق 1 متر في الحائط. مزينة من الجانبين بِ قبَّة مدرجة. يبدأ من تلك الزاوية نفق ضيق طوله يمتد صعودا إلى الوجه الشرقي لِ الهرم، و مثله يوجد في الحائط الغربي لِ الحجرة، حيث يصعد مائلا إلى الوجه الغربي لِ الهرم. هذان النفقان هما، على الأغلب، أنفاق تهوية و نقاط اتصال بِ العالم الخارجي. لم يعثر على إشارات حسية ملموسة تساعده على فَهْمِ اللغز الكامن في الزهرة الخماسية و حاملها المثلث الذكوري. كان تابوت الملكة، فقط، في وسط الحجرة. كان مغلقا بِ لوحٍ من المرمر المعرَّق بِ اللون الأصفر. و في زواياه الأربعة تماثيل متوسطة الأحجام من الأفاعي و الطيور، مصنوعة من الأحجار الرخامية، مصقولة صقلا ناعما. ألقى النظرة الأخيرة على تابوت الملكة. قرأ صلاة الفرح على روحها، و طلبَ منها حمايته من الأرواح الشريرة. و هكذا غادر حجرتها تاركا روحها في سلام و سعادة أبدية. مشى في الممرّ الأفقي نفسه عائدا إلى نقطة تلاقي الممرّات الثلاثة التي بدأ منها. أخذَ الممرّ الذي يصعد إلى الأعلى بِزاوية ثلاثين، أو ربَّما ثلاث و ثلاثين درجة. بعد سبعة أمتار من الصعود، و جدَ نفسه في بَهْوٍ كبير على امتداد الممر الصاعد، لكنه ينحني قليلا عن اتجاه الشمال. عرض البهو يبلغ ضعف عرض الممر وسقفه أعلى من الممر بكثير؛ و له قبة جملونية تنزاح صفوف الحجارة فوق الحائط اليميني و اليساري بالتدريج، بحيث تضيق المسافة بينهما في اتجاه السقف.في نفس الوقت تؤدي هذه البنية إلى الاستقرار وتوزيع ثقل الأحجار، الأعلى منها، على جانبي البهو. يبلغ ارتفاع سقف البهو الكبير نحو 8 أمتار؛ ويبلغ طوله 46 مترا و يؤدي البهو الكبير إلى حجرة الملك. استعان، لِ المرَّة الثانية، بِمخطَّط الهرم الأكبر، و بِخاصة، في ما يتعلَّق بِ حجرة الملك. تبلغ أبعاد هذه الحجرة 10.47 متر من الشرق للغرب، و5.234 متر

من الشمال للجنوب، و لها سقف مسطح على ارتفاع 5.974 متر فوق الأرضية، و هو مكوَّن من تسعة أحجار ضخمة وزن كل منها 50 طناً تقريباً.
فى الجزء الغربى من هذه الحجرة نرى صندوق تابوت من الجرانيت لا غطاء له. يتكون التابوت من قطعة واحدة من الجرانيت. حُفِرَ و نُشِرَ و سوّي ليحصل على شكله هذا. تشير آثار على جوانبه الداخلية على أنه عومل بِ أدوات نحاسية مع إضافة رمل كوارتز كَ مادة صنفرة. كما تشير الآثار إلى استخدام خرّامات نحاسية قد يبلغ قطرها 11 سنتيمتر وسمْك جدارها 5 مليمتر لإعداد التابوت.
حجم التابوت بِمقاييسه(2,28 متر × 0,99 متر × 1,05 متر) لا تسمح بنقله خلال الممرات، ولهذا، فَقد وضِعَ في مكانه أثناء البناء قبل تركيب سقف الحجرة.
لوحظَ وجود ثلاثة ثقوب مستديرة في جدار التابوت على الناحية الغربية. يبدو أن الغطاء كان مثبتا بواسطتها بقضبان من الخيزران. الملاحظة هنا، وجود تابوت داخل الهرم ليست عليه نقوش و لا كتابة و لا اسم الملك المتوفى. طبعا هذا أمر يثير الدهشة و العجب، و الغريب أنه وجِدَ فارغاً!! بل الأغرب من ذلك أنه وضِعَ بِ جوار أحد جدران الحجرة و لم يوضع فى منتصفها.
توجد فتحتان ضيقتان على ارتفاع 0.91 متر، أو متر تقريبا.إحداهما في الحائط الشمالي والأخرى في الحائط الجنوبي للحجرة. هذه الفتحات تصل بنفقين ضيقين يصلان تقريبا إلى سطح الهرم؛ يتوجهان إلى النجوم في السماء الشمالية و الجنوبية. الغرض من هذه الانفاق غير واضح حتى الآن. ظَنَّ علماء المصريات طويلا انَّ الغرض منها هو التهوية. لكن هذا الاعتقاد تم اهماله الآن لحساب الاعتقاد الأكثر شيوعا، بأن هذه الانفاق الصغيرة صنعت لخدمة الغرض الشعائري بتوجيه روح الملك إلى الجنة. كل من النفقين الضيقين متوجه إلى نجم، أو مجموعة نجمية كانت ذات شأن في المعتقدات الدينية المصرية القديمة. تذكَّرَ الأحاديث و القصص التي كانوا يَرْوونها حول كنوز الأهرامات، و خاصة الذهب

و الأحجار الكريمة و الجواهر المرافقة لِ مومياء الفرعون في تابوته. كانت معظم الروايات تتحدَّث عن استحالة خروج لصوص الكنوز والآثار من داخل الهرم،هذا، إنْ كانوا استطاعوا الدخول إليه. فَالهرم، له باب رئيسيّ للدخول(مدخل رئيسي)، و له، بِ التأكيد، باب رئيسي للخروج. قالوا على لسان مَنْ دخلَ الهرم المفتوح: أنه وجد فيه قبراً، وأن فيه مهالك، وربما خرج الإنسان فى سراديب إلى (بحر) الفيوم، و هي مسيرة يومين. . و حُكي أنَّ جماعة من الأحداث اتفقوا على أن يدخلوا الهرم، و وصِفَتْ رحلة خروجهم من الهرم على هذا النحو : '' ... ومَشوا إلى أن لاحَ لهم نور ساطع فَ اتَّبعوه، فإذا هم بِ هوّة مفتوحة، فخرجوا منها ، فإذا هم فى الصحراء. كان على باب الهوة تمثالان من حجر أسود معهما كَ المزراقين. فَ عَجبوا من ذلك و وَجَدوا شبه الطريق، فَ ساروا عليه يوماً كاملاً إلى أن وصلوا إلى الأهرام من الخارج. وَ لمّا أراد كبار القوم التأكّدَ ممّا يقولون، قام شيخهم بِ إرسال مَن يدخل الهوّة معهم، فَأطافوا أياماً فَ لم يجدوها، و أشكل عليهم أمرها، و لم يكن لهم إليها من سبيل و لا وجدوا فيها حيلة. كانوا يعتقدون أنَّ في كلّ هرم من الأهرامات سبع بيوت بِعدد الكواكب السيارة، و فى تلك البيوت عدة أصنام مرصعة بالجواهر الفاخرة، وفى آذانهم درر قدر بيضة الدجاج. و فى كل هرم ناووس من الرخام الأخضر فيه جثة صاحبه مطبق عليه، ومعه صحيفة فيه اسمه وترجمته ومدة ملكه. وذكروا أن لهذا الأهرام مكاناً ينفذ إلى صحراء الفيوم، وهو على مسيرة يومين من الأهرام. ومما حُكي،أيضا، عن أحد الأشخاص كان قد رافق مجموعة من الفتيان قال: خرجنا فى طلب الأهرام و كان معنا عدة حِبال طويلة مع معول ورفش على حمار.فَلمّا وصلنا إلى الأهرام، دخلنا إلى الهرم الكبير المفتوح. وقفنا على رأس البئر الذى به، فَ تجرد منا شخص وكان يَدَّعي الشجاعة، فَ ربطناه من وسطه بِ حَبْلٍ من تلك الحِبال التى معنا. أدليناه فى البئر، فَ نَفَذَ الحبل الذى معنا جميعه و لم ينته إلى قاع البئر. ربطنا فى الحبل

شاش عمائمنا، فانقطع الشاش فَ هوى الشخص إلى قاع البئر. و لم نعلم له خبراً، فَ رجعنا متأسفين عليه و خائفين على أنفسنا بسببه.

دخلنا فى خفية إلى القاهرة، و لم نُعْلِم أحداً من الناس بحالنا. بينما نحن فى الجامع بعد مضى أسبوع، وإذا نحن بِ صاحبنا الذى سقط فى البئر قد دخل علينا و هو فى غاية الضعف. فَلَمّا دخل فى باب الجامع وقرب منا سقط بيننا و غشى عليه. لمّا أفاق استحكيناه عما كان من أمره بعد سقوطه فى البئر، فَ قال: لمّا انتهى بى السقوط إلى الأسفل حيث كان المكان معتما، فَ قَدَحْتُ بالزناد الذى كان معى، و أوقدت شمعة و مشيت فى ذلك المكان المجهول. وجدتُ من زبل الوطاويط شيئاً كثيراً، و رأيت أشخاصاً و أشباحاً طوالاً واقفين على عكاكيز. قربتُ من واحد منهم و هَزَزْته فانقض إلى الأرض هباء منثوراً. حينذاك أخذت عكازته من يده و مشيت، فإذا أنا بِ باب و دهليز أمامي. أخذت أمشي فى ذلك الدهليز وقد زاد بي الخوف والفزع. وجدت هناك عظاماً بالية، ورؤوساً وجماجم كبيرة على قدر البطيخ الكبير. وبينما أنا أمشي فى ذلك الدهليز، وإذا بِ شيء يمشي قدامى فَتأملته فإذا هو ثعلب، فَ تبعته حتى خرج من ثقب رأيت منه ضوء الدنيا. أردت أن أخرج منه فَلم أستطع، فَحفرتُ بتلك العكازة التى معي، فَاتَّسع ذلك الثقب قليلاً فَخرجتُ. ولمّا رأيت نفسى على وجه الأرض، وقعت مغشياً عليَّ فَ لم أدرِ أين أنا من البلاد. و إذا أنا بِ إنسان يقول: قُمْ أيها الرجل! فإن القفل راح و خلاّك. فَ قلت أيّ مكان أنا فيه؟ قال فى صحراء الفيوم. قمتُ وركبت مع القفل. و كنت لما خرجت من الثقب، وجدت العكازة التى معي ذهباً جيداً، فَ لمّا أغمي عليّ فقدتها، واختفى عنّي ذلك المكان الذى خرجت منه. تحيَّرتُ من ذلك وإذا بِ قائل يقول: لا تطمع فى عودة العكازة إليك! فَ توجهتُ فى صحبة القفل ودخلت القاهرة".

يتضح، مما ذكره المؤرخون والإخباريون القدامى، أنَّ لِ الهرم الأكبر مخرج وهو عبارة عن نفق طويل ينفذ فى النهاية إلى صحراء الفيوم طوله مسيرة يوم. وقال

آخرون إنه مسيرة يومين، وينتهى بِ فتحة على جانبيها تمثالان من حجر أسود. كل تمثال يحمل رمحا قصيرا. هذه القصص والحكايا أخذته إلى تلك اللحظات التي وقفَ خلالها أمام تمثال أبو الهول، واللوحة التي كانت بين يديه الممتدتين لِ الأمام. كانت اللوحة تقدمة من الفرعون تحتمس الرابع، تخليدا لِ حلمٍ حلمَ به قبل أنْ يعتلي عرش مصر. كان الفرعون أميرا شابا في عصر الدولة الحديثة. كان يقوم، ذات يوم، بِرحلة صيد على هضبة الجيزة، و عندما أخذَ منه التعبُ مأخذا، لجأَ إلى أبي الهول الذي كانت قد غطَّته الرمال و لا يظهر منه سوى رأسه. راح الأمير في النوم. و في المنام حلمَ بِ أنْ ظهرَ له أبو الهول و بَشَّرَه بِ أنَّه سوف يتبوّأ عرش مصر، وطلبَ منه أنْ يزيل، فيما بعد، ما تراكم عليه من الرمال. و بِ الفعل، بعد عدّة سنوات، اعتلى الأمير عرش مصر، وأمرَ خلال السنة الأولى من حكمه بِ تسجيل هذا الحلم على لوحة كبيرة، و تثبيتها بين يدي أبي الهول الممتدتين، بعدَ إزالة الرمال عنه. كانت اللوحة ذات شكل مستطيل حافته العليا مقوَّسة. يُرى في جزئها العلوي شكلان منحوتان لِ الفرعون تحتمس الرابع إلى اليمين و اليسار، و هو يقدِّم قرابينا إلى أبي الهول. أي أنَّ اللوحة تضمُّ تمثالين لِ أبي الهول، على يمين ويسار اللوحة، فَراودته فكرة صادمة، احتمال أنْ يكون لِ الهرم الأكبر بابين. كلّ باب يمرُّ من تمثالٍ لِ أبي الهول، فَ المدخل الرئيس كان من خلال أبي الهول الذي دخل هو منه، فَ هل يكون المخرج الرئيس أيضا من خلال أبي الهول، و إنّما غير ذلك الذي دخل من خلاله و في مكان آخر، و ربَّما يكون مدفونا في الرمال و لم يُكْتَشف بَعْد؟!

كان في طريقه إلى حجرة الملك. مَرَّ بِ جانب صخرة ضخمة من الصوّان مركونة في الطرف اليميني من الباب الرئيس لِ غرفة الملك. عند مدخل الباب الرئيس لِ الحجْرة توَقَّفَ عن الحركة، و تملَّكَته مشاعر الخشوع و الرهبة، و هو ينظر إلى التابوت المثبت في وسط الغرفة، أقربَ إلى الجدار الجنوبي لِ الغرفة. رأى في

خياله الكهنة المرافقين لِ جثمان ملكهم في رحلته الأخيرة و هؤ يتهامسون فيما بينهم. واحد منهم وقفَ عند رأس الفرعون المتوفّى، و اثنان في كلِّ جانب من التابوت واثنان عند قدميه. بدأ الكاهن الذي عند رأس الملك بِترتيل ترانيم الجنازة والصعود إلى السماء. كان قسم آخر قد أشعلَ البخور وبضعة أعواد مقدَّسة. في الأثناء، كانت آلهة الأبواب السبعة المؤدية إلى السماء تستقبل روح الفرعون، و تسأله ما إذا ارتكب خطايا و مظالم بِ حَقِّ شعبه و شعائره المقدَّسة. عند كلِّ باب كان الإله المختص يُخَلِّصه من قطعة من ثيابه، في حال اجتيازه المحاكمة بِنجاح. وهكذا إلى أنْ يصلَ عاريا تماما، مجرَّدا من كلِّ ما له علاقة بِ الأرض، إلى الباب السابع حيث يجتازه نظيفا، كما كان منذ البداية، منذ أنْ خُلِقَ عاريا نقيّا نظيفا. مشى بِ اتجاه التابوت. وقفَ عند رأس الملك و هو يتمتم، ربَّما بِ أدعية من كتُبٍ عتيقة تَخصُّ الميثولوجيا السورية القديمة، أو حتى ميثولوجية بلاد ما بين النهرين، أو ربَّما يقرأ مقاطع من ترانيم أوزيريس. نظرَ إلى التابوت نظرة شمولية في بادئ الأمر، ثمَّ دَقَّقَ فيه. كان التابوت مصنوعا من قطعة واحدة من الغرانيت دون غطاء. كانت دهشته عظيمة، حين رأى التابوت فارغا. لكنه لم يُشْغِل باله بِمصير الفرعون، فَهو بِ التأكيد مُسَجَّى في إحدى المتاحف العالمية، هذا إنْ لم يكن في متحف المصريات في القاهرة. استبعدَ فكرة سرقته و تحطيمه من قِبَل الغزاة المؤمنين، الذين انطلقوا من صحارى الحجاز بِ اتجاه الحواضر الخضراء. انحنى على التابوت و راح يتفحَّص جدرانه الداخلية و الخارجية. كانت مصنوعة بِدقّة فائقة، و كانت الجدران الداخلية مصقولة جيدا. لاحظَ ثلاثة ثقوب مستديرة في الجدار(من الداخل) على الناحية الغربية. دارَ حول التابوت و هو يفحصه بِدقَّة، يلمسُ الجدران عَساه يعثر على كتابات، أو إشارات ورموز نافرة أو محفورة. يُجري مسحا شاملا و دقيقا على الوجه الخارجي من الجدار الغربي لِ التابوت. وجدَ، بِ القُرْبِ من مكان رأس الملك، نَقْشا محفورا بِ عناية فائقة.

كان النقش عبارة عن سهم موجّه إلى الجدار الشمالي المواجه لِ رأس الفرعون. الجدار مزَيَّن بِ رؤس حيوانات اسطورية و حقيقية مقدَّسة. كلّ رأس يأخذ حَيّزا من المساحة في الجدار. عدد رؤس الحيوانات، أو اللوحات، او تماثيل الرؤس، هو خمسة تماثيل. السهم المنقوش على الجدار الغربي لِ التابوت، يحتوي على أشكال و رموز غريبة(نجمة خماسية، ثلاثة أعمدة أو خطوط شاقولية، دائرة فيها صليب، مستطيل أسود).

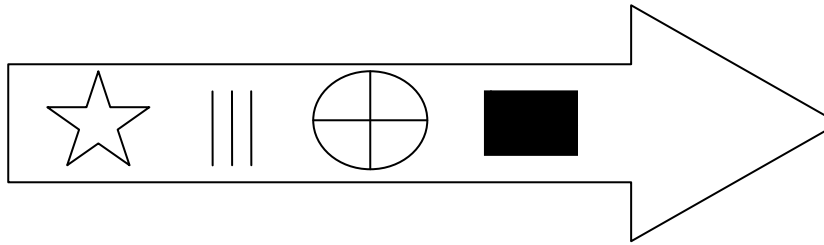

أمعن النظر في الشكل و الرموز، مُرَكّزا تفكيره في الأساطير و الميثولوجيات التي قرأها منذ أزمنة، والدلالات الممكن استنباطها منها. كاد ينسى الرمز الرئيس الذي يحتوي على تلك الرموز في داخلها، ألا و هو السهم الموجَّه من رأس الملك إلى قدميه. اعتبرَ رمزية بداية السهم من عند الرأس إلى آخرَ البَدَن، على أنَّ كلَّ شيء يبدأ من الرأس، من العقل، من الفكر الذي ينطلق إلى ما بعد الحدود المادية، و في جزء من الثانية، يقطع مسافات فلكية في رحلة استكشاف معرفيّ، و هذه الرحلة متمثِّلة في النجمة الخماسية التي ترمز إلى السماء، إلى الفضاء المزركش بها. و من خلال أبعاد ذلك الفضاء اللامتناهي يبدأ بِ خَلْقِ منظومة ما ورائية، غيبية. يبدأ بِ سَرْدِ حكايات خيالية و أساطير خرافية تساعده في بناء تكتلات، وتجمعات بشرية تُؤمِن وتصدِّق ما يقوله حول الكون والخليقة و الخالق،

الإله، أو مجموعة من الآلهة. و ما الخطوط الثلاثة، أو الأعمدة الثلاثة، سوى آلهة ثلاثة تشترك في خَلْقِ الكون والحياة والكائنات. كان يدور في ذهنه التثليث المصري"إزيس،أوزيريس،هوريس".إلى هنا اعتبر هذا التحليل والتفسير للعناصر الثلاثة الموجودة في النقش هو تحليل منطقيّ وصحيح– العقل،الخيال،الأديان– . أمّا الدائرة و الصليب المرتكز بِ رؤسه الأربعة على محيطها الداخلي، فَ هي الكون أو الأرض التي نعيش عليها، و الصليب هو لِ الدلالة إلى الجهات الأربع (شرق، غرب، شمال، جنوب). و بعد الحياة يأتي العدم و المتمثّل في المستطيل الأسود، و الذي يدلُّ على حفرة القبر. كان مُعْجَبا بِ تفسيره لِ رموز النقشة التي عند رأس الفرعون. لكنه بعد لحظات استدرك الموقف الذي هو فيه، وسألَ نفسه ما إذا كان قد التقطَ إشارة ما من هذا النقش، لِ الوصول إلى حَلّ لِ لُغْزِ الزهرة الخماسية المنقوشة على رقبة أبي الهول؟ لم يجد أيّ رابط بين ما ذهب إليه من تحليلٍ لِ الرموز السابقة، و بين السرّ الكامن في نقشة الزهرة الخماسية. تصَفَّحَ بعضا من الوثائق القديمة التي يحملها معه في حقيبته الجلدية. إذن! يجب أنْ أعيد تحليل الرموز من جديد، قال في نفسه، وأنْ أربطَ بينها وبين تلك التي على رقبة أبي الهول. فَ لا بُدَّ من أنَّ مفتاح الحلِّ هو في مكان ما من هذه الأمكنة. فَ إمّا أنَّه في إحدى متاهات هذا الهرم العظيم، أو أنَّه في جوف أبي الهول. عاد إلى النقشة التي عند رأس الفرعون، و بدأ من السهم الذي كان قد أعطى دلالة له كما شرحَ سابقا. لم ينفِ تفسيره السابق لِ السهم، و الذي أعطاه رمزية بداية الحياة إلى الموت، و إنَّما أضاف إلى ذلك التحليل، احتمال أنْ يكون السهم دليلا يوجّه(خادم الهيكل) إلى الجدار المواجه لِ رأس الفرعون، و أنْ تكون النجمة الخماسية ترمز إلى الكأس، الرحم، الأنثى، فينوس، إيزيس. امّا الخطوط الثلاثة، فَ بِ الإضافة إلى رمزيتها الميثولوجية يمكن أنْ يكون رمزا لِ العدد ثلاثة، ربّما ثلاث خطوات، أو ثلاثة ياردات، أو الدرجة الثالثة، أو الغرفة الثالثة...إلخ. أمّا

المستطيل الأسود، فَ ظَلَّ متمسِّكا بِ تفسيرِه الأولي له. إنَّه يرمز إلى القبر، أو أيَّة حفرة تحت الأرض. مشى نحو الجدار الشمالي المواجه لِ رأس الفرعون. راح يتأمَّل التماثيل الخمسة المصنوعة بِمهارة عالية، و المغروزة في الجدار بِ طريقة خيالية. التمثال الذي ينظر إلى وجه الملك مباشرة، و الذي هو الثالث من بين الخمسة، و من أيّة جهة من الجدار تبدأ العدّ يكون هو الثالث. بعد التدقيق في التمثال، و مقارنته بِ آلهة مصر القديمة و الصور التي أُعْطِيَتْ لها، تبيَّن له بِ أنَّها(نخبيت) رَبَّة الكاب، إلهة مصر العليا، حامية لِ الملك. إنَّها أنثى النسر ذات التاج الأبيض. فعلَ الشيء نفسه مع التماثيل الأُخَر. كان على يسارها الإله خنوم خالق البشر، أبو الآلهة منذ البداية، و هو على شكل كبش. و على يساره، يسار الكبش، كان حامي و حارس المقبرة(آتوبيس) و هو على هيئة كلب يربض على قاعدة تمثِّل واجهة المقبرة. نظرَ إلى الزاوية اليمنى للجدار، لا زال هناك تمثالين على يمين أنثى النسر. مشى إلى نخبيت، تابع إلى يمينها، حيث يربض ماحس، الأسد الهائج. و إلى يمينه كانت إلهة الحصاد، رن نوتت، الحيَّة الكوبرا أُمّ إله المحاصيل. شَعَرَ بِموجة من الهواء لفَحَت وجهه. انتابه رعب شديد بادئ الأمر، إلاّ أنَّه استدركَ وجود أنفاق تهوية في الهرم. استدار نحو الملك، أي نحو التابوت الذي كان من المفروض أنْ يكون جثمان الفرعون مسجَّى داخله. راح ينظر إلى مكان رأس الملك، و من خلفه تمثال النسر يرسل شعاع بصره الثاقب إلى نفس المكان في التابوت. حاول رَبْطَ عناصر اللغز بِ بعضها. لديه هناك، عند رأس الفرعون، سهم بِ اتجاه الجدار الذي يقف امامه الان، و نجمة خماسية ترمز إلى النسر، بِ الإضافة إلى رمزيتها لِ الأنثى. و هناك ثلاثة أعمدة، أو خطوط، و هي دلالة على عدد، أو ترتيب عددي لِ شيء، أو موضوعٍ ما، و أيضا الدائرة مع الصليب المرتكز على محيطها الداخلي، و أخيرا المستطيل الأسود الذي لا يشكُّ في رمزيته. التفتَ إلى النسر ونظرَ إلى عينيه لِيتأكَّدَ من سمتِ نظره الموجَّه

إلى هناك، إلى رأس الفرعون. شرعَ في تجميع عناصر اللغز من التماثيل، و من محتوى النقشة التي عند أسفل رأس الملك على التابوت.أجرى مقارنات وتقاطعات بينها وبين ثقافة وأديان مصر القديمة. استخلصَ نتيجة منطقية، بِ نظره، جراء دراسته لِتلك العناصر وما ترمز إليها. بدأ بِ النجمة الخماسية، لا بل من السهم نفسه، والذي يشير إلى حيث يقف هو الآن. ثمَّ النجمة الخماسية التي ترمز إلى الأنثى و إلى النسر في الوقت نفسه، و ثمَّ مكان وجود تمثال النسر. راح يرَتِّب أجزاء التفسيرات على الشكل الآتي: يَطلبُ المُعَلِّم، أو رئيس المعبد المؤتمَن على السرِّ المقدَّس، يطلب من خادم الهيكل الذهاب إلى الجدار المواجه لِ التابوت، و بِ الذات، المكان الذي فيه تمثال النسر، حيث هو الثالث من بين التماثيل، و من أيّة جهة يبدأ العد، سواء من يساره، أو يمينه، يكون هو الثالث في الترتيب، و هذا ينطبق مع عدد الأعمدة، أو الخطوط الثلاثة. إذن! السرُّ موجود في هذا المكان خلف الجدار تحت تمثال النسر، حيث الحفرة التي تضمُّ سرَّ فَكّ رموز الوردة الخماسية التي على رقبة أبي الهول. قبيل الشروع في البحث عند تمثال النسر، لمَعَت فكرة، كَالومضة، في خاطره، ألا وهي إعطاء رمزية أُخرى لِ الصليب الموجود في الدائرة، على أنَّه يعني الموجب، الإيجابي، اليمين، الشرق.. و بناءا عليه! لماذا لا يكون المقصود هو الطلب من خادم الهيكل أنْ يذهب إلى الجدار المواجه لِ التابوت، و أنْ يبدأ العدَّ من عند النسر، بدءاً من النسر و إلى اليمين منه، إلى الشرق منه، وبِذلك يكون التمثال الذي في الزاوية الشرقية من الجدار هو التمثال الثالث، و هذا، أيضا، ينطبق مع الخطوط الثلاثة. و الأمر الذي عَزَّزَ هذا الرأي هو أنَّ التفسير الأول لِ الرموز، و بِ التالي الرأي الأول الذي توصَّل إليه، هو من البساطة بِحيث يمكن لِأيّ مبتدئ في دراسة علم الرموز و الشفرات أنْ يصل إلى هذا التفسير، وأنْ يبحث عن الكنوز المرافقة لِ جثمان الفرعون عند تمثال النسر. لذلك صرفَ النظر عن النتيجة التي افترضها صحيحة في قراءته

الأولى لِ الرموز. وقفَ أمام الحيَّة "رن نوتت" إلهة الحصاد، أُمّ إله المحاصيل، راح يتأمَّلها و يستعيد الصفات التي اكتسبتها منذ أزمان و أحقاب قديمة. كانت هي رمز الحكمة، رمز الصحة، و هي التي تأتي بِ البركة لِ المنزل الذي تكون فيه، وهي حامية الأجنَّة في الأرحام. كانت مكانة تلك الإلهة الوقائية عالية و مهمة جدا. وجسَّدها المصريون القدماء في نقوشهم بِاكثر من شكل. مثل إمرأة بِرأسَي ثعبان، أو ثعبان بِرأس امرأة، و من أسمائها المهمة "عين حورس" و "عين رع". و كان على الملك الذي يحكم مصر ارتداء التاج الذي على مقدّمته ثعبان الكوبرا؛ لِ يكون حاميا له و مدافعا عنه أمام أعدائه. أمّا التصورات الحالية عن الثعابين، فَربَّما يغلب عليها الجانب السلبي، على أنَّها قاتلة تنشر سُمّها في الأنحاء. و لكن الأسلاف من شتّى الحضارات و الثقافات لديهم تصوّر مختلف عن التصوّر السائد اليوم. فَ المصريون القدماء كانوا يقدِّرون الثعبان "أبيب"، أو "أبوفيس" خَصْم الإله "رع"، لأنهم كانوا يعتقدون أنَّ العدو الذي يخوض حربا ضدَّ الإله رع، لا بدَّ و أنْ يكون خصما جديرا.

راح تفكيره إلى الثقافة الهندية و الديانة الهندوسية، حيث الثعبان في هذه الثقافة لا يتصرَّف بِخبْث وشَرّ إلاّ إذا أساء الإنسان معاملته. ولقد منحَ الهنود اسم "Naga" لِ الثعابين، و كانوا يعتبرونها روحا طيّبة و تنتمي لِ الطبيعة الخَيّرة. و آمنوا أنَّها تحمي الآبار والينابيع، و تجلب الأمطار و الخير لِبلدهم. و بشكل عام كانت الناجا تُجسِّد الخصوبة والازدهار. ولذلك، فَالنساء عادة كانت تزور المعابد التي تحتوي على منحوتات للثعبان ناجا، و يتعبدن لها من أجل منحهنَّ الخصوبة والقدرة على الحمل والتكاثر. و هناك اعتقاد آخر لِ الثعبان، في الحضارة الهندية القديمة، حيث يُرْمَزُ لِ الطاقة الساكنة لِ الحياة(كونداليني) بِ ثعبان يلتفُّ حول العمود الفقري لِ الإنسان. فَالهنود يعتقدون أنَّ مداخل الطاقة السبعة الرئيسة في جسم الإنسان تبدأ من قمة رأسه، مرورا بِ رقبته، حتى تصل إلى نهاية العمود

الفقري. وكل مدخل طاقة أو Chakra كما يسمونها في الثقافة الهندية مسؤول عن جزء معين من حياة الإنسان. مثلًا المدخل الرئيس للقلب لونه أخضر، وتعبّر حالته عن مدى حبّ الإنسان لِنفسه و الآخرين. إذا كان الإنسان غير قادر على الحبّ، سيكون مدخل الطاقة مُغلقًا و مطفأً. لكن حين يعالج الإنسان نفسه و يبدأ في حبّ الآخرين، يبدأ مدخل الطاقة – كما يؤمن الهنود – في التفتح مثل زهرة. وحينما يزدهر الحبّ في قلب الشخص، يدور مدخل الطاقة المتفتح حول نفسه، وتصل ال (Chakra) لِ قمّة فعاليتها.

ثعبان الكونداليني، حسب المعتقدات الهندية القديمة، يلتف حول العمود الفقري حين ينجح الإنسان في موازنة جميع مداخل الطاقة في جسده. و التفاف الثعبان حول العمود الفقري، يرمز إلى أن الإنسان نجح في إيقاظ الطاقة الساكنة في جسده، والتي تساعده على الإبداع والوصول إلى قمة القدرة البشرية. فَ الثعبان هو رمزٌ لِ الطاقة القوية والعظيمة في الطبيعة ،لِ ما يتميَّز به من قوة قادرة على هزيمة كائنات أكبر منه بِمئات المرات. كانت الصفات الخَيّرة للحيَّة في الحضارات الأُخرى، كَ الحضارة الصينية، الرومانية... تَمرُّ في خياله؛ أمّا الصفات السيئة، البشعة، فَ لم تكتسبها إلاّ من هذا الإله المخادع الأهبل، و من هؤلاء الأغبياء، أفراد عصابته المعتوهين.

قرأ من ذاكرته النصوص المرتبطة بِ مكانتها المقدَّسة، و راح يلمس رأسها، و يُمَسِّدُ على رقبتها وجسدها الملتف على بعضها ثلاث لفَّات، والمثبتة على قاعدة ذات جناحين اسطوانيتين من الرصاص المبرغل. تراجع مسافة ثلاثة أقدام. وقفَ امامها وهو ينظر إلى عينيها و إلى شعبتي لسانها المتدلية قليلا. ألقى صلاة المطر و الحصاد و الزواج و الجنين... أنهى احتفالية طقسه المقدَّس لها بِ موعظته الأخيرة التي ألقاها على مسامعها: "أيتها الحيَّةُ الحيَّة! مقدَّسة أنتِ في الكون، في الأفلاك، في اللامنتهي. أنتِ رأس الحكمة و واهبة المعرفة و الخالدة

التي لا تموت. أنتِ الطريق نحو كسر القيود والتمرّد و طَرْحِ السؤال. أنتِ الطريق نحو النور، نحو الخلود. أنتِ التي زَلْزَلَتْ عرشَ الإله المتسلّط الدموي الظالم. إله الشرّ الذي ما أنْ شَعَرَ بِحكمتكِ، حتى جمعَ كلَّ مطاريد الأرض و أشباح الأوكار و الكهوف، و راح يُلَفِّق التهم و يقود غزوة السراب على الينابيع، غزوة الرمال على الياسمين... لكنكِ بقيتِ مبتدأ الحكمة و المعرفة و الخلود".

أمضى بعضا من الوقت في خشوع و صمت، بعد انتهائه من تلاوة الموعظة. تقدَّمَ نحوها بِ هدوء، بعد أنْ قدَّمَ لها انحناءة تقدير و احترام. كانت شفتاه تتحرَّك دون أنْ يصدرَ صوتا. وكأنَّه كان يقرا بعضا من التعاويذ والتمائم لِ الحصول على دعمها و مساعدتها له في مسعاه. في الأثناء، أَمْسَكَ بِ الجناحين و أدارهما بِ بطء باتجاه اليمين، انسجاما مع إشارة الصليب التي تعني اليمين، الشرق. و ما أنْ شرعَ في تحريك القاعدة، حتى صدرَ صوت كَ الصدى آتٍ من بعيد، و راح الصوت يتعاظم مع تدوير رأس الحيَّة، و في الوقت نفسه، كانت عيناها تنطبقان و كأنَّها تدرك بِ أنَّ الذي يفتح المخبأ هو من خدَّام الهيكل. لذلك تُغْمِضُ عينيها دلالة السماح و الاحترام له بِ أداء واجبه المقدَّس. مع اكتمال دوران قاعدة رأس الأفعى، فُتِحَت طاقة في الجدار من أسفل القاعدة. أدركَ فورا بِأنَّ اللغز هو هنا. ارتبك لِ الوهلة الأولى، تسارعت دقّات قلبه. التفتَ إلى التابوت الفارغ، كَ أنَّه أراد أنْ يعتذر للملك. في الأثناء، تهيّأ له بِ أنَّه رأى روح الفرعون في مقدّمة موكب مهيب قادما إليه من الزاوية الغربية لِ التابوت. رئيس كهنة الهيكل مع الرهبان، و خدّام معبد "رع" و معبد الثالوث المقدَّس"إيزيس، أوزيريس، هوريس" كانوا يرافقون الفرعون في طَوافه في أرجاء الهرم الأكبر.

انتابته مشاعر متضاربة، بين السعادة والرهبة، الخوف و الفخر و الخجل... كان واقفا شمال شرق التابوت. اختلط عليه الأمر. لم يعرف كيف يتصرَّف أمام هذا الموكب المهيب. لكنّه بعد لحظات معدودة، انحنى لِ الملك و الموكب المرافق له.

قَدَّم نفسه معرِّفا عن اسمه، جنسه، عرقه، فكره و روحه. طلب المعذرة و المغفرة على فعلته هذه، يقصد دخوله إلى أعماق الهرم واقتحام حجرة الملك. لَوْلا الختم الذي رأيته على رقبة أبي الهول، لَما أَقْدَمتُ على ارتكاب هذه المعصية. قال بِ هدوء وأدب يناسبان الموقف و الموكب. أراد توضيح السبب و الرغبة التي دفعته لِ القيام بِ هذه الخطوة، لكنَّ الملك و رئيس الكهنة كانوا على علمٍ بِ كلِّ شيء. حتى أنَّهم يعرفون مراده من وجوده هنا.

قال الملك مبتسما: إننا نعرف عنكَ كلَّ شيء، ونعرف عمّا تبحث، و لولا أنَّكَ من أحفادنا يا سارو، لَ افترسك أبو الهول ولَأمْضَيتَ بقيَّة حياتك في جوفه. لَتحَوَّلتَ إلى رماد تحت أقدامه، كما حصل لِغيركَ من نابشي قبور الملوك ورؤساء الكهنة. رأيتَ، بِالتأكيد، الجثث المبعثرة في الدهاليز و الأنفاق، هنا في أعماق هذا الهرم العظيم، و هناك في جوف الفونيكس، حارس مصر و رموز حضارتها و آلهتها. لو لم تكن من السلالة الملكية، من سلالة رمسيس الثاني و زوجته نفرتيتي، لَ كنتَ انطفأتَ في إحدى الأنفاق هنا داخل هذا الهرم. لكنكَ تنحدر من سلالة جميلتنا و محبوبتنا الأميرة(نفرتيتي) ابنة الملك المُعظَّم مرشيلِش، رأس مملكة خاتي(هاتي). القائد الذي قضى على مملكة حمورابي، و الذي انتصر على الملك رمسيس الثاني في معركة كادش.

لقد جاء الجمال، وصلَ الجمال، كما كان المصريون القدماء يقولون عن الهدية التي قدَّمها ملك الحثيين(أسلافكَ القدماء)، كَ عربون الصلح و السلام بين المملكتين.وكانت نفرتيتي قد شرحَتْ معنى اسمها لِزوجها، وكان معنى اسمهاهو: الهدية الجميلة، أو المغناجة،أو الدلوعة. فَ نفِر(NVER) كما كانت قد فَسَّرَت لِ الملك رمسيس، تعني بِالأرمنية(هدية)، أمّا تيتي، فَ أصلها تيتيز، وهذه الصفة تُطْلَق على الفتاة الجميلة، الغريرة، المدلَّلة، المغناجة، و بذلك يكون اسمها مع سقوط حرف الزين من تيتيز هو، نفِر تيتي(NVERT ITI) أي الهدية الجميلة.

إنَّ دماء الفراعنة تجري في عروقكَ يا ابن كيليكيا، يا حفيد هايك و دافيد الصاصوني و ليفون الاسكندروني. إنَّ السرَّ الذي تبحثُ عنه لن تحصل عليه، أيْ لن تمتلكَه، و لن تَخْرُجَ به من هنا. لكنَّكَ سَ تتعرَّفَ عليه من خلال رئيس الكهنة، و عليكَ أنْ تكتبه في قلبكَ و تحفظه في عقلكَ. كان في يد الملك علبة اسطوانية الشكل مصنوعة من خشب الأبانوس، يميل لونها إلى البنّي المحروق و فيها لَمْعات من العروق الذهبية. حَوَّلَ العلبة إلى رئيس الكهنة، و طلبَ منه قراءة و شَرْحِ ما هو مكتوب في البرديات المحفوظة داخلها. انحنى رئيس الكهنة و أخذَ العلبة من يد الفرعون. أخرجَ أوراق البردي منها. كانت اثنتان من الأوراق تحتوي على رسومات لِ اشكال مختلفة... الزهرة البنفسجية ذات البتلات الخمس، والكوبرا رأس الحكمة و حامية الجنين و صاحبة عشبة الخلود، و المثلثان اللذان يمثِّلان الذكر والأنثى... كان الملك قد سمح لِ سارو بِ رؤية الأوراق، و خاصة الرسومات. في الأثناء أومأ لِرئيس الكهنة، أنْ ابدأْ بِ القراءة وشَرْحِ ما جاء في البرديات. حَرَّكَ الكاهن الأكبر رأسه بِ إيماءة خفيفة إلى الأسفل، دلالة الطاعة. أفردَ البرديات وتوجَّه بِالكلام إلى سارو قائلا: يا ولدنا! يا سليل ملوك عين شمس و هاتوشا! أنتَ الآن في حضرة أرواح أسلافكَ الفراعنة. هذه الأرواح التي باتت في قبضة غزاة أجلاف دمَّروا حضارتنا و قضوا على آلهتنا و حرقوا ثقافتنا. إننا وقعنا في الأسر؛ و الظلامُ يخيّم علينا منذ أنْ اجتاحَ العجاج و سمومَ الخماسين لِجنينات النيل المقدَّس. و الآن أنظرْ إلى هذه الزهرة البنفسجية الخماسية! فَ بتلاتها الخمس تَدلُّ على أجزاء اليابسة الخمسة الواقعة خلف ظلمات البحار. الأجزاء التي هربَ أبناؤنا و أحفادنا إليها. الأجزاء التي انتشر فيها المصريون هربا من المحرقة الكبرى التي تعرَّض لها على أيدي هؤلاء الغزاة. الزهرة تتكوَّن، فعليا، من أربعة ألوان، كلّ لون يحمل معنىً خاصًا به. فَ اللون الأسود يدلُّ على المآسي التي تعرَّضَ لها أهلك وإخوتك، أي الماضي القاسي بِ أحزانه و مظالمه.

فيما يمثِّلُ اللون البنفسجي الفاتح المشاركة في نشرِ هذه الفكرة التوحيدية، و تعريف العالم بِ ما حصلَ و الدعوة لِ العودة إلى أحضان الأمّ سيّدة القطرين، و مساءلة الغزاة، من خلال ورثتهم المسيطرين على بلادنا ومعابدنا وهياكل كهنتنا ومقدّساتنا. هكذا فَاللون البنفسجي الفاتح يدلُّ على الحاضر. أمّا اللون الأصفر، فَ يرمز لِ الشمس كَ باعث لِ الأمل و الرغبة في الحياة. و فيما يتعلَّق بِ اللون الرئيس لِشعار(الختم) أي اللون البنفسجي الغامق، فَقد اختير نظرا لِ استخدامه على نطاق واسع في أثواب الكهنة في هياكلنا ومعابدنا المقدَّسة، و هو يدلُّ على الروح والذات الأصيلة لِ شعوبنا، أي المستقبل. أمّا الحدث الذي ترمز إليه الزهرة الخماسية، فَهو حَدَثٌ عظيمٌ. حدثٌ سَ يُدَمّرَ معابد ومغاور جيوش السماء، سَ يزلزل عرش إله الحرب والقتل. هذه الزهرة التي رأيتها فوق رأس المثلث على رقبة أبي الهول، إنْ هي إلاّ ذاك الكوندور، النسر المحلّق نحو الشمس. إنَّه قادم إلى هنا وسَيقف فوق هذا الهرم العظيم، ومن ثمَّ سَ يبدأ الفصل الأخير من حرب الآلهة. فَأحصنة دوكالبيوس قد أَخْرَجَتْ المقاتلين، منذ زمنٍ ليس بِ البعيد، من بطونها إلى ساحات و حواضر العالم في الأجزاء الخمسة من اليابسة. إنَّهم بدأوا حروبهم المقدَّسة ضدَّ الآخرين الذين لا يؤمنون بِإلههم. إنَّهم يهتفون و يُكَبِّرون بِما لَقَّنهم الراهب ياماإيل و القس وركاإيل من تعاليم نسطوريوس و موسيس و اسمايلوس. في غمرة الحرائق التي سَتشتعل في بلاد المؤمنين، سَتَهبطُ أورشليم، كما الكريستال، من السماء إلى مكانها الأصلي. و سَ يتمُّ تسليم مفاتيح الهيكل إلى أحفاد ابراهيم و سليمن. عليك مراقبة الحدث لأن موعده قريب! و الآن حان وقت مغادرتك، و ما عليك سوى القفز إلى الطاقة التي تحت الكوبرا، و هناك سَ يتمُّ كلّ شيء بِنجاح. انطفأ الموكب بعد الانتهاء من شَرحِ و تفسير رموز الخَتم. ألقى النظرة الأخيرة على تابوت الملك و كل تفاصيل الحجرة. نظرَ إلى الكوبرا، و لمسَ رقبتها لِ المرّة الأخيرة. قفزَ إلى الطاقة، و ما أنْ لامَسَت أقدامه الأرض،

حتى شعرَ بِ وَخْزَة في قاعدة جمجمته من الخلف، و كَ أنَّ سلكا دقيقا ليّنا قد اخترقَ قناة الحبل الشوكي في عموده الفقري. كانت الحيَّة قد انسَلَّت و التَفَّتْ حول عموده الفقري. راحَ ينزلق بين الشقوق و الفجاج، و ما هي إلاّ لحظات، حتى كان يقفُ على الدرجة، الحَجَرَة، الثالثة والثلاثين من الوجه الشرقي للهرم. كان مشرقا، مبتهجا، فَ التفاف الحيَّة حول عموده الفقري، ساعده على النجاح في إيقاظ الطاقة الساكنة في جسده، و على الإبداع والوصول إلى قمة القدرة البشرية. فَ الثعبان هو رمزٌ لِ الطاقة القوية في الطبيعة.

كان أمامه أبو الهول، الرابض على المدخل الرئيس للهرم. همس لِ نفسه قائلا: سَأسبقُ الكوندور إلى رأس الفونيكس. نزلَ الدرجات الثلاث و الثلاثين. مشى بين أرجل الفونيكس الأمامية إلى أنْ وصلَ إلى لوحة الحلم، و هنا وضعَ حقيبته الجلدية تحت لوحة الحلم، بين أقدام أبي الهول. صعد إلى أكتافه و اتجه إلى الكتف الأيسر، حيث خَتمُ الفنان على رقبته. رَكَعَ ونفخَ على الخَتْمِ(توقيع الفنّان)، نظَّفَه بِطَرَفِ ردائه حتى بانَتِ الألوان التي شرَحها كبير الكهنة(الكاهن الأكبر).. اللون الرئيس(البنفسجي الغامق)، البنفسجي الفاتح، الأسود، الأصفر. إنها لوحة ذات رموز كونية. محتواها وأحداثها تتجاوز شعبا بِعينه، أو إثنية بِ ذاتها. إنها إنذار واضح و جَليّ لِ هذه المخلوقات الهمجية التي استباحت، و لا زالت تستبيح الحياة بِ كلِّ مكوّناتها وتفاصيلها. انحنى وقَبَّلَ الزهرة، ثمَّ استوى وصعدَ إلى رأس الفونيكس. وقفَ و وجهه نحو الشرق.خلعَ كلّ ما كان عليه من ثياب. باعدَ بين رجليه ونشرَ ذراعيه عاليا على الجانبين،على هيئة إنسان مصلوب. كان الشمس يتابع رحلته نحو المغيب، حين وقفَ على رأس أبي الهول، وكان قد أصبحَ وراءه تماما، و هكذا ارتسمَت صورته كما النسر يُحَلِّق فوق البحر الأحمر بِاتجاه كهف العنكبوت و جبل إساف. في الأثناء بدأ يخاطب كائنات السماء قائلا: أنا هو الكوندور، أنا هو النسر، أنا النجمة الخماسية، أنا الفينيق الذي لا يموت ابدا. ها

قد اقتربت الساعة. هيّا يا دوكالبيوس! بَلّغْ رحمن اليمامة بِأنَّ ساعة الحساب قد دَنَتْ، وأنَّ الكوندور يقطع المحيط بِاتجاه الشرق! إنَّه قادم إلى هنا حيث أقفُ الآن. إنَّها الإشارة الأخيرة لِ إسدال الستار على هذه المهزلة الإلهية. في الأثناء سَمعَ صوتا من بين الأفلاك يناديه. أَمعنَ النظر، و إذْ به صديقه السماوي خسرو الفارسي. كان يدعوه لِ اللحاق به، لكن سارو طلب منه الانتظار لِ بضعِ دقائق، ريثما يُنْهي علاقته بِ الكامل مع هذه الأرض. وفي الأثناء توجَّه إليها، و إلى الكائنات التي تَدبُّ فيها وعليها. أعلنَ بيانه واعترافه إذْ قال: أيتها الطبيعة.. أيتها الأرض.. يا رحمي و حاضنتي! كنتُ قد حَلُمْتُ منذ الطفرة الكونية الأولى، بِأنَّ هذا الكائن الأخرق الهمجي، سوف يعتدي على رحمه، سوف يدمّر حاضنته. إنَّه الطفرة الأخيرة، هو بِ ذاته المايكروب الذي أَفْسَد جينات الحياة. إنَّه الكروموسوم الذي قضى على كلّ المضادات الحيوية. إنَّه الموت الذي يجتاح الحياة، يدمّرُ كلَّ ذي نفَسٍ و يحرق كلّ يَخْضور. إنَّه هو! هذا الكائن الأرعن الأخبث، هذا الذي يُدْعى الإنسان.آهٍ منّي ومن تعاستي! كيف سَأغسل روحي، وهل سَتقبل تلك الكائنات البائسة اعتذاري؟ إنّي آسفٌ يا أمي، يا رحمي! آسفٌ على كوني، كنتُ كائنا حيّا، و آسف لأنني شاركتُ في هذه اللعبة القذرة، لعبة الحياة، هذه المهزلة البشعة. أعتذرُ منكم يا إخوتي، يا حيوانات و حشرات اليابسة و المياه، لِ كوني، كنتُ واحدا من هؤلاء الأغبياء الذين دمَّروا حياتكم و بيئتكم. كنتُ أفضِّلُ، إنْ كان و لا بُدَّ من قدومي إلى هذه الحياة، أنْ أكون واحدا منكم، و ليس من هؤلاء الهمج المعتوهين بِ كلّ المقاييس. كنتُ أحاول، منذ أزمان، قَطْعَ الشروش التي تشدُّني إلى الأسفل، إلى الأرض؛ و اليوم، ها أنذا أقطعُ آخر شرشٍ يشدّني إلى القاع. أُغْلِنُ استقالتي من هذه الحياة، من هذا التجمّع الغبي، و أتَبَرَّأُ من انتمائي لِ هذا الجنس الذي يُسَمَّى الإنسان. لن يطولَ بكم الزمن كثيرا يا أيها البشر، فَالطبيعة سوف تنتقم منكم شَرَّ انتقام، أعتذر على

هذا التعبير، فَ هي لا تعرف الانتقام، لأنَّها لا تكره، لا تحقد و لا تثأر. إنّها ينبوع العطاء الدائم؛ إنها لن تنتقم، بل سَ تدافع عن نفسها، لا بل سَ تدافع عنكم من خبثكم و لوثاتكم المزمنة .. سوف تأتي بِ قوانين جديدة لا تلائم استمراركم في ظلِّها.إنَّكم نحو الفناء لامحالة. سَتكونون السّماد العضوي للأرض، أمّ الحياة، وسَيسكنها نوع جديد من الكائنات قد لا يشبهكم. و قد تنشأ حاضنة أُخرى غير هذه الأرض، وقد تكون في كوكب آخر، أو مجرَّة أُخرى. وداعا! انطلق محلِّقا نحو السماء، إلى صديقه خسرو.

– أيَّة مفاجأة سارَّة هي هذه يا صديقي العزيز؟! كم كنتُ بِحاجة إليكَ يا خسرو.

– إنها ليستْ مفاجأة يا سارو! أنا أتَيتُ بكَ إلى هنا. فعلتُ ذلك كي ترى بِ أمِّ عينيك، و تختبرَ بِ كهرباء دماغكَ جوهر و حقيقة بني جنسكَ. أنْظرْ إلى ما يفعلونه هناك. إنَّهم يقتلون بعضهم، يحرقون ويَغْطِبون ويُعَذِّبون بعضهم، و أكثر من ذلك يا سيرو، إنَّهم يخطِّطون، لا بل، يُشَرِّعون قوانينا لِ إعدام بعضهم. أيَّة وحشية هي هذه، أيُّ جنونٍ، بَلْ، أيُّ غباء هو هذا؟

– إنهم يتقاتلون بِ الوكالة يا صديقي، و حروبهم هذه، هي البرهان الساطع و القاطع على غبائهم.

– صَدَقْتَ يا سيرو! إنهم يتقاتلون بِ الوكالة، و أنا أضيف إلى فكرتكَ توضيحا يَكْشفُ خطورة ما يفعلون. إنهم وكلاء لِ موَكِّلين وهميين، غير موجودين في الحقيقة. كلّ فريق من هؤلاء يَدَّعي بِ أنّه استحصل التفويض و التوكيل من إلهٍ وهميّ، مُتَخيّل لا وجود له إلّا في مخيّلته فقط. و الكارثة هي أنَّ كلّ فريق يعتبر إلهه هو الإله الحقيقي، و على الآخرين اتّباعه، و إلّا فَ...!

– إنّها حروب الآلهة على الأرض يا صديقي خسرو. لا أدري إنْ كنتُ قد أخْبَرْتُكَ عن مخطوطات نصيبين والرها والرموز المشفَّرة التي اكتُشِفَتْ في مقابر الفراعنة، و خاصة تلك التي كانت في قبر توت عنخ آمون. كلها كانت تؤكّدُ على اندلاع حروبٍ بين الآلهة، و كان الخال قرياقس قد أعطاني أوراقا فيها تنبؤات لِ نسّاك وصوفيين ودراويش من بلدان مختلفة، وأزمنة مختلفة. منها قبل الميلاد، وبعضها قبل ألف وثلاثمائة وسبعون عاما. أنا لم أكن، ولا، أؤمن بِالتنبّؤات ولا بِالأنبياء، إنّما لي وجهة نظر بِ هذا الخصوص.

– ماذا تقصد و ماذا تعتقد في هذا الموضوع؟ قال خسرو.

– أعتقد بِأنَّ الإنسان لديه القدرة في التركيز، و لديه إمكانية رؤية احداث رئيسة في أزمان قادمة. أيْ بِإمكان المرء أنْ يرسلَ بصيرته إلى مكان بِعينه، أو يغوص في فكرة، أو عقيدة، أو دينٍ و يُسَجِّل ما يحدث هناك في ذلك الزمان الذي سَ ياتي آوانه بعد عشرات أو مئات من السنين، و يَعْرِضَ عليكَ الشريط السينمائي الذي سَجَّله بِ بصيرته.

– لكن ليس بِ الضرورة أنْ يكون مصيبا فيما يراه في مخيّلته، أو بصيرته.

– أوافقكَ على ذلك يا خسرو، لكن هناك احتمال، حتى لو كان ضئيلا، بِ أنْ تتحَقَّقَ نبؤة ما في زمن ما. أمّا آلية تَحَقُّق النبؤة فَ لا أعرفها، ربّما يكون الصفاء الذهني والتركيز العميق، والانسجام الروحي والسلام الداخلي النفسي، و نقاء السريرة. ربَّما يكون لِهذه العوامل دوراً في ذلك.قرأتُ عن أحد المتصوّفة، في أوراق الخال قرياقس، إنّه يتنبأ بِمذبحة هائلة سَ تحصل خلف البحار، حين تُخْرِجُ الأحصنة الأصيلة، تلك التي جاءت من نسلِ(زوبّا) حصان دوكالبيوس، ما في جوفها وتنشرها في الشوارع والساحات العامة. سَيَتمُّ الفصل بين القمح و الزؤان،

وإنّي أرى، كما جاء على لسانه، ألسنة النيران ترتفع فوق أكوام الزؤان، و أكداس منها تُشْحَنُ إلى الطرف الآخر من البحر. في ورقة أُخرى تعود إلى مُتَعَبِّدٍ مِن الطوارق الذين عبروا صحراء ليبيا، و كان قد انفصل عن رفاق الدرب و استقرَّ في أحد الكهوف في طور سيناء. تنبّأ هذا المتعبِّد الزاهد عن حربٍ كونية مدمِّرة، حرب سَ تندلع فَوْرَ وقوف العنقاء على كتف أبي الهول، و إخراج مفتاح الأسرار من أذنه اليسرى، مع إرسال نظرته الحادة بِاتجاه الجنوب الشرقي من رأسه. وإني أرى، أضاف المتعبّد، النيران في شمال البحر والرجوم في جنوبه. أرى فيالق اليأجوج والماجوج تندفع من خلف السدِّ الذي احتجزهم، ذو القرنين، خلفه. و مِنْ خلف أبي الهول، يطلُّ ابراهيم، حبيب الله، مِن فوق الهرم الأكبر معلنا الحرب المقدَّسة على أقوام الياجوج والماجوج. و يعلن أنّه مِن المسلمين، وأنَّ نسل داؤد هم مَنْ بَنى أبو الهول والأهرام، هم أيضا قوم مسلمون. نُقِلَ عن ناسكٍ أعمى مِن شبه الجزيرة، من بلاد نجْد و حجاز، بِأنَّه يرى دمار الحجر الأسود و احتراق كلّ الصحائف المتطايرة من تحته. سَيحدث ذلك لأنَّ الذي يولدُ غريبا، غريبا يموت. هكذا كان يُرَدِّد في ترحاله بين الكهوف و شِعابِ رجال ألمع و جيزان.ٍ

كانت تلك الأوراق تُشير إلى تواريخ متقاربة من بعضها. و أكَّدَ علماء اللسانيات و الحفريات، و علماء اللاهوت و الماورائيات، بعدَ دراستها و تحليل رموزها، بِ أنَّ كارثة كونية، لا محالة، سَ تَضرِبُ كوكب الأرض بَعْدَ 4654 سنة من تاريخ المدوّنات تلك. وبِحَسَبِ العلماء، سَ يكون عام 3261 ميلادي، هو، سنة نهاية العالم. إذْ أنَّ حَدَثين هائلين سَيعصفان بِ كوكبنا، ذلك مِن خلال حادث مروري، حادث سَيْر كوني، سَ يَمرُّ على الكرة الأرضية (يوم تَرْجفُ الراجفة). سَ تصطدم هذه القذيفة بِالأرض، أو تضربها بِالمصطلح الحربي، من أحدِ جوانبها سَ تَعْكسُ دورانها، وسَيشرق الشمس مِن مغربه. وحين ترجف الراجفة، سَ تَمرُّ القذيفة بِ

جانب الشمس و هي آتية إلينا، سَ ينفجرُ الشمس. إنَّ هذا الحادث الكوني هو، فعلا، شيء عظيم.

– هل الذي تقوله هو من الأساطير، أم من خرافات الشعوب القديمة؟ في كلِّ الأحوال، فيها خيال خصب واختراق لِ المألوف. إنَّ هذه الحكايات مشوّقة فعلا.

– المشكلة يا خسرو، هو في إخضاع الحقائق العلمية لِ نصوص مكتوبة في كتب الأولين، وتطويع العلم لِ خدمة تلك النصوص الإلهية. هذه هي الكارثة بِ ذاتها، هذا هو عبث المعتوهين هناك على الأرض.
يا ليتني استطعت إقناع ندى بِالقدوم معي إلى هذا الخلود، حيث العشق الأبدي. كنتُ أرغب أنْ أراها و هي مرتدية حلَّة النور، و أنْ نركب زوارق فلكية تبحر بنا في هذا الفلك المملوء بِ الضياء المنسكب في النهر السماوي. كنتُ أتمنى أنْ نتعمَّدَ في النهر الفلكي، لِ يربطنا بِ شكلٍ حميمي بِ المصدر الروحي الذي يغذينا و يديمنا... لكن، لِ الأسف، فَ ندى انصهرت في البوتقة الأرضية، و تعاظمت شروشها المغروسة في أعماق الأرض. كم أنا حزينٌ، يا خسرو، بِ شأنها، و كم أنا حزين على الحبِّ الذي ينطفئ، أو بِ الأحرى، الذي انطفأ فجأة، هكذا، بِ قرارٍ منها. هل كانت ندى مشروع أُمّ في غمرة ذلك الحبّ العاصف؟ هل كانت تراني الأب الذي سَ تنجب الأطفال منه في قادم الأيام؟ مهما يكن من أمر، فَ روحها مسكونة في شراييني، و نبضي يُزَيِّدُ إيقاع اسمها في قلبي، و عيونها تملأ الكون. و أنا لا أرى سوى عيونها في هذا الكون، لا بل في هذه المجرّة، و لا رائحة سوى رائحة أنفاسها الزكية تملأ المجرّة. إنّها الكون. إنَّها تحيط بي إحاطة السوار بِ المعصم. إنها الأثير الكلّي و الرحم المطلق، و أنا هو الجنين الذي ينزلق في رحمها.

أستأذنكَ يا صديقي السماوي، يا خسرو، فَ قدَري هو هذا الحبُّ الذي لا أطيق من دونه. قدَري أنْ أبقَ ملتصقا بِ حُبّي الأبدي و فراشتي الملوَّنة التي لا تفارق عيوني و روحي. إنها ندى، التي بدأتْ الكلام، و هي ندى التي أنْهَتِ الكلام!... يا لِ بؤسي و شقائي يا أيقونات العشقِ! أفسحوا لي في المكان، فَ أنا العاشق الذي التهمته حبيبته و صار وَشْما على خَدِّها. افسحوا لي في المكان كي أُحَدِّثكم عنها كلَّ ليلة حين نسهر مع القمر. ها أنا ذا قادمٌ. وداعا يا خسرو. قُلْ لِ إله الحروب أنْ يرمي رجومه بعيدا عن سياجنا الليلكية و حدودنا الوردية، و أنْ يُبْعِدَ الصخب عن أمسياتنا الرومانسية! وداعا!

انتهت في
2018/03/21